
سلسلة الأعمال المجهولة
سليم البستاني
ميشال جحا

سَليم البُستاني

سلسلة الاعمال المجهولة

سَليم البُستاني

ميُشال جحا

RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

56, Knightsbridge, London SW1X7NJ

THE UNKNOWN WORKS OF: SALIM AL-BUSTANI

Compiled and edited

by

MICHEL JEHA

First Published in Great Britain in 1989
Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd
56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ

'ritish Library Cataloguing in Publication Data

.l Bustani, Salim
The unknown works of: Salim Al Bustani
1. Lebanon. Social conditions
I. Title II. Jeha, Michel
956.92'044

ISBN 1 - 869844 - 50 - 5

إلى مكتبة يافث
في الجامعة الأميركية في بيروت
التي لولاها لما وضع هذا الكتاب.

محتويات الكتاب

كلمة تمهيدية

لماذا الكلام اليومَ على سليم البستاني ووالده المعلّم بطرس البستاني وعلى سواهما من روّاد النهضة؟

وما هو الهدف من تناول هذا الموضوع والخوض فيه من جديد، بعد ان مرّت اعوام عديدة على وفاتهما ووفاة رجالات النهضة الذين عاصروهما او سبقوهما بسنوات إلى الخروج من الدنيا؟

إننا نرى أن البحث في هذا الموضوع، والعودة إلى الكلام على رجالات النهضة، ضروري خاصة في يومنا هذا، وذلك لإظهار الأعمال التي قام بها هؤلاء الرّواد الذين كانت لهم رؤيا، وكانوا سابقين لعصرهم، ولتبيان المواقف التي وقفوها والجهود التي بذلوها في سبيل اصلاح المجتمع الذي عاشوا فيه، وإظهار دعوتهم إلى التحرر والوحدة والتآلف وإحياء اللغة العربية والحثّ على التعلّم والتطوّر ومواكبة العصر، والحضّ على تحرير المرأة وتعليمها ونشر المعرفة وتهذيب النشء والأخذ بركاب العلم، والتشبّه بالبلدان الراقية، وتمثّل الدول المتطوّرة، وإلاّ بقينا نعاني من الاستعمار والتبعيّة والتخلّف.

وكذلك يتوجب علينا ان نحيّي ذكرى هؤلاء الرجال العظام الأفذاذ، وأن نبيّن ما بذلوه من جهد وما قاموا به من عمل، وما نبّهوا إليه وما حذّروا منه.

والاهم من ذلك كلّه أن نتعظ بما فعلوه، ونأخذ العبر مما سعوا إليه ونستفيد مما حققوه. فقد أدركوا بحدسهم ان الوحدة خير للوطن، وأن لا خلاص لنا إلاّ بالوحدة، وان التحرّر هدف يستحق أن يموت الإنسان من أجله.

فقد كان نصيب بعضهم الشنق والبعض الآخر النفي والتشريد والاضطهاد، أو الهجرة وترك الوطن والأهل والخلاّن.

فقد ضحّوا بذلك كله في سبيل نهضة امتهم، واستقلال أوطانهم، وتقدّم شعوبهم، وتطور مجتمعهم.

لقد كان هولاء الرجال العظام فيما كتبوا وألّفوا وحقّقوا بمثابة مشاعل مُضيئة تُنير السبيل وتمهّد الدرب للأجيال التي جاءت بعدهم فكانهم منارات تُهدي التائهين، وصُوَىً تُرشد الضالّين، وحافزاً يحثّ المتلكئين.

وما أحوجنا اليومَ إلى ان نهتدي بهديهم ونضحّي في سبيل أوطاننا كما ضحّوا هم، ونعمل كما عملوا، وندعوا إلى الوحدة والإلفة وترك التعصب ونبذ التفرقة. ونسعى إلى رقي مجتمعنا، ونعمل لخير امتنا، ونتوحد لصدّ أعدائنا ونذود عن حياضنا وندافع عن كرامتنا وإلا سنبقى عالةً على الآخرين ومطمحاً للدول الامبريالية الطامعة بنفطنا وثرواتنا الهائلة، غافلين عن خطر الصهيونية الذي يهددنا شرّ تهديد.

وخاصة للتركيز على محبة الوطن وتنشئة الاجيال الطالعة على ذلك، فإن «حبُّ الوطن من الإيمان» هو الشعار الذي اتخذه البستاني لمجلته الرائدة «الجنان».

ولا بأس هنا من ان نشيرَ إلى ما يقوله جان دايه في مقدمة كتابه «المعلم بطرس البستاني، دراسة ووثائق»[1].:

«كُتب الكثير عن رواد النهضة. وكُتب الكثير الكثير عن المعلم بطرس البستاني. ومع ذلك فرواد النهضة، وفي طليعتهم المعلم بطرس البستاني، يستأهلون المزيد في كتابات أحفادهم عنهم. وربما يعود ذلك إلى سببين أساسيين:

أولاً: لأن الكتابة عن التراث، وعن رواد النهضة، هي فعل نهضوي مستقبلي، خاصة إذا كان التراث ورواد النهضة في زمن لصيق بزماننا، بل هو جزء منه لا يتجزّأ، كما هو حال عصر النهضة وعصرنا.

ثانياً ولأن كل الكتابات التي تناولت رواد النهضة قد اغفلت، بقصد او بحسن نيّة لا فرق، جوانب أساسية في أعمال وآراء الرواد، وبخاصة الجانب القوميّ. وهذا الإغفال، قد عطّل، إلى حد كبير، إمكان توظيف التراث وروّاده

---

(١) منشورات مجلة فكر، بيروت، طبعة أولى، آذار (مارس) ١٩٨١.

في معركة البعث القومي والاجتماعي...».

فهذه الأسباب مجتمعة، ولسواها نرى أن إحياء تراث هولاء الرواد ونشر ما لم يُنشر من كتاباتهم ومؤلفاتهم، وإبراز دورهم النهضوي، أمر يهم امتنا جمعاء، ويجعلنا نتمثّل اعمالهم ونهتدي بهديهم ونعمل مخلصين لخير اوطاننا ورفع شأن امتنا، وذلك لن يكون بالكلام الفارغ والأعمال الهامشية، بل بالجد والمثابرة والإقبال على العلم ومواكبة العصر، وبالوعي الاجتماعي وتحرير المراة العربية وإعطائها دورها في المجتمع، وبالتطور التكنولوجي الذي لا مناص لنا منه لكي نتبوأ مكانة مرموقة بين الأمم. فها إن ثقل التطور والتقدّم العلمي أخذ ينتقل من أوروبا واميركا إلى اليابان، وهي دولة آسيوية. فاليابان ـ وهي ليست اغنى منا بثرواتها الطبيعية وليس تاريخها اهم من تاريخنا ـ ستكون الدولة الأولى في القرن الواحد والعشرين. فماذا ينقصنا نحن العرب ـ وفي وسط أمتنا زرعت دولة اسرائيل المغتصبة ـ أن نُقدم على العلم ونلحق بركاب العصر؟ وإلى متى سنبقى متخاذلين نعيش على هامش الحياة؟ او نظل عالة على الآخرين؟.

القسم الاول

سليم البستاني

أصل أسرة البستاني وشهرتها

تُجمع المراجع على أن أصل آل البستاني في لبنان يرجع إلى أسرة كانت تُعنى بالزراعة، وكانت تملك بستاناً خصباً اكتسب شهرة في قرية «بقرقاشا» (في قضاء بشري من لبنان الشمالي). ويذهب عيسى اسكندر المعلوف في كتابه «دواني القطوف في تاريخ بني معلوف»(١) إلى أن أصل أسرة البستاني يعود إلى قرية «جبلة» بالقرب من اللاذقية انتقل جدها إلى «ضهر صفرا» في عكار ومنها إلى «بقرقاشا».

وفي حدود سنة ١٥٦٠، وبسبب الاضطرابات التي حصلت في شمال لبنان، رحل جَد هذه العائلة المعروف بأبي محفوظ مع ولده محفوظ وإخوته الثلاثة إلى دير القمر وكان ذلك على عهد الأمراء المعنيين. ثم انتقل بعض أفراد هذه العائلة إلى صَربا وجونيه وساحل كسروان وتفرعت منهم عائلات عدة.

وفي أوائل القرن الثامن عشر(٢) انتقل بعض أفراد هذه العائلة إلى «الدلهمية» في إقليم الخروب ثم إلى قرية تجاورها تسمى «الدبّية» حيث وُلد المعلم بطرس البستاني والد سليم، وحيث ولد سليم البستاني نفسه.

يقول ملحم ابراهيم البستاني في ديباجة كتابه هذا:

«والعائلة البستانية، هي التي شهد لها علماء العصر الجديد، بأنها العائلة الوحيدة التي نبغ منها عدد من رجال العلم والأدب، يندر نبوغ مثله في أمّة كبيرة من أمم الأرض.

كما شهدوا لها بأنها العائلة الوحيدة التي جاء النبوغ فيها متسلسلاً، وبدون انقطاع، منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى يومنا،

الأمر الذي لم يتفق بعد لعائلة من عائلات الشرق والغرب.

لقد أبرز علماؤها، منفردين، إلى حيز الوجود، مشاريع علمية جبّارة، كدائرة المعارف[٣] ومحيط المحيط[٤] والبستان[٥] والملحمة اليونانية (الإلياذة)[٦] والملحمة الهندية (المهابهارتا)[٧] ونحو ذلك من كتب مما قد يعجز الإتيان بمثله الشركات العلمية الكبيرة في بلاد الغرب.

وكانوا، ولا يزالون، منذ بدء النهضة الأدبية الحديثة (عصر الانبعاث) يؤلفون، ويصنفون، ويقومون على تربية النشء».

ثم يضيف قائلاً (ص ١٩٧):

«معلوم أن العائلة البستانية، مدينة بشهرتها، إلى أبنائها الذين خدموا العلم والأدب. فقد أذاعوا صيتها، ونشروا فضلها في الخافقين، بتشييدهم دعائم النهضة العلمية الحديثة، واستمرارهم على معاناة تربية النشء، ورفع مشعل الثقافة منذ أن بزغ فجر عصر الانبعاث حتى يومنا. بيد أن الفضل الأكبر، إنما يعود إلى أبنائها رجال الدين، فهم الذين أسسوا شهرة العائلة... فقد نبغ منهم رجال أشهرهم:

المطران عبدالله البستاني (١٧٨٠ - ١٨٦٦).

والمطران بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٩٩).

ثم ينقل (ص ٢١٠) عن مقال للصحافي ابراهيم النجار[٨] حيث يقول:

«اسم على مسمى، لقد صدق من اطلق على الأسرة البستانية الكريمة اسم البستاني. فلم اعرف في بساتين العلم والأدب في الشرق والغرب أسرة وبستاناً أذكى منها ثمراً، وأعطى زهراً، في خلال قرن كامل... وقد ندر أن يتصل النبوغ، ويتسلسل من الأب إلى الابن إلى الحفيد بهذه الصورة المتتابعة، وهذا الشكل المتصل، غير المنقطع».

ثم يعدد أسماء الذين نبغوا من البستانيين في شتّى المجالات، ويورد نبذة عن حياة كل واحد منهم.

وبعد، هذه هي عائلة «البستاني» التي أعطت العديد من رجالات الأدب والفكر والدين والدنيا الذين اسهموا إسهاماً بارزاً في النهضة التي بدأت في القرن التاسع عشر، والتي ينتمي إليها سليم البستاني موضوع كتابنا هذا.

المعلم بطرس البستاني (١٨١٩- ١٨٨٣)

لا شك في أن المعلم بطرس البستاني، والد سليم البستاني، الذي نترجم له، هو أشهر البساتنة. ونحن سنلمّ بسيرته وأعماله إلماماً سريعاً وموجزاً لأنه والد سليم أولاً، وهو الذي أسس له «الجنان» و«الجنينة» و «الجنّة» ثانياً، والذي درس عليه وأخذ عنه وتأثر به ثالثاً، وكان له الفضل في تنشئة ابنه وتوجيهه نحو الصحافة والأدب والترجمة والتأليف، وحتى أنه تخلّى له عن وظيفة ترجمان في القنصلية الأميركية في بيروت التي كان يشغلها حتى سنة ١٨٦٢.

ولد المعلم بطرس في «الدبيّة» في اقليم الخروب في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨١٩ ودرس فيها على يد الخوري ميخائيل البستاني اللغتين العربية والسريانية.

سنة ١٨٣٠ ذهب إلى مدرسة عين ورقة الشهيرة، حيث بقي عشر سنوات يدرس ويدرّس حتى سنة ١٨٤٠ حين عاد إلى بيروت، وقد اتقن الانكليزية والعبرية واليونانية، واتصل بالإنكليز وعمل ترجماناً عندهم ثم بالمرسلين الأميركان البروتستانت فاعتنق مذهبهم (وهو كان مارونياً) وعمل عندهم في تعليم اللغة العربية في مدرسة عبيه، وفي تأليف وترجمة كتب التدريس، كما عاون الدكتور عالي سميث (Eli Smith) (١٨٠١ ـ ١٨٥٧) والدكتور كورناليوث ڤان ديك (Cornelius van Dyck) (١٨١٨ ـ ١٨٩٥) في ترجمة الكتاب المقدّس إلى العربية.

سنة ١٨٤٨ ترك التعليم في مدرسة عبيه وعاد إلى بيروت حيث تولى وظيفة مترجم في القنصلية الأميركية حتى ١٨٦٢ حين تنازل عنها لابنه البكر سليم. وفي تلك الفترة من الزمن تعددت نشاطاته في الجمعيات الدينية والخيرية والتبشيرية وفي التعليم والتأليف والترجمة وإلقاء الخطب والمواعظ والمحاضرات الأدبية والاجتماعية والدعوة إلى تعليم المرأة وتحريرها.

وفي سنة ١٨٦٠ حصلت الأحداث الدامية في جبل الشوف بين الموارنة والدروز فأصدر نشرة دورية سماها «نفير سورية»(٩) ما بين

٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٠ و ٢٢ نيسان (أبريل) ١٨٦١. مؤلفة من صفحة واحدة كان يوجّه فيها ارشاداته وآراءه محذّراً من الخلافات الطائفية ويحثّ على وحدة الوطن والإلفة بين الطوائف والعمل للصالح العام وحب الوطن.

في سنة ١٨٦٣ أسس المدرسة الوطنية في بيروت التي فتحت أبوابها أمام الطلاب من جميع المذاهب والطوائف والأجناس جاعلاً منها بوتقة لصهر أبناء الوطن.

وفي سنة ١٨٦٩ ـ ١٨٧٠ أصدر قاموسه الشهير «محيط المحيط» في جزءين و «قطر المحيط» وهو اختصار للأول. وفي أول سنة ١٨٧٠ أنشأ مجلة أدبية تدعى «الجنان»، وهي مجلة نصف شهرية، تولى الاشراف عليها ابنه سليم البستاني، ثم صحيفة «الجنّة» وهي صحيفة سياسية تجارية أدبية صدرت في حزيران (يونيو) ١٨٧٠ مرّة في الأسبوع، ثم مرّتين في الأسبوع. فـ «الجنينة» وهي جريدة يومية صدرت عام ١٨٧١ أربع مرات في الأسبوع.

وفي سنة ١٨٧٥ أخذ يصدر دائرة المعارف فظهر منها ستة أجزاء قبل وفاته ثم أكمل أولاده، وخاصة ابنه سليم الذي توفي بعده بسنة، العمل عليها حين توقف سنة ١٩٠٠ عند الجزء الحادي عشر عند كلمة «عثمانية» فكان أول من وضع موسوعة باللغة العربيّة.

هذا، عدا عن العديد من كتب التدريس التي ألّفها والكتب التي ترجمها وحققها ومنها ما لا يزال مخطوطاً.

لقد كتب سيرة المعلم بطرس البستاني العديد من الأدباء والكتّاب. سوف نستشهد بمقاطع مما ورد في أهمها للدلالة على مكانته وأهميته. فقد ورد في مجلة «الهلال»(١٠) عنه ما يلي:

«كان رجلاً فذاً متعدد النشاطات. فقد ألّف الكتب وأنشأ المدارس والجرائد، فهو أول من أنشأ مجلة علمية وجريدة سياسية ومدرسة وطنية، وأول من أقدم على المشروعات الأدبية بعزم ثابت فألف الكتب وسهّل طبعها ونشرها. وأشهر مؤلفاته دائرة المعارف ومحيط المحيط وقطر المحيط وكشف الحجاب ومسك الدفاتر ومصباح المصباح في

الصرف والنحو، وكتب أخرى ورسائل عديدة للتثقيف والتهذيب فضلاً عن ترجمة الكتب الدينية والأدبية. وأنشأ ثلاث جرائد (الجنان) و (الجنة) و (الجنينة). ومن مشروعاته المدرسة الوطنية. وكان كثير الحث على تعليم النساء، وهو أول من خطب في هذا الموضوع في الشرق».

ثم تتناول «الهلال» صفاته وأخلاقه فتقول:

«كان قويّ العزيمة، فإنه عمل أعمالاً يقصّر على القيام بها عدة من الرجال الأقوياء فكان يؤلّف ويعلّم ويترجم ويدير أعماله ويكاتب عمّاله وأصدقاءه ويضبط حساباته ويدير مدرسته علماً وعملاً... محب لوطنه، بعيد عن التعصب، دمث الأخلاق، كاره للتملق صادق محترم. وعند وفاته تسابق الشعراء والأدباء إلى رثائه والبكاء على فراقه لأنه قد أنفق عمره في خدمة وطنه وأمته».

ومما يذكره صموئيل صميلز[١١] عنه:

«... أما أهل هذا العصر فقد حذا بعضهم حذو الافرنج في الهمّة والإقدام ولا سيما في بلاد الشام. والفضل الأول في ذلك لبعض المرسلين الأميركيين الذين نزلوا الديار الشاميّة وبهم همة تنال الثريّا وعزم لا تردعه المصاعب فتألب حولهم بعض السوريين وتعلموا منهم الحزم والإقدام فعمّ نفعهم بلاد المشرق...

وطرفاً من سيرة مقدام السوريين واعلاهم همة الطائر إلصيت في الآفاق المرحوم بطرس البستاني».

ثم يذكر نبذة عن حياته (ص ٢١٣ ـ ٢١٥).

وكذلك يقول عنه جرجي زيدان (١٨٦١ ـ ١٩١٤)[١٢]: «إنه اول من خطب في موضوع تعليم المرأة».

أما مجلة المقتطف فقد تناولته في أكثر من مناسبة، وخاصة سنة وفاته[١٣]. وأيضاً في كتاب «أعلام المقتطف»[١٤] حيث يرد (ص ١٢١) ما يلي:

«هذا، وإننا لا نغالي فيما إذا قلنا إنه أبدى من العزيمة الماضية والهمة السامية في تأليف الكتاب (دائرة المعارف) وطبعه ما لا يتوقع

من رجل واحد ولا سيما في ديار الشرق ولكنه ألفى هو وولده الفاضل سليم أفندي من مواطنيه وكل أهل المطالعة والأدب عموماً ومن الحكومة المصرية خصوصاً يداً ندية». إلى أن يقول عنه (ص ١٢٣):

«ومن خلاله الحميدة وخصاله المشكورة ترفّعه عن التعصب وأباؤه الانقياد إلى هوى النفس إذ لم يكن متعصباً إلا للوطن ولا منقاداً إلا للمبادىء الوطنية».

وكذلك يقول فيه الأستاذ فؤاد افرام البستاني(١٥):

«إنه أول من أسس مدرسة وطنية عالية، أول من ألّف قاموساً عربياً عصرياً مطولاً، أول من أنشأ مجلة راقية، أول من ابتدأ بمشروع دائرة معارف باللغة العربية، أول من نادى بتعليم النساء في الشرق.

هو المعلم بطرس البستاني، ركن النهضة الأدبية الثابت، ومحور الحركة الوطنية في عصره، من صرف حياته كلها في سبيل العلم والوطن، وترك الآثار العديدة من أدبية واجتماعية، وأحدث التأثير البليغ في أبناء قومه خاصة، وفي الأدب العربيّ عامة».

أما مارون عبود فيقول فيه(١٦):

«يقول المثل: عاشر القوم أربعين (يوم) فإما أن تصير منهم أو ترحل عنهم. وأستاذ الجميع المعلم بطرس البستاني عاشر العلماء الأميركان زمناً فصار منهم. وحسب النهضة من هذا المصير أنها غنمت ما غنمت من تآليف علمية ولغوية، ومدرسة وطنية، ومجلات ثقافية، ودائرة معارف، إن لم تكن كالدائرة الإنكليزية فحسبها أنها أول موسوعة عربية، ومحيط المحيط الذي يضم تعريفات حديثة لم تكن في المعاجم القديمة».

ونختم مكتفين بما يورده جان داية حيث يقول(١٧):

«ليس أكثر من المعلم بطرس البستاني من يستحق لقب الريادة بين جميع رواد النهضة بلا استثناء. فهو أول من دافع عن حرية المعتقد، وأول من أسس مدرسة وطنية، وأول من أصدر جريدة ملتزمة.

وبطرس البستاني أيضاً أول من أصدر مجلة فكرية جامعة. وأول من أصدر دائرة معارف عربية، وأول المؤسسين لجمعية ثقافية ــ

سياسية مرتكزة على دستور يضبط أعضاءها ومكتبتها.

ولكن قيمة ريادة المعلم بطرس البستاني ليست في أنه كان السبّاق في اصدار الكتب والجرائد والمجلات وفي تأسيس المدارس والجمعيات ذات المنحى الوطني العلماني، بل تعاليمه في اللغة والسياسة والاجتماع والوطنية التي كتب فيها وسعى إلى تطبيقها، وغدت المعين الذي ينهل منه سائر رواد النهضة. أوليس مبدأ فصل الدين عن الدولة الذي أطلقه المعلم بطرس خصوصاً في «نفير سورية» و «المدرسة الوطنية» هو المبدأ الذي حمل لواءه كل الرواد وفي طليعتهم شبلي الشميّل وعبدالرحمن الكواكبي وجبران خليل جبران؟».

وفاته

في مساء أول أيار (مايو) سنة ١٨٨٣ بينما كان بطرس البستاني بين الكتب يعمل كعادته فاجأته نوبة قلبية لم تمهله إلا قليلاً فمات «شهيد العلم».

وكان أول نابغة شرقي تقام له حفلة تكريمية، أقيمت بمناسبة مرور مئة سنة على ولادته، في ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٩ في بيروت في مدرسة الكلية الأميركية شارك فيها كما تقول «لسان الحال»[١٨] ٦٥ خطيباً بين عالم وكاتب وشاعر وصحفي ومحامٍ وطبيب وتسع من السيدات الأديبات منهم الشاعر خليل مطران الذي قال فيه[١٩]:

إن تُكرموه تُكرموا أوطانكم
في امجدِ البانينَ للأوطانِ
في خيرِ مَنْ رفعَ الضّلالة بالهدى
عن قومه والجهلَ بالعِرفانِ
ربَّى وعَلَّم مُنشئاً ومُدرِّساً
ومُهيِّئاً ومؤسساً في آنِ
فإذا البلاد بمُزهراتِ علومها
وبمثمراتِ حُلومِها كجِنانِ

حسبُ المفاخِرِ ان يقول شهيدُها
هذي الغِراسُ «لبطرسَ البستاني»

أما الشيخ خليل اليازجي فقد رثاه بقوله:

خدمَ البلادَ وليس اشرف عنده
مِن ان يُسمّى خادماً لبلاده

وبعد، يتضح مما ذكرنا الأثر الكبير الذي تركه المعلم بطرس البستاني في أمته وبين أبناء شعبه وفي أفراد عائلته وخاصة في ابنه البكر سليم. كان نابهاً وسبّاقاً لأهل زمانه وعصره لإدراك العديد من الأشياء والأمور الجديدة، والأخذ بأفكار لم يسبقه أحد إليها من أبناء وطنه. كان يطالب بإصلاح المجتمع وبتعليم المرأة وبتطور اللغة العربية.

فهو مؤسس أول مدرسة وطنية، ومؤسس الجمعيات الأدبية والعلمية والاجتماعية كما ألّف العديد من الكتب المدرسية وترجم بعضها وحقق البعض الآخر. وهو بمساعدة ابنه سليم البستاني واضع أول موسوعة بالعربية ومُصدر أول مجلة أدبية راقية...

وإلى ذلك كله فقد عمل طيلة حياته على نشر العلم والمعرفة بين الناس وسعى جهده إلى بث روح التحرر والتقدم بين أبناء وطنه وأمته.

هوامش

(١) بعبدا، سنة ١٩٠٧ (ص ٣٤٠).
(٢) يرى ملحم البستاني في كتابه «كوثر النفوس وسفر الخالدين» مطابع المرسلين اللبنانيين ـ جونيه ١٩٥٤ (ص ١٧٤) أن ذلك حصل سنة ١٥٩٢ كما ورد في صك تملّك العائلة لأملاك الدبيّة
(٣) موسوعة وضعها المعلم بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) صدر منها ١١ جزءاً.
(٤) قاموس مطوّل للغة العربية في جزءين وضعه المعلم بطرس البستاني صدر سنة ١٨٧٠.
(٥) معجم لغوي في جزءين وضعه عبدالله البستاني (١٨٥٤ ـ ١٩٣٠) صدر سنة (١٩٢٧ ـ ١٩٣٠).
(٦) ترجمها شعراً إلى العربية سليمان البستاني (١٨٥٦ ـ ١٩٢٥) مع مقدمة هامة (مصر ١٩٠٤).
(٧) عرّبها وديع البستاني (١٨٨٦ ـ١٩٥٤)، بيروت دار الأحد ١٩٥٢.
(٨) مجلة الورود تحت عنوان: «الأسرة البستانية».
(٩) صدر منها ١١ نفيراً وهناك من أوصلها إلى ١٣ نفيراً، كما يذكر طرازي مثلاً.
(١٠) المجلد ٤ (١٨٩٦) (ص ٣٦١ ـ ٣٦٨).
(١١) في كتابه «سر النجاح». مطبعة المقتطف في القاهرة ط ٢ سنة ١٨٨٦. ترجمة يعقوب صروف (ص ٢١٣). في الطبعة الرابعة (١٩٢٢) (ص ٢٠٤).
(١٢) تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر. الطبعة الأولى القاهرة ١٩٠٢ وطبعة ٣، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت (لا. ت.) ج ٢ (ص ٤٠).
(١٣) راجع مجلة المقتطف ٨ (١٨٨٣) ١.
(١٤) القاهرة، مطبعة المقتطف والمقطّم سنة ١٩٢٧.
(١٥) الروائع عدد ٢٢، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٢٩.
(١٦) رواد النهضة الحديثة، دار الثقافة بيروت (لا. ت.) (ص ٢٠٤ ـ ٢٠٩).
(١٧) المعلم بطرس البستاني، دراسة ووثائق، منشورات مجلة فكر، بيروت ١٩٨١ (ص ١٩).
(١٨) العدد ٧٩٥٤ تاريخ ١٩١٩/١٢/٢٧.
(١٩) ديوان الخليل، دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان، الجزء الرابع (ص ٩٩).

سليم البستاني (١٨٤٦ ـ ١٨٨٤)

هو ابن المعلم بطرس البستاني كما ذكرنا. والدته راحيل عطا التي كانت أول فتاة التحقت بمدرسة البنات التابعة للارسالية السورية (Syrian Mission) في بيروت، والتي كانت زوجة الدكتور عالي سميث سارة، قد أسستها كأول مدرسة لتعليم البنات في بيروت (في مكان يعرف اليوم بطلعة الأميركان قريب من ساحة رياض الصلح)[١]. تزوجها المعلم بطرس سنة ١٨٤٤. وكان لها التأثير الكبير على زوجها وابنها سليم.

ولد سليم، وهو بكر أولاد المعلم بطرس، في عبيه في ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٤٦، وليس كما تورد لسان الحال[٢] على أنه ولد سنة ١٨٤٧ أو ١٨٤٨ كما يذكر الفيكونت فيليب دي طرّازي[٣]، والدكتور عبداللطيف حمزة[٤]، ويوسف أسعد داغر في «مصادر الدراسة الأدبية» الجزء الثاني (ص ١٨٦ ـ ١٨٨).

تعلم سليم في مدرسة والده ثم درس العربية على الشيخ ناصيف اليازجي والانكليزية في مدرسة مسيز وطسن في بيروت والفرنسية على الشيخ خطار الدحداح وإلى ذلك أتقن اللغة التركية.

وفي سنة ١٨٦٢، وكان له ١٧ سنة من العمر، حلّ محل والده في تولي أعمال الترجمة في قنصلية الولايات المتحدة الأميركية في بيروت[٥]. وفي سنة ١٨٦٣ حين أسس والده المدرسة الوطنية الشهيرة في بيروت تولى نيابة رئاستها إلى جانب تدريس التاريخ والطبيعيات واللغة الانكليزية.

ظل سليم البستاني يعمل مترجماً في القنصلية الأميركية حتى سنة ١٨٧١ حين اعتزل ليتفرغ للعمل في ادارة مجلة «الجنان»، التي ظهرت في أول سنة ١٨٧٠، وصحيفة «الجنة» التي أسسها بمعاونة والده في ١١ حزيران (يونيو) ١٨٧٠، وجريدة «الجنينة» التي أسسّاها سنة ١٨٧١ وتولى رئاسة تحريرها.

وإلى توليه الاشراف على هذه النشرات والدوريات الثلاث:

«الجنان» و «الجنة» و «الجنينة»، قام سليم البستاني بمساعدة والده في نشر دائرة المعارف التي بدأ في العمل عليها سنة ١٨٧٥ وحتى وفاة الوالد سنة ١٨٨٣. ومن ثم تابع العمل عليها بمؤازرة أشقائه حتى وفاته في سنة ١٨٨٤.

كان المعلم سليم البستاني، كوالده المعلم بطرس البستاني، واسع الاطلاع منفتحاً واسع الأفق، يجيد عدة لغات، كما كان يجيد الترجمة.

قال عنه طرازي(٦):

«كان أعظم ترجمان للتمدن الغربي في ديار الشرق. وكان موصوفاً بدماثة الأخلاق وحدّة الذكاء جامعاً بين علو الهمة وشهامة النفس وسلامة السريرة. وكان حريصاً على ولاء الأصدقاء لا ينقض وعداً ولا يحلّ عهداً» إلى أن يقول:

«وكان ضليعاً باللغات العربية والتركية والإنكليزية والفرنسية فكان يكتب فيها ويترجم منها واليها بسهولة وبلاغة. وباشر تأليف معجم تركي على نسق كتاب «دائرة المعارف» وقصد أن يسافر للآستانة ليقدمه للحضرة السلطانية، إلا أن الوفاة عاجلته قبل إبراز هذا العمل إلى دائرة الوجود.

وكان شاعراً مطبوعاً نظم الكثير من القصائد المتفرقة التي نؤمل أن يقوم من يجمعها في ديوان خاص قبل أن تلعب بها أيدي الضياع».

وفاته

توفي سليم البستاني كوالده فجأة بالنوبة القلبية في قرية «بوارج» في محافظة البقاع في منزل أيوب ثابت والد زوجته حنة، وهو في ريعان شبابه، في التاسع عشر من شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٨٤ وله من العمر ٣٨ سنة. فكان لنبأ وفاته وقع الحزن والأسى، كما كان لنبأ وفاة والده قبله بعام واحد. كان سليم البستاني يكتب افتتاحيات أو المقالات التوجيهية لمجلة «الجنان» كما كان ينشر فيها الروايات المتسلسلة التي كان يؤلفها خصيصاً لها أو يترجمها عن الفرنسية.

وكانت سياسة مجلة «الجنان» ذات علاقة وديّة مع السلطنة

العثمانية ولم يكن يقف منها موقف المناوىء لسياستها وهو كان على صلة وثيقة مع ولاة سورية أمثال راشد باشا (١٨٦٦ ـ ١٨٧١) ومدحت باشا (١٨٧٨ ـ ١٨٨٠) وحمدي باشا (١٨٨٠ ـ ١٨٨٤).

كما أن متصرف لبنان فرانقو باشا، قد أصدر مرسوماً بتاريخ ٥ أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٧٠[٧] موجهاً إلى مدير المجلة جاء فيه ما يلي:

«إلى مدير الجنان والجنة رفعتلو بطرس أفندي البستاني

رفعتلو أفندي

إن جرنالي الجنان والجنة اللذين ابتدأتم بنشرهما بالسنة الماضية المبنيين على أساسات الصدق والاستقامة ونشر المعارف والأخبار المفيدة المطابقين إرادة وليّ نعمتنا الدولة العليّة والموافقين انتشار المعارف والتمدن في الممالك المحروسة، وإن يكن مشتركاً بهما جانب من أهالي لبنان والموظفين، إلا أننا نريد اتحاف تلامذة المدرسة الرشدية العثمانية بهما لكي بتلاوتهما يكتسبوا البلاغة وحسن النسق وبراعة الإنشاء ويجتهدوا على اكتساب العلوم والتهذيب اللذين من شرطهما حب الدولة العلية الأبدية الدوام، وسريان التنوير للعام وإلغاء الامتيازات فلقد رتبنا لجنابكم ثمن خمس نسخ من الجنان وخمساً من الجنة من ابتداء تشرين أول (أكتوبر) سنة ٧٠ والثمن عن المدة الباقية من سنة الجنان والسنة القادمة. أرسلوا به سنداً لايصاله لجنابكم على يد المالية، ولأجل إعلان المحظوظية والممنونية من شخصكم وولدكم وجرنالاتكم ومدرستكم وسائر أعمالكم العائدة لنجاح الأهالي صار ترقيم هذه الشقة من متصرفية جبل لبنان في ٧ رجب سنة ٢٨٧ هـ ١٩ أيلول (سبتمبر) سنة ٢٨٦ نصرالله فرانقو».

كان يهمه أن يوظف مجلته في خدمة المجتمع وأن يقف إلى جانب الحق، كما كان يؤمن بالتطور التدريجي، وليس بالثورة الدموية أو بالعنف.

يلخص شقيقه نجيب البستاني، الذي تولى رئاسة تحرير مجلة «الجنان» على اثر وفاة سليم، هدف المجلة بقوله:

«إنها نشأت على ولاء الدولة العلية وخدمة الوطن»[٨].

وكان يبتعد عن المهاترات والخصومات، ويكره الهجاء أو الإساءة إلى الناس. وهو يذكر في مجلته[٩] أنه زار في أحد الأيام من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٠ الشيخ ناصيف اليازجي وسأله عن عدد القصائد الهجائية التي نظمها قال: ولا قصيدة. فسأله: أما هجوت أحداً؟ قال: لم أهجُ قط إلا رجلاً بخيلاً قلت فيه بيتين وهما:

قد قال قومٌ إن خبزَكَ حامضٌ
والبعضُ أبدى بالحلاوة حُكْمَهُ
كذبَ الجميعُ بزعمهم في طعمه
من ذاقه يوماً ليعرفَ طعْمَهُ؟

قلت: أما لك غيرهما؟ قال: لي بيت آخر صُرِّح فيه باسم المهجو ولذلك لا أريد اشهاره.

ثم يعلق سليم البستاني على ذلك قائلاً: «فاستغربت ذلك وقلت إن الشاعر قد يكتسب شهرة لا مزيد عليها وإن لم يكن هجّاءً».

يلخص لنا الدكتور يوسف قزما خوري سياسة سليم البستاني في مجلة «الجنان» فيقول:

«ومهما يكن من أمر فإن سليم البستاني كان يسلّم بحرية التعبير عن الرأي وتباين الأفكار دون إثارة الضغائن والأحقاد بين المتناظرين لأن حفظ الود، على حد تعبيره، مع تباين الأفكار والآراء والصوالح، أو بالحري إبداء الأفكار المتباينة دون نفور ومخاصمة، هو من الأمور التي اعتبرها جداً لأنها تظهر أن من يفعلها مسلّم بأن لمن يكلمه حقاً أن يبدي أفكاره، وله الاختيار بقبول ما يستحسن ورفض ما يستقبح».

ويستشهد بقوله: «فالإقناع هو القوة التي لها فعل في الإنسان العاقل أشد من فعل السيف».

ولا بأس أن نختم الكلام على سليم البستاني بذكر ما أوردته جريدة «لسان الحال»[١١] على اثر وفاته حيث جاء تحت عنوان: «فاجعة سليم».

«واحر قلباه: رزئنا سليماً. وا اسفاه. وأُصبنا بكوكب الفضل والهفاه.

فلستُ بمالكٍ عبراتِ عينٍ
أبَتْ بدموعِهاَ الا انهمارا

وجزعت عليك يا شقيق الفؤاد. ومن يجزع عليك فلا يلام. على أني عهدت فيك شيمة الذمام، ولم يدر في خلدي أن تفاجئنا بهذا الصدّ والإعراض، ولا كان بحسباني وحسبان سائر آلك وأوليائك أن تقاطعنا إلى سفرٍ بعيد. وشأنك أن تبقى على مودة من آخاك وولاء من والاك تقيل عثرات دهرهم، وتقيم على نجدتهم في بُهمات أمرهم وتكون وفياً صفياً. وامصيبتاه فيك ويا لوعتاه على تباعدك وتنائيك.

رحلتَ لسبيلك وأقمنا على النوح والتعداد وعمّت مناعيك البلاد. فقامت مآتمك وغشّت أندية الأدب ملابس الحداد. يذكرون مع نضارة شبابك نضارة آدابك ومع طيب أخلاقك وفرة خلاقك. ويبكون شمائلك ومشتملات صدرك ويروون الثرى من مدامعهم المذروفة على قبرك وما أطيب الثرى الذي يضم وجهك الصبوح يا عزيز الروح.

تعجلت الرحيل والآمال بغرة شبابك معقودة. وظهور المتادبين بمضاء عزائمك مشدودة. ومواطنوك يرجون منك نفعاً كبيراً وحسبهم موضعاً للرجاء همة قرنت إلى حكمة وعظيم اجتهاد إلى عظيم اطلاع وامداد وأغراض إلى مطالب العلى متوجهة ومشروعات جسام القاها على ساعدك خطب أبيك، فوقفت عليها نفسك، وأنهكت الزمن وما أنهكك. وأحييت الليل وما أنعسك، وأخرجت لقومك كنوز أقلامك، وواعدتهم فوق ذلك كثيراً وعد البرّ الصادق. واطلقت يراعك فانفسحت الرحاب بين يديه. وفيما كنت من أمرك على ربوة الانجاز وحد الاعجاز أعجلك الموت عن حاجتك. فأظلمتْ سبل الآداب من بعدك. واهتزت بلاد الضاد، يا أصدق خدمها لفقدك.

عظم الله أجرنا وعزز صبرنا.

وعهدي بصبري في الخطوب يُطيعني
فمالي أراه اليوم اظهر عصياني

ولا نحدث القراء بأمر خفي عليهم، ولا نعالنهم بشيء كتم عنهم، فقد شاعت الرزيئة التي حلّت والفجيعة التي نزلت إذ اخترمت المنية

الفاضل الأروع واللوذعي الأكتب المغفور له سليم البستاني. اغتالته في بوارج مصيف حميّه ممتلئاً قوة متدفقة سناءً لا تناله من قبل المصاب الفاجىء علّة ولا يمسه داءٌ، وإنما كانت بوارج خاتمة مطاف في أعالي لبنان وما وراء لبنان، ترويحاً للنفس الأبيّة الزكية من جهد الأشغال، وتنزيهاً للخاطر الوقّاد من معاناة مشاق التصنيف والتأليف اتباعاً لرأي الأطباء وإجابة لرغائب الأحباء، الذين كان يعز عليه مخالفتهم، وإن عزّ عليه من الجانب الآخر التخلّي عن العمل ولو إلى أجل مضروب. وكان قد استفاد من هذه الرحلة اللبنانية وشرح الصدر وطيّب الخاطر والنفس، وزار إنجازاً للوعد عديدين من الكبراء في مصائفهم على اختلاف منازلهم ومحالهم، فاحتفوا به احتفاءً عظيماً وسروا بلقياه ورجوا له هناءً هنياً وعيشاً وارف الظلال. فلم يحقق المقدور مأمولاً. وفي منتصف هذا الشهر قدم، كما نوهنا، بوارج من قرى البقاع على القصد المكث خمسة من الأيام فأصيب في ثالثها بالداء العياء الذي خطفه وأذهب نور محيّاه، وكسفه واثار في الناس الاحزان والأشجان. ولما كان أصدقاء الفقيد ومعاملوه في كل قطر ومصر يعنون بالوقوف على ماهية دائه، نورد الكتاب الذي جاءنا من جناب صديقنا البارع الدكتور أمين أفندي أبي خاطر من أطباء زحلة، الا وهو أحد الطبيبين اللذين استقدما لمداواته قال بتاريخ تاسع عشر الشهر، إذا كلف القلم وصف الفاجعة الجسيمة التي نزلت بالوطن من جري ممات الطائر الصيت والطيب الذكر المغفور له سليم أفندي البستاني، حبسته العبرات وأمسكته الزفرات وتولاه العي وعجز عن الايضاح فيا لمصاب لا أشد منه، ويا لخسران لا يماثله عوض. فاسأل الله لكم ولسائر انسبائه وأقربائه صبراً جميلاً. قال، أما كيفية موته فهي كما يلي:

استقدمت إليه من زحلة فوفدت عليه الساعة الثالثة بعد منتصف ليل الثامن عشر من الشهر الحاضر. وكان في قرية بوارش (كذا) فوجدته على وشك الاختناق من شدّة الآلام القلبية أعني اعتقال القلب أو نغرالجيا القلب. وكان قد تقدمني في معالجته الأديب ميخائيل أفندي مسلّم.

ثم استعملنا العلاجات لإسكان نوب القلب فسكنت عند الساعة السادسة (صباحية) ونام نحواً من ثلث ساعات، وقد حصل على حظ من الراحة، وانطلق نفسه من معقله وصفا وجهه، وعند الظهر تمت له الراحة وزايله ألم المرض وأقبل على الحضور يكلمهم بما اشتهر عنه من الرقة واللطف، وصرّح لنا بحصوله على الانبساط وأزمع على العودة في الغد إلى بيروت. فابتهج آله في ذلك وحمدوا الله حمداً كثيراً. على أنه بينما كان يحادثنا وإذا نوبة فاجئة صادعة عاودته بعد الظهر بنصف ساعة فذهبت بحياته في أقل من دقيقتين تاركاً في أفئدتنا أوجع الضربات وأفجع الويلات. انتهى.

فقد علمنا إذن أن الداء كان عياءً عضالاً. وبعد نزول الخطب ورد النعي بالتلغراف إلى باقي آله في بيروت. فتوجهوا إلى مكان الفقيد، وأتوا بجثته إلى هنا مكرّمة مجلّلة بالقطائف والنمارق. وفي هذا المقام موضع للثناء على حضرة سعادتلو محمود بك اليوسف قائمقام البقاع لأنه خفّ إلى إرسال جمهور وافر إلى بوارج يحمل الجثة إلى هذه المدينة. ولكن الآل تعجلوا نقلها مخافة أن يلم بها فساد لا يصح معه قيام المأتم والمنامة عليها في دار الفقيد فوصلت بيروت بعد ظهر الجمعة تحف بها عجلات الملاقين. وكانت مناعيه التي انبثت في أرجاء المدينة أحدثت في النفوس على ما تقدم لنا آنفاً انزعاجاً وانصداعاً شديداً حتى صار خطبه أحدوثة كل إنسان بكل لسان، ووقع الأمر عليهم ثقيلاً لا يطاق. وقد عينت الساعة التاسعة عربية لدفنه. وفي الوقت المعين توافدت خيار الناس وكبراؤهم وتراجم وكلاء الدول، وأعدت كل تدابير الإكرام والإعزاز والاحتفال. ثم احتشد الخلق عدداً لا يناله الناظر فمشوا في النعش وقد عقل الحزن الألسنة وملأ الدمع المقل على فقد من يصح فيه قول الراثي:

أفنيت عمرك في عُلىً ومآثر
وافادةٍ للعلمِ أو تصنيفِ
وسبحتَ في بحرِ العلوم مكابداً
امواجه والناسُ دون سيوفِ

يـا شمسُ مالكِ تـطلعينَ ألم تَرِي
شمسَ المعـارفِ غُيبـت بكسـوفِ
عمَّ المصـابُ بـه الطوائفَ كلهـا
لمـا ألمّ وخصَّ كـلَّ ضـعـيـفِ

ولما انتهوا بالجثة إلى البيعة صلوا عليها، ووقفَ بعض خدم الدين مؤبِّناً معظماً الخطبَ ملمعاً إلى شأن الفقيد مرحماً عليه كثيراً معدداً حسناته جزيلاً معزّياً الوطن فيه، وبعد ذلك خرجوا بالنعش وساروا في خطوط من الخلف تبتدىء عند باب البيعة وتنتهي عند رحبة البرج، وفي صدرها خفراء الحكومة السنية وخفراء قناصل الدول الأجنبية، وعجلة الميت مغشاة بأثواب سوداء والنعش يتلألأ كأنما يرسل منه نور البدر الذي فيه، حتى وصلوا إلى المقبرة فلحدوا العزيز الكريم والقلوب معه ملحودة، والحفلة جليلة مشهودة. وقد حامت على القبر المناحات، وانعقد عليه بخار الزفرات وأنفاس النفوس المشتعلات أسىً وأسفاً. ثم ارتفع صوت المؤبن على مرتفع في جانب القبر، فانصرفت إليه أنظار الحشد فإذا هو جناب الأريحيّ المتفنن رصيفنا فارس أفندي نمر أحد محرري المقتطف، وقد ابّنَ الميت بكلام جزل بالغ في البلاغة. فأعظم الرزيئة وأكبر المصاب وعدّد محامد فقيدنا وأتى على ذكر آثاره الجليلة. ورقّ في التأبين حتى صدع الكبود. ثم تلاه جناب الأديب الياس أفندي طراد فألمع إلى فضل المغفور له. وخصص صنعه نحوه (وقد كان من عداد تلاميذه في المدرسة الوطنية) وأطلق اللسان في البيان على محامده وصنائعه وسمو مداركه واتساع علمه في السياسة واللغة والأدب، ونبالة الغرض والأرب وصحة الوطنية. ثم عقبه خاطباً مؤبِّناً جناب الأريب سامي أفندي قصيري، فأرسل على الجمع تأبيناً ناجعاً صحيح العاطفة والشعور. سلك فيه إلى الرثاء والعزاء خير مسلك وجدّ في تبيين فضائل المعقود وفواضله ومعارفه وعوارفه وسياسته ونباهته. وقد عقد الخطباء المؤبِّنون رجاءً وثيقاً وأملاً كبيراً بجناب شقيقه الألمعي نجيب أفندي وباقي أخوة المغفور له وذوي قرباه أن يقدموا على اتمام مشروعات المرحومين غفر الله لهما ورضي عنهما. ولو أذن الوقت وانفسحت

الفرصة لتدفقت خطب المؤبِّنين ولكن الشمس كانت قد أذنت بالغروب فانصرف الجمع كسير الفؤاد كسيف البال. وتوالت تلغرافات العزاء وكتبه على عائلة الفقيد من أنحاء كثيرة ناطقة بمكانة هذا البيت وبأمل المعزين في الخلف الباقي.

ثم يتابع ذاكراً سيرة الفقيد فيقول:

(كلام على ترجمة حاله رحمة الله عليه).

ولد في «عبيه» من أعمال لبنان عام ١٨٤٧ بكراً لأبويه. وعندما بلغ مبلغ الادراك والرشد قام المغفور له والده على تعليمه وتهذيبه، واختار له فطاحل الأساتذة في لغتنا واللغات الأجنبية. فقرأ العربية على الطيب الذكر العلّامة الشهير الشيخ ناصيف اليازجي حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من العمر أدخله والده قنصلية الولايات المتحدة الأميركية ليقوم على خطته فيها بدلاً منه لانصراف همه يومئذٍ إلى إنشاء المدرسة الوطنية. فنبغ في الفن السياسي والاقتصادي والإداري، وقد دار على يده جل أعمال القنصلية فأعجب به رئيسه غاية الإعجاب وحارت بألمعيته الألباب، فكان غلاماً في العمر والجسم ولكنه كهل في الرأس والقلب. فانتشر صيته مراهقاً إلى أن طبق البلاد رجلاً. ويا للخسارة كل الخسارة. ولما نشأت المدرسة الوطنية عام ١٨٦٢ انتدبه والده المغفور له إلى نيابة الرئاسة فبذل الجهد المجهود في إحكام قوانين التدريس وتولى بنفسه تعليم الصفوف الكبيرة الانكليزية وسواها، وأقام على هذا الشأن الخطير أعواماً عديدة على كونه كنشليراً للقنصلية المشار إليها. وكتب خلال ذلك رسائل اضافية وأقدم على ترجمات افرنجية عديدة إفادة لأبناء اللسان العربي لا يسعنا تفصيل الكلام عليها. كل هذا ولم يكن عذار خده قد بقل بعد. سبحان واهب العقول ومُعطي الفضل من يشاء بغير حساب، وقبيل عام السبعين بدا للمرحوم والده اصدار جريدتين عربيتين فاستجاز المغفور له راشد باشا أحد ولاة سورية فأجاب داعيه ومنحه الرخصة القانونية. فأصدر أولاً الجنان ثم الجنّة. وفي العام التالي اعتزل فقيدنا خطته في القنصلية الأميركانية وأقبل يضافر والده في مهماته العلمية والأدبية، ويعاونه

على تحرير الجريدتين. فأثبت فيهما مدى أربع عشرة سنة فصولاً سياسية في صدريهما ومقالات تاريخية وروايات فكاهية ومستخرجات افرنجية لو جمعت في سِفر واحد لكان أجلّ ما سطرّ القلم وما رقش من ضروب الأدب والحكم والسياسة والاقتصاد والإدارة والتاريخ والنصائح والفكاهات بنفس طاب وذهن وقاد ذلّت لديه الصعاب وجابت منشوراته الأصقاع، ووقع صنعه في جانب الدولة وعمالها في الولايات أحسن وقع فشدوا إزره ورفعوا مقامه وتحدثت به أندية أهل الأدب، وانتظم في شركات العلم فخطب فيها كثيراً وكتب عليها كثيراً. وأشهر رواياته التي يتباهى بها أهل هذا اللسان ويُنافسون بها رواة الإفرنج إنما هي رواية قيس وليلى ورواية يوسف واصطاك والهيام في جنان الشام وزنوبيا وبدور وفتوح الشام وأسمى وسلمى وسامية وسواها، وكل منها يعدّ سفراً برأسه يسفر عن خواطر سامية وآداب خالصة ونكات مستظرفة وتنكيت لطيف واستحسان رائع عمد فيها كلها إلى اصلاح العادات وتقويم هيئة الاجتماع وتمكين اتحاد الملل وصقل الطباع الخشنة والأفكار المعتسفة إلى مقاصد أخرى نبيلة وغايات جميلة جليلة. فتمكنت مكانته في الوطن العزيز وقرّبه ولاة الأمر إليهم فزادت غيرته ضراماً فحرر على آية «حب الوطن من الإيمان» مجلدات لا مقالات وكان قلمه في أيامنا من أعظم تراجم التمدن الغربي في ديار الشرق. وظهرت له في فن السياسة رسائل واسعة النطاق متدفقة آراء ثواقب وخطرات أفكار ثوابت رواسخ ما أحقها بأن تناط في جيد العُلى عقداً. فسارت في ذكره الركبان وتواردت عليه المدائح من كل نبيل وأصاب في وادي النيل حظاً موفوراً لدى الحكومة الخديوية بعد أن أمطرته وأباه الدولة العلية نعماً سنية. وقصد مصر مرتين وعاد منها والحقائب تحدث عن مكارم الحضرة الخديوية وجريها على سنن الدولة العلية في تعضيد مشروعاته وترويج مصنفاته حتى أنها اكتتبت على يده بمئات من نسخ دائرة المعارف وفاضت الإحسان إليه بكنوز من خزانات الأدب في سائر الفنون وتواريخ العرب. ولما أقدم الطيب الذكر أبوه على تأليف الدائرة أخذ يعاونه على مهمه الشاقّ إلى يوم نكب

الوطن بضياع الوالد فتولى خطته. ومما فاتنا التنويه به آنفاً أنه في عام الثمانين نشأت فيه رغبة للتجارة فاتجر، ولكنه لم يفلح فأعاد أموره إلى نصابها الأدبي الأول، كأنما قدر عليه أن يحيى ويموت مكابداً خدمة العلم والسياسة وهكذا اتفق. واأسفاه عليه.

ولا نزيد القراء بياناً على حال الفقيد. فمجرد ذكره ينطق بقدره. والإلماع إلى أعماله يغني عن الاسهاب والإطناب، على أننا لا نحبس القلم عن التكلم على سجاياه ومزاياه وقد فاقت وشاقت وخلبت، فقد كان رحمه الله وعزانا على فقده من أحسن الناس ارتياحاً إلى مؤاساة البائسين وتفريج المكروبين مقصوداً بالحاجات من كل صوب لا يـرد قاصداً ولا يخيِّبُ آمالاً ولا ينقض وعداً ولا يحل عهداً. كلفاً باصطناع المحامد حريصاً على ولاء الأصدقاء متجافياً عن محاقدة الأعداء. آية في الرقة واللطف وديعاً سليماً في السيرة والسريرة، ساحراً في المحاضرة كأنما جُسِّمَ من اللطف. بصيراً في مرضاة الخلق ماضياً في حسم المشاكل وحلّ العراقيل. رحب الصدر لا يغضبه أمر مهما كان عظيماً. وبالجملة فقد جمع الله فيه من محاسن الصفات وأحاسن الأخلاق ما لو وزِّع على عديدين لكان لهم من المواهب الباهرة سهم كبير. ولقد كان في نفسه العصامية قصد شريف الا وهو التوجه إلى الآستانة العلية للتقرب من ميامن رضى الحضرة السلطانية وعرض مشروعاته على عتبتها السامية. وأهمها تأليف معجم تركي أشبه بدائرة المعارف. على أن القضاء المبرم لم يظفره بهذه الأمنية، ولعل أخاه النجيب الأديب محقق رغائبه فيحرز وآل بيته من نعم الدولة العلية ما يستحقون. وقد سبقت لهم الخدمات الجلائل والمساعي السوافر في جانبها العالي.

الا اعلم يا نجيب أن الوطن أناط بكم الأمل ووجد فيكم محلاً للثقة وموضعاً للاعتماد بأن تنجز أعمال سلفك، وأن تجرد لخدمة الأدب عزمتك وأن تصبر على النكبة التي نزلت. وأنت وباقي آلك محل للثقة والاعتماد خصوصاً وأن المعدات أعدت ولديك مواد التأليف مهيأة وهيكل الدائرة إلى آخر باب الياء قائم فإن والدك رحمه الله لم يباشر

طبع المجلد الأول قبل أن أتمه وأتم كل ما هو ضروري لقيام الدائرة وحفظها وإبرازها برمتها إلى مظهر الوجود من بعده. وإني لمحدثك بأمر يزيدك فوق ما أنت عليه مضاءً واقداماً وهو ما بلغني أن والدك المرحوم قال لجناب الكاتب الألمعي سعيد أفندي الخوري الشرتوني خلال مباحثة عرضت له معه (إني ابتدأت الدائرة وأعددت لوازمها. فولدي نجيب يتمها) فتأمل تجد بذلك سراً خفياً انطق والدك به من قبل دعوتك إلى إتمام التأليف بضعة أعوام. ولك عون عظيم على مهماتك التمسه من حضرة أبهتلو حمدي باشا والي سورية وحضرة سعادتلو نصوحي بك متصرف لواء بيروت ولك في نجدة الأدب فطاحل جهابذة وحسبك أن ترى في صدر مجالسهم العلامة الفيلسوف الدكتور فانديك الذي واعدك يوم مصابك وعداً كريماً.

فتعزَّ بما ترك السلف الكريم إليك من آثار الفخر واعتضد بكبرياء أولياء بيتك واستعن بهم على شدائد دهرك وغفر الله لفقيديك الوالد والشقيق وافرغ علي قلبك وقلب والدتك وزوجة أخيك وباقي الأنسباء نعمة من الصبر وعظّم لكم الأجروصانكم لخدمة مواطنيكم ودولتكم في المكاره والكوارث».

وهذا يدل على أن جريدة «لسان الحال»(*) احتجبت عن الظهور بسبب وفاة سليم البستاني وذلك تقديرٌ له وإجلالٌ لمكانته الأدبية والوطنية. وهذا تكريم لا يناله سوى القليل جداً من الناس. إذ انه نادراً ما احتجبت جريدة عن الظهور بسبب وفاة شخص غير صاحبها.

هـذا، وقد نشرت مجلة الجنان (١٨٨٤) تآبين الجرائد والمجلات له في الصفحات التالية من ٥٨٤ ـ ٥٩١ ومن ٦١٦ ـ ٦٢١ وهي بالتتالي: الحديقة ـ المصباح ـ الثمرات ـ المقتطف ـ الأهرام ـ المحروسة ـ لسان الحال ـ النشرة ـ الطبيب ـ مرآة الشرق ـ روضة الاسكندرية ـ البيان ـ وجريدة الفرات.

وهي تبكيه وتعدد شمائله وتأسف لوفاته المبكّرة.

(*) لم يظهر اللسان يوم الاثنين حداداً على الفقيد رحمه الله.

هوامش

(١) راجع الدكتور يوسف قزما خوري، أطروحة بعنوان «المعلم بطرس البستاني حياته وأعماله مع دراسة لمجلة الجنان وإعداد فهارس لها» في ثلاثة أجزاء قدمت إلى دائرة التاريخ لنيل درجة دكتوراه في التاريخ من الجامعة الاميركية في بيروت ١٩٧٦ (مخطوطة).

(٢) جريدة لسان الحال العدد ٧١٢ تاريخ ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٨٨٤ (ص ١ ـ ٢).

(٣) تاريخ الصحافة العربية، بيروت المطبعة الادبية سنة ١٩١٣ في اربعة أجزاء. (ج ٢ ص ٦٨).

(٤) في كتابه أدب المقالة الصحفية في مصر، القاهرة دار الفكر العربي ١٩٥٠ ـ ١٩٦٣، ج ١ (ص ٢٣٣).

(٥) هذا الأمر جعل الدكتور يوسف قزما خوري يشكك في صحة أن تكون ولادته سنة ١٨٤٨ إذ انه من غير المعقول أن يكون قد تولى مهمة الترجمة في قنصلية الولايات المتحدة الأميركية في بيروت سنة ١٨٦٢ خلفاً لوالده وهو ابن ١٤ سنة

(٦) تاريخ الصحافة العربية، ج ٢ (ص ٦٩ ـ ٧٠)

(٧) الجنان الجزء العشرون تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٧٠ (ص ٦٢٧).

(٨) الجنان ج ١٥ (١٨٨٤) ص ٥٧٧

(٩) الجنان ج ١ (١٨٧٠) ص ٤٣.

(١٠) الأطروحة (ص ٢٦٢).

(١١) جريدة لسان الحال بيروت الخميس في ٢٥ و ١٣(*) أيلول (سبتمبر) ١٨٨٤ العدد ٧١٢. أوردت مجلة المقتطف، مجلد ٩ (١٨٨٤) (ص ٤٨ ـ ٥٠)، ملخصاً عنها تحت عنوان: «خطب عظيم».

(*) الرقم الأول يفيد التاريخ الغربي والثاني التاريخ الشرقي.

القسم الثاني

مجلة الجنان

هي مجلّة(1) نصف شهريّة أسّسها في بيروت المعلّم بطرس البستاني في ١/١/١٨٧٠ وصدر منها ١٧ مجلداً إلى حين توقفها عن الصدور في ٥ آذار (مارس) ١٨٨٦.

وقد حصل البستاني على اجازة بإصدارها من راشد باشا والي سورية يوم ذاك (١٨٦٦ - ١٨٧١). وكانت اول مجلّة من نوعها باللغة العربيّة. وهي تشتمل على مواضيع وابواب متنوعة منها العلميّة والسياسيّة والصناعيّة والزراعيّة والتجاريّة والطبيّة والتاريخيّة والأدبيّة والفكاهيّة وإن كانت تتستّر عن تناول المواضيع السياسيّة المباشرة.

وقد اتخذ لها مؤسسها المعلم بطرس البستاني شعاراً هو: «حبّ الوطن في الإيمان» وصدّر العدد الأول منها بهذين البيتين من الشعر:

إليكَ صحيفةٌ نُشرت حديثاً
فاغنت بالسَّماعِ عن العِيانِ
كفردوسٍ حوى ثمراً شهيّاً
لذاك دعوتها باسم الجِنانِ

وفي الافتتاحية التي يقدّم بها العدد الأول من مجلّته هذه يقول:

«إنه قد تيسّر بهمّة أولياء الأمور العظام وجود عدة كازتات(2) في اللغة العربية لأجل نشر الأخبار والماجريات الداخلية والخارجية، ولم تزل لغتنا معدومة واسطة من الوسايط الكبرى لنشر المعارف العمومية من علميّة وادبية وتاريخية وصناعية وتجارية ومدنية وغير ذلك من النبذ والمِلَح الأدبية مما هو جارٍ في البلدان الأجنبية، وقد ظهرت فوائده للخاص والعام لانه فضلاً عن انه يكون وسيلة لتنشيط المعارف

العمومية وتقوية أركانها بين الجمهور وتبادل ذلك بين قومٍ وقوم، وإحياء اللغة وتحسينها، والمحافظة على الاتفاق فيها بين أهلها، ومعاضدة ما وجد من العناصر الوطنية، في هذه الأبواب يفتح باباً لأصحاب المعارف وميداناً يجول فيه قلم المهرة من أصحاب القلم.

وبناءً على ما نراه من الاستعداد والميل من المتكلمين بلغتنا العربية الشريفة من أبناءٌ وطن وأجانب، إلى الحصول على واسطة كهذه طالما جال في خاطرنا شدّة اضطرار لغتنا وأبناء وطننا إليها قد عزمنا بالاتكال على عنايته تعالى على إبراز المقصد المذكور من القوة إلى الفعل بإنشاء جريدة في اللغة العربية تسمى الجنان (جمع جَنَّة) تحتوي على الفوائد المذكورة من قلمنا وقلم من يرغب أن يتحفنا بقطعٍ نفيسة من أصلية ومترجمة في الأبواب المار ذكرها».

أما ابنه سليم البستاني، الذي تولّى رئاسة تحريرها والاشراف على سياستها، فيرسم لنا سياسة المجلة في افتتاحية تحت عنوان: «سياسة الجنان» يقول فيها[٣]:

«وطالما اشتهر الجنان بالمحاماة عن الحقوق الوطنية والاتحاد العثماني وبترويج أسباب انهاض الأمة مادياً وأدبياً بنشر الفوائد المثقفة العقول والدافعة الأوهام والموطدة أركان الإلفة والاتحاد بين الشعوب لتقوية العناصر الوطنية بحيث تصبح قادرة على احتمال المؤثرات الخارجية دون أن تغيّر أحوالها، ولا أن تمس استقلالها... ومن المحقق أن للدول العظمى صوالح في البلاد الشرقية تراعيها وتصونها وقد جعل كل منها لنفسه سياسة بالنظر إليها يسلك سبل ترويجها في كل حال».

وهو يقول في مكان آخر[٤]:

«غرض الجنان إنما هو عدم الغرض. فيا أبناء الوطن انصفوا في الحكم واعلموا أن غرض الجنان هو الحق وإن شطّ فعن قصد. إنه خادم أمين يخدم وطنه المحبوب وإن شرد في سبيل خدمته عن المطلوب فلا تلوموه بل عاملوه باللطف والرفق لأن ذلك من شيم الكرام الذين نفخر بأن نحسبكم من أوّلهم».

وهذا ما يعترف له به أحد كبار المستشرقين الألمان في القرن التاسع عشر هو الأستاذ الدكتور هينريش فلايشر (Heinrich Fleischer) (١٨٠١ ـ ١٨٨٨) في رسالة أرسلها من ليبسيك (Leipzig) في ٦ ـ ٤ ـ ١٨٧١ يقول له فيها.

«أرجو أن تتأكدوا بأنني أتلقى جرنالكم (الجنان) بالاعتبار الواجب له من كل وجه وعلى الخصوص لما فيه من الاستقامة وخلو الميل وعدم التعصب في وقائع الحرب التي حدثت أخيراً بين ألمانيا وفرنسا...».

يمكننا تلخيص أهداف مجلة الجنان بالعناوين التالية:

أولاً: محبة الوطن. وهو الشعار الذي اتخذته المجلة كما أسلفنا..

ثانياً. محاربة الطائفية والتعصب الديني.

ثالثاً: الدعوة إلى الاتحاد والإلفة والتضامن بين البلدان العربية.

رابعاً: نشر ثمرات العلوم والاكتشافات والاختراعات العلمية بين الناس. وأحياناً تلجأ إلى وضع الرسوم البيانية والصور الايضاحية لتبيان ذلك.

خامساً: توخّي الموضوعية والتحقق من صحة الأخبار قبل نشرها.

وقد ظلت مجلة الجنان بوجه عام متمسكة بهذه الأبواب والمواضيع ولكنها كانت في بعض الأحيان ولأسباب طارئة تستغني عن بعضها أو تختصر قسماً من المواضيع، وخاصة عندما كانت تهتم بنقل الأخبار والأحداث العالمية الطارئة مثل الحروب التي كانت تنشب في أوروبا بين دولة وأخرى أو بين إحدى الدول الأوروبية والدولة العثمانية، وتبيان انعكاساتها على ماجريات الأحداث في بلادنا.

وبالاضافة إلى هذه المواضيع المتنوعة التي تحظى باهتمامات القراء، كانت المجلة تنشر الروايات المتسلسلة الموضوعة أصلاً باللغة العربية أو المترجمة عن إحدى اللغات الأوروبية، وخاصة عن الفرنسية. وهي تهدف من نشر هذه الروايات، إلى جانب التسلية، الاصلاح الاجتماعي والأخلاقي.

كل عدد من أعداد المجلة تتراوح صفحاته ما بين ٣٢ و ٣٦ صفحة وكان يشتمل على:

١ ـ افتتاحية أو ما يسمى (جملة سياسية).
٢ ـ أخبار متنوعة.
٣ ـ مقالات علميّة تتناول مواضيع زراعية وصناعية وتجارية وطبية.
٤ ـ مقالات أدبيّة من شعر وألغاز.
٥ ـ مواضيع تاريخية، تدور حول التاريخ القديم والحديث. وخاصة تاريخ المشرق العربي، وبالأخص شؤون الديار المصرية في ظل الحكم الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) وتوفيق (١٨٧٩ ـ ١٨٩٢). وأحداث البلدان الأوروبية وخاصة فرنسا وانكلترا وروسيا وألمانيا وأسبانيا وإيطاليا والنمسا، وخاصة الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) ومعاهدة برلين (١٨٧٨)، واحتلال فرنسا لتونس (١٨٨٠) وبريطانيا لمصر (١٨٨١) وللسودان (١٨٨٣).
٦ ـ ترجمة القوانين التي كانت تصدرها السلطنة العثمانية ونشر القوانين الدولية.
٧ ـ باب الفكاهات والنوادر والمِلَح ومن ضمنه الروايات المتسلسلة والقصص التي كان يؤلفها سليم البستاني أو يترجمها عن الفرنسية.

ولنحاول الآن إلقاء الضوء على هذه الأبواب والمواضيع التي كانت تنشرها المجلّة:

المقالات العلميّة

تتناول العلوم المعروفة في ذلك العصر من طب ورياضيات ومسائل حسابية وكيمياء وفيزياء وفلك وعلم أحياء وما إلى ذلك. لأن المجلة كانت تؤمن بالمعرفة وبأنها أساس التقدم والقوة والنجاح من أجل مواكبة تطور العصر ومجاراة أوروبا في تقدمها العلمي والصناعي وأخذ ما تنتجه من مبتكرات وما تتوصل إليه من اكتشافات وأبحاث تصب كلها في صالح الإنسان وإسعاده، واستخدام الآلات الصناعية الحديثة لتحقيق التقدم الصناعي المرجو. داعية إلى إرسال الشبان للتخصص في الجامعات الأوروبية في هذه الحقول والعودة إلى بلادهم لخدمتها وتطويرها.

إن معظم المقالات العلمية المنشورة في الجنان هي من إسهام أطباء أجانب على رأسهم الدكتور كورنيليوس ڤان ديك (Cornelius van Dyck) (١٨١٨ـ ١٨٩٥) والدكتور جورج بوست (George Post) (١٨٣٨ ـ ١٩٠٩) صاحب مجلة «الطبيب»، من أساتذة الكلية السورية الإنجلية (الجامعة الأميركية في بيروت فيما بعد) ومن الوطنيين أمثال الدكتور شبلي الشميّل (١٨٥٠ ـ ١٩١٧) والدكتور خليل سعادة (١٨٥٧ ـ ١٩٣٤) وغيرهما. بالاضافة إلى المقالات التي كان يدبجها أحياناً سليم البستاني أو كانت تترجم عن اللغات الأجنبية أو تنقل عن دائرة المعارف التي باشر في وضعها المعلم بطرس البستاني بمؤازرة ابنه سليم أو كانت تنقل عن بعض المجلات والجرائد.

المقالات الأدبية

التي كانت مبثوثة في المجلة كانت تعتمد اللغة العربية المبسّطة والسهلة التي يمكن أن تصل إلى أكبر عدد من الناس والتي تهدف مخاطبة الفئة المثقفة من القراء والتي ترضى بها الخاصة وتفهمها العامة.

ولكن كانت للبعض مآخذ على لغة المجلة، فإن الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) كان يرى في أسلوبها «ضرباً من غرائب الأساليب».

بينما كان عيسى اسكندر المعلوف (١٨٦٩ ـ ١٩٥٦) يثني على سمو الأفكار التي ترد في مجلة الجنان ولكنه كان يستهجن ركاكة الفاظها.

ومما لا شك فيه أن مجلة الجنان ليست مجلة ادبية صرفة تُعنى بشؤون الأدب من شعر ونثر فني ونقد أدبي، ولكنها مجلة جامعة تهتم بشتّى المواضيع التي تعتقد أنها ذات شأن وطني وأخلاقي وتثقيفي. وهي بالتالي ليست مجلة متخصصة بفرع من فروع الأدب أو المعرفة. فهذا النوع من المجلات لم يوجد في العالم العربي إلا في الثلث الثاني من القرن العشرين كمجلة «أبولو»(٥) التي أنشأها في القاهرة الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) أو مجلة «شعر»(٦) التي أنشأها في لبنان الشاعر يوسف الخال (١٩١٧ ـ ١٩٨٧).

المقالات التاريخية

ترى مجلة الجنان أن الاهتمام بالتاريخ القديم أمر ضروري ومفيد لأنه السبيل إلى معرفة الأحداث الغابرة وأخذ العبرة منها. ولهذا افسحت المجال في صفحاتها أمام نشر تاريخ الحضارات القديمة أمثال بابل وفينيقيا وبيزنطية. وكذلك كانت تهتم بالتاريخ الحديث، وخاصة بتاريخ فرنسا الحديث ولا سيما نابوليون والثورة الفرنسية واستنتاج العبر من هذه الثورة العظيمة والاستفادة من المبادىء التي دعت إليها كالحرية والديمقراطية والمساواة والمطالبة بتطبيقها تدريجياً وتوعية الشعب على مثل هذه المفاهيم التي كان لها تأثير كبير على البشرية جمعاء. وكذلك كانت تنشر أخبار حرب فرنسا وألمانيا التي جرت سنة ١٨٧٠ وتهتم بتاريخ الدولة الروسية وسواها من دول أوروبا الكبرى والهامة في ذلك الحين.

المقالات الفكاهية

افسحت مجلة الجنان في الصفحات الأخيرة من أعدادها باباً تنشر فيه الروايات المسلسلة الموضوعة أو المترجمة أغلبها بقلم سليم البستاني، والقصص الشعبيّة والمِلَح والنوادر تحت عنوان «فكاهات».

والهدف من نشر هذه الروايات والقصص هو الموعظة وأخذ العبرة والاصلاح الاجتماعي الذي كان سليم البستاني يسعى إلى تحقيقه. وهي تجمع بين التسلية والترفيه والترويح عن النفس والفائدة، والغاية منها تربوية وتعليمية وتثقيفية وبعض هذه الروايات كانت تنشر على مدى سنة كاملة مسلسلة في كل عدد من أعدادها. فقد نشرت المجلة في سنتها الأولى (١٨٧٠) رواية «الهيام في جنان الشام» من تأليف سليم البستاني. وفي سنتها الثانية (١٨٧١) نشرت رواية «زنوبيا» و «حاذر وليلى» و «نجيب ولطيفة» و «زفاف فريد» وهي كذلك من تأليفه. وفي سنتها الثالثة (١٨٧٢) بدأت بنشر رواية «بُدُور» مسلسلة.

وإلى ذلك كانت تنشر بعض الأخبار الطريفة والنوادر المسلّية التي تلقى اهتماماً عند القراء.

والبستاني كان يؤمن بالتطور التدريجي، وكان يحاذر أن يدعو إلى الثورة حتى لا يثير غضب الدولة العثمانية ونقمتها عليه وعلى مجلته، مما يؤدي إلى اقفالها. وقد اعترف له فارس نمر (١٨٥٦ ـ ١٩٥١) أحد مؤسسي مجلة «المقتطف»[٧] بأنه من الأوائل الذين دعوا إلى النهضة الدستورية في العالم العربي حين يقول في ذلك[٨]:

«وماذا أقول عن المرحومين البستاني الكبير وابنه البكر وعن سائر الذين عاصروهما الذين خمّروا عجين الهيئة الاجتماعية السورية بخمير الحرية والمبادىء الدستورية، فلهم كلهم في ذلك فضل لا ينكر، بل لا أبالغ إذا قلت إن لهم فيه الفضلِ الأكبر».

وكان سليم البستاني يؤمن بأنه من واجب الإنسان السعي إلى ادراك المعرفة وتحصيل العلم والتطور فالناس متساوون، ولكن الذي يميّز الواحد عن الآخر هو ما يحصّله من علم وما يجنيه من المعارف وكل ذلك يجب أن يصب في تطور المجتمع البشري وتوعيته ورفع الظلم والتسلط والاستبداد.

هذا، وقد صدر من مجلة الجنان ٣٨٨ عدداً من أول سنة ١٨٧٠ وحتى ٥ آذار (مارس) ١٨٨٦ حين توقفت عن الصدور.

وكما سبق وأشرنا فإن سليم البستاني، الأبن الأكبر للمعلم بطرس البستاني، هو الذي كان يكتب افتتاحيات المجلة دون عنوان ودون توقيع أحياناً قليلة وأحياناً تحت توقيع (من قلم سليم أفندي البستاني) يسميها (جملة سياسية)، كما كان يسميها أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧) صاحب مجلة «الجوائب» التي صدرت في الآستانة في تموز (يوليو) ١٨٦٠، ثم تحت عنوان (خلاصة سياسية)، وظل يفعل ذلك حتى وفاته في ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٨٨٤. فانتقلت ملكية المجلة إلى أخيه نجيب البستاني الابن الثالث للمعلم بطرس الذي استمر في اصدار المجلة والاشراف عليها إلى حين توقفت عن الصدور، بسبب التضييق على الحريات، في ٥ آذار (مارس) عام ١٨٨٦.

وقد رسم المعلم بطرس البستاني سياسة مجلته عندما عرّف كلمة «جريدة» في دائرة المعارف[٩] (ص ٤٧٧) حيث يقول:

«يشترط في الجرائد لكي تكون مفيدة أن لا ينشر فيها شيء يخلّ بالآداب أو المبادىء الصحيحة أو يهيج إلى إلقاء الفتن والثورات لمقاصد شخصية وأغراض خصوصية. وقد رأينا أن الجرائد لكي تكون مفيدة وذات قوة مؤثرة في حالة أمة يجب أن يكون لها ما تقتضيه أحوال تلك الأمة من الحرية. وقد رأينا أن نمو الجرائد وانحطاطها في كل البلدان كان دائماً بحسب ما لها من الحرية وما عليها من القيود».

وقد حافظت مجلة الجنان على هذه المبادىء وتابعت السياسة التي رسمها لها مؤسسها.

ولا بأس هنا من أن نشير إلى أن المعلم بطرس البستاني لم يكتفِ بإنشاء مجلة الجنان، بل أصدر نشرة «نفير سورية» في أعقاب الأحداث الدامية التي جرت في جبل لبنان بين الموارنة والدروز سنة ١٨٦٠ ـ التي عرفت بأحداث سنة الستين ـ وقد صدر منها ١٣ عدداً أو «نفيراً» ـ وهناك من يقول بأن عددها ١١ «نفيراً» ـ ما بين ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٠ و ٢٢ نيسان (أبريل) ١٨٦١. وهي مؤلفة من صفحة واحدة كان يوجه فيها ارشاداته وآرائه محذِّراً من الخلافات الطائفية وحاثاً على المحافظة على وحدة الوطن والإلفة بين الطوائف والأديان والعمل على وأد الفتنة وللصالح العام ولمحبة الوطن.

كما أصدر في ١١/٦/١٨٧٠ «الجنّة» وهي صحيفة سياسية تجارية أدبية(*) تصدر مرّتين في الأسبوع مساء كل ثلاثاء وجمعة. وقد علمت أنها موجودة في مكتبة الأسد. في مكتبة يافث في الجامعة الأميركية في بيروت (١٨٨١ ـ ١٨٨٤). وفي المكتبة الشرقية في اليسوعية (١٨٨٣ ـ ١٨٨٤) يقول عنها الفيكونت فيليب دي طرازي[١٠]:

«صحيفة أسبوعية سياسية تجارية أدبية أنشأها في ١١ حزيران (يونيو) ١٨٧٠ سليم ابن المعلم بطرس البستاني. وكان عنوانها محاطاً بغصنين من ورق الغار يعلوهما رسم الهلال والنجمة كأكثر الصحف العثمانية في ذلك العهد، وإلى جانبي العنوان أسماء وكلاء الجريدة

(*) لم اعثر على اية مقالات ادبية مي الأعداد الموجودة في مكتبة يافث

ومحلات الاشتراك في الجهات. وقد اشتهرت هذه الصحيفة بصدق المبدأ وانتقاء الأخبار الصحيحة وجلب الأنباء البرقية لحسابها الخاص عند اللزوم. وكان التجار يعوِّلون عليها في أسعار التجارة وسوق القراطيس المالية والحوادث السياسية. وفي الشهر الثاني من صدورها صارت تصدر مرّتين في الأسبوع بمطبعة المعارف إلى غرّة كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨١ فصارت تطبع في المطبعة الأدبية لمنشئها خليل سركيس[١١] (١٨٤٢ ـ ١٩١٥). وحينئذٍ جرى الاتفاق بين المعلم بطرس البستاني منشىء «الجنان» وسليم البستاني مدير «الجنة» وخليل سركيس صاحب «لسان الحال» على ضم هذه الصحف إلى إدارة واحدة ومطبعة واحدة. فاستلم خليل سركيس إدارتها وفوّض إليه أمر طبعها وتوزيعها وحساباتها. وإنما بقيت كتابة كل صحيفة متعلقة بصاحبها الأصلي كما كانت سابقاً. وبعد وفاة سليم البستاني في ١٣أيلول (سبتمبر) ١٨٨٤ تحول امتياز «الجنة» إلى أخيه نجيب الذي أصدرها مدّة حولين كاملين. ثم أوقفها باختياره مودعاً الصحافة التي خدمتها الأسرة البستانية نحواً من خمس وثلاثين سنة بما لا يوصف من الغيرة والصدق واعتدال المشرب. وسبب ذلك أنه لما اشتدت المراقبة على الجرائد في سوريا اغتاظت الحكومة من نجيب البستاني لنشره ترجمة مدحت باشا زعيم الأحرار العثمانيين. فأصدرت الأوامر بتعطيل جريدة «الجنة» ومجلة «الجنان» مما ألحق بصاحبهما خسارة كبيرة... وبالاجمال فإن هاتين الصحيفتين كانتا في عهدهما من أرقى الصحف العربية وأكثرهن نفعاً وأعظمهن انتشاراً. وقد عاشتا نيفاً وست عشرة سنة ولم تزل فوائدهما مذكورة بكل شفة ولسان. والجدير ذكره أنهما مفقودتان اليوم ولا يوجد منهما مجموعة كاملة.

ونظم الحاج حسين بيهم قصيدة في مدح جريدة «الجنّة» عند أول ظهورها ثم ختمها بتاريخين أولهما على الحساب الهجري وثانيهما على الحساب الميلادي... وقد ضمّنها ناظمها أسماء كل الصحف العربية التي كانت منتشرة في ذلك الحين وهي مطبوعة بين قوسين:

١ ـ ألا يا بني الأوطان عوجوا «لجنَّةٍ»
لأخبارها بالصدقِ ألطفُ رَنَّةِ
٢ ـ «حديقةُ أخبار» «جوائبُ» حكمةٍ
«جنانٌ» معانٍ لفظها شهدُ «نَحْلَةِ»
٣ ـ «وقائعها» «كالنيل» عذّبُ «فُراتها»
تفصلها «الزوراء» عن بحر دجلةِ
٤ ـ «كروضةٍ» علمٍ قد غدت «لمدارسٍ»
«ورائدها» يهدي لنا نشرَ «زهرةِ»
٥ ـ «بسورية» الفيحاء يعبقُ نشرها
وبالشرقِ ثم بالغرب فازت بشهرةِ
٦ ـ لمنشئها العلامة الشهم شهرةٌ
بخدمته الأوطان في كل لحظةِ
٧ ـ يغارُ على نشرِ المعارفِ في الورى
ويجهدُ في تكثير أنواعِ صنعةِ
٨ ـ ويندبنا للاتحاد الذي به
وبالجد لا نحتاجُ بعدُ لأُمّةِ
٩ ـ بظل مليكِ العصر سلطاننا الذي
بدولته للعلم أعظم دولةِ
١٠ ـ عدالته الغرّاء مَدَّت رواقها
علينا فصرنا في أمانٍ وبهجةِ
١١ ـ فلا زالت الأقطار تزدادُ رونقاً
بأيامه ما طَابَ قارئُ «نشرةِ»
١٢ ـ وما قال من تهدي لعلم «جنانُه»
«وجنته» تهدي لنا كل طرفةِ
١٣ ـ ألا استمعوا أرّخ لأخبار جنّةٍ
وتاريخها يُلغى كألطفِ غرَّةِ

سنة ١٢٨٧ هجرية سنة ١٨٧٠ ميلادية

وأصدر كذلك «الجنينة»(*) وهي جريدة يومية سياسية تجارية ظهرت عام ١٨٧١ واحتجبت سنة ١٨٧٥ وهي أول صحيفة في الشرق الأدنى عنيت بشؤون التجارة حتى أنشأ أديب اسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) صحيفة «التجارة» التي صدرت في القاهرة سنة ١٨٧٩.

يقول عنها طرازي(١٢): «هي جريدة سياسية تجارية ذات صفحتين بقطع متوسط ظهرت عام ١٨٧١ لصاحبها سليم البستاني. وهو أول صحافي عربي حاول أن يصدر جريدة يومية، فتسنى له ذلك باصدار «الجنينة» أربع مرّات كل أسبوع في أيام الاثنين والأربعاء والخميس والسبت. وكانت جريدته «الجنة» السابقة الذكر تظهر في يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع. وهكذا كان قراء هاتين الصحيفتين يتناولون الأخبار الجديدة في كل يوم. وكانت «الجنينة» مصدرة بالأنباء البرقية السياسية تليها الحوادث المحلية ومراسلات الجهات. وكان القسم التجاري فيها مطولاً ومتقناً يشمل أسعار التجارة والقراطيس المالية. وقد عاشت نيفاً وأربع سنين ثم احتجبت عام ١٨٧٥ عندما تفشّى الهواء الأصفر في بيروت وبعض أنحاء سوريا. وكان بدل الاشتراك السنوي في «الجنينة» وحدها عشرة فرنكات. أما بدل اشتراكها مع «الجنة» فكان ١٧ فرنكاً ومع «الجنان» و «الجنة» ٣٣ فرنكاً. وكان اسم الجريدة محاطاً برسم بديع تخفق بجانبيه رايتان عثمانيتان قد نقش على احداهما رسم الهلال والنجمة وعلى الأخرى شكل الطغراء السلطانية...

وكان سليم البستاني ينشيء فصول «الجنة» و «الجنينة» بمساعدة نسيبه العلامة سليمان البستاني معرّب «الإلياذة» للشاعر اليوناني أوميرس واحد أعضاء «مجلس الأعيان» في السلطنة العثمانية».

بيد أن عمل المعلم بطرس البستاني يقف عند مرحلة التأسيس، فإن ابنه سليم هو الذي كان يهتم بتحرير «الجنان» و «الجنة» ويشرف على سياسة كل منهما. وقد كتب ٤٨ افتتاحية معنونة. ومن العناوين التي استعملها: «الاصلاح» «روح العصر» «من نحن» «المساواة» الخ...

(*) علمت أنها موجودة عند باسل برازي في حماه.

كانت لغة افتتاحياته بادىء الأمر ذات لهجة خطابية إنشائية تتوخّى التأثير في القارىء وتهدف إلى الوعظ والاقناع عن طريق ضرب الأمثال وإجراء المقارنة بين ما كنا عليه وما صرنا إليه. أو بين ما نحن عليه وما هو عليه غيرنا من البلدان المتقدمة.

وبعد ذلك أخذ يحلّل ويتبسَّط في عرض المواضيع التي يعالجها ويحاول أن يقترح الحلول العلمية المجدية وأخذ أسلوبه يميل إلى الواقعية ويبتعد عن الأسلوب الانشائي.

ولم يكتفِ سليم البستاني بكتابة المقالة الافتتاحية في كل عدد من أعداد المجلة بل إنه كان يُعرّب الأخبار الأجنبية وينشر رواية أو قصة يؤلفها أو يعرّبها مسلسلة في كل أعدادها كما ذكرنا سابقاً.

وهذا ما يشير إليه مارون عبود عندما يقول(١٣):

«ولما ظهرت (الجنان) شرع سليم البستاني ابن المعلم بطرس يعرّب ويؤلف لها الروايات والقصص فما خلا منها عدد منذ مولدها حتى مماتها».

كان سليم البستاني يتوجه إلى سائر الكتّاب والأدباء في لبنان وسوريا وسائر الأقطار العربية ويدعوهم إلى المشاركة في الكتابة في مجلته ويفسح لهم المجال للقيام بذلك معتبراً أن في عملهم هذا خدمة للأمة وللوطن قائلاً(١٤):

«ثم إننا نسأل فضل علمائنا وأدبائنا في ثغر بيروت وفي الشام وحلب والعراق ومصر وباقي البلاد العربية أن يطرفونا بنفائس أقلامهم وبدائع كلامهم على اختلاف الموضوع من منظوم أدبي ومنثور، لأن الجنان على أكمل استعداد وأتم مراد لتلقيّ مكاتباتهم العالية القدر والبالغة من النفاسة درّ البحر ومن الرونق والطلاوة وجه البدر بواجب الثناء والشكر، لا برحوا للفضل سواد عينه وللعلم مبعث نوره ومجلى ظهوره».

وهكذا يبدو لنا هنا تعمده السجع لأنه أراد أن يستدرّ عاطفة الأدباء والكتّاب العرب وحماستهم ويمالقهم من أجل المساهمة في نشر آرائهم وأفكارهم في مجلته. كما أنه أراد أن يثبت لنا ولهم أنه قادر على النسج

على منوال السجع ومجاراة القدماء والمحدثين من الكتاب أمثال اليازجي والشدياق وسواهما.

وأن طرازي يحاول أن يبرّر المآخذ التي أخذها عيسى اسكندر المعلوف على الجنان فيقول[١٥].

«ولعل المعلم بطرس البستاني عمد إلى هذه الوسيلة في كتابات مجلته عند أول ظهورها لأن أكثر القوم في ذلك العهد كانوا لا يكترثون لمطالعة الصحف المكتوبة بعبارات فصيحة. فتسهيلاً لهم كان يُنشيء فصول «الجنان» بلغة تفهمها العامة ولا تأنف منها الخاصة، وهي خطة حسنة يشكر عليها المعلم بطرس البستاني وأنجاله الذين أجادوا وأفادوا في ابتكار هذه الطريقة دون سواهم لخدمة الصحافة والعلم والوطن. وكانت هذه المجلة مطبوعة طبعاً نظيفاً وتنشر من وقت إلى آخر رسوم المناظر الشهيرة وصور أعاظم الرجال».

ومهما يكن من أمر، فقد استطاع سليم البستاني في الجنان أن يطوّع اللغة العربية ويجعلها قادرة على استيعاب العديد من الكلمات والمصطلحات الجديدة والتعابير العلمية الحديثة وقد امتاز على الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) وابنه الشيخ ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦) صاحب مجلة «الضياء»[١٦] والشيخ أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧) صاحب مجلة «الجوائب»[١٧] الأسبوعية في استخدام الألفاظ السهلة وادخال مصطلحات وتعابير علمية وكيميائية حديثة نقلها معربة عن اللغات الأوروبية مثل: «الأوكسجين» و «الكاربون» و «الفوسفور» و «الكالسيوم» و «الألومينيوم» وكثير غيرها. كما اشتق من بعضها أفعالاً ذات صيغ عربية أمثال: «كان ينشر مع الغاز المتأكسد تأكسداً بطيئاً». كما نقل أسماء لآلات حديثة مثل: «الفوتوغراف» أو التصوير الشمسي و «التلفون» و «التلغراف» و «الترامويّ». ومن المصطلحات السياسية وضع مصطلح «الجمهورية» (République) و «مجلس النواب» (Parlement) وسواها.

هذا وأن لغته في افتتاحياته ومقالاته كانت لغة سهلة مبسَّطة ليس فيها تعقيد أو زخرف أو تكلّف بصورة اجمالية وهو يتوخى من ذلك

ايصالها إلى عامة الناس.

ولكنه في رواياته المسلسلة كان يلجأ أحياناً إلى أسلوب السجع ويتعمّد التنميق كما نجد في أولى هذه الروايات «الهيام في جنان الشام» التي نشرت على مدى أعداد السنة الأولى من المجلة حيث يقول:

«حدثني أحد أصحابي ممن يحب خوض البراري والبحار، وركوب المصاعب والأخطار ويصبو إلى الوقوف على غرائب الحوادث والأخبار...

وكان ذا ثروة ومال كثير الهبات محمود الخصال. كل من عرفه حمد سجاياه وأعماله الصالحة وحسن نواياه...».

ولكن يجب ألا ننتظر من جميع كتّاب تلك الحقبة أن تكون لغتهم لغة سليمة فصيحة ذات أسلوب بليغ. فإن الفيكونت دي طرازي يخبرنا عن ذلك في قوله[١٨]:

وكانت صحافتنا في بداية أمرها ضعيفة الأفكار، ركيكة التعابير، سقيمة الطبع، خالية من تبويب أبحاثها بوجه الإجمال إلا ما ندر. ولا غرابة في ذلك لأن هذا الفن كان مجهولاً وسوق العلوم كاسدة وآثار الحضارة مندرسة في أكثر أنحاء الشرق... غير أن تلك الألفاظ الركيكة والتعبيرات السقيمة التي كان يستعملها أرباب الجرائد أولاً في كتاباتهم قد بطلت شيئاً فشيئاً باختمار الصحافة وارتقاء الأفكار وانتشار العمران وانصباب الناس على اكتساب المعارف. ومن أعظم دواعي ترقيها إقبال أدباء بلادنا على الأسفار الشاسعة ومخالطة الغربيين ومجاراتهم في كثير من الأمور».

فإذا ما طبقنا هذا القول على مجلة الجنان وأسلوب سليم البستاني فيها نجد أنه يخالفه مخالفة كبيرة ولا ينطبق عليه فالمجلة جيدة التبويب حسنة اللغة وواضحة الأفكار.

ولعل ما يقوله عبداللطيف حمزة[١٩] يظهر لنا أهمية مجلة الجنان حيث يقول: «أما مجلة الجنان فينظر إليها المؤرخ الصحفي على أنها أول مجلة عربية، ولا نقول جريدة إخبارية، ظهرت في الشرق العربي،

وكانت سجلاً للنهضة الفكرية، في البلاد السوريّة، زهاء بضع عشرة سنة، كما كانت ميداناً فسيحاً تتبارى فيه أقلام كتّاب العربية، في الأدب والعلم والسياسة والطب والتاريخ والقانون والفكاهة والمِلَح، ولم يكد عدد من أعداد الجنان يخلو منها».

إلى أن يقول:

«وإنها لأتمّ المجلات العربية الأدبية، على وجه الاطلاق، وبها تأثر منشئو المجلات العربية في جهات شتّى من أقطار العالم العربي، وبخاصة مصر، وعلى غرارها ـ فيما نعتقد ـ نشأت مجلة (المقتطف)».

أما يوسف أسعد داغر فإنه يقول عن مجلة الجنان[٢٠]:

«فالجنان أول مجلة عربية حملت للعالم العربي والإسلامي رسالة الثقافة والاصلاح والوعي القومي، فأصبحت مثالاً يحتذيه كل من يرغب بإصدار مجلة أدبية علمية، ترسّمه أصحاب «المقتطف» و «الهلال»[٢١] و «الضياء»».

كانت مجلة الجنان تتبع سياسة التوازن بين المواضيع السياسية والأدبية والعلمية ولكننا نجد أنها في الفترة التي نشبت فيها الحرب بين روسيا والسلطنة العثمانية رجحت كفة المواضيع السياسية على سواها.

وها إن سليم البستاني يوضّح رأيه في رسالة الصحافة فيقول[٢٢]:

«إن العادل المنصف والعاقل العفيف يُنشّط الجرائد ويُسعفها والظالم الطامع الفاسد يضادها ويُقاومها. والذي يحملنا على أن نعتقد أن الدولة راغبة حق الرغبة في الاصلاح ما نراه من تنشيطها للجرائد وغضّها عن بعض هفواتها والانتباه إلى ما تقوله، إذ إنها تعرف أنها عبارة عن جرائد تقرر آراء الأمة الصحيحة خوفاً من سوء العواقب وإغاظة أولياء الأمور. هي من الجرائد التي تخسر اعتبار الأمة وتجلب على نفسها احتقار الحكومة وبئس الحال».

وهو إلى ذلك كان يؤمن بأن الجرائد ما هي الاّ وسائل للتمدن والاصلاح. وكان يحث كتّاب المجلات والجرائد ومحرريها على التحلّي بالجرأة والنزاهة والاخلاص ومقاومة الفساد وتقويم الإعوجاج.

وعندما شرح القانون الأساسي العثماني (دستور سنة ١٨٧٦) وخاصة المادة الثانية عشرة منه التي تنص على أن: «تكون المطبوعات مطلقة في دائرة القانون» جدّد مهمة الجرائد بنشر المعارف وتنبيه عامة الشعب إلى حقوقهم والتزاماتهم وأوضح أنها تطور في عقول الناس لتجاربهم وخبراتهم حيث يقول(٢٣):

«إن المطبوعات عموماً، ولا سيما الجرائد العلمية والسياسية والاصلاحية والصناعية والطبية، هي علة نشر المعارف بين الأمم. والمعارف هي أساس التقدم والنمو. وإنها من أعظم أسباب تنبيه الأمم إلى حقوقها وأغلاطها وإظهار احتياجاتها وصيانة حقوقها من تعدّي المأمورين، ومغايرات أهل القضاء».

الجنان والدعوة إلى الاصلاح

في أحد أعداد المجلة يحدد لنا سليم البستاني المبادىء الاصلاحيّة التي يطالب بها كما يلي(٢٤):

«**أولاً**: أن يكون للأهالي أجمعين مع اختلاف مذاهبهم اشتراك في الادارة محلياً وغير محلّي إنفاذاً لقاعدة وحدة الأمة العثمانية وتمكيناً لروابط الأخوة الوطنية في السلطنة قاطبة وصرف النظر في الأمور الإدارية والقضائية وغيرها عن الدين وجعل المعوّل عليه عندنا عصبة جنسية وما هي إلا العصبة العثمانية.

ثانياً: إجراء القوانين التي قد صار وضعها وجعلت الأمور الدينية منفصلة كل الانفصال عن الإدارة والقضاء وتعيين معاشات كافية لجميع المأمورين وأرباب القضاء والضبط ليندرجوا في سلّم العدل والانصاف ويصير الابتعاد عن الرشوة ومراعاة الخواطر.

ثالثاً: وضع أساسات لفصل القضاء عن الحكومة الاجرائية...

رابعاً: ربط الأموال الأميرية كلها بحيث تمتنع المداخلة في أمور أهل الفلاحة وتمكين كل إنسان من أن يعرف في بادي سنة المال الذي يلتزم بدفعه عن نفسه وملكه.

خامساً: الانصباب على الانشاءات النافعة كإنشاء الطرق الحديثة

وغيرها والترع والمرافيء.

سادساً: اتخاذ الوسائل اللازمة لجعل التعليم عاماً اجبارياً في سنين قليلة.

سابعاً: إنفاذ القواعد الجديدة المتعلقة بصيانة الراحة وإجراء الأحكام».

ثم يضيف قائلاً: «هذه هي أهم الأمور التي قد رأينا حكومتنا شارعة فيها وننتظر بفروغ صبر خروجها من القوة إلى الفعل عالمين أن اجراء أمور مهمة كهذه لا يتم في برهة قصيرة وأن نقل الأمة من حال إلى حال دفعة واحدة يضر بها وإن كان الانتقال إلى الجهة الاصلاحية.

ولا فوز إلّا بقطع أسباب الاختلافات الدينية والمباينات المذهبية وتيقّن الأهالي أن ترويجهم لعناصر الشقاق والتعصب إنما هو ترويج لعلات تأخرهم وانمحاق ثروتهم وانسلاب راحتهم وان المملكة التي أهاليها ليسوا بأخوة في الوطن، هي مملكة منشقة على نفسها لا تكفي قوتها كلها لمنع مضار ذلك الشقاق. وإن الإنسان لا يحسب لنفسه وطناً يستحق مدافعته عنه ما لم يكن متمتعاً به بما فطره الله على حب التمتع به من الراحة والأمنيّة والعدل وترويج الأعمال والاشتراك في إداراته. فهذه قواعد لا تهملها أمة وتفوز بالنجاح ولا بد من أن ينشأ عن مراعاتها تقدم عظيم وراحة عموميّة».

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن الآراء التي يأتي بها سليم البستاني في مقالته هذه هي آراء متطورة وسابقة لعصرها. أوَ ليست الأشياء التي يطالب بها هنا هي ذاتها التي نطالب بها نحن اليوم؟ فلو كان قد أُخذ بها، أو حتى ببعضها، وتحقق جزء منها ولو يسير كما كنا اليوم نشكو مما نشكو منه من تخلّف وتعصب وتفرقة وجهل. وهو يدعو إلى تطبيق القوانين فلماذا لم تطبَق؟ ويطالب بالتعليم عاماً والزامياً وذلك منذ مئة وعشر سنوات. وحتى اليوم، وبعد هذه المدّة الطويلة من الزمن لم يتحقق ذلك بعد، بل وإن ما نعاني منه اليوم من أنانية وحزبية ضيقة وتسلّط وفرديّة واستئثار بالسلطة لهو اسوأ بكثير مما كانت عليه الحال زمن سليم البستاني. فنكون كمن يسير إلى الوراء.

وإلى ذلك كله فإن الرجل كان منفتحاً على الآخرين يريد التشبه بأوروبا فلنستمع إليه يقول:

«إنه ليس على الأمم الشرقية أن تخترع أسباب التمدن وتكتشفها فإنها موجودة فما عليها إلا أن تنقلها عن أوروبة».

وهو يدافع عن سياسة مجلته فيقول تحت عنوان «الجنان»(٢٥):

«إنه لأمر معلوم أن الإنسان يصبو إلى مطالعة ماجريات العالم ويجب أن يجد مصدراً صحيحاً يبيّن له الحوادث التي تسير على وجه الكرة الأرضية لأن قدم الأعمال إنما تقطع نجاد وبطاح هذا العالم بحسب الحوادث. ولما كانت الجرائد هي ينبوع تلك الافادات وكانت كأنها مرآة ينظر فيها الإنسان وهو مقيم في حجرته إلى أحوال العالم وتقلباته السياسية والتجارية والعلمية والصناعية والزراعية وغيرها كان انشاؤها من أنفع الأمور لكل البلدان. ولما كانت البلاد السورية وما يجاورها من افتقار إلى ذلك لأنه يكاد لا يوجد منها ما هو كافٍ لسدّ احتياجاتها، قد شرعنا في نشر الجنان. وأقمنا له دستورين أولين وهما الحقيقة وصالح البلاد. لأن المقصود منه إنما هو انفجار ينبوع الإفادة الحقيقية وترقية أسباب تقدم الوطن.

ولهذا يقتضي للجنان أن يعرض عن مراعاة الخواطر والأغراض وأن يقرر ما يعتقد. فإن كان معتقده غير صحيح فيكون قد ركب متن الغلط الذي لا يسلم منه إنسان لأن الكمال لله سبحانه وتعالى. ولا نرى فائدة في الجرائد التي تسلك سبيلاً واحداً وتتعصّب لجهة دون أخرى. لأنها لا تأتي بالفائدة المقتضية لتبيين ما يدّعيه الذين يعتقدون غير ما نعتقد.

... ويا حبذا لو بادر الذين يعثرون على ما هو مخالف لآرائهم إلى ايضاح ذلك كتابة وإرساله إلى الجنان ينشر تحت اسمهم لأنه معلوم أن القصد إنما هو الحصول على الفائدة بمبادلة الأفكار. وكذلك نحب أن نرى الذين يطالعون الجريدة المذكورة يعدلون في حكمهم وينظرون إلى كل جهات ما ينشر فيها. فيا أبناء الوطن انصفوا في الحكم واعلموا أن غرض الجنان هو الحق وأن شطّ فعن غير قصد. وإنه خادم أمين

يخدم وطنه المحبوب وإن شرد في سبيل خدمته عن محجة الصواب فلا تلوموه بل عاملوه باللطف والرفق لأن ذلك من شيم الكرام الذين نفتخر بأن نحسبكم من أولهم».

وهكذا تبدو لنا أهداف المجلة التي تتوج رأسها بـ «حب الوطن» وهو الشعار الذي اتخذته لها وصدّرت به عددها الأول وقد أشرنا إلى ذلك في بدء الكلام على مجلة الجنان وهو: «حب الوطن من الإيمان». ومحبة الوطن تعني بالضرورة العمل على تطوره وخدمته ورقيّه وإصلاحه من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية والدينية وما إلى ذلك.

وهذه الآراء مبثوثة في العديد من المقالات والافتتاحيات التي كتبها سليم البستاني ولا بأس هنا أن نستشهد ولو بشيء منها.

اهتم البستاني بموضوع التربية والاصلاح التربوي ومما يقوله في إحدى مقالاته[٢٦]: «... جعل التربية على نسق واحد بتعليم التلاميذ في كتب ذات آراء واحدة فينبغي في الحال أن تكون ذات قواعد حرّة نظاميّة مبيّنة لأضرار الاستبداد ومنافع التقييد ومفصلة تلك الأحوال حتى أنه من الواجب أن تعلّم الحكمة المؤسسة على الحرية العمومية والافرادية والحقوق العمومية والمساواة...».

فهو يدعو إلى توحيد المناهج التربوية وجعلها تتبع فلسفة واحدة، وتسعى إلى تحقيق أهداف واحدة ويطالب بتوحيد الكتاب المدرسي والبرامج التعليمية وهذه مسألة هامة جداً بالنسبة لنا نحن في لبنان لأن أية وحدة وطنية يجب أن تنطلق من توحيد البرامج التربوية والكتب المدرسية والأهداف التعليمية وإلا عبثاً نتحدث عن وحدة وعن توحيد وعن وطن موحّد. فطالما أن المدارس في لبنان، وخاصة المدارس الخاصة منها والأجنبية بصورة أخص، تسعى كل واحدة منها إلى تحقيق أهداف معينة خاصة بها فكيف يمكن صهر النشء في بوتقة وطنية واحدة.

وهو أيضاً له موقف من الدين والاصلاح الديني. ويقول بفصل الدين عن الدنيا، هذه قضية هامة جداً بالنسبة لنا لأننا ما زلنا خاصة

في لبنان وفي باقي العالم العربي نتخبط فيها وسنبقى إلى أن نحقق مرتبة من الرقي العقلي والتطور الفكري.

فها هو يقول في إحدى افتتاحياته[٢٧]:

«على مَ نخلط الدين بالدنيا ونحط من شأن السماوات بمزجها في الأرضيات فنجعل لاعتقاداتنا دخلاً في أعمالنا فتؤثر اختلافاتنا التدينية في أعمالنا العالمية فينشأ عنها ذلك الشقاق الذي طالما كدّر الأمم وأتى بالحروب والويلات».

وهو هنا يضع اصبعه على الجرح. فيحذّر من الخلافات الدينية والطائفية والمذهبية التي تؤدّي إلى خراب الوطن لأنها تسبب الفتن والشقاق والتناحر بين أبناء الشعب الواحد فتقوض دعائم الوحدة الوطنية. وهذا ما يجري على الساحة اللبنانية اليوم في أجلى صوره وأبرز مظاهره.

وهو مصيب كذلك حين يقول بأن الاصلاح لا يأتي من الخارج بل من الداخل. من داخل المجتمع. فلا احد يستطيع أن يحقق اصلاحاً مجلوباً من الخارج أو موحى به من الغرباء. بل إن الاصلاح يجب أن يكون نتيجة اتفاق وتوافق بين المواطنين والتسليم بالعيش المشترك والمصير المشترك، فلنستمع إليه يقول[٢٨]:

«مهما أصلح الناس لنا لا يقدرون أن يصلحوا قدر ما نقدر نحن أن نصلح لأنفسنا ولا سيما بعد أن أصبح في يدنا من السلطان السياسيّ ما قد أصبح بواسطة نظاماتنا وقوانيننا، فإن أحسنّا التصرف بذلك وإن كان قليلاً نبرهن للعالـم بأننا أهل لاستلام الكثير، وإلاّ فذلك القليل كثير علينا وهذه قواعد سياسية يعلمها صحيح المعارف والحكم ويجهلها الذين لا يدركون الأمور وأدلّة أحوالنا أعمالنا الماضية والحاضرة وهي معلومة عندنا وعند الأجانب الذين يرقبون أمورنا، وما من خطأ أعظم من خطأ معرفة الحقائق الجارية مع جهل أسبابها وعللها. ومن الفطرة أن يلقي الإنسان على عاتق غيره لوماً من الواجب أن يلقى على عاتقه...».

آراؤه السياسيّة

يلخّص لنا سليم البستاني في إحدى مقالاته سياسة الجنان في ستة أمور كما يلي[٢٩]: «لصيانة استقلال الأمم وحماية عزّ الممالك وحفظ أراضي السلطنة شروط في هذا العصر لا تستتب أمورها دون مراعاتها وهي ستة أمور أولية:

الأمر الأول: الاتحاد الوطني خاصة في الممالك الكثيرة الأجناس واللغات بحيث تكون صوالح جميع أهاليها مع اختلاف أجناسهم ولغاتهم متساوية سياسياً ومدنياً وتجارياً وعلمياً فإن ذلك يجعل كل عضو من أعضاء الأمة حريصاً على حقوقه خائفاً من ضياعها فيدافع عنها بالرضى والاختبار باذلاً ما عزّ وهان في سبيل صيانة الحالة التي تجعله متمتعاً بها.

الأمر الثاني: صيانة الأمنية العمومية في كل قطر بحيث تكون السلطنة وطناً أميناً لجميع الرعايا يتجولون فيها طالبين الترقي والتقدم منتفعين بأخصب أقطارها وأجمل ربوعها.

الأمر الثالث: انتظام العدلية بحيث يكون كل فردٍ من أفراد الأمة محمياً من تعديات أهل التعدي حماية نفسيّة وملكية فلا يقع عليه عدوان شخصيّ دون أن يكون متحققاً أن القصاص يلحق بمن تعدّى عليه ولا يخشى مطامع الذين يحاولون سلب ملكه والانتفاع بثمرات اتعابه كما أنه لا يخشى أن يصرف سنين وأموال قبل أن يتمكن من الانتصاف من ظالمه من جراء فساد بعض أعضاء المحاكم واعوجاج بعض أصحاب الإجراء.

الأمر الرابع: تعميم المعارف بالمدارس في كل جهة بحيث يؤول خروج الأهالي من ظلام الجهل والغباوة إلى ازدياد قوتهم الاكتسابيّة وسعادتهم الماديّة والأدبية واقتدارهم على المدافعة عن حقوقهم من أيدي أهل الظلم بمعرفة حقوقهم الطبيعية، والمنح التي تمن بها عليهم يد الحضرة السلطانية.

الأمر الخامس: القيام بالمشروعات النافعة من إنشاء الطرق والمرافىء والترع وتنظيم البرد وتنقيص أجرتها وبنيان المدارس

الزراعية، وغير ذلك مما يجعل الداخلية والسواحل قادرة على الانتفاع بنتاج الكدّ والجدّ ويزيد مداخيل الأهالي والحكومة معاً.

الأمر السادس: أن تكون مالية الحكومة ذات انتظام تام مقيدة بالمصروف وبأصول جمع الأموال الأميرية بحيث يكون كل إنسان عارفاً بما يطلب إليه دفعه منذ البداية دون أن يكون مجلس أو مأمور قادراً على تكثير الأموال أو تقليلها».

موقف الجنان من السلطنة العثمانية

لم تكن مجلة الجنان تدعو إلى الثورة على السلطنة العثمانية ومناهضتها، ولا إلى التمرد على الحكم العثماني، ولكنها كانت تدعو إلى الاصلاح السياسيّ الذي يجب أن يتحقق على مراحل وليس دفعة واحدة وهي تدعو كذلك إلى التوعية الاجتماعية والترقي والتقدم وانتشار العلم بين المواطنين ومحاربة الجهل والتفكك.

والذي يتابع مقالات سليم البستاني في الجنان يجد أنه كان في بعض الأحيان يوجّه انتقادات غير مباشرة وخجولة إلى الدولة المتسلّطة والسلطنة العثمانية والحكم العثماني، مطالباً المأمورين الذين يمثلون السلطة بالاهتمام بمصالح الناس، وأن يكونوا قدوة صالحة للناس همهم السهر على راحة الرعيّة. يقول في هذا الصدد(٣٠):

«من واجبات كل المأمورين في سورية وفي كل الممالك المحروسة الشاهانية أن يتجنبوا الاستخفاف بحقوق الرعايا وأن يعاملوهم بالإكرام والملاطفة ...» وهكذا فإن انتقاده للسلطنة يقف عند حد الطلب من المأمورين أن يهتموا بشؤون الناس محملاً إياهم تبعات الاستخفاف بهذه القضايا التي تسيء إلى الشعب وكرامته وحقوقه.

وهو كذلك كان يدعو إلى الوحدة، ولكن ضمن اطار السلطنة العثمانية وتحت جناح الدولة العليّة. فكأنه كان يرى في ذلك غطاءً من الحماية لشعوب هذه المنطقة التي لا تستطيع أن تعيش بدونه. أو مظلة تحتمي بها من مطامع البلدان الأوروبية التي كانت قد بدأت بالتسلل

إلى هذه المنطقة الاستراتيجية والغنية بثرواتها الطبيعية، وخاصة النفط، عن طريق الحماية والاستعمار.

وهكذا يتضح لنا أنه كان يؤمن بالتطور التدريجي للدول العربية وكان يحاذر أن يدعو إلى الثورة المكشوفة حتى لا يثير غضب الدولة العليّة عليه، وأن الذي يتصفّح أعداد مجلة الجنان لا يجد فيها أثراً «للمراقبة». فليس فيها مقالات محذوفة أو أسطراً بيضاء مما يدل على أن سياسة المجلة كانت تساير السلطنة العثمانية و«قلم المطبوعات» ولا تقف منهما موقف المنتقد. وكذلك فإن المجلة لم تتعرض إلى التعطيل فإن أعدادها كانت تصدر بالتتابع وبصورة دائمة إلى حين توقفت نهائياً سنة ١٨٨٦. ولعل أحد أبرز أسباب توقفها عن الصدور هو اشتداد المراقبة وتسلط قلم المطبوعات وتحول سياسة السلطنة العثمانية نحو القمع والتشدد والحد من الحريات الدستورية.

وهكذا نستخلص مما أوردنا أن دعوة الجنان إلى نهوض الأمة العربية من كبوتها ورقيها وتقدمها لم تكن تقف عند حد استقلالها التام وانفصالها عن جسم السلطنة العثمانية، بل الانضواء تحت رايتها. كانت تقول بالجامعة العثمانية التي كانت تدعو إليها بعض الفئات. ولم تكن تأخذ برأي الذين يفرّقون بين العرب والأتراك لأن هذا التفريق يؤدي إلى إضعاف الفريقين أمام الدول الأوروبية. وكانت سياستها تفضل أن تتدخل السلطنة العثمانية في مصر ضد ثورة عرابي باشا سنة ١٨٨١ بدلاً من تدخل بريطانيا. وهذا التدخل الأجنبي في شؤون البلدان العربية في المشرق والمغرب العربي هو الذي أدّى فيما بعد إلى استعمار هذه الدول من قبل الدول الأجنبية.

وكذلك كانت الجنان تقف موقف المحايد في القضايا السياسية الخارجية منها والداخلية. وإننا نستشهد هنا بما ورد في ردها على مقال كتبه مراسل جريدة «الناسيونال زيتونج» الألمانية يهاجم فيه الموارنة وينعتهم بصفات حقيرة فتقول(٣١):

«إنه لأمر معلوم أن شأن الجنان في كل حال خلو الغرض مع قطع النظر عن الظروف والأحوال وأنه منزّه عن التحزب لطائفة دون أخرى

أو لغرض دون آخر لأنه معلوم أنه ليس له صوالح طائفية ولذلك وبما أنه سلك سبيل الحياد يقرر اعتقاداته مع قطع النظر عن الصوالح الخصوصية أنه من أصعب الأمور على أجنبي أن يدرك أحوال وعادات البلاد الأجنبية التي يأتيها أو يقيم فيها بدون أن يركب مركبات الغلط، ويكبو به جواد الحكم. ومع ذلك نرى كثيرين من كتّاب الجرائد الأجنبية يأتون ربوعنا ويقررون أخباراً بحسب تأثيراتها الخصوصية فيهم، المجردة عن البحث المدقق في الأسباب والنتائج والظروف والأحوال وهذا هو ينبوع الأراجيف التي تنشرها بعض جرائد أوربا وتؤذي بها حساسيات الأهالي والحكومة إذ انها تكون بخلاف الواقع وربما كانت تؤثر تأثيرات غير حسنة في عقول الذين يتعاملون معنا ومع حكومتنا وبالنتيجة تأتينا بأضرار أدبية إن لم نقل بأضرار مادية لأننا كثيراً ما نصادف مسافرين منهم الذين يقولون لنا إنهم كانوا يظنون أن في بلادنا من التوحش والبربرية ما في أواسط أفريقيا. وقد رأينا منهم من أتى بالهدايا من الزجاج الملون وغيره ليقدموها لنا كما يفعلون بالعبيد، لنسمح لهم أن يجولوا في بلادنا مع أنه أمر مقرر أن الأمنيّة هنا وفي الداخلية هي أكثر من الأمنيّة في آمن أقطار أوربا وأن الأهالي على جانب عظيم من اللطف والرقة والكرم ومحبة الغريب وإكرامه...».

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن الجنان، التي كان يشرف على سياستها سليم البستاني، كانت تقف موقف المدافع عن الحقيقة وتتصدّى للدفاع عن الكرامة الوطنية وتبتعد عن الخوض في المعارك الصحفية وتترفّع عن التعصب والتزمت والإسفاف إلى دركات الأنانية. ولذلك فإنها تحاشت الرد على الحملات التي استهدفتها من قبل بعض الجرائد والمجلات المحلية وخاصة من انتقادات نشرة المجمع الفاتيكاني التي أصدرتها الرهبانية اليسوعية في بيروت في الأول من كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٠ ومن ثم جريدتهم «البشير» التي صدرت في بيروت في ٣ أيلول (سبتمبر) ١٨٧٠.

ومن خلال ذلك كله يتضح لنا بجلاء أن الجنان كانت بعيدة عن التعصب والتحزب والميل والهوى وكانت تسعى للوقوف موقف المحايد

قدر المستطاع وتترفع عن خوض المعارك الصحفية الجانبية أو مسايرة فئة دون أخرى على حساب مبادئها التي كانت تؤمن بها وتدافع عنها.

هويتها القوميّة

قلنا إن سياسة الجنان كانت موزّعة بين الأمة العربية والأمة العثمانية ولكن هذا لا يعني أنها تتخلّى عن هويتها القوميّة، فإن سليم البستاني كان يفاخر بمآثر العرب وشمائلهم وحبهم للضيف وإكرامه وتمجيدهم للكـرم. كما كان معجباً باللغة العربية التي تعد من أفصح اللغات وأوسعها.

وكان يرى أن هناك من ينتسب إلى العروبة ومن ينتسب إلى السريان والكلدان أو إلى اليونان وأن هناك أخلاطاً أو مزيجاً من تلك الشعوب. ولكن كل هذا لا يمنع من أن يشكل ذلك أمة واحدة. فالأمة الأميركية هي خليط من شعوب عديدة وأجناس كثيرة ولكنهم يشكلون جنسية واحدة هي الجنسية الأميركية.

وكذلك كان يرفض العصبية الدينية لأنها تؤدي إلى البغض والتنابذ والتناحر، فإن التمسك بالعصبية الدينية في بلاد مختلفة الأديان يؤدي إلى الانقسام والتناحر الذي يسبب الحروب الأهلية التي تؤدي إلى خراب البلاد.

ولذلك كان يطالب بالانتماء إلى أمة واحدة متجنسة بالجنسية العربية. وهذا ما يستنتجه الدكتور يوسف قزما خوري[٣٢] (ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦):

«كان سليم البستاني يدرك أن بسمارك (١٨١٥ ـ ١٨٩٨) استطاع أن يوحد ألمانيا تحت اسم الأمة الألمانية، وأن غاريبالدي (١٨٠٧ ـ ١٨٨٢) استطاع أيضاً أن يوحد أيطاليا تحت اسم الأمة الايطالية، باعتماد كل منهما على المقومات التالية: الوحدة الوطنية، وحدة البلاد، وحدة اللغة، وحدة التاريخ المشترك، وحدة المصالح المشتركة. كما كان يدرك محاذير تلك العناصر الأساسية بالنسبة إلى الأمة العربية

حيث تتوفر لها جميع هذه المقومات ولكن هناك عقبات تقف حائلاً دون ذلك، لأنه على حد قوله: (تحزباتنا الوطنية المبنية على أساس محبة الوطن هي مفقودة في ربوعنا) كما أن (العصبية الجنسية والعصبية الدينية لا تزالان في ربوعنا، ومن سوء حظنا، نحن من أجناس كثيرة وأديان مختلفة) وأن اعتصاب السياسة عندنا هي مع الدين (ففي الجبل مثلاً كان اعتصابها مع الطائفة المارونية وفي حلب مثلاً مع الإسلام، وربما في غيرهما مع غير هاتين الطائفتين كالدروز في حوران والنصيرية في جبال النصيرية وغيرهم). لذلك نراه يدعو إلى الفصل التام بين الدين والدولة لمداواة هذه الأمراض».

وفي (ص ٢٤٧) يتابع قائلاً:

«وهذا لا يعني أن الأمة العربية قد انقرضت وماتت ومحيت من سفر الوجود، كما جرى للأمة الرومانية التي ماتت بعد أن عاشت حياة كاملة، ونازعت أكثر من قرنين. إن الأمة العربية بخلاف ذلك لم تمت بل خسرت قوتها وأمست لا تقدر أن تسير على قدميها في سبيل السياسة، ولما صدمتها أنوار الدهر سقطت سقوطاً ولم تمت موتاً، لأن زمان حياتها لم ينته بعد. ولم يكن يعتقد بأن هذا السقوط لا يعقبه نهوض، بل كان يعتقد أن الأمة العربية ستنهض من كبوتها هذه متى أتاها الدهر بزمان يناسبها ترجع إلى زمانها. وذلك لأنهـا في عرفه، أمة خارجة من تمدن عظيم ولها تاريخ حضاري مجيد بني عليه تمدن هذا العصر فيكون تاريخها من أعظم مروجات اجتهادها في ترجيع ما سلب منها بسوء الإدارة، واستبداد الأحكام، وسلب الحرية العمومية».

بيد أن سليم البستاني لم يكن يرى أن وحدة الأمة العربية أمر طبيعي يمكن تحقيقه دون كبير عناء. أم أنه بالأمر الهين السهل، ذلك لأن دونه عقبات شتّى منها الجهل والتخلّف والفساد والتعصّب.

وفي سلسلة من المقالات يفنّد لنا العقبات ويذكر لنا الصعاب التي تعترض مسيرة الوحدة للأمة العربية. فلنتركه يوضح لنا ذلك:

في مقال افتتاحي تحت عنوان «الاصلاح» يطرح هذه الأسئلة[٣٣]:

«هل يصطلح العرب، هل يردّ الزمان إليهم الاتحاد. هل يقيم لهم

الدهر عزاً. هل يكلل تاج النجاح جبالهم. هل يطلع في مشرقهم بدر العلم. هل تنيــر شمس التمدن سهولهم. هل يغرّد بلبل السعادة في جناتهم. هل يرتفع عمود الثبات في حصونهم. هل يحرّك البخار آلات صناعتهم ومحارث زراعتهم. هل يدير تجارتهم دولاب البخار. هل تتحلّى ألسنتهم بصحة لفظ درر لغتهم، هل يخط المداد صحيح عباراتها. هل يطلع طالع السعد في برج الصعود. أو لا.

إن من تصفح صفحات التاريخ. وأمعن النظر في تقلبات الزمان. وتمكن من معرفة أحوال الشعوب والدول. وبحث في أسباب ارتفاعها وهبوطها. وعرف الوسائل التي تذهب بها إلى قمم النجاح. ووقف على حقيقة الوسائط التي تنزل بها إلى أسفل التأخر. وقاس ما يأتي على ما فات. يجيب قائلاً إنه لا بد من أن يرجع بنا الزمان إلى الأفق الذي قد حجبته عنا غيوم السياسة ودفعتنا عنه صواعق القوة والانشقاق، لأن من انتبه يسمع لرعود ظلمات الأجيال الماضية، ولجان زمان الأوهام الباطلة، ولأسـد الظلم الهالك دمدمة وغطيطاً وزئيراً بعيداً يكاد لا يسمعه من انهمك بالترحب ببلابل الحرية وبروق التمدن. غير أن البدر لا يخلو من الكدر. وفي الشمس ما يحاكي سواد كلف القمر.

ثم يتناول علاقة الحكومة بالشعب والشعب بالحكومة فيقول:

«لأن ما يضر الحكومة يضر الشعب وبالعكس، فإن افتقر الشعب تفتقر الحكومة، وإن قلّت الأمنيّة تقل الأعمال فتقل المكاسب ويضعف ينبوع مداخيل الخزينة. فإن الحكومة هي للشعب الروح. والشعب هو للحكومة الجسد. فإن ضعف الجسد تتعب الروح. وإن تعبت الروح يضعف الجسد. على أن الروح هي الجوهر الذي يقوم به الجسد وهو بالنسبة إليها عرض».

وهو يرى أنه من واجب الشعب محاسبة الحكومة وتبيان مفاسدها ويرى كذلك أن الشعب يصل إلى هذه المرتبة من الوعي السياسي عن طريق التطور التدريجي فيقول:

«هذا ولا يخفى أن وصول الشعب إلى الدرجة التي تمكّنه من ذلك، إنما يكون شيئاً فشيئاً. وبالوسائل التي تنسيه الفساد الذي تعلمه من

أرباب الفساد والغايات، وهذه الوسائل هي نوعان، الأول السطوة الصالحة لدفع عناصر الفساد وإخجال المفسدين. والثاني الوسائط التي تأتي بالمعرفة والناموس والمبادىء الصحيحة، وبذلك يتم اصلاحنا نحن العرب، ويصبح هلال نجاحنا بدراً في أفقنا الرايق».

وفي مقال افتتاحي غير موقّع تحت عنوان: «من نحن» يجيب على هذا السؤال مفاخراً بتاريخ العرب فيقول[٣٤]:

«نحن ذريّة قوم أفاضل قد اشتهروا قديماً بالمعارف والصنائع والتجارة والحماسة والشجاعة والفتوحات والفصاحة والحكمة. فمنا من ينتسب إلى العرب الذين سادوا ومادوا شرقاً وغرباً وتملكوا بلاد العرب والعجم وأفريقيا وأقصى المغرب والهند وامتدت فتوحاتهم إلى اسبانيا وأكثر بلـدان أوروبا ونشروا ألوية العدل والمعارف والصنائع والتجارة والزراعة في كل صقع ونادٍ امتدت سلطتهم إليه، واخترعوا أموراً شتّى والّفوا كتباً لا تحصى وأنشأوا مدارس لا عدد لها في كل مكان خضع لسلطتهم القهّارة..».

ثم يقابل متحسّراً بين ما كنا عليه بالأمس وما صرنا إليه اليوم فيتابع قائلاً:

«ولكن وا اسفاه أين كنا وأين صرنا، الآن، أين مدارسنا أين علومنا أين كتبنا أين مكاتبنا أين تجارتنا أين زراعتنا أين آلاتنا أين صناعتنا أين نخوتنا أين ثروتنا أين قوادنا أين تمدننا أين أكابر رجالنا أين معاملنا أين مراكبنا أين سككنا أين شعراؤنا أين علماؤنا... أين الرغد والراحة والكرامة التي كنا فيها...».

إلى أن يقول:

«لقد كثر فينا الوعّاظ والمنذرون الذين ينبهوننا إلى ما نحن فيه من الخطر وما قدامنا من الخراب والوبال، ولكن ماذا ينفع الوعظ من دون عمل، وماذا يفيد الإنذار إذا كنا كمن يضرب في حديد بارد، أو لم يكن من يسمع فيبادر إلى معالجة ما بنا من الأدواء والأمراض المتنوعة التي كثير منها عضال وأكثرها قد اختلفت عليه الأسباب...».

ثم يصف الدواء لما أصابنا من داء، ويـــرى أن أهم ما يجب أن

نفعله لبلوغ الرقي والتقدم والتخلّي عن الجهل والتخلّف هو إنشاء المدارس فيقول:

«لا نشك بأن المدارس مثلاً هي من أكبر وسائط التقدم ولكن ماذا يفيدنا إذا كثر فينا العلماء والمتكلمون باللغات ولم يكن لهم مراكز يحصلون منها على أسباب معيشتهم وراحتهم».

ثم يقارن بين ما وصلنا إليه وبين ما بلغته البلدان الأوروبية اليوم من تقدم ورقيّ فيقول:

«وهو معلوم أنه كما أن الأسماك الكبيرة تغتذي بالأسماك الصغيرة، كذلك الأقوام المتمدنون وأصحاب السطوة، يعيشون على كدّ وتعب من هم دونهم في ذلك، ولهذا ما دمنا على ما نحن فيه من التواني وعدم الاتحاد والإلفة والجهل والتعصب والأغراض والانقيا الأعمى للذين يحاولون ارتقاء سطوتهم وراحتهم على كيس جهلنا وغباوتنا، مكتفين بما ورّثنا اياه المرحومون من المغروسات والآلات والثروة لا يمضي إلا قليل حتى نرى أنفسنا قد وصلنا إلى أسفل السافلين ونرى جيراننا قد سبقونا في ميادين التجارة والصناعة والسطوة على مسافة فراسخ كثيرة بحيث لا يبقى لنا أمل بأن نلحقهم ولا بحفظ مركزنا الحالي وما دمنا نرى أهالي أوربا مع ما لهم من الوسائط والثروة والصولة يجدّون ليلاً ونهاراً ولا يدعون شيئاً من وقتهم يحسبونه ذهباً يذهب سدى...

وكيف يكون لنا أمل في مزاحمتهم حال كوننا نسير على ظهر الجِمال والحمير وهم يسيرون على ظهر الرياح والبخار. وأنّى يدرك الظالع شأو الضليع. أو كيف نؤمل نجاح صناعتنا وتأخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يمدح صناعتهم ويطعن في صناعة بلاده ويفضّل ما كان افرنجياً مهما كان على ما كان عربياً ولو كان أحسن وأرخص...

وإذا كان الإفرنج يقدمون لنا الإبرة والدبوس والخيط والكشتبان والمغزل والصنارة والحبر والورق والأقلام والرمل المصبوغ وكل ملبوسنا وأحذيتنا وزيتنا وأثاث بيوتنا وآلات صناعتنا وتجارتنا ومطابعنا ومعاملنا إلى غير ذلك مما لا يُحصى أفلا يحق لنا أن نندب حالة بلادنا

التعيسة، وعوضاً عن أن نقول من نحن ومن كنا وأين كنا نقول أين نحن الآن».

وفي مقالة له عنوانها: «لماذا نحن في تأخر»(٣٥) يعرض الأسباب التي أدت إلى تأخرنا ويبدأ بالنظر إلى التاريخ لأنه مرآة العالم ولأنه بمقابلة ماضي أمة بحاضرها ومعرفة أسباب ارتفاعها وسقوطها ينكشف الحجاب الكثيف الذي يحجب حقيقة الحاضر ويصبح كل مستور مكشوفاً، لأن المقابلة بين الأشياء تظهر جيدها من خبيثها... أما أسباب تأخرنا فسهل ادراكها على من ينظر إليها بعين التاريخ العادلة. وفي رأيه أن أبرز أسباب تأخرنا هو التعصب الديني: «لأننا منذ انقسمنا إلى عصب دينية وأخذ كل منا يحاول عضد عصبته وتنكيس غيرها قد عمّنا التأخر وخسف ظلام الجهل بدرنا»... ويرى أنه من أهم واجبات الحكومة تدارك هذه الآفة التي تسبب البغض والحسد والانشقاق وفي رأيه أن الدواء الشافي هو العلم فيتابع قائلاً: «ومن نتائج العلم الاتحاد والمحبة وتضحية الصوالح الخصوصية للصوالح العمومية. ونتيجة ذاك الشفاء من تلك الأمراض العضالة ورجوع الصحة التي هي أعظم بركات الله. فعلينا بالاتحاد والينا عن الانشقاق. وكل يمين حاولت تكدير هذا الدواء فخير لها أن تُشَلّ وأن يحسب صاحبها جيفة تكدّر أريج الاتحاد الذكي وتعكّر صافي كؤوس الإلفة والاتحاد».

وحتى بعد وفاة سليم البستاني سنة ١٨٨٤ تابع شقيقه نجيب مسيرة المجلة وفق الخطى المرسومة فهو يقول في ختام ثاني افتتاحية يكتبها(٣٦):

«ولقد قضت علينا الأقدار بولوج مضمار الأفكار وركوب أمواج السياسة فأطعنا معتمدين على نشر ما يحسن وقعه ولا يسوء أثره وما ينطبق على مقتضيات الصدق وحاجات البلاد والدولة ونزاهة الغاية ونبالة المقصد، ممتنعين عن نقل الروايات الفاسدة أو ما يورث الشقاق والتباغض والتضاغن والتحاسد شأن من خُتم على أفكارهم أو راموا لأبناء وطنهم سوءاً وسنعتني في انتقاء أكثر الأخبار شأناً وأوفرها نفعاً

وأصدقها رواية وأصوبها رأياً، بما نأمن معه شائبة السقوط وما يعقبها من اللواحق الوخيمة».

الخلاصة

ومهما يكن من أمر، فإن الباحث لا شك مدرك أهمية مجلة «الجنان» والدور الذي لعبته منذ ١١٨ سنة وأنها كانت في زمانها خير نبراس يهدي الوطن والمواطن، تدعو إلى الإلفة والاصلاح والرقي والتمدن. وهو مدرك أيضاً أن الكثير من الآراء التي نشرتها «الجنان» على صفحاتها طيلة ١٧ سنة، من سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٨٦، والأفكار والمبادىء التي دعت إلى الأخذ بها هي من دون شك آراء تقدمية ومتطورة.

ومما تجدر الاشارة إليه أنه في العقدين الأخيرين أخذت مجلة «الجنان» تحظى بالاهتمام من قبل المؤرخين والدارسين الجامعيين الذين وضعوا الرسائل الجامعية فيها كما وضعوا لها الفهارس. ففي كلية التربية في الجامعة اللبنانية وضع جبران أيوب، باشراف الدكتور جبور عبد النور، في أوائل السبعينات رسالة تناول فيها مجلة «الجنان» يقسمها إلى قسمين الأول يضم مقدمة ويشتمل على فهرس للموضوعات والثاني يضع فهرساً للأعلام. وهي غير منشورة. كما أن الدكتور يوسف قزما خوري اتخذها موضوعاً لرسالته التي قدمها إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت لنيل شهادة الدكتوراه سنة ١٩٧٦ عنوانها: «المعلم بطرس البستاني: حياته وأعماله مع دراسة لمجلة الجنان وإعداد فهرس لها». في ثلاثة أجزاء وهي كذلك غير منشورة.

وكذلك وضع مفيد جبور مؤخراً أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة القديس يوسف (اليسوعية) في بيروت عنوانها: «مجلة الجنان والاصلاح» باشراف الدكتور جبور عبد النور ولم تناقش بعد.

وهكذا، فقد ظهر لنا في نهاية المطاف أن المعلم بطرس البستاني وابنه سليم البستاني كانا يسعيان إلى خدمة وطنهما وشعبهما وتحقيق الحرية والسعادة والعدالة والمساواة ونشر المعرفة والدعوة إلى

الوحدة الوطنية والإلفة بين المواطنين ونبذ التعصب والخصام والتفرقة بين الناس والمذاهب والطوائف وفصل الدين عن الدولة وجعل الولاء للوطن.

وهل نحتاج نحن اليوم إلى أكثر من ذلك؟ فحبذا لو كنا نتعلّم منهما ومن مجلة «الجنان» كيف تكون الصحافة رسالة توحيد واصلاح وليس أداة تفرقة وتحريض وتضليل.

ولكي يظهر لنا فضل «الجنان» والبستانيين يجب أن ننظر إلى عملهما في زمانه فإن مثل هذه الآراء التي نشراها في صفحاتها والتي قد تبدو اليوم أموراً بديهية، فهي في زمانها كانت آراء متطورة وجريئة وتقدمية وسابقة لعصرها.

وهما من دون شك من رواد النهضة في المشرق العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

هوامش

(١) يقول الفيكونت فيليب دي طرازي (١٨٦٥ ـ ١٩٥٦) في كتابه «تاريخ الصحافة العربيّة، بيروت المطبعة الأدبية ١٩١٣، ح ١، ص ٧ ـ ٨: «ولما أنشأ خليل الخوري سنة ١٨٥٨ جريدة «حديقة الأخبار» في بيروت أطلق عليها لفظة «جُرنال» وهي كلمة فرنسية معناها «يوميّ» أي منسوب إلى اليوم للدلالة على الصحف اليوميّة بينما كانت جريدة أسبوعية.. ثم اختار الكونت رشيد الدحداح صاحب جريدة «برجيس باريس» الباريسيّة لفظة «صحيفة». ثم استعمل أحمد فارس الشدياق صاحب «الجوائب» لفظة «جريدة». إلى أن يقول «وكان الصحفيون لا يفرّقون أولاً بين الجريدة (Journal) وبين مجلة (Revue) في الاستعمال» ثم يقول: «إن الشيخ إبراهيم اليازجي هو أول من أطلق استعمال كلمة «مجلّة» على صحيفة علميّة أو دينية أو ادبية أو ثقافية أو تاريخية أو ما شاكل تصدر تباعاً في أوقات معيّنة».

(٢) كلمة معرّبة بصيغة الجمع ايطالية الأصل (Gazzetta) كانت تفيد في مطلع القرن السابع عشر قطعة نقود تساوي ثمن الجريدة في ذلك الحين. وهي في الفرنسية (Gazette)ومعناها جريدة او مجلّة. وقد استخدمت في العربية تحت لفظة «غازيت»

(٣) الجنان (١٨٨١) ص (٧٠٥ ـ ٧٠٦).

(٤) الجنان (١٨٧٠) ص ٥١٥

(٥) ظهرت في القاهرة بين (١٩٣٢ ـ ١٩٣٤)

(٦) ظهرت في بيروت سنة ١٩٥٧

(٧) اسسها في بيروت يعقوب صروف وفارس نمر سنة ١٨٧٦ وبعد خمس سنوات انتقلت إلى القاهرة، واستمرت ٧٥ سنة.

(٨) مجلة المقتطف ح ٣٦ (١٩١٠)، ص ٢٥٩.

(٩) دائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني، بيروت مطبعة المعارف. صدر المجلد الأول في سنة ١٨٧٦، والمجلد الحادي عشر والأخير في القاهرة سنة ١٩٠٠ وقد توقفت عند (الدولة العثمانية).

(١٠) تاريخ الصحافة العربية، جزء ٢ ص ١٠.

(١١) ولد في عبيه. وهو صاحب جريدة «لسان الحال» (١٨٧٥) ومجلة «المشكاة» (١٨٧٨) وقد تزوّج لويزا إحدى كريمات المعلم بطرس البستاني. وقد أسس مع سليم البستاني مطبعة المعارف.

(١٢) تاريخ الصحافة العربية، ح ٢ ص ٢٢.

(١٣) مارون عبود، رواد النهضة الحديثة، دار الثقافة، بيروت (لا.ت.) ص ١٨٥.

(١٤) مجلة الجنان (١٨٨١) ص ٧٠٥.

(١٥) تاريخ الصحافة العربية، ج ٢ ص ٤٧.

(١٦) صدرت في القاهرة ما بين ١٨٩٨ ـ ١٩٠٦.

(١٧) صدرت في الآستانة في تموز (يوليو) ١٨٦٠ ـ ١٨٨٧.

(١٨) تاريخ الصحافة العربية، ج ١ ص ٧٩.

(١٩) أدب المقالة الصحفية في مصر، القاهرة، دار الفكر العربي (١٩٥٠ ـ ١٩٦٣) الجزء الأول، (ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

(٢٠) مصادر الدراسة الأدبية، الجزء ٢، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٨٣ ص ١٨٣.

(٢١) مجلة أدبية أصدرها جرجي زيدان (١٨٦١ ـ ١٩١٤) في مصر سنة ١٨٩٢، ولا تزال تصدر حتى اليوم.

(٢٢) الجنان (١٨٧١) ص ٧٨٩.

(٢٣) الجنان (١٨٧٧) ص ٢٧٥.

(٢٤) الجنان (١٨٧٩) ص ٤٨٢.

(٢٥) الجنان (١٨٧٠) ص ٥١٥ ـ ٥١٦.

(٢٦) الجنان (١٨٧٧) ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٢٧) الجنان (١٨٧٤) ص ١٨١.

(٢٨) الجنان (١٨٧٤) ص ٧٢١.

(٢٩) الجنان (١٨٨١) ص ٤٨١ ـ ٤٨٢.

(٣٠) الجنان (١٨٧٣) ص ١٨٢.

(٣١) الجنان (١٨٧٠) ص ٧٤٣.

(٣٢) المعلم بطرس البستاني: حياته وأعماله، مع دراسة لمجلة الجنان وإعداد فهرس لها ـ أطروحة دكتوراه، دائرة التاريخ، الجامعة الاميركية في بيروت، ١٩٧٦ (مخطوطة).

المراجع

١ ـ **أعلام المقتطف**: القاهرة، مطبعة المقتطف والمقطّم، ١٩٢٧.

٢ ـ **البستاني، المعلم بطرس**: دائرة المعارف، بيروت، مطبعة المعارف، (١٨٧٦ ـ ١٩٠٠).

٣ ـ **البستاني، فؤاد افرام**: المعلم بطرس البستاني، الروائع عدد ٢٢، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٩.

٤ ـ **البستاني، ملحم**، كوثر النفوس وسفر الخالدين، مطابع المرسلين اللبنانيين، جونيه، ١٩٥٤.

٥ ـ **حمزة، الدكتور عبداللطيف**: أدب المقالة الصحفيّة في مصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٠ ـ ١٩٦٣.

٦ ـ **خوري، الدكتور يوسف قزما**: المعلم بطرس البستاني: حياته وأعماله مع دراسة لمجلة الجنان. وإعداد فهارس لها.
(رسالة دكتوراه في التاريخ من الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٧٦، غير منشورة).

٧ ـ **داغر، يوسف أسعد**: مصادر الدراسة الأدبية الجزء ٢، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٣.

٨ ـ **دايه، جان**: المعلم بطرس البستاني، دراسة ووثائق. منشورات مجلة فكر، بيروت، طبعة أولى آذار (مارس) ١٩٨١.

٩ ـ **زيدان، جرجي**: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٠٢.

١٠ ـ **صميلز، صموئيل**: سر النجاح، مطبعة المقتطف، القاهرة، طبعة ثانية ١٨٨٦.

١١ ـ **دي طرازي، الفيكونت فيليب**: تاريخ الصحافة العربية، بيروت، المطبعة الأدبية، سنة ١٩١٣ (في أربعة أجزاء).

١٢ ـ **عبود، مارون**: رواد النهضة الحديثة، دار الثقافة، بيروت، (لا. ت).
١٣ ـ **مطران، خليل**: ديوان الخليل، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، الجزء الرابع، الطبعة الثالثة ١٩٦٧.
١٤ ـ **المعلوف، عيسى اسكندر**: دواني القطوف في تاريخ بني معلوف، بعبدا، (لبنان)، ١٩٠٧.

المجلات والجرائد

١ ـ **مجلة الجنان**: من ١٨٧٠ ـ ١٨٨٥.
٢ ـ **مجلة المقتطف**: مجلد ٨ (١٨٨٣).
مجلد ٩ (١٨٨٤).
مجلد ٣٦ (١٩١٠).
٣ ـ **مجلة الهلال**: مجلد ٤ (١٨٩٦).
٤ ـ **جريدة لسان الحال**: العدد ٧١٢، ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٨٨٤.
العدد ٧٩٥٤ ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٩.

في المرأة(*)

الانصاف

لا تــأمن الأنثى زمـــانــك كلهُ
يــومــاً ولو حلفت يمينــاً تكــذبُ

إنهُ لما كان لا بد لكل زمان من روح، ولكل روح من حال. وكان لا بد لذلك الزمان والزوح والحال من عادات وأعمال وكيفيات واختراعات ودول ورجال تختلف في أكثر الأحوال عما كان لغيرها مما سبقها ومما ربما يتبعها. وكان ما اختص به الأمس لا يوافق غالباً روح اليوم وذوق أهله، كان لا بد من اختلاف العادات ومشارب البشر والهيئات الإجتماعية ومقتضيات الحال في أكثر الأمور المهمة والعرضية. ولذلك نقول إنه لا بد من موافقة روح العنصر في كل زمان ومكان. بدون التشبث بالأمور القديمة لمجرد كونها قديمة حال كونها لا توافق مقتضيات الحال ولا تسدُّ احتياجات الزمان، لأنه لو بقينا نحن العرب على ما كنا عليه قبل الإسلام وبعد سقوط الخلافة في آسيا وأوروبا وأوائل هذا الجيل لما كنا أدركنا ما أدركناهُ من المجد والعلى، ولا حفظنا للعالم كافة ما حفظناهُ من العلوم. ولا كنا عرجنا الآن عن سبيل الهبوط المظلم وسلكنا سبيل هذا العصر النيّر. وهكذا غيرنا مدنيّاً وعلميًّا وصناعيًّا وأدبيًّا وتجاريًّا. وإذا تمسكنا بعادات وأفعال الذين كانوا لا يقسمون للمرأة حظًّا من العالم الأدبي والمدني، ظانين أنها آلة خلقت لتقوم بحق سدّ احتياجات عملية تتعلمها بالنقل عمن سبقها غير معتنين بتعليمها وتهذيبها وتثقيف عقلها بحيث تقدر أن تقوم بأثقال أحمال التربية التي هي أساس لسجية وخصال الجيل الذي يقبض على زمام الأمور والأعمال، وتتحلى بتلك الخصال التي ترفعها إلى درجات الإعتبار وحسن الإدارة ورقة الجانب، والغيرة على ما لرجلها ولها وتؤهلها لأن تكون عضواً عاضداً للهيئة الإجتماعية، وحلية ثمينة لسلك

(*) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ٣٦٩ ـ ٣٧١.

التهذيب الذي بدونها يصبح معدوم الوجود، ومسعفةً لرجلها في حياتِه، ومدبرة لبيتِهِ وأولادِه ومناظرة على أشغالِه بعد وفاتِه وأنموذجاً حسناً لهُ ولأولادِه في فعل كل ما يمكّن التقوى واللطف والسرور والراحة والسكينة والنظافة والصدق والأمانة والحنو والحب من كل أعضاء العيلة التي تكون رئيسة لها بعد رجلها، نصبح نردّد ما ردَّد أجدادنا من الأقوال التي تحطُّ شأن النساء وتثلم صيتهن وتحقرهن في أعين الرجال ونفس أعينهن كالبيت الذي صدرنا به هذه النبذة، ليس لحسنهِ بل اظهاراً لقبحهِ وعدم موافقتهِ لروح هذا العصر وللواقع. ولا ريب أنهُ لولا وجود النساء في ظلمة الجهل المدلهمة، لما قال الشاعر هذا البيت، وعمم القول على كل جنس الإناث وإلّا لقام منهن كثيرات للانتصار لأنفسهن وأظهرن من عيوب الرجال ما لا يسرهم إظهارهُ. ولكن لحسن حظ الرجال لم يقم من النساء في القرون الماضية العربية من تحلت بحلى الآداب والعلوم، بحيث تتمكن من إبراز أفكارها والمحاماة عن جنسها. هذا ولا نقول ان الرجل يقدر أن يركن إلى امرأة جاهلة، لأن مجرد جهلها هو كافٍ لأن يجعلها غير أهل لأن يحقَّ الرجل أركانهُ فيها. لأنهُ ماذا ينتظر الإنسان من امرأة ولدت وشبَّت وتزوجت وهي لا تعرف أن لها من الواجبات غير القيام بخدمة الرجل وولادة البنين إذا كان رجلها من غير أهل الأيسار. والأكل والنوم والولادة والكلام الباطل المفسد السجية إذا كان من أصحاب الميسرة. ولا ريب أن من كانت كذلك لا تستطيع أن تحوّل بيت الرجل الذي هو ميناءُ راحتهِ إلى جنة تصدح فيها بلابل السكينة والحبور والراحة وتجري فيها ينابيع المحبة والخلوص والوداد. ويهبُّ فيها نسيم التقوى والتهذيب والأدب. ولكنها تكون واسطة المكدر الدائم بإظهار أمَّارات عدم الإرتضاء من معيشتها، والحسد من جاراتها، والتعب من تربية أولادها الذين بسوء إدارتها تشب فيهم عن صغر نيران الحماقة والغضب والرذيلة والكذب والبغض والحسد ومحبة الانتقام والكنود والجهل والإسراف وغيرها. فيكبرون وتكبر معهم هذه السجايا فتقودهم وتقود بيوتهم ومدينتهم ودولتهم إلى السقوط والخراب. ولذلك نرى أن كثيرين، لا بل أكثر رجال

البلدان الغير المتمدنة يصرفون أوقاتهم خارج بيوتهم في القهاوي ومحلات الملاهي. لأنهم لا يجدون في بيوتهم ما يجذبهم إليها ويحببهم بالإقامة فيها. لأن دأب النساء في أكثر الأحوال في بلدان كهذه اغتنام فرصة وجود الرجل في البيت للتشكي من سوء تصرف الأولاد ومن فلانة وفلان حتى ومنهُ نفسهِ. ولذلك يحب القيام خارج البيت أكثر من صرف أوقات الفراغ فيه. مع أن كثرة اجتماع الرجل مع امرأتهِ وأولاده في البيت هو من أعظم أسباب التقدم. لأنه فضلاً عن أنهُ يوكد لهم حنوهُ ومحبتهُ ويقوّي بينهم علاقات المحبة وبذلك تقوى العيلة يسكب عليهم ينبوع التهذيب ويحببهم به وبيبيتهم الذي إنما يكون واسطة لراحتهم وسرورهم لا سجناً مكروهاً لا يرى فيه غير أوجهٍ عابسة. ومن شأن هذا أيضاً تمكين علاقات المحبة بين الرجل والمرأة. إذ انهُ يجعلها توكد تعلقهُ بها ومحبته لها. وهذا يحملها على إفراغ جهدها في فعل كل ما يسرهُ ويريحهُ. هذا هو الذي يجعل البشر يدعون بالفرح للإنسان حال تنسمهِ هواء هذا العالم. وقد أفسد الجهل هذه المبادي الأساسية ونور الجوهر وأقام مكانهُ ظلمة العرض. لأن القصد من الزواج هو حصول شاب على مسلية ومعزية ومعينة. وقد تأكدت الأمة الإنكليزية التي هي أشدُّ أمم العالم ارتباطاً بعضها ببعض بأن أساس تقدمهم نظام العيلة لأنه كما تقوى علاقات أعضاء العيلة تقوى علاقات أعضاء الأمة. ويظهر شدة الاحتياج إلى تعليم وتهذيب النساء في العيلة التي يجتمع فيها أكثر من امرأة واحدة راشدة من حماة وكنة وضرَّة وغيرها. فإن كنَّ جاهلات تصبح العيلة مرسحاً للنزاع والبغض والحسد والشقاق والعياذ بالله. فإن رجل تلك العيلة يموت همّاً وكمداً أو يعيش كأنه مائت وروحهُ تعذبها شياطين الجحيم. ولذلك لا نحب أن نرمي الذي نظم البيت المذكور بسهام اللوم لأنه ربّما نظمه ونساءُ بلاده في ظلمة الجهل المدلهمة. على أننا لا نسلم بموافقة ذلك البيت لعصرنا هذا الذي أدركت فيه النساءُ من الأدب والتهذيب درجة تكاد تبلغ الدرجة التي أدركها الرجال. فكيف لا يركن الرجل إلى امرأتِه الأديبة المتهذبة. كيف لا يطلعها على أعمالهِ لكي تقدر أن تقوم بحق المناظرة

عليها إذا فجع به الموت قبلها. كيف لا يطلعها على أسرارهِ وهو يعلم أن معرفتها تجعل لها مقرًّا عميقاً في فؤادها. بخلاف المرأة الجاهلة التي إذا لم تجد بعد التفتيش من تطلعهُ على ما لا يستطيع قلبها الضيق حفظهُ تبيحهُ لحائط بيتها. كيف لا يحبها وهو يعلم أنها تفديه بنفسها. والخلاصة أن المرأة المتهذبة هي خير من المال الكثير وأحسن من المجد العظيم. ولا ريب أن محاسن المتهذبات تفوق قبائحهنَّ. هذا ولا نقول أنه يوجد امرأة كاملة لأن الكمال لله وحدهُ. ولكن نقول أن محاسن النساء المتهذبات تكاد تكون أكثر من محاسن الرجال المتهذبين لأن العوارض التي تطرأ على محاسن الرجل الناتجة من الغوص في لجَّة بحر هذا العالم المضطرب من الطمع وغيره هي أكثر من العوارض التي تكدّر محاسن النساء المتهذبات ولا بدَّ من أن يأتي زمان تقوم فيهِ نساءُ عصرنا للمحاماة عن أنفسهنَّ ويظهرن من محاسنهن ما لم يتحلَّ بهِ بياض القرطاس العربي. وفي مطالعة تآليف نساء أوربا وغيرهنَّ من المتمدنات برهان واضح على ذلك. فيعرف كل منا أنهُ سيصبح غرضاً لسهامهنَّ الجارحة إذا قال:

لا تأمن الأنثى زمانك كلهُ
يوماً ولو حلفت يميناً تكذبُ

ان التي تهزّ السرير بيسارها تهز الأرض بيمينها(*)

من التوفيق أن أفوز على غير أهلية بالوقوف خاطباً في هذا الموقف. ولولا دواعٍ لا أقدر على مخالفتها لاعتذرت بما يوجب العذر فأطعت واخترت موضوعاً للكلامِ الفقرة التي جعلتها استهلالاً للمقال منقولة عن الخطاب الأول الذي كُتِب في الشرق في تعليم النساء. ولمَّا كان المقصود البحث عن منافع النساء ومضارهنَّ كان لا بدَّ من حصر الخطاب في الجنس الكيّس اللبق وصرف النظر عن جنس دونهُ ظرفاً ورقَّةً. والمأمول أن يتقدَّم من الأمة الجميلة الشرقية من يكتب في الرجال كما كتبوا في الجنس اللطيف. فأقول:

(*) مجلة المقتطف ١٨٨٣، ص ٧٠٩ ـ ٧١٢ المجلد السابع، و ص ٧ ـ ١١ المجلد الثامن

لا نعجب لتعجُّب الذين لا تزال النساءُ في هيئتهم الاجتماعية في درجة منحطة من القول ان التي تهزُّ السرير بيسارها تهزُّ الأرض بيمينها ولا من حكمهم بأنهُ مبالغة ربما كانت لتمليق الجنس الظريف. ولا يُعَدُّ الانسان ذكراً كان أو أنثى من أهل المدارك الذين انتظموا في سلك البالغين الدرجة المعدَّة للإنسانية منذ بداءة الخلق. أو الذين اقتربوا منها. ولو بلغ الدرجة القصوى من اتقانها الخارجي. فإن الأساس إنما هو العقل ينبوع التصرفات والأعمال. والعقل واحدٌ في الذكور والاناث ولا أهمية لثبوت التفاوت الجنسي في قوتِه أو نفيِه في النسبة العقلية بين الجنسين كما أنَّه لا أهمية لتفاوت القوة العقليّة في جنس واحد لأن الكليَّات تعتبر الكل وتصرف النظر عن البعض فعقل أعقل النساء ليس كعقل أقل الرجال عقلاً ولا قوة أضعف الرجال كقوة أقوى النساء وأفراد الجنسين قد تتساوى. وقد يفوق بعض الاناث بعض الذكور عقلاً وقوةً. والنساء كالرجال في الدنيا أمة ذات قوة عقلية مديرة مدركة مميّزة وقوة مادية منفذة لأوامر العقل خادمة لاحتياجات الجسم. فكأن الدنيا ميزان منصوب ذو كفتين في كلٍّ منهما ثقل. فالرجال في كفةٍ والنساء في كفةٍ. ولا نبحث عن أي الثقلين أرجح ولكن عن التأثيرات التي يقدر الثقل النسائي أن يؤثرها في ذلك الميزان توّاً أو بالواسطة حسنة كانت أو غير حسنة. ولم تتوفَّق أمة النساء مطلقاً إلى بلوغ الدرجة التي بلغتها الرجال من المعارف العامة التي تثقف العقل بل تروّض الذهن وترقي المدارك وتقوّي التمييز وتكشف القناع عن وجه غادة الحقائق وتبلغ الإنسانية غايتها. ولا ريب أن بلوغ بعض الجنس درجة ذات شأن بالوسائط المناسبة دليل على اقتدار ذلك الجنس أن يتقدم بالحصول على أسباب الترقي والنجاح. وتكون المعارف العامة الصحيحة ضابطاً للتصرف والأعمال حتى يكون أهلها إذا اتفقت صوالحهم وأغراضهم على اتفاقٍ في المشرب والذوق والمعيشة بل قد تقرر في التجارب أن المتعمّقين فيها يكونون وإن اختلفت جنسياتهم وتباينت أغراضهم كأعضاء جسم واحد يأسفون من الحروب التي تكدر الالفة وتبعد الناس عن روضة الإنسانية الفيحاء.

ويصعب على من جمع المعارف التي تؤثر في التصرفات والأخلاق ذلك التأثير الحسن أن يكون عشيراً لجاهلٍ كما يصعب على صحيح الجسم أن يساكن المجذوم. لأن الجهل يجعل صاحبهُ غالباً منقاداً إلى هوى النفس شرس الأخلاق متقلب الآراء صعب المراس قليل الصبر. فما أصعب اتفاق الزوج والزوجة إذا كان التفاوت بينهما في المعارف عظيماً. فالجامعة العلمية هي ينبوع سعادة العائلة وتوفيق أعمالها. واتقان تربية الصغار. والحصول على راحة لا يفوز بها الذين قد أعمى الجهل بصيرتهم وارخت الغباوة حجابها على أعينهم.

على أن التلميذات اللواتي أصبحنَ لحسن الحظ في مدرسةٍ كهذه نشهد بالاختبار باتقانها يطلبنَ المعارف بعناية حضرة الخواتين رئيستهنَّ البارعة ومعلماتهنَّ المجتهدات سالكات السبل المؤدية إلى الجامعة العلمية ينبوع الراحة والسعادة وإلى إفادة الناس بالقدوة والاجتهاد لا يستعظمن مَا نسب إلى جنسهنَّ من الاقتدار على هز الأرض. ولا يفتخرنَ بالحصول على الوسائل العلمية التي تجعل لهنَّ المحل الأول. والافتخار ابن الجهل والدعوة سليلة الغباوة. والمعرفة ينبوع اللطف واللين والرقة والدعة. ومن اتسع نطاق معارفهِ عظم اتضاعهُ فيرى أن ما يعرفهُ قطرة بالنسبة إلى بحار يجهلها. ولهذه المدرسة فضل التقدم فإنها الأولى الثابتة للبنات. أُسّسَت تحت رياسة المرحوم دي فوريست الأميركاني بعد اعتناء عدة من حضرة المرسلين الأميركان بتربية البنات في عيالهم تربية تؤهلهنَّ لأن يكنَّ زوجات رجال عارفين لا يرتضون بأن يكون أولادهم وبيوتهم في يد نساء لا يحق الركون إلى صلاحيتهنَّ بوجوب الحقوق المشروعة لهنَّ أو عليهنَّ. وقد جاءت هذه المدرسة مع اختلاف أدوارها بثمرات يانعة تشهد بفضل الذين أداروها واعتنوا بها وعادت بالنفع العميم علينا لأنها مع المدارس التي تبعتها ونهجت منهجها أعدَّت لشبَّان الوطن المتقدمين في درجات المدنية الحقيقية والإنسانية شريكات مناسبات تجعل التي تحرّك السرير بيسارها صالحة لأن تهزَّ الأرض بيمينها هزّاً مفيداً نافعاً منزَّهاً عما طالما اتهمت بهِ جماعة النساء خطاءً أو صواباً من حب

المجد الباطل والافتخار بالعَرَض والاشتغال بما هو خارج فروضها عن الواجب عليها. فيكون حصن العائلة مدرسة الأدب وينبوع التقوى وروضة الالفة والاتفاق وجنة الراحة والرفاهية والسعادة.

والمرأة الأولى المذكورة في أقْدم التواريخ المقدسة هي امنا حواء التي أضاعت نعيم الفردوس بأكل الثمرة وإطعام أبينا آدم منها. وأكثر الرجال ينقادون انقياد أبيهم الأول. فتزلزلت أسس الراحة في الأرض وضاعت طهارة الجنس. وهبط البشر من ذروة العز والمجد إلى حضيض الذل والأتعاب والمطامع والأوجاع والمكاره. وقد ذكرت في التواريخ عدة نساء حصلنّ على شهرة بأعمال خطيرة كدبورة واستير وزنوبيا أو زينب وحنة دارك الفرنسوية واليصابات ملكة الانكليز وغيرهنَّ من اللواتي قلما قام الرجال بأفعال أعظم من أفعالهنَّ. ويضيق المقام دون ذكر أفراد النساء التاريخيات اللواتي هززنَ الأرض بيمناهنَّ فصرفنا النظر عنهنَّ وعوَّلنا على ذكر الأمور العامَّة الأولية توضيحاً لقول من قال: «إن التي تهز السرير بيسارها تهز الأرض بيمينها». وأين فتاة حسنة الأخلاق من فتاة تصرف قصارى عنايتها بالملابس وراحتها والاشتغال عن فروضها في المرقيات الأدبية بنفسها وبالأمور العرضية. فإن الأولى شأنها القيام بالواجب عليها واسترضاء أبويها والاجتهاد وحسن السلوك ومراعاة أحوالها بنفقاتها ونفع أخوتها بأن تكون قدوة لهم بالرصانة وسعة الصدر واللطف واللين وإعانة أمها على أعمال البيت وبالجملة اما أن تكون بركة لوالديها وعائلتها أو تعباً لهم. وأعظم المضرات تلحق بها وأعظم المنافع تغود عليها لأن عيون الناس تشخص إليها فتكتسب الصيت الحسن الذي يمهّد السبل لنوال السعادة. أو تشتهر بما يلقي الموانع دون راحتها الاستقبالية.

وأهمّ عرش تستوي عليه المرأة في مملكتها الصغيرة عرش الزواج فإن اعتدلت وعدلت وجدَّت وتمسكت بعرى التقوى وتحلَّت بحلى الرصانة والدعة وتمنطقت بنطاق الصواب واعتصمت بالصبر الجميل وتزيّنت بالتأني والاستقامة والطاعة والانقياد وابتعدت عن القصف والزيف والحدَّة والذم وعكفت على اتقان التربية وترتيب البيت وجعلت

نفسها روضة تزداد بها السعادة والانشراح في السرَّاء وتخفّف أثقال الهموم في الضرَّاء. تصبح مملكتها دار نعيم وهناء ترتع فيها هي وزوجها وأولادها. وهي ذات اقتدار على معاونة زوجها ومساعدته في أشغاله وأعماله وإن لم يكن لها يد فيها أو معرفة بها. أما هي التي يقوي بها عزمهُ وتعلو هممهُ وترتاح أفكارهُ إذا لم يلاق في البيت ساعة راحتِه وابتعادهِ عن الهموم والأشغال ومعاملة الخلق إلاَّ ما يريح بالهُ وجسمهُ من جهة انتظامهِ ونفقاتهِ وتربية أولادهِ. أوَما هي التي تقدر على صون صحته وتجديد قوى عقلهِ بالبشاشة والقناعة فيجلس طيّب النفس قرير العين وينام مرتاحاً يتناول طعاماً يهناهُ ويمراهُ بعدم استماعهِ تذمراً ولا شكوى. ويعود إلى اشغاله ساكن الخاطر مرتاح البال قوي العزم لا يشغلهُ عن أعمالهِ هم إدارة البيت وإرضاء زوجة تعنتهُ ولا تربية الأولاد ولا الاعتناء بأجسادهم وآدابهم ومعارفهم. ويسرُّ بانقضاء نهار الأتعاب والمشقات ليعود إلى حضن عائلة ذات نظام ـحة راضية بما تمَّ لها ليسمع أخباراً عائلية سارة وحديثاً مفرحاً يسهل ـى المرأة المتعلمة أن تحدث جليسها به لامتلاء خزانة معارفها تساع نطاق اطلاعها في أوقات الفراغ الطويلة عند التي تتقن إدارة ـينها. فشتان بين زوجة يضيق المقام دون تعداد منافعها. وزوجة تخزن همومها الحقيقة والموهومة في صدر ضيق لا قلب فيه ولا فؤاد لتلقيها في أذن رجلها المنكود الحظ متى عاد إلى منزل جد وكد وسهر الليالي وحمل الهموم والمتاعب ليجعلهُ ملجأ من مشقات الأشغال ونبال الحياة ومتاعب معاملة الخلق وليتناسى به هموماً لولا الفترات لانحلت جسمهُ وبرت عظامهُ وأسكنتهُ رمسهُ. وكلما وضع رجلاً أنهكها التعب على اسكفة البيت يقول لعلَّ الله هدى مديرتهُ إلى الصواب وغيَّر أحوالها. على أنه يخيب أملاً فيسمع ضوضاء ويرى اختلالاً ويصاب بسهام لوم تجد الزوجة أسباباً لرشقهِ بها متى ساء خلقها وضاق صدرها وضعف حبها ونفدت الحكمة من أعمالها وتصرفاتها. وقبل أن يستريح من الصدمة الأولى تبادرهُ بثانية. وهي شكوى التعب ومشقات التربية وإدارة الخدم. ثم بثالثة وهي طلب أشياء واللوم على تقصير أو

نسيان. فيغص بطعامهِ وتسلب راحتهُ في جلوسهِ ونومهِ. وهذه حال تبلي الجسم بالمرض والعقل بالضعف والعزم بالخوار. وتجعل الرجل مبتعداً عن البيت متجنباً لمعاشرة زوجتهِ طالباً السلوى بأمور أضاعت كثيرين من أفضل الرجال. ومن يطلب معينةً لهُ يطلبها للراحة. وإذا صبر على مضضهِ وكتم همهُ وتحمل مصابهُ يضيق صدرهُ وينحل جسمهُ ويضعف عزمهُ وعقلهُ وتسوءُ أحوالهُ وعقباهُ. والمتأمّل في هذه الأمور يقول حقاً إن «التي تهزُّ السرير بيسارها تهزُّ الأرض بيمينها». وتطاول الزوجة من أسباب خراب البيوت وانحطاط العيال. وكم من عائلة وقعت في عسرٍ لعدم مراعاة المرأة اقتدار بعلها واقتدائها باللواتي من الخطإِ أنْ تقتدي بهنَّ وسد أذنيها دون منبهات الحكمة ودواعي الأحوال. وما اجهل التي ترضى بعيشة العسر الداخلية للتظاهر بما تتوهم أنهُ يعززها ويكرمها. وهذه البلوى ينبوع الخلاف وعلة النزاع وسلب راحة العيال وحرمان الأولاد منافع التعلم وأسباب صون الصحة. فالمتعلمات يعرفنَ ما هي الراحة الحقيقية وأنها ليست البذخ والترف والمجد الباطل. وأن خلوّ الكيس من ثروة لا يُعَد بلية ولا عاراً وعيباً ولكنَّ البلايا والعيوب في خلوّ الصدر من المعارف والتربية من الآداب والسجايا. فالمعارف التي تجنى ثمارها وتزهو أزهارها في مثل هذا المكان هي التي تجعل الانسان حريّاً بالاعتبار والتكريم. والعاقلة توطّد اركان بيتها وتقوي دعائمهُ بمراعاة أحوال بعلها وجعل نفسها قيداً تغل بهِ يدهُ إذا رأت اسرافاً وتبذيراً. والتشبه بمن يفوقها بالمال عيب كبخل متموّلٍ يبخل على نفسهِ وعائلتهِ بأسباب الراحة وعلى ابناء وطنهِ بالاسعاف والاحسان. فالنساءُ زلازل تهدم أثبت البيوت أو صخور تشاد عليها أكثرها متانةً فتقوى على صدمات العواصف والسيول الجوارف.

واهمّ أعمال النساء تربية الأولاد الذين تتألف منهم العيال والطوائف والأمم والدنيا. ولا يكون التقدُّم والتمدُّن بالأراضي والبحار والأنهار والحجارة والأبنية بل بالرجال والنساء. ومن هم يا ترى الرجال والنساء. أما هم الذين كانوا أطفالاً في أحضان أمهاتهم يرضعون

البانهنَّ ما يكون مباعث عاداتهم وصفاتهم ونطقهم وتصرفاتهم. أما يقتدي الولد بوالدتهِ ويكتسب العادات الانسانية من عشيرته في الزمان الذي يقتدي فيه بكل ما يسمع ويرى. ألا تكسبهُ الصحة باعتنائها والأدب بقدوتها وتعليمها والثبات بثباتها والفصاحة بفصاحتها والتقوى بتقواها والترتيب والصدق والشفقة وحب الاحسان والصبر والإقدام وسعة الصدر بترتيبها وصدقها وشفقتها وإحسانها وصبرها وإقدامها وسعة صدرها. وبالجملة جميع الفضائل بفضائلها. وقد أجمع العلماء وأرباب السياسة على أن صفات الأمم العامة تكون بحسب التربية وأن الأمة المختلة تربية صغارها تكون أحوال رجالها في اختلال فالجهل أبو الخرافات والتواني والكسل وضعف العزم وفساد الأخلاق واعتبار عرض الأمور دون جوهرها والخفة والطيش وهو ينبوع العيوب التي تعيب الرجال والنساء. وبالتربية تغرس العادات في الصغار فتنمو بنموّهم وتكبر بكبرهم وتكون المدارس غالباً قليلة التأثير فيهم إذا لم تسند مساعيها بتربية الأمهات الحسنة. وما يألفهُ الإنسان في الصغر يعود إليه غالباً في الكبر والقيود المدرسية لا تقوى عليه إن كان قبيحاً إلّا موقتاً. وثبت أن الصداقة الوطنية من آثار التربية. وربما ذهبت سدىً ولكنها في الغالب تأتي بالثمار اليانعة والمنافع الجمة لرسوخ تأثيراتها في العقول والقلوب. وأثبت ذلك أعظم رجال الدنيا ومنهم نابليون الأوَّل فإنهُ قال تكراراً وهو محاط بالكفر وفساد الآداب ان آثار تربية أمهِ المؤَسسة على التقوى تجعل لأصوات الأجراس في الكنائس تأثيراً عظيماً في قلبهِ. وسئل مَن هي افضل النساء فقال اكثرهنَّ أولاداً عنى بذلك أن افضل النساء هي التي تبذل حياتها وقوَّتها وعنايتها في سبيل تربية كثيرين من الصغار تربية حسنة نافعة للعائلة والأمة والدولة. فاعتنى جداً بإنشاء مدارس للإناث وكان يزورها مكافياً المجتهدات من التلميذات حال كونهِ محاطاً بمهام الملك والحروب والمشروعات النافعة والمقاومات وإدارة امبراطورية متسعة الأرجاء كثيرة المشاكل والاحتياجات متنوعة الأجناس. ومن اقوالهِ لا تستقيم أمور الأمة ما لم تصلح شؤون الأمهات فإنهنَّ أساس النجاح والفلاح

ففي أيدي النساء عنان البشر في الصغر وهو زمان الاقتداء وتأسيس العادات. ولم يبالغ من قال «إن التي تهزُّ السرير بيسارها تهزُّ الأرض بيمينها». وأما المرأة في بيتها فهي ينبوع الراحة والانتظام في النوم والأكل والمعشر. والدخول والخروج والخدمة والنظافة وصيانة الصحة تتوقف على عنايتها. واستقامة أحوال البيت أمر كلي عند الرجل وبدونها لا يحصل على ما لا يستغني عنهُ العقل والجسم من الراحة والسكون لتجديد القوى لمعاطاة الأشغال. والبلية العظمى هي تقصيرات مديرة البيت ان زوجة أو أماً أو أختاً في إدارتهِ وصيانتهِ من خيانة الخدم ومطامع الباعة وإسراف البنين واختلال انتظام المعيشة فإن الانتظام يصون الصحة ويؤول إلى ترتيب الأشغال الخارجية وصفو أفكار الرجل. والإشارة إلى هذه الأمور كافية لإثبات اقتدار هازَّة السرير على هزِّ الأرض.

ومن يا ترى ابلاهُ الله بمرض وفاز بعناية زوجة أو أمّ أو أخت أو نسيبة تحلت باللطف والرقة والشفقة والحنوّ ولم يشعر بمنافع عناية النساء في غرفة المرضى. أما هي علاج ربما نفع أكثر من علاج الطبيب فمن علاجها النافع لباقتها وكياستها وترتيبها ولطف عملها ورقة جانبها واقتدارها على اقناع العليل باستعمال ما ينفعهُ من دواء وطعام برقة الرجاء والجواذب الغريزية وخجلهِ من الاشمئزاز من كراهة الدواء وغير ذلك من المؤثرات التي جعلت الأطباء يحكمون أن خدمة النساء المرضى أنفع جداً من خدمة الرجال لأن ليس لهم صبر النساء على الاعتناء بالمريض وهي من خصائصهنَّ ومن فروع التربية بالنظر إلى الأطفال. والأُمُّ قادرة على أن تقلل أمراض أولادها وأوجاعهم بترتيب معيشتهم وتنظيفهم ومداواتهم في الأمراض العرضية بما لا تجهلهُ أُمٌّ عارفة ولا سيما إذا عزَّ عليها الحصول على منافع الطبيب كلما شاءت. وللتقوى والآداب المحل الأوَّل في التربية وفي الهيئَة الاجتماعية السليمة من العلل. والزوجة الحكيمة قادرة على أن تصون بيتها من الشوائب والعيوب وما يضرُّ بالصحة والصيت من الأعمال والعادات بإلغاء الموانع دونها باللطف والحكمة ولا سيما دون السكر والمقامرة

والعشرة الردية وإذا مال زوجها عن سواء السبيل ترد جماحهُ بالاقناع والاسترضاء والنصح ومراعاة صالح البنين وتقيم لهُ أسباباً للهو بما ينفع الجسم والعقل. والمرأة ولو محجوبة قادرة على الجمع بين السلوك الحسن وتسهيل سبل الصداقة بين عائلتها وعيال أخرى ذات آداب تكون عوناً وسلوى. وقادرة على أن تبلي العائلة بالانفراد أو الحسد أو الغيرة غير المرتبة والنميمة والغيبة والكبرياء والادعاء والحدة والمواخذة على الصغائر وإظهار البغضاء قبل الوقوف على الحقيقة والتنكيت على أعمال الناس وأقوالهم والغرور. فتأخذها الألسنة وتنفر منها القلوب ويتجنبها الناس فيضر زوجها وسائر أعضاء عائلتها بغير ذنب. وفي الغالب إذا ساءت أخلاق مديرة البيت تسوء أخلاق من فيه ولا سيما الخدم وتسلب راحة العائلة بسوء ادارتهم وكثرة تبديلهم. وعلى الأمّ أن تغرس في قلب أولادها الشفقة وحب الاحسان إلى المحتاجين ومساعدة الناس بمدح المروءة وبالقدوة الحسنة. وغياب الأب عن البيت يجعل النصيب الأوفر من ذلك للأم لقي المسؤولية الكبرى على عاتقها. والزوجة قيد للرجل في معاملاته ذا كانت معتبرة عندهُ لتعقلها يجتنب ما يحط بشأنهِ عندها حرصاً على اعتبارها لهُ وإلاَّ ربما أعانتهُ على أعمال تعود بالضرر عليه والاتفاق على الضلال والنفاق يسلبان الراحة. ولا بد من أن تسوء عواقبهُ ولو بثلم الصيت فيبيت الإنسان كالبثرة الخبيثة في جسم الهيئة الاجتماعية.

والمرأة في الجمعية عضو مهم جداً تحيا به الآداب وتصان مما لا تخلو منهُ جمعية ألفت من الذكور فقط. وتروج سوق التهذيب والفضائل رواجاً ينفع جميع أعضائها ولا سيما الشبان الذين يطلبون الرفعة في الهيئة الاجتماعية واكتساب اعتبار الناس خصوصاً الجنس اللطيف. وجماعة النساء قادرة أن تسوق الأمة إلى ما يفوق اقتدارها المالي بالزيف والبذخ أو أن تقيدها ضمن حدود قدرتها. والهيئة الاجتماعية في عصر النور والمعارف بلا النساء الأديبات كالنبات بلا أزهار. والمرأة الجاهلة العاجزة عن تغذية العقول بأحاديثها وأفكارها وعن أن

تشرح الصدور بتهذيبها وعن أن تنفع بقدوتها وتحريضاتها عنصرٌ مضرٌّ بالهيئة الاجتماعية فتشغل نفسها وغيرها بالأمجاد الباطلة والافتخار بما ينبغي أن يخجل بهِ الإنسان. والوطن بأهلهِ والنساء نصفهم. فلا تستقيم أمورهُ ولا تنظم أحوالهُ ولا يبلغ الدرجة القصوى من المدنية ما لم يحصل هذا النصف على الكمال المدني. والتمدن عبارةٌ عن انتظام أعمال العقل والجسم والمنزل. وانتظامها يتوقف على النساء. ولقد كانت حكومة اليونان القدماء تأخذ الصغارَ من والديهم لتربيتهم تربية جسديةٍ وعقلية تؤهلهم لأن يكونوا أبناءً صادقين للوطن قادرين على نفعهِ. فالأُمُّ هي التي تؤَسس الصداقة الوطنية في القلوب وتضرم الحمية في الأفئدة وتعوِّد الصغار الشجاعة والبسالة والثبات والإقدام وصيانة الكرامة والناموس ومراعاة المنافع العامَّة وتغرس هذه الفضائل فيهم بقدوتها وكلامها ونصائحها والامتناع عن إلقاء الخوف في قلوبهم بالأوهام وعن اذلالهم بالكلام والتأديب وعن التذبذب في معاملتهم. وقد تحقق المتمدنون أن للتربية تأثيراً عظيماً في نسبة البشر إلى أوطانهم حتى أنهم ألَّفوا كتباً للصغار من شأنها غرس الفضائل الوطنية فيهم بل نظموا أغاني للأطفال تنشدها أمهاتهم عند تنويمهم أو إسكاتهم عن البكاء وشحنوها بما يؤَسس في القلوب الحمية والصداقة والغيرة الوطنية.

وتعاون النساءُ الرجال على الدفاع عن الذمار بالاعتناء بجرحى الحروب وإضرام نيران الحمية في قلوب الشبَّان بالتحريض والتهييج. فالأم التي تودّع ولدها عند الذهاب إلى ميدان القتال بالتحريض على القيام بالفروض الوطنية والاتكال على خالقهِ وملاقاة المخاطر بالشجاعة والثبات والطاعة للرؤساء تهب الوطن جندياً شتان بينهُ وبين الجندي الذي تفارقهُ أمهُ بإذراف الدموع وإظهار الخوف والجبن. وكم من أمٍّ ودَّعت ولدها وزوجة زوجها بكلام أشعل نيران الحمية في القلب ومحا آثار الخوف من الفؤَاد وحمل على ملاقاة العدوّ بعزمٍ ثابت وشجاعةٍ تليق بالرجال. وكم من رجلٍ بذل الألوف إحساناً وإسعافاً للوطن وقام بأعمال صعبة مجاراةً لإرادة من لها عليهِ نفوذٌ واعتبار. وكم

من بطلٍ حمل بعد أن تقهقر بمجرَّد كلمة حماسية من امرأةٍ أو بمجرد وقوع بصرها عليهِ. وقد كانت النساء سبباً في سلامة قبائل بل ممالك. ولا ريب أن التي تهزُّ السرير بيسارها تهزُّ الأرض بيمينها بالتربية والقدوة والبسالة والتحريض على القيام بالفروض الوطنية وبذل النفائس والنفوس في سبيل حماية الذمار. وتعزيز الوطن وإنشاء محلَّاتٍ دينية وعلمية وإحسانية وأدبية.

وتأثير المرأة عظيم في تصرُّفات زوجها في البيت والأشغال والهيئة الاجتماعية إذ تكون قادرة أن تحصل على رضائهِ وحبهِ واعتبارهِ باتقان الإدارة والتربية ومحاسن الأخلاق ولين العريكة وتوجُّه العناية إلى ترقي أسباب راحة العائلة ورفاهها. فيصفو بالهُ لمعاطاة الأشغال ويعظم سرورهُ بالتحصيل لإنماء اللذّة العائلية وتعزيز شأنها في الهيئة الاجتماعية. فيفرغ جهدهُ في جعل سلوكهِ حسناً وفي تكثير الأصدقاء الأمناء والأدباء. وسلوك الزوجة الحسن يجعل الرجل حريصاً على صيتهِ وصيتها مجتهداً في توطيد الصلات الجارية بينهُ وبين الناس بالدماثة والتحمل والدعة والتواضع. وإذا ساءت أخلاق المرأة يُحرَم زوجها التمتع بهذه اللذَّات والراحة وربما دُفع إلى ما يسلب راحتهُ وراحتها ويبعدهُ عن أهل الأدب والاعتبار. وتكون الزوجة ذات السجايا المذكورة رقيباً لطيفاً يراقب على قدر الإمكان أعمال بعلها ويبذل لهُ من النصائح المنزّهة عن الحدَّة والارشادات الخالية من الدعوة والعظات الناشئة عن الحرص على الصيت وحبّ اكتساب الثقة العامَّة ما يقوّيه على الصدق في الكلام والاستقامة في المعاملات وسهولة الأخلاق دون أن تبدي ما يدلُّ على حب التسلط عليهِ والترأس على أعمالهِ ولا الادعاء بمعارف تفوق معارفهُ ولا إدراك يمتاز عن ادراكهِ. ولما كان معلوماً عند المرأة العاقلة أن درجة اعتبارها تكون بحسب اعتبار زوجها كان لا خوف من محاولة التقدم عليه والتسوُّد على أعمالهِ فلا تتشوَّش اعمالهُ وتصرفاتهُ بحدَّة اخلاقها ولا تعكّر كاس حياتِه بما ينتج عن الإخلال بالانتظام الطبيعي ولا تحط كرامتها وشأنها بأن يتقرَّر في عقول الناس أنها زوجة رجلٍ ليس بأهلٍ لأن يكون رئيساً.

وتنفع بيتها نفعاً جزيلاً بالتمييز بين الغث والسمين من الأشياء ومعرفة الأسعار فلا يقدر الباعة أن يسلبوا مال زوجها بالغش والخداع. وكذلك إذا كانت عارفة بالطبخ وان متموّلة تكسب الطعام إتقاناً ولذّةً ولا تذهب موادُه هدراً. وفخر الرجل بالاقتدار على القيام بأشغالهِ عند مسيس الحاجة وفخر المرأة أن تعرف إدارة البيت والمطبخ. وأعظم النساء لا تخجل أن تدخل المطبخ مناظرةً على أعمالهِ. واحذق طبَّاخة في الدنيا ملكة. فهذه أمور تثبّت ما للمرأة منِ الأهمية والنفع والضرر.

وتصبح المرأة في حالةٍ مهمةٍ جداً بعد موت رجلها عن قصَّرٍ إذ تصير الرجل والمرأة فتقومِ بإدارة البيت والأشغال. فإذا كانت ذات أهلية تصون البيت وتقدمهُ وتقوم على الرئاسة المزدوجة بالحكمة والدراية. وإذا كانت محتاجة تسعى في طلب الرزق أو تشتغل للحصول على أسباب المعاش. وكم من بيت أمسى خراباً بسوء إدارة الأرملة وعجزها عن صيانتهِ من مطامع الطامعين وغدر الغادرين وكم من فتًى ضاع من ضعف سطوة الأُمّ ونفوذها وتقصيرها بالتربية حين تكون هي الأُم والأب معاً. وفي البلاد الأوربية أهمية كبرى للنساء في الأشغال لأنهنَّ يتعاطينَ التجارة والتأليف وكتابة الجرائد والصناعة منخرطات أيضاً في سلك خدمة الحكومة والمعامل وغيرها. ولا تقدر النساء الشرقيات على القيام بذلك إلاَّ بعد الحصول على المعارف الكافية. وفي بعض البلدان الأوربية عقدت النساء جمعيات لتعميم الحقوق المدنية. وقام لهنَّ أنصار من الرجال طالبين أن يتمتعنَ بتلك الحقوق. وهذا لا يخطر لأحدٍ ببال في الشرق لأنهنَّ لم يبلغنَ الشأْو الذي يؤَهّلهنَّ لهُ. فمن المألوف عند الغربيين أن التي تهزُّ السرير قادرةٌ على أن تهز الارض.

والعاقل لا يقطع بأمرٍ عظيمٍ ولا يبرم عملاً مهماً إلاَّ بعد المشورة والذي لا يشاور في أمورهِ جاهلٌ تكثر كبواتهُ وزلاَّت قدمهِ. ولكل إنسان أمور سرّيةٌ ليس من مصلحتهِ أن يكاشف بها أحداً ما لم يتيقَّن أن صالحهُ متفقٌ مع صالحهِ. وربما ساقتهُ الضرورة إلى خسارة منافع المشورة بضرورة الاستعانة على قضاء حاجاتهِ بالكتمان ولكن إذا

كانت زوجتهُ ذات اطلاع وحذق يشاورها في أمورهِ ويستعين برأيها على حلّ المشكلات والتخلص من الصعوبات.

وهذا مبحثٌ طويلٌ عريضٌ يضيق دونُه خطابٌ واحدٌ فاكتفينا بذكر الأمور العامة والإشارة إلى بعض الخاصة لأن البحث عن كل فرعٍ من الفروع التي ذكرناها يملأ صفحاتٍ قدر صفحات خطابنا. وما تقدَّم كافٍ لاثبات ما رأينا أنَّ دواعي الصوالح العامة تدعو إلى إثباته في بلادٍ آخذة في الانتقال من حالٍ إلى حال بعد الخروج من حالةٍ جعلت النساء في درجةٍ منحطة جداً وحجبت عن الأمة منافع نصف قوتها. وقد تبيَّن أن اقتدار النساء على النفع والضرر ربما لا ينقص عن قوَّة الرجال فالوسائل التي تتخذ لجعل النساء عنصراً مفيداً ينبغي أن تكون قدر الوسائل التي تستعمل للذكور. فإن النساء أساس البناء التمدني ولا يشاد في أمةٍ إلَّا على ذلك الأساس. ومن أقوال نابوليون الأوَّل أن ما نبنيهِ في مئة عام تهدمهُ المرأة في سنة. والشعب الذي يحاول ذكورهُ التقدُّم دون النساء كالرجل الذي يحاول السفر ماشياً برجلٍ واحدة. القوة البشرية في الدنيا نصفها ذكور ونصفها إناثٌ. فلا يحقُّ لأحدهما لافتخار على الآخر لأن كلًّا منهما أقدر من الآخر على ما خصَّ بهِ. والذي خصَّ بهزِّ السرير بيسارهِ قادرٌ على هزِّ الأرض بيمينهِ

ولو كان النساءُ كمن عنينا
لفُضِّلتِ النساءُ على الرجالِ
فما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ
ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ

في الاجتماع(*)

جملة في الهيئة الاجتماعية

سعادة الانسان بنوال مأربه وشقاؤُهُ بانقطاع حبل الأمل بعد اتصالهِ بالمأمول وشأن الأمم في ذلك شأن الأفراد ولأهل الدنيا ديدن واحد إذا باتوا في ظروف واحدة ولو اختلفت الأزمان ومرآة أحوالهم تواريخهم فإنها آثارهم فتدل عليهم دلالة تحمل المتأخرين على أن ينتفعوا من المتقدمين ما لم يخدعوا أنفسهم فيمسوا يعتقدون بأنهم على غير ما هم عليه فيرون النقص فيهم كمالاً وكمال غيرهم نقصاً لمخالفتهِ أحوالهم ومشاربهم وهذا هو ينبوع التأخر والهوان فالعاقل الحاذق من لا يزدري بما عند غيرهِ لأنهُ ليس لهُ كما أن الجاهل الأحمق من يستحسن ما عند الآخرين لمجرد كونهِ غير حاصل عليهِ وهما طرفان متجاوزان حدود الاعتدال ومرآة القوم في هذا القرن كتّابهم فإن أروهم نقصهم ودلوهم على أسباب اصلاح أحوالهم يقومون بحق واجباتهم وإلا فهم من المقصرين الذين يضرون بالذين من واجباتهم أن ينفعوهم ومع أنهم يعرفون ذلك لا ينفكون عن تمليقهم خوفاً من أن يكدروهم بإظهار حقيقة حالهم ومن يا ترى لا يراعي القوي خوفاً من بطشهِ أكثر من الضعيف اشفاقاً على ضعفهِ وذلهِ وهذا مصدر تمليق الحكم والرؤساء الروحيين وأهل السطوة وما زال الانسان يمتاز عن الحيوانات العجم بالنطق الصادر عن قوة الادراك والتمييز بكون مصدر اعتبارهِ حسن السجايا والدعة ورقة الجانب ومراعاة حقوق الآخرين فإن من كان متجرداً عن تلك الصفات لا يستحق أن يكون موضوعاً لاعتبار القوم وإذا التزموا أن يعتبروهُ فمن الواجب أن يكون ذلك الاعتبار محصوراً في ما لا مفر منهُ فإن الصلاح والفساد لا يجتمعان ولذلك يتجنب الصالح العاقل مصاحبة الفاسد الجاهل وهذا يمكّن القوم من أن يؤدبوا الذين يستحقون التأديب من اهل السطوة الذين

(*) مجلة الجنان ١٨٧٢، ص ٨٢٩ ـ ٨٣١.

يختلسون المجالس الأولى في العالم بالمراتب أو بالمال أو بهما جميعاً ويتمكنون من الثبات فيها بعد ظهور امرهم بانشقاق القوم وجهلهم وملاحظتهم الصوالح الخصوصية دون العمومية كأن ليس لهم فيها صالح مع أن انتظام الحال العمومية تأتي بانتظام الخصوصيات وبئس الحال حالة الأمة التي يجلس في صدور مجالسها الذين لا تقدر أن تنتفع منهم فإن انقياد القوم اليهم انقياداً يمكنهم من السطوة يجعل الانتفاع محصوراً فيهم فيكون انتفاعهم ضرراً للآخرين ولو كان وصول الانسان في الشرق إلى تلك المجالس محصوراً في أهل الأهلية الذين يراعون مصالح القوم كمراعاتهم صوالحهم في تلك الظروف التي تبيت فيها الأمم وهي في حالتنا لأصبح أكابر القوم أهل الفضل منهم فلا يرتفعون إلى ذلك المركز ما لم يظهر فضلهم بنفع الجمهور ولا يثبتون فيهِ ما لم يكونوا ثابتين في فضائلهم وشأن الأمة التي ليست على انتظام من هذا القبيل شأن المرأة التي تمسي مديرة بيت كبير حال كون كسلها لا يمكنها من أن تحسن حالة جسدها أو كالفتاة التي تفعل ما تظنهُ أنهُ يرضي خطيبها مع أنهُ يحط شأنها في عينيهِ فترى منهُ الكدر عوضاً عن السرور وتسمع الذم عوضاً عن المدح أو كالمرشد الذي ينهي عن الشر وعادتهُ ارتكاب الشرور فانهم جميعاً يبيتون في مراكز بلا أساس تحتها حفرة الفشل والارتباك والاضطراب والهوان والعار فكما انهُ لا يسد جوع الجياع مجرد النظر إلى الطعام لا يكفي الأمة أن تشعر بغيظها مما ترى أنهُ يضر بها لأنهُ لا بد من أن تجعل لذلك الغيظ تأثيراً يشعر به من كان سبباً لهُ منها أو من الأجانب فإن حبس الغيظ يضر بالانسان كما أنهُ يضر بهِ حبس ما يحتاج الجسد إلى افرازهِ فإنهُ اذا اغتاظ زيد يشعر بأنهُ في ضيق ولا يشعر بزواله اذا كان غير قادر على اظهارهِ ما لم يخرج من حضرة الذي اغضبهُ ويقفل الباب بعنف وراءهُ أو يسير مسير الغيظ أو يشتم الذي أغاظهُ على غير سمعهِ وكذلك لا يشعر الانسان براحة بعد الوقوع في مصيبة ما لم يقص مصيبتهُ على أحد أصحابهِ وعلى الخصوص اذا كان من النساء فانهنَّ شديدات الانفعال فلا بد لهن من اخماد نار غضبهن أو تعزية

انفسهن في حزنهن باظهار الواقع للغير ولو كان ذلك لا يخلو من الضرر لهن وهذا الضرر يلحق بالأمم إذا حبست غيظها وطيش القوم يأتيهم بالضرر ويوقع بينهم الشقاق ويمكّن اهل الغايات من أن ينفذوا غاياتهم وكم من قوم هلكوا مادياً او أدبياً بعدم التأني واستقصاء الأخبار فإن فساد المفسدين يحملهم على ان يعدوا اعداء لهم الذين ربما كانوا يجتهدون للحصول على صداقتهم اذا لم نقل انهم من الذين يحسبون انفسهم من المخلصين لهم مع انهم لو فتحوا أبواب العتاب لنالوا الترضية بتكذيب ما نقل عنهم ولو كان صحيحاً أو وقفوا على الحقيقة وقوفاً يمكنهم من أن يبقوا علاقات الصداقة ليدفعوا بها شر الذين يعاتبونهم اذا لم يتيسر الانتفاع منها ومن آفات القوم فقدان الفضائل حال كون كل منهم يجعل ذم الرذائل كالكذب والبخل ومحبة النفس والكنود والدناءة شغلاً لهُ وأشد القوم ذماً للكذب مثلاً اشدهم كذباً والنادر كالعدم فانهُ يحاول أن يعوض عن كذبهِ بذم الكذب والكلام لا يقوم مقام الأعمال فإن اظهر الانسان الشجاعة بالف كلمة لا يغلب صلعوكاً مع أنهُ بهجمة واحدة ربما كان يغلب بطلين وهذا صادر عن فراغ خزينة الاداب في الأمة واستنادها إلى الظواهر فيصير مجد الانسان عندها حسن ملابسه وحلى امرأتِه واتساع بساتينهِ ودورهِ ومحاسن الفتى في تصفيف شعرهِ وتدهينهِ ولطف منظرهِ وملابسهِ مع أن الذين يحبون الأمور الجوهرية يقولون إن محاسنه في ادابه ومعارفهِ وثباتهِ ومجانبته فعل ما لا يستحسنهُ في الآخرين فان من اصعب الأمور أن يحمي الانسان نفسهُ مما يراهُ قبيحاً في غيرهِ مثلاً نستقبح تعرض الانسان بالكلام أو بغيرهِ الى ما لا يعنيهِ مع أننا نتعرض مرات كثيرة إلى ما لا يعنينا ونذم كثرة الاشارات بالأيدي وغيرها عند الكلام وربما كنا أكثر القوم استعمالاً لذلك وبناء على ذلك نقول ان اقتدار الانسان على مجانبة ما يستقبحهُ في غيرهِ يدل على قوة العقل وانتظام التربية ومع أن مجد الرجل في قوتهِ العقلية والجسدية لمصادمة النوائب واحتمال المشقات وحل المشاكل وادراك صعاب الأمور نرى فتيان هذا الزمان في الشرق يكرهون كل ما كان قوياً فعوضاً عن أن

يقتصروا على اقتناء كل شيء قوي ثابت لسد احتياجاتهم الجسدية لا يقتنون الا الأشياء الضعيفة ويسمونها لطيفة وهكذا تراهم راكضين الى التانث كأنهم خلقوا ليعيشوا ويموتوا على الطنافس وهذه الأمور مصدر ويلات كثيرة ولولا ضيق المقام لتصدينا إلى الكلام عن الفتيات على أننا نكتفي الآن بما أوردناهُ من الأمثال وما قررنا من الاشارات اليهن فإنه لا بدّ من تقرير جملة مخصوصة نوجهها اليهن والحاصل أنهُ ما لم ينتبه القوم إلى واجباتهم لا يجدون من ينتبه اليها عنهم فيبقون في تأخر صادر عن الاهمال وفساد الافكار وفضائل الأمم تظهر في اعمالها العمومية لأن الخصوصيات لا تخلو من الشر والفساد ففضائل انكلترا مثلاً في اعمالها العمومية ومن يا ترى يذهب اليها ولا يقول عندما يرى شركاتها وانتظام هيئتها الاجتماعية وغلبتها على مضادات الطبيعة وسوء المركز وغير ذلك أن ما اراهُ هو العظمة الحقيقة الناتجة عن فضائل الأمم فأين مركزنا من مركزها ولا تزال اعمالنا متناقضة واتفاقنا انما هو على الاختلاف واتحادنا في الانشقاق وشركاتنا لمضادة كل الشركات واذا تشكى مثلاً من اهل الشرق العرب بسبب عدم وجود الوسائط الموصلة الى المرغوب نقول لهم انتم السبب فان الوسائط موجودة فاسندوها واعضدوها فتأتي بأكثر من المرغوب فان هواءكم طيب وماءكم صحيح ومناخكم معتدل وتربتكم جيدة ولولا الانسان لكانت بلادكم احسن بلاد وكذلك نقول لمن يتشكى من حاكمهِ أن الحاكم لا يحيد عن القانون ما لم يرَ ان المحكوم عليهم يمكنونهُ من ذلك ولا يظلم ما لم يرَ انهُ لا يصادف مضادة وكذلك نقول للمشتكي من اهل الاعتبار فانهُ لا ينال السطوة من لا ينال اعتبار الجمهور وانقيادهم فان اصطلحنا يعم الاصطلاح احوالنا وإذا بقينا على ما نحن عليهِ ورغبنا في أن يصطلح غيرنا فنكون قد حاولنا المحال وارتكبنا الغرور فنسأل الله ان يصلح احوالنا لندرك آمالنا.

الزمان والانسان(*)

ما اعظم الانسان وما اصغرهُ فإنهُ ذو عقل باحث في نفسهِ بل في ما هو أعظم منهُ وذو طبيعة فاسدة تتغلب على ذلك العقل ومع ذلك هو الانسان ملك المخلوقات وانفذ ملوكها والزمان ظرفهُ وهو المدهش المحير لعقول البشر فان ظواهرهُ تدل على أنهُ كأضغاث أحلام يمر بدون نظام وبدون غايات ومقاصد وفي بواطنهِ اسرار ما عرفهُ الانسان منها بالنسبة إليها هو كنسبة الذرة الى الجبل. ومع ذلك من المقرر في عقول اصحاب البحث والمعارف أنهُ ظرف جارٍ بانتظام لا بد لكل اهلهِ أن يجروا معهُ فيهِ فيمسون مثلهُ لا ينقطعونَ عن التحرك فيصادفون في حركاتهم حوادث كثيرة مختلفة الأسباب والنتائج والتأثيرات. والزمان في الظاهر الآن وفي الباطن نحن لهُ يقطعنا ونحن لا نقطع شيئاً منهُ حتى أن ذلك العقل الذي نفتخر به يبحث فيهِ ولكنهُ يعجز عن ادراكهِ فالأزلية والأبدية معجزتان يعرفهما الانسان معرفة ناقصة لا سبيل إلى إدراكهما فعلياً لأن المحدود لا يدرك حقائق غير محدودة إدراكاً حسياً. فإدراك بعض متعلقاتهِ لا يكون بالبحث فيهِ ولكن بالبحث العقلي في تواريخ الأمم السياسية وتواريخ الهيئة الاجتماعية في العالم قاطبة مع اختلافاتها الكثيرة أو في قطر أو اقطار مخصوصة. ولا تدرك حقيقة الزمان بذلك البحث كما تدرك حقيقة طبيعة الإنسان مثلاً ولكن الادراك يكون لمتعلقاتهِ ونحن منها فالنتيجة أننا نتصل بهِ إلى معرفة انتظامهِ بالنسبة إلينا. ودون الوصول إلى هذه الحقيقة صعوبات فإنهُ لا يكون إلا بجمع حوادث كثيرة وادراك أسبابها ونتائجها وتنظيمها وجعل الرجال الذين يستدل بهم على المقصود في مراكزهم وإدراك متعلقاتهم وتوضيح أحوال الهيئة الاجتماعية في أزمان مختلفة كثيرة بينها قرون طويلة. ومن المؤكد أن ادراك أبسط الكتابات المتعلقة بهذا الموضوع يصعب على من لم يجمع معارف عمومية في صدرهِ ولا سيما عند كثيرين من أهل الشرق بل أهل الغرب أيضاً الذين لم يخطر لهم ببال أن

(*) مجلة الجنان ١٨٧٦، ص ١٨ - ٢٥.

للزمان ناموساً بل ألوفاً من النواميس التي تضبط أعمال الأمم والدول والأفراد ومتعلقاتها فاستنبطوا السعد والنحس والتوفيق وضده فجعلوها تقوم مقام تلك النواميس التي لا تدرك إلّا بالمعارف التاريخية السابقة والجارية والمجاورة أو بتواريخ أشخاص أو مراكز أو بضائع أو محصولات أو غير ذلك فإن لكل شيء ظرفاً وبالتالي لهُ أحوال ومراكز ونفع وضرر وقيمة واحتياجات وطلب فبحسب تلك الأمور وما لم يذكر مما لهُ تأثير معهُ جريان الأشغال العمومية والافرادية بنواميس عمومية فعالة تحير العقول لكثرتها ودقتها وتفرعاتها والعموميات تمس الأفراد مساً ظاهراً أو غير ظاهر معجلاً أو مؤجلاً بالنفس أو بالقريب أو الجار أو ابن الوطن وبالتالي يعود إلى النفس لأن الهيئة الاجتماعية تقوم بالإنسان وتقدم الأفراد أو تأخرهم دليل تقدم الهيئة الاجتماعية أو تأخرها.

ولا نحب أن نجعل بحثنا عمومياً لئلا يتعسر حفظهُ وادراكهُ عند البسطا فللتوضيح نقول إن من الحكماء من قال إن الأمور البشرية متوقفة كل التوقف على اجراءات الناس الناتجة عن ارادة حرة. ومنهم من قال إن العناية الالهية تقودنا في العالم خطوة فخطوة ومنهم من قال إن كل شيء يتم بحسب القضاء والقدر وقد نتجت عن ذلك أمور مهمة كالسعد والنحس والتوفيق وغير ذلك. فالبحث في هذه الأمور ولا سيما لمطالعة أمة كالأمة الشرقية من أهم ما يصبو الانسان الى البحث فيهِ للوقوف على حقايقهِ بأمل وجود ضابط للعمل أو قوة تدفع عنهُ الاضرار وتقيهِ مما يسميهِ بغدرات الزمان وخيانتهِ وتقلباتهِ بدون أن يعلم سبب تلك التسمية ولا المقصود منها.

ومن المؤكد أن حيوة الانسان ليست بمتوقفة على أمر واحد فإنهُ يشعر تارة بأنهُ ليس بخاضع إلا لارادته المطلقة الحرّة وطوراً بأنه خاضع لنواميس لا تتغير. ويكون ترجيح مقدار خضوعهِ لجهة دون أخرى متوقفاً على حالتهِ بالنظر إليهما. وكثيراً ما يساق إلى الخطا بأوهام الشبوبية وتخيلاتها وعند بلوغ درجات التأني والتخلص من دور الأوهام بتغير ذلك فإن الحقائق تزيل الستار عن عينيهِ فيبعد عنهُ خداع

العالم بالادراك إذا لم يبعد بالفعل فيرى عند مغيب شمس حياتهِ بطلان الآمال البشرية فإنهُ لم يفز بالحصول على ما علق الأمل بالحصول عليهِ بواسطة احرازهِ ما تيسر لهُ أن يحرزهُ. وعند ذلك يرى أنهُ كان آلة في يد قوة مجهولة عندهُ فأدير لغايات يجهلها فإنهُ دخل الدنيا وهو لا يدري بأنهُ دخلها ويخرج منها على غير إرادتهِ أو يخرج وهو معلق أملهُ بالثبوت فيها فلا يدري بخروجهِ في حال الخروج. فمن لا يبيت متحيراً يا ترى عندما يرى سيد المخلوقات وصاحب ذلك العقل العجيب والارادة الحرة على تلك الحال ولا تشتد فيهِ الرغبة في ادراك حقيقة تلك القوة التي تتسلط عليهِ وتتركهُ أطوع من عبد رق. والحيوة الافرادية تشخص حيوة الهيئة الاجتماعية وأسباب تقدم الفرد تأتي بتقدم الجمهور.

أما الانسان في حالتهِ الطبيعية السابقة لوصولهِ إلى التثقيف والتهذيب والمعارف يكون على غير ما يكون عليهِ بعد الوصول إلى ذلك فلا ينحصر جهلهُ في جهل الأمور التي لا تتعلق بهِ ولكنهُ يجهل ذلك الجهل ويخلق لنفسهِ معبودات منظورة أو غير منظورة أي أنهُ يقاد بالفطرة أو بالنقل الغير الصريح أو بهما جميعاً الى الاعتقاد بمعبود أو أكثر وباتصال ارادته رأساً اليهِ وهو الضابط الوحيد لكل اعمالهِ وحركاتهِ وينبوع خيرهِ أو ضررهِ قاطعاً النظر عن كل ناموس فتكثر عندهُ الخرافات وبالتالي المخاوف فيكثر المعبودات لتسعفهُ على دفع المخاطر التي يحملهُ جهلهُ على أن يعتقد بأنها صادرة عن قوات لا يقدر أن يدفعها بقوتهِ وذلك عوضاً عن أن يبحث في النواميس التي وضعتها يد خالق عادل قادر حكيم لضبط أحوال مخلوقاتهِ التي لا تعد ولا تحصى ويجعل السعد مصدر نجاح أعمالهِ والنحس سبب تأخرها عوضاً عن أن يبحث في نفسهِ أو مكانهِ وزمانهِ وأحوالهِ أو ظروف اشغالهِ وأعمالهِ ليرى أسباباً لذلك محلية أو غير محلية. وإذا اخرج من تلك الحال بقوة التمييز المستندة إلى الاختبار وقطع بعض سبيل المعارف ينفي عن نفسهِ الأوهام المتعلقة بما هو في نفسهِ أو بما هو قريب منهُ ولكنهُ لا يتصل الى التخلص التام من فعل الأوهام الناتجة

عن جهلهِ عندما لا يرى غير نتائجه أو عندما يراهُ بدون أن يعلم شيئاً عن احواله كالاجرام الفلكية التي طالما جعل لها مركزاً مهماً في ايمانهِ وحسبها من ضوابط احوالهِ واعتقد بأنها ذات تأثير فيهِ وفي عالمهِ غير محصور في عنصر النور والحرارة ونتائجهِ فيقع في عبادة تلك الأجرام والعياذ بالله. هذا خلا ما يعتقدهُ من وجود ما لا يراهُ من الأرواح التي تقدر ان تضر وتنفع. ولا يقدر ان يخرج من نتائج جهل النواميس التي وضعها الله سبحانهُ تعالى إلا بالمعارف التي تأخذ في اظهارها لـه شيئاً فشيئاً بالبحث والتدقيق والمقابلة والاختبار وظهور ما يدل على اوهامهِ. وكما أنهُ يكتشف بها على نواميس سقوط الأجرام وجريان الأنهر وحفيف أوراق الأشجار وهطل الأمطار وتصادم الأجسام والحركة وغير ذلك ويرى أنها موضوعات طبيعية ثابتة الفعل يكتشف على نواميس حركة تلك الأجرام الفلكية وتغييراتها وأسباب الخرافات التي طالما أوقعت الرعب في قلبهِ وسلبت راحة بالهِ وعيشهِ وجعلتهُ عبداً لمئات بل ألوف من القوات التي لولا الجهل لما بات أسيراً لها وحمل من الأثقال والأتعاب ما حمل وتكبد من المصاريف ما تكبد لدفع اضرارها عنهُ ولاستجلاب رضاها ويقاد الى الايمان باله واحد احد ضابط الكل وواضع النواميس التي تجعل الشمس تطلع في الشرق صباحاً وتغيب في الغرب مساءً وتقيد أمواج البحر وتحفظ الأرض في دائرة دوران ربما كان خروجها منها علة هلاك كل من عليها أو خراب الكون بوقوع خلل في تفاعيل القوات الجاذبة والدافعة.

ومَن يا ترى يكتشف بدون معارف على نواميس مقيدة لأعظم الأمور وأصغرها بل لنفس وجوده في هذا العالم وخروجهِ منهُ بل لوجود كل مخلوق في عالم الحيوان وعالم الانسان والنبات ولا بد من أن يكون اتساع المعارف واسطة لأن يرى الانسان أن كل حادث في العالم لا يتم إلا بحسب ناموس فالمشي والقعود والقطع والربط والحفر والغوص والطيران والربح والخسارة والقلي والغلي والتجليد والصوت والمطر والرعد والبرق وهبوب الرياح والالتصاق والتمدد والتفرق والدوران والصدّ والصدم وبالجملة نقول إن كل شيء لهُ ناموس ظاهر أو غير

ظاهر فعدم ظهورهِ نتيجة الجهل أو جهل الأسباب من جهل وسائط البحث فيها أو من جهل المؤثرات لبعدها أو لكثرتها أو لتعلقها بشيء آخر غير ظاهر أو بأشياء غير ظاهرة. ولا يستغرب العارف وجود ضوابط ناموسية للأمور الكبيرة التي ذكرناها والتي لم نذكرها بعد أن يتأكد بالاكتشافات الفلكية أن كل حركة من حركات ملايين من الأجرام التي قل ما نجد منها ما هو قدر أرضنا أو أصغر منها لأنها اعظم ونسبة بعضها إلى البعض الآخر وغير ذلك إنما هي مربوطة بنواميس. ولا يفتقر الانسان لاثبات ذلك الى ملاحظة اجرام بعيدة عنهُ فان الأرض مملوة بما يدل على ضبط النواميس لكل ما فيها فناموس الحرارة أن يكون فعلها التذويب فلا نرى ناراً تجمد شيئاً والسوائل تنحدر إلى مكان تقدر أن تصل اليه فلا نراها صاعدة الا بالحصر بناموس آخر يجعلها وهي محصورة ترتفع إلى ما يساوي ينبوعها. وما من شيء يدل على قوة نفوذ الناموس الطبيعي ولو كانت الظواهر مختلفة جداً كالهواء فانهُ يهب في محلات ستة اشهر الى جهة واحدة والستة الأخرى من السنة إلى جهة معاكسة حال كونهِ يتغير احياناً هبوبهُ في يوم واحد فيهبّ تارةً من الغرب وطوراً من الشرق أو الشمال أو الجنوب وبالجملة نقول إن التغييرات التي تطرأ عليهِ كثيرة ومختلفة ومع ذلك الناموس الفاعل واحد وهو أن تخف طبقات الهواء السفلى بالحرارة فترتفع فيأتي مكانها هواءٌ ابرد وبالتالي اثقل فهذا هو الناموس العام وقد ذكرناهُ في جمل ماضية وكذلك ذكرنا نواميس المطر والحركات الفلكية والجاذبية والحركة والحرارة وسلبها أو البرودة وغير ذلك مما لا بد من ان يكون لا يزال لهُ اثر في ذاكرة قراء الجنان الذين لم يدرسوا ما يبين لهم تلك النواميس والهواء الذي هو علة حفظ كل حيوة ومخزن الماء وبالتالي ينبوع كل ماء والقوة التي تدير آلة مهمة جداً وتنقل البضايع والمحصولات والناس والقوة التي كثيراً ما تهدم المدن بالزوابع وتستأصل الأشجار خلا نتائجها الاحتكاكية هو أقرب مشابهة إلى الحوادث التي تجري بالتعلق بالبشر من سائر الأشياء فالحوادث العظيمة الظاهرة الأسباب والنتائج هي كالزوابع والمتوسطة هي

كالمتوسطة والصغيرة هي كالنسيم الذي يشعر برطوبتهِ بدون ان تعرف جهة هبوبهِ إلا بوسائط آليّة فان تلك الحوادث ربما كانت سبب عمران بيت أو خرابهِ بدون أن تكون ظاهرة الأسباب فحكمها كحكم ذلك النسيم الذي هو علة حيوة ولئن كانت جهة هبوبه غير ظاهرة فعدم ظهورها حمل الناس على أن يسموها سعداً ونحساً بحسب نتائجها فجأوا بما جاء بهِ الانسان قبل أن ادرك من المعارف ما جعلهُ يعلم اسباب تلك الأمور التي كانت سبب خوفهِ وبالتالي وقوعهِ في شراك العبودية. وعند العارف فكل حوادث العوالم نتيجة نواميس وكل ما نراهُ من الحركات في الفلك وفي الأرض يبين لنا أن العوالم خاضعة لضابط واحد سبحانه وتعالى فيضبطها بنواميس لا تتغير فان القوة والحكمة الغير المتناهيتين لا تفعلان ما يحتاج الى التغيير اساسياً ولكنهما تجعلان التغييرات نتيجة ثبوت النواميس.

ولا ينحصر ذلك في عالم الحيوان الغير الناطق ولا النبات ولا في الجوامد والسوائل والغازيات ولكنهُ يتصل الى ذلك المخلوق العاقل الناطق وهو الانسان. وربما كان يقال كيف تضبط الجوامد والسوائل والغازيات بنواميس كما تضبط الحيوانات والنباتات التي تقوم حياتها بالتوليد والغذاء فالجواب سهل وللتسهيل لا نبحث في أحوال العالم قاطبة ولئن كان ناموس حركتيهِ اليومية والسنوية كناموس سائر الأجرام الفلكية والكلام عنهما مهم ولكننا نكتفي بذكر أمور يعلمها الجاهل ظاهرياً كما يعلمها العارف بالظاهر وبالباطن أي بالعلة والنتيجة. فمن نواميس الجوامد السقوط اذا باتت بدون مانع يمنع انحدارها فهل ترى حجراً يسقط الى فوق أو هل ترى حجراً يتحرك بدون محرك أو بدون ثقل أو بدون حجم أو حيز او اجراء أو جاذبية داخلية تحفظ اجزاءهُ معاً ليبقى مجتمع الاجزاء أو بدون تأثير القوات الخارجية فيهِ أما يتكسر اذا ضرب بقوة كافية فهذه كلها نتائج نواميس نافذة في الجامد اذا كان على سطح الأرض أو تحتهُ أو فوقهُ. في الشمال او الجنوب او الشرق او الغرب فحالتهُ بالنظر اليها واحدة ولو تعددت عليها الأحوال. وهل يصعد السائل حال كونهِ قادراً على

الانحدار أو هل يكون ضغطه في جهة واحدة أو هل يكون شكله غير شكل الاناء الذي يكون فيهِ. وهل يمتنع الغاز عن الميل الى الانتشار فهذا جزءٌ قليل من النواميس الضابطة للمادة وهي على تلك الحالة وهي غير محصورة فيها بل تتصل إلى المخلوقات الحية اتصالاً تاماً أو غير تام. والانسان نفسهُ لا يقوم إلا بنواميس طبيعية وقد اخطا من قال انهُ ليس بخاضع للنواميس الطبيعية التي قد خضعت لها سائر المخلوقات هذا مع قطع النظر عما لا نقدر أن ندركه من متعلقات نفسهِ الخالدة فان أحوالها لا تعرف إلا بالوحي وبحثنا بالوجود الانساني المادي. وبعد التوليد الذي لا لزوم إلى توضيح أحوالهِ وكيفياتهِ بماذا تقوم الحيوة ولماذا نتغذى اليس للقيام بحركة القلب أومـا تتم حركة القلب بواسطة ناموس المائيات ولهُ مراوح وأوعية وغيرها لمناسبة ذلك الناموس. أومـا تنظر العين بناموس قد نقلهُ الانسان واخترع لهُ آلة بات يقدر أن يصور بها بفعل النُور ولولا معرفة الناموس العام لما تيسر لهُ ذلك. أومـا يؤثر الهواء في الدم تأثيراً كيماوياً ويشغل الرئتين كما يشغل أموراً أخرى على سطح الأرض. ولا بد من الاكتفاء بذكر هذه الأمور العظيمة المهمة بالاختصار بسبب ضيق المقام. ولا ريب في أن الذين طالعوا بالتمعن ما كتبناهُ في الجنان عن الهواء والماء وتركيب الجسد والنبات والطبيعيات اجمالياً يدرك المقصود من هذه الأمور العمومية ولئن كان من غير أرباب تلك الفنون. وما ذكرناهُ انما هو لنبرهن بأنهُ ما من شيء في العالم الا وهو خاضع لناموس والزمان هو ظرف لكل ذلك وبدونهِ لا يتم شيءٌ.

ومن يا ترى يرى الانتظام الناموسي في كل ذلك ولا يتأكد بأن أمور القبائل والأمم والعيال والأفراد هي ذات نظام ناموسي ظاهر أو غير ظاهر ولا نكتفي بذكر ما قد تقدم ولكننا نأتي بشاهد على ذلك انتظام حالة مخلوقات كثيرة حية كالنحل والنمل وغيرهما وما لا نرى لهُ انتظاماً نكون غير متوصلين الى انتظامهِ لقلة احتياجاتهِ أو لكرههِ للحيوة الاجتماعية. فعمل النمل واحد وكذلك النحل غير أن النملة لا تصادف كل ساعة ما تصادفهُ في التي سبقتها فإذا قصدت رزقاً فربما لا يتيسر

لها الحصول عليهِ أو يدهمها عدو فتتركهُ بعد الحصول عليهِ أو مطر أو بخرتِ الوكر قبل رجوعها اليهِ أو تداس بالأرجل فتقتل أو تحمل ما لا طاقة لها على حملهِ فتعجز أو تذل بها القدم فتسقط الى ماء او غير ذلك أو يأكلها عدو مفترس فهذه العوارض كلها ليست باخلال بالناموس ولكنها انفاذ لهُ كما لا يخفى. وكذلك الانسان تؤثر فيهِ ظروف مكانهِ فالفيافي التي يجول فيها البدو وتؤثر في عاداتهم وكذلك المراعي في اصحاب المواشي. وقد تقرر أن نواميس الطبيعة لا تخضع لارادة الانسان وأنهُ لا بد من أن تكون الحكومة موافقة للهواء حتى أنه قد تقرر عند بعض العلماء أن القوة ضابط للأمم الشمالية والبرهان للأمم في الأماكن المتوسطة والخرافات للجنوبية. وفي كل سنة تتحرك المخلوقات ويعرض عليها ما يعرض في السنين السابقة من النمو في الربيع وانتقال مخلوقات كثيرة من مكان إلى مكان وما ذلك إلا نتيجة اشتداد الحرارة بدورة أرضية لها علاقة بالشمس. ومن يا ترى يقدر أن يحصي النتائج الصادرة عن تلك الدورة فكأنها شرارة نار في مخازن بارود فهي علة انفاذ الناموس بواسطة الحرارة فترى التوليد حيوانياً ونباتياً والنمو والانتقال والأعمال كلها تتغير بذلك التغيير وهذا شاهد قاطع يشهد بتأثير النواميس الطبيعية في المخلوقات وفي الانسان أيضاً فان ذلك التغيير يجعلهُ يشرع في الحراثة الربيعية وينقل نفسهُ من حالة الشتاء إلى حالة الربيع وكل عمل بشري ناتج عن ناموس وإذا خالفهُ الانسان لا ينجح في عمل فيكون كمن يحاول بناء دار من الماء على سطحهِ. أو من يحاول أن يجوع بكثرة الأكل أو أن يشبع بدون أكل أو أن يموت بقص الشعر او يعيش بعد قطع القلب او أن يكتب بدون ناموس الالتصاق فيبقى حبرهُ على قلمهِ وورقهُ بدون حبر بل يبقى حبرهُ في دواتهِ وقلمهُ وورقهُ بدون حبر لأنهُ بدون ذلك الناموس لا يلتصق حبر على قلم ولا على ورق. ولليل والنهار دخل عظيم في اعمالنا. ومن المؤكد أن وجود الانسان على الأرض متوقف على أمور مادية. فلا سبيل إلى حفظ الحيوة الا في درجات قليلة من الحرارة ولذلك لا بد من أن يكون بعد الأرض عن الشمس بعداً معيناً. وكذلك لو كان حجم

الأرض أكبر من حجمها الحالي أو أصغر منهُ لاختلفت الأثقال فان الثقل نتيجة الجاذبية وهي تكون بحسب الكبر والصغر. وإذا تغير شيءٌ ولو كان قليلاً من الأمور الجارية الطبيعية تتغير احوال في المخلوقات ولا ريب في أن ألوفاً من المخلوقات قد انقرضت ولم يبقَ من نوعها غير آثار تدل عليها بسبب حدوث تغييرات في الطبيعة فأمست لا تقدر أن تعيش فيها. فإذا فرضنا أن الشمس تكسف سنين قليلة وتحجب عنا فتنقرض أكثر المخلوقات، ومن المؤكد أن اختلاف الأهوية والأماكن يحدث اختلافاً في الطباع وبالتالي في العادات والسياسة فإذا قلنا إن وحدة النوع أو تقاربهُ علة القوة نحكم بان السلطنة التي تمتد من الشرق الى الغرب أقوى من التي تمتد من الشمال إلى الجنوب وربما كان ذلك سبب اقتدار المملكة الرومانية وطول زمان ثبوتها.

أما الأمم فحكمها حكم الأفراد في كل شيء وتكون خصائص اعمالها كخصائص اعمال الأفراد فما تقوم بهِ في زمان لا تقوم بهِ في زمان آخر كالانسان فان ما يفعله في الصبوة لا يفعلهُ في الشبوبية وما يقوم بهِ فيها لا يقوم بهِ في الشيخوخة. ومن جهة الوجود الحكم واحد أيضاً فان من البشر من يهلك بنفوذ النواميس فيهِ في الطفولية ومنهم من يموت في الشبوبية وقد تطول الحيوة إلى سن الانحلال الطبيعي وكذلك الأمم. ولجميع الحوادث المتعلقة بالأمم وبالأفراد ظروف وأسباب ونتائج كثيرة مختلفة وهذا هو الذي يجعل الناموس الفاعل غير ظاهر. على أنهُ بتدقيق البحث وامعان النظر يتيسر الوصول إلى الأسباب الناموسية. وحكم ذلك حكم البحث في حالة عائلة لتقرير تاريخها ومعرفة أسباب نموها ثم تأخرها فنقول مثلاً ان زيداً منها برد فأصيب بمرض في الصدر وخالداً أصيب بحرارة الشمس فبلي بالحمى وعمراً تحفظ فنجا وحرث الأرض فجمع مالاً ولكنهُ خسرهُ بمرض أخويهِ ولا سيما الأكبر ولهم جميعاً أولاد فأهملت أسباب تعليمهم ولذلك الظاهر أنه لا يكون لهم مستقبل حسن. وقد رأينا بهذا المثل اختلاف في تاريخها غير أننا بالتدقيق وقفنا على الحقائق العمومية والتفصيل يظهر أسباب المصروف من اجرة طبيب وخدمة وأكل للعيال. وإذا جعلنا

المثل سلامة الجميع ونوعنا الأشغال نرى تاريخ تقدم كل واحد غير أننا لا نرى تقدماً إذا جعلنا من هو أضعف بنية للحراثة والأقوى للمناظرة على فعلة في الحراثة وهكذا. وناموس فناء بعض اجزاء من جسد فرد كفناء بعض أعضاء الأمة بالموت فلا تتغير الأمة بموت بعض أفرادها تغيراً تاماً كما أن الجسم الانساني لا يتغير تغيراً كاملاً بفناء بعض أجزائه. وإذا انتقلت أمة برمتها من مكان إلى مكان يختلف عنهُ في الهواء والظروف فلا بد لها من تغيير عاداتها وأحوالها بحيث تصير تلك الظروف مناسبة لها. فإذا نقلنا أمة تعيش بصيد السمك مثلاً من السواحل إلى الداخلية تلتزم بأن تغير عملها وكيفية معيشتها فتعيش بالزراعة أو بصيد الطيور والحيوانات أو غير ذلك والعكس بالعكس. ولا يتم ذلك إلا بمعاناة مشقات وأتعاب كثيرة تعود بالضرر عليها بالموت والضعف والفقر وهلم جرّا حتى أنه ربما كانت تفقد كل خصائصها وتتغير تغيراً كاملاً فتصبح كلها أمة أخرى. وإذا خلطنا أمة قليلة بأمة كثيرة تصيران أمة واحدة بمرور الزمان مع أن أعضاء الأمة القليلة لم يفنوا وذلك كوضع نقطة من سائل في كأس من سائل آخر فنراها في بادىء الأمر على أنها تختلط بمدة قصيرة بالكثير فلا تظهر فيهِ مع أنها لا تزال معهُ.

فهذه الأمور كلها تبين خضوع كل شيء في العالم بل الأرض نفسها والأجرام الفلكية التي نراها والتي لا ترى إلا بالنظارات المقربة لنواميس قد وضعها الله سبحانه وتعالى وأن كل ما يتقرر في عقول البشر عن مؤثرات غير ناموسية هو خطأ عظيم ومنها السعد والنحس وبالطبع الخرافات الكثيرة المتعلقة بهما ولا يبقى لها أثر في أمة متمدنة إلا بواسطة صعوبة ترك أمور قد تقررت في العقل وهو في حالة الجهل ومشاهدة حوادث غريبة لا تظهر أسبابها مثلاً إذا خرج فتيان من بيت فقير وسعى أحدهما في سبيل طلب الرزق شرقاً والآخر غرباً فالأول خدم وكد وجد بدون أن يصادف نجاحاً والثاني لم يبتعد عن البيت فراسخ كثيرة حتى رأى رجلاً غنياً فطلب الدخول في خدمتهِ فقبلهُ ورقاهُ وبالتالي زوجهُ ابنتهُ وجعلهُ وريثاً لهُ فلما بلغا الأربعين كان الأول لا

يزال في فقر وضيق وعناء والثاني في رخاء وثروة ورفاهية. فربما كان البعض يقولون ان الأول يرافقهُ النحس والثاني السعد مع أنهُ لا دخل لهما في ذلك لأن النواميس النافذة فيهما واحدة من جهة الأهلية والاستعداد والمعارف وما فاز بهِ الثاني نتيجة ناموس ظاهر وهو الحصول عند وجود العطا ووجود العطا نتج عن نواميس منها الملاقاة إذا سار اثنان في طريق واحدة إلى جهات متقابلة والدخول في الخدمة عن ناموس احتياج اصحاب اشغال والأموال الذين يشغلون اوقاتهم الى مسعفين لقيام الشغل وللترفه والوصول الى المصاهرة نتيجة الأمانة أو ايهام الأمانة أو صدق الخدمة ان كانت صالحة أو طالحة والمصاهرة رافقها العطا فأتت بالثروة وبالتالي بالرخا والرفاهية والسعادة. والأول لم يصادف غير تأخر لأنه لم تنفذ فيهِ النواميس التي نفذت في الثاني. فاذا سار من يضرهُ البرد في صحو وتأخر عن الوصول الى المكان المقصود بموت فرسهِ فأمطرت واثلجت وارعدت وابرقت فبرد ومرض ومات لا نقول ان نحسهُ اماتهُ لأننا نعلم ان موت فرسهِ عن سبب موافق لناموس فتأخر والمطر والثلج لا يسقطان الا بحسب الناموس الطبيعي ومرض لان البرد يضر بهِ من جرى مرض أو ضعف ومرضهُ ناتج عن سبب ناموسي فموتهُ يكون نتيجة تأثير نواميس مختلفة فيهِ. فاذا قلنا إن سعدهُ جعل تلك النواميس نافذة فيهِ دون غيرهِ نخطي لأننا نعلم انها لم تنفذ فيهِ لأن اسمهُ زيد ولا لان جنسيتهُ صينية مثلاً ولا لأن اسم امهِ هند واسم ابيهِ زيد ولكن لأنهُ من مواد العالم فهو مركب من عناصرها ونواميسها تفعل فيها فان اشتد البرد على انسان ونبات في مكان واحد يموت الانسان وييبس النبات فهل يكون النبات منحوساً. واذا حمل جيش على عدو واصيب زيد برصاصة في رأسهِ فمات وعمر في طربوشهِ فنجا فهل يكون ذلك نحساً وسعداً. كيف يكون كذلك وموت الأول تم بناموس التصادم وكل من صدمتهُ رصاصة قتالة في مقتل يقتل والاعتقاد بالسعد والنحس يفضي الى الجمع بين الضدين فانهُ كثيراً ما يشتري التاجر مثلاً قمحاً وشعيراً فيرسل القمح شرقاً والشعير غرباً فيخسر في جهة ويربح في الأخرى فهل يكون

نحس وسعد في وقت واحد وانسان واحد واذا فرضنا أن عشرين مركباً من الحنطة تسير في بحر فتسعة عشر مركباً لغني ومركب لتاجر يضر بخسارة مركبهِ فحدث نو فغرق الواحد وسلمت تلك فهل يكون النحس والسعد فاعلين او نفوذ ناموس في المركب بسبب ضعف بنائهِ أو قدميتهِ أو جهل رئيسهِ أو قلة ملاحيهِ أو وقوعهِ عرضة لعاصفة فقلب او غير ذلك. ومن القواعد المقررة في الحكمة أن لا يسلم بوجود سبب مجهول مع ظهور سبب كافٍ فاذا قيل لنا انهُ قتل زيد برصاصة دخلت دماغهُ ورأينا ذلك وعرفنا انهُ كافٍ لقتلهِ هل نفتح جثتهُ لنرى هل مات من مرض في القلب أو من ورم في الرئة أو وقوف في حركة الدم وهكذا اذا عرفنا سبب حدوث امر لا ينبغي ان نبحث عن سبب اخر فاذا قيل لنا ان فلاناً خسر في هذه السنة ألف ليرا بالقراطيس المالية وألف ليرا بتجارة الحرير وخمسمائة ليرا بالمنسوجات القطنية ومن شدة نحسهِ خسر ألفي ليرا بخطا عميلهِ فإنه باع بضاعتهُ الجيدة سهواً لحساب التاجر زيد فهل رأيتم من هو اشد نحساً منهم. نجيب على الفور ان كثرة الخسائر في سنة واحدة ليست بدلالة على النحس وأسبابها ظاهرة فان الذي لا يدفع ما عليهِ يوقع الخسارة على الذي لهُ مال عندهُ فهذا سبب خسارة القراطيس وأسبابها الأصلية ظاهرة فان تقصير الدخل عن ايفاء الفائض بسبب استخدام الدين في ما لا يأتي بالدخل كتجهيزات او غير ذلك مما يأتي بعجز المديون. وخسارة تجارة الحرير سبب كثرة الوارد من الشرق الاقصى ورخص المصاريف بتسهيلات ترعة السويس. والمنسوجات القطنية بسبب ورود البضائع بكثرة بعد اكتفاء البلاد. والسهو اظهر سبب. فكيف نجتهد في خلق اسباب حال كونها ظاهرة وقد نفذت نفوذاً ناموسياً. والمصائب قد تقع على من يحكم بانهم من اهل السعد فيقعون بها او ينجون منها ليقعوا في غيرها أو ليدركهم الموت وهم في رغد وهذه هي المصيبة العظمى والبلوى التي لا ترد. وبدون الزمان لا يتم شيءٌ من ذلك فالزمان هو الذي تجري فيهِ والانسان هو الذي يعلم اسبابها وهو مبدع السعد والنحس ولا نعجب من أن نرى لهما أثراً عندنا جميعاً حتى ان كثيرين منا يذكرون

السعد والنحس بذكر الحوادث على غير قصد فانهما مما قد تقرر في العقول بالنقل. ولا ينبغي ان نغفل عن فساد امر ايجاد سبب بعد وجود السبب فاذا قلنا ان زيداً خسر بسهو عميلهِ نقول لماذا وقع عميلهُ بالسهو يقال لنحسهِ نقول وما هو سبب نحسهِ الى آخرهِ فيكون قد لزمنا الدور وهذا فاسد وقد أشرنا الى ذلك بقولنا ان الحكمة لا تسلم بالبحث عن سبب بعد وجود السبب وقد أوضحنا الكلام مجاراة للذين يجمعون بين التسليم بفساد الدور المنطقي وبين الاعتقاد بالسعد والنحس. ولولا ضيق المقام لأطلنا الكلام في النواميس الضابطة للأمم وللحيوانات والنباتات وأوضحنا المقال بأمثال وتفاصيل غير أن ما تقدم كافٍ فسبحان حافظ تلك النواميس ومخضع مخلوقاتهِ لها فهو عالم بالأسباب والمؤثرات.

جملة سياسية(*)

الانسان كالمخلوقات الاجتماعية فهو كالنمل لا يعيش منفرداً وكالنحل وبعض الطيور وبدون الاجتماع لا تحفر بيوت النمل ولا تشيد مدن البشر ولا تصنع آلاتهم ولا تنسج اثوابهم ولا تمد اسلاكهم البرقية ولا تسير مركباتهم النارية ولا مراكبهم البحرية فلا يقدر انسان واحد ان يزرع القطن ويحصدهُ ويغزلهُ وينسجهُ ويبيضهُ ويصبغهُ ويقطعهُ أثواباً ويصدرهُ ويبيعهُ لأنهُ اذا افرغ وقتهُ لذلك لا يتيسر لهُ ان يزرع حنطة ولا ان يربي المواشي فيموت جوعاً ولا ان يدير مركباً ولا مركبة ولا ان يخابر بالسلك البرقي فالانسان خلق للاجتماع هيئَات اجتماعية للتكاتف في الأعمال والاتحاد للتغلب على صعابها ودفع المخاطر والتعديات ولا ينتظم قوم ما لم يجتمعوا اجتماعاً مرتباً مستوفياً للشروط ولا يرتاحون ونحن لا نرتاح لأن هيئتنا الاجتماعية غير مستوفية الشروط بل الخلل في قواعدها فان اجتماع الناس كالنمل للتكاتف والتقدم وجمع الثروة بالاتحاد والاتفاق واجتماعنا للانشقاق والبغض والمناظرة وحجب اسباب الانتفاع عن الآخرين ما لم نفز نحن ببعضهِ ودوس أعظم صالح

(*) مجلة الجنان ١٨٧٦، ص ١٤٥ ـ ١٤٧.

عام ينتفع بهِ ألوف من المساكين لاصغر صالح خاص فكأننا ذياب لا يركن بعضنا الى البعض الآخر لأن شأن كل منا الأعمال على الحاق الضرر بالآخرين لئلا ينتفعوا بدون أن ننتفع نحن أيضاً فلإنقاذ هذه الغايات المفسودة نكذب ونخدع ونتحيل وننم ونوشي ونخون ولا نقول ان هذا شأننا دون غيرنا من الأمم ولا هو أهم عندنا ما هو عند الآخرين ولكنهُ كبير فيظهر وحدهُ لعدم وجود ستر التقدم والمعارف والاتقان والترتيب والاختراعات وأهميتهُ قليلة ولكنها كبيرة بالنسبة الى قلة أهميتنا لصغرنا وسوء حالنا وفقرنا وتأخرنا بالنظر الى تقدم جيراننا الأوربيين وسلفائنا ولا نرى اصلاحاً فانهُ بازدياد وقوفنا على أحوال العالم يزداد شقاقنا واختلافنا وابتعادنا عن سبل الصواب فبعد أن كان الشقاق طائفياً اتسع فصار في الطوائف نفسها بين افرادها والحقت الأضرار بها فأهملت صوالحها ووقفت اسباب نشر الآداب فيها وخرجت من يدنا مأموريات مهمة ولا نزال ننتظر خروج غيرها لأننا نسهل السبل لذلك وبعض الحكام لا يصدوننا وهذا الفساد قد سهل المغايرات الأدبية فانحطت الآداب وقلت قيمة الصدق والصداقة والحمية والغيرة وحب الوطن وكثر القلق وأمست امنية المعاشرة في خبر كان حتى كاد يبيت الصديق والعدو سيين في الظواهر وصبَّت الويلات على البلاد واصبحت المنزلة الأولى للمتمول ورفعة الشأن لصاحب المنصب ولو كان منافقاً لأن المناظرة وتباين الصوالح جعل رواجاً لاجراءات الحكم لانفاذ غايات ومراعاة خاطر ليس في المتناظرين واصحاب الصوالح فقط ولكن في كل من انتمى اليهم بعلاقة نسبية أو حسبية أو عملية أو ودادية وسرى سم ذلك الى التجارة وسائر الأعمال وبات من يدعي بعزة النفس ورفعة الشأن ورياسة الحزب انفق الناس وابعدهم عن الشهامة وكرامة الأخلاق ولين العريكة ورقة الجانب وليس اجهل منهُ غير الذين يقتفون اثرهُ ويلقون على عواتقهم أثقالهُ ويضعون في ارجلهم قيودهُ وأغلالهُ وهم الخاسرون ولو بتنا على تلك الحال واشغالنا في توفيق واسواقنا في رواج ومزروعاتنا في اقبال وسياسة زماننا في ثبات لما فعلت فينا مخالب الردى فعلها الحالي ولا تركتنا

بنات الدهر في امور حبال التأخر ليس تحتها غير دركات الذل والهوان فاشتاقت النفوس الى زمان قد مضى وآثارهُ فينا تدل عليهِ وهو ظلام بالنسبة الى نور هذه الأيام وما الفائدة من النور اذا كان لا يكشف الا عن خراب ودمار فبتنا تناسف على الظلام المنهزم فان الذين عاشوا فيهِ تعودوهُ فأمسوا لا يسيرون بدون ان يسبروا طريقهم فيستأمنون من زلة القدم وسوء العاقبة حال كوننا ابنا النور فنركب الغرور ونسير في الطريق الظاهر مستأمنين فتغور الأرض تحت ارجلنا فنغوص في الويلات والحساد بل والأصدقاء يضجون قائلين الم ترَ الفوهة فلَم سلكت هذا السبيل أي اننا بتنا لا نعرف الصديق من العدو ولا البطل من الحق وبالجملة لا نميز الغث من السمين لا في حقوقنا ولا واجباتنا وكل منا يتضجر من الحال ويتأسف على الماضي ويؤمل بل ينخدع بالاستقبال حتى يخال لنا اننا في عالم من الوهم بل كثيرون منا يجهلون جهلهم وبعضهم يجهل أن الناس يعلمون انهم يشيدون قصوراً بالرشوة بالنفاق ببيع الحق بدوس الفقير بمال اليتيم بقوت الارملة بعرق جبين المسكين وبسند العاجز ويلبسون الجوخ والحرير ويزينون نساءهم بالجواهر والحلى حتى اصبح شأنهن الزيف والقصف وجر ذيول الغنج والدلال وخشخشة اثواب الحرير صدى صراخ المظلوم المسكين الفقير وكبارنا عالمون بهِ ومحققون احوالهُ ونفاقهُ ويعذرونهُ بل يعضدونهُ لأنهُ ينفذ غاياتهم ويخدمهم بالرأس والعين لأنهُ بدون ذلك لا ينال من الضعيف ما هو زينة الرأس وانسان العين فالذي يحيد عن الصراط المستقيم لا يعذر والحق أن يكون اللوم والتنديد نصيب الكبار الذين يساعدونهُ ويسعون بوصولهِ الى درجة رسمية أو غير رسمية تمكنهُ من ان يضر بالناس فأين حقوق العامة الادبية والغير الأدبية في الهيئات المجتمعة الغير المنظمة واين شهامة الذي يشير الى فساد عظيم منصب في اوربا ويستر بالصمت فضيلة مائة عظيم ولا نرى باباً للفرج ولا املاً للنجاة من اسوإ الحالات غير الضجر العام الناشي عن هذه الحال عند الرفيع والوضيع فلعل الزمان يطبخهُ ليخرج من القوة الى الفعل وفي هذه الأحوال الظلم يلحق بالمتوسط فان نفسهُ تصبو

الى سلوك سبيل من هو اقدر منهُ ويلتزم أن يتبعهُ فيخسر مالهُ وزمامهُ في يد غيرهِ فاذا تعقل أهل الدرجة المتوسطة يقلعون عن تجاوز حدود اقتدارهم للاقتداء بالذين هم اقدر منهم ويرفعون اذمة أمورهم من يد الذين لا يبالون بأمورهم الا عند تنفيذ غاياتهم ويجعلون لانفسهم هيئة مرتبة خاضعة لمشورات اعقلهم واعرفهم والذي لا يطعن فيهِ الناس ولا يعيبون بعض أعمالهِ هو صفر سيان فقدهُ ووجودهُ وأضداد الانسان دليل اهميتهِ فلو كان اهل الثروة عندنا اصفار لما جعلنا شأننا الاهتمام بهم ولكنهم اصحاب نفوذ عند اولياء الأمور والروساء الروحيين والناس فان اعتنوا بالصالح العام مع التجرد عن الغايات يجعلون المجالس واكثر الوظايف في ايدي اصحاب الاهلية فتصلح الأحوال بنفوذ اعدل القوانين والنظامات فيكونون هم الرقبا وحراس العدل بمجرد المناظرة فينالون ثناء الحكومة السنية وشكر الأهالي ودعاءهم فهذه الأحوال تستحق التأمل ويتوقف عليها انتظام احوال الهيئة الاجتماعية ونحن في افتقار الى ذلك بسبب فقرنا وقلة اشغالنا فان دهمنا باسباب الشقاق والمضادات يزداد ضعفنا وتأول اشغالنا الى الخراب وقد آلت اليهِ لأن كثرة المناظرة قد جعلت التجارة في كساد فالعمل الذي يكفي لمعاش رجل لا يقدر أن يعيش بهِ رجلان فعوضاً عن أن نبحث في اشغال جديدة نتعاطى اشغال ابناء بلادنا فنخرب شغلنا وشغلهم وهذه آفة في الشرق في بلاد قد انقسم اهاليها الى طوائف كثيرة وقد انحصرت الآداب في قسم قليل منهم ومن اهم الأمور الاعتناء بفتح أبواب الداخلية ليشتغل فيها الاهالي بالمزروعات غير ان ذلك لا يأتي بنفعٍ كافٍ الا بانشاء الطرق بحيث لا يلتزم ساكن الداخلية بان يبذل نصف محصولهِ لنقلهِ الى مراكز التجارة وبالجملة نقول إننا في افتقار شديد الى التفات السياسة وعناية الذين تنفع عنايتهم ولا ينبغي أن نخدع انفسنا بما عند البعض من الثروة فانها ليست من بلادنا.

في الدين والدنيا(*)

الغد

لولا الموت لكان للحظ في جنان الغد قصور. وكان شهد العيش يحلو كل ما طوت أيامها الدهور. لأن في الغد نوال الآمال. وفي الغد للمعالي والرتب نوال. وفيه عدن تصورات الصبوة والشبوبية. ونوال ما تصبو إليه النفس وتحبهُ الفطرة البشرية. فهو غرض الآن. وموقع وقع سهام أغراض أهل الزمان. وهو علة الصبر في الرزايا والضيق والهوان. وسبب ركوب متن الخطوب وقطع الفيافي والبحور. وفروغ صبر من ينتظر ما بخلت بهِ عليه الدنيا الغرور. والخلاصة أن محاسنُه كثيرة. ولكنهُ لسوء الحظ لا يخلو من الاكدار والهموم. ففيهِ خيبة الامل وفيه اخطاءُ سهم الغرض. والسقوط في سوء العواقب. ونتيجة الشر والكذب والنميمة والسكر والاسراف والخيانة والحسد والبغض والشراهة. ومع أنه محجة الزوال لا ننكف عن التعلق بحبال وعودِه. ولا يعلمنا الاختبار تجنب السقوط في حفر صدودهِ. فهو لنا من الدنيا منتهى المرغوب وهو ملجأ الصبي والفتى والشـاب والكهل والشيخ ولا بد لنا من النظر إليه بعين البصيرة والحكمة لئلا تخدعنا جيوش الأمل التي ربما ترينا فيه ما لا يأتي الزمان بهِ. لأنهُ إذا قطعنا النظر عنهُ تقف حركة دنيانا ويموت عنصر الحذق ويكسر سهم الإصابة. لأنهُ أساس العلم والتجارة والصناعة والزراعة. لأننا إنما نتعلم اليوم ليأتي علمنا بنتيجةٍ غداً. ونغير مكان وزمان البضاعة والمحصولات لنجني من ثمارها في الغد. ونزرع في الشتاء لنحصد في الصيف. والخلاصة أن الغد هو من أعم أزمنة هذه الدنيا لأن الماضي قد مضى والحاضر هو أمامنا وعلى ما نراهُ من هذه الدنيا نبني فيهِ أعمالنا. أما الغد فأهميتهُ أهمية الآن ولكنهُ مبني على أسس التخمين ومفتاحهُ الحذق والاختبار وخرابهُ شدة الأمل. وكل من لا ينظر من يومِه إلى غدهِ هو حيوان. ولا يقدر أن يسير

(*) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ٦٧٣ ـ ٦٧٧.

في سبيل هذا العالم وعلى الخصوص في سبيل القرن التاسع عشر لأن الذي لا يهتم في جمع الفحم اليوم لا يركب أجنحة البخار غداً ومن لا ينظر بعين السياسة إلى الغد يصبح بلا ملك. والغد هو ظرف قريب وبعيد فغد العشاء صباح ليلهِ وغد الأمة نصف القرن الذي يتبع قرنها. وغد الطفولية الصبوة وغد الشبوبية الكهولة وهلمَّ جرًّا. فبناء على ذلك نقول ان الغد هو ظروف كثيرة تقرب وتبعد وتكون مهمة أو غير مهمة وذلك يكون بحسب الأحوال والأعمال والأمم والأشخاص. وإذا حاولنا التكلم عن جميع ظروف الغد وأحكامِه ونسبة كل ذلك إليهِ ونسبتهِ إليها فإنهُ يلزمنا مجلدات كثيرة. لأن الموضوع يقودنا إلى الكلام في غد الأمة والدولة والسياسة والدين والمشروعات النافعة من مدارس وجرائد ومستشفيات ومارستانات ومراسح من كل نوع وعن غد العالم والتاجر والصانع والزارع وذي الرتب والصادق والكاذب والصالح والشرير والعاقل والجاهل إلى غير ذلك مما يكاد يكون بلا نهاية. أما مقامنا فيسمح لنا أن نتكلم عن الغد بنوع إجمالي وعلى الخصوص في ما يتعلق بغد الأمة أي الأمة العربية بحسب ما قررناهُ في الكلام عن العصبة في جملة الأمس. لأننا قد عزمنا بحولهِ تعالى وبعون أهل الحمية والغيرة والأدب أن نقطع النظر عن جنسياتنا البعيدة ونتجنس جميعاً بجنسية واحدة وهي الجنسية التي سارت في وطننا بعد كل جنسيات واقتبسنا لغتها وعاداتها وهي الجنسية العربية وكثيرون منا م في الأصل منها وهي منهم. لأننا إذا رجعنا إلى اسمعيل عليه السلام نرى أن العرب المستعربة هي كلدانية الأصل أي سريانية فإنهُ هو ابن ابرهيم وابرهيم عليه السلام هو كلداني من أهالي بلاد ما وراء النهرين. ولكن الصواب أن نقطع النظر عن ذلك جميعهِ ونسير في سبيل واحد منضمين إلى بعضنا البعض انضمام عصبة واحدة وهي عصبة الأمة العربية ولذلك في الكلام عن غد هذه الأمة العظيمة تتوكأ على أمسها أي أمس الأمة العربية ذي الرفعة والشأن. لا نقول ذلك على سبيل الافتخار بما قد طوى نسر الأمس عليهِ أجنحتُه وطار ولكن نقولهُ لنحرك فينا الحمية العربية ونرفع عن أعيننا برقع الجهل.

والمقصود من هذا أجمع أن نبين لأبناء وطننا أنهُ لا نجاح لهم إلا في الاعتصاب بالعصبة الوطنية واعتصابنا بالعصبة العربية هو حقيقة لا وهم واصطلاح. لأنهُ يكاد لا يوجد بين أمم الدنيا أمة لم تمتزج بغيرها. فالذي سوغ لقريش أن تتجنس بالجنسية العربية حال كونها من اسمعيل يسوّغ للذين أصلهم منذ قرون كثيرة غير عربي أن يتجنسوا بالجنسية العربية الآن.

ولا يخفى أن لكل مخلوق سنٌّ طفولية ثم صبوة ثم شبوبية ثم كهولة ثم شيخوخة وبالتالي الموت. وكذلك الأمم فإن مبدأها هو الطفولية فإن لم تخلُ من العوارض التي تؤثر في الجسم تأثيراً يأتي بسوء العاقبة والفناء تموت قبل أن تبلغ سنَّ الشيخوخة. هاك مملكة تيمورلنك مثلاً فإنه عوضاً عن أن يهتم الاهتمام اللازم في تركين أعمدة الملك الصحيحة التي من شأنها القيام بهِ إلى أن يدرك سنَ الصبوة طلب الفتوحات وتغافل عن تمكين علاقات العصبة الوطنية ولم يكن لهُ عصبة دينية فسقطت مملكتهُ الواسعة بموتهِ وهي في سنّ الطفولية. ومن الأمم من يموت وهو في عنفوان الشباب كأمتنا نحن فإنها سلكت سبيل الطفولية والصبوة بسرعة عجيبة وكادت تدرك سن الكهولة في زمان كان يقتضي لها أن تكون فيهِ في سنّ الصبوة والذي حملها على المسير في سبيل السرعة هو قوة العصبة الدينية التي تمكنت منها في أول الأمر ولم يمضِ زمان طويل حتى تمكنت منها العصبة الوطنية وهي العصبة الجنسية التي أتت بالحمية العربية وقامت مقام العصبة الدينية التي لم يبقَ منها غير آثارها بعد أن أكملت عملها وحملت الأمة على ما حملتها عليهِ. أما العوارض التي عرضت عليها وأضعفتها قبل أن أكملت دورانها فهي كثيرة أهمها القيام بحق أعمال الشبوبية وهي في سن الطفولية. فداهمها الهرم باكراً وطرحها في الضعف لأنها كانت تحاول إمساك مملكة متسعة لا تقدر أن تضبطها يد صغيرة لا تزال أظفارها في نعومة فأتاها الزمان بما قد أتاها به وآثارها تدلُّ على ذلك. ومن الأمم من يقطع سبيل الحيوة الطبيعية كالأمة الرومانية مثلاً. فإنها بعد ولادتها أخذت تكبر شيئاً فشيئاً حتى ادركت سهى القوة ثم أخذت

في سلوك سبيل الشيخوخة وماتت بعد أن عاشت حيوة كاملة ونازعت أكثر من قرنين وهذه هي الأمة التي قبضت على زمام العالم أجمع وبلغت قوة لم تبلغها مملكة أخرى لا قبلها ولا بعدها. ولم تمت حتى داهمها ما لا طاقة لها على احتمالهِ فأفناها وأخذ موضعها ولم يبقَ أثر يدل على تلك الأمة العظيمة. وذلك بخلاف ما حدث للأمة العربية التي لم تمت بل خسرت قوتها وأمست لا تقدر أن تسير على قدمها في سبيل السياسة ولما صدمتها أنواءُ الدهر سقطت سقوطاً ولم تمت موتاً لأن زمان حياتها لم ينتهِ بعد. فمَثَلها مَثَل مملكة بولونيا فإنها سقطت من سلك عقد الممالك ولكنها لا تزال منتظمة في سلك عقد الأمم. ومتى أتاها الدهر بزمان يناسبها ترجع إلى جنان الحيوة وتحيا ثانية مجددة حياتها التي لم تقطع كل زمانها. وكذلك الأمة الايرلندية فانها مع أنها الآن خاضعة لحكومة انكلترا لا تزال أمة فاقدة استقلاليتها السياسية ولكن ربما يأتي زمان يمكّنها من الاستقلال ومن بسط يد الملك على نفس الأمة الخاضعة لها الآن فبناء على ذلك نقول ان أمس الأمة العربية هو امس أمةٍ لم تفنِ كل زمان حياتها. ولذلك لا بدَّ لها من غدٍ تعوض فيهِ ما خسرتهُ من الحيوة في الأمس. وهذا إنما يتم بالاتحاد بواسطة العصبة الجنسية الموافقة للعصبة الوطنية. ولا أمل لنا بالعصبة الدينية لأن زمان النبوة قد مضى وقد تركن الدين. والتمسك بالعصبة الدينية في هذا العصر هو سبب الضعف والتأخر ولا سبيل للنجاح إلا بتركها وبالتمسك بالعصبة الوطنية. وإذا سلكنا في سبيل الصواب نقدر أن ندرك المرغوب بعد زمان ليس بطويل لأن هواءنا وسرعة مسيرنا في الماضي يتكفلان لنا بغد قريب وإن يكونا لا يتكفلان بطول زمان ذلك الغد. ونوال ذلك إنما يكون بالاعتصاب بالعصبة الجنسية مع قطع النظر عن العصبة الدينية أما الدولة المالكة فلا تنازعنا في ذلك لأنها تعرف حق المعرفة انه لا بدَّ منهُ والتاريخ هو الذي يقودها إلى هذه المعرفة. ولذلك تنضم إلينا وتضمنا إليها عصبة واحدة وذلك كانضمام شعوب أوروبا المختلفة الأجناس عندما قطنوا أمركا. فإننا نرى الانكليزي والفرنساوي والألماني والايطالياني وغيرهم

متحدين عصبة واحدة مع اختلاف الجنسية والدين. أما دين الدولة فهو دين أكثرنا وعوائدها كعاداتنا وكذلك اللغة فيسهل الاتحاد. والدولة المالكة تعرف أنهُ لا بد من ذلك وتعرف أيضاً أنها إذا ساعدت الأمة العربية وساعدت أمتها في ما من شأنهِ ترقية أسباب المعارف والتمدن وبالنتيجة الاتحاد تكتسب حب الأمتين وخلوص ودهما وتقيم من الأمة العربية الساقطة والأمة المالكة أمة واحدة تفوق في المجد والقوة والتقدم الأمة العربية الأولية وتصون الدولة والأمة من غوائل الانشقاق والأحزاب التي تأتي بالضعف المادي والأدبي. وإن تأخرت الدولة المالكة عن ترقية هذه الأسباب تسير الأمة في سبيل التقدم وحدها وتأخذ العلاقات الكائنة بينها وبين الدولة المالكة بالضعف فتكون العواقب غير مرضية للطرفين. هذا وظاهر الأمر أن الدولة المالكة قد أخذت في تنشيط الأمة شيئاً فشيئاً وهذا يقوي آمالنا بالحصول على نتيجة عظيمة بأقرب وقت. ما لم تعرض دون ذلك جميعهِ أو دون بعضهِ عوارض سياسية تبطلهُ أجمع أو تبطل بعضهُ. فوالحالة هذه نقول انهُ بحولهِ تعالى ستصبح الأمة في غد سعيد.

وهو معلوم أن السياسة هي مصباح كل الأعمال وأن نجاح أعمال الأمة يتعلق بها فهي روح العلم والتجارة والصناعة والزراعة والسعادة وكل شيء وهي روح نفسها. فإن كانت السياسة حسنة تسير مركبة الأمة في سبيل النجاح وإن كانت غير حسنة ترجع بالأمة وبنفسها إلى الوراء فتأخذ الأمة بالضعف وكذلك السياسة إلى أن تصبح السياسة في عدم السياسة وهذه السياسة هي ما لا تحتملهُ أمة في تاريخها ما يذكرها بعز ونجاح ومجد كانت قائمة في قصور زمان قوتها ولذلك نرى أن الدولة المالكة قد غيرت ما أمكنها تغييرهُ من سياسة الأمس لأن كل من نظر إلى الماضي يرى من سوء السياسة ما كان يذهب بالأمة إلى الويل والهوان ولولا النشاط الطبيعي والهمة لأمست الأمة في عدم والذي يحملنا على أجنحة الأمل بنوال المرغوب هو ما نراهُ من أننا نكاد نسير بالسياسة إلى حيثما نريد من الجنات التي تأتينا بالسعادة والنجاح. والسياسة قد سارت أمامنا إلا أنها

ليست في كمال لأننا نحن لسنا في كمال ومتى بلغنا درجة الكمال من سلم التمدن والنجاح تبلغهُ سياستنا أيضاً. ولذلك نقول اننا بواسطة حسن السياسة ندرك غداً سعيداً جدًّا. وإن عاندنا الزمان في ذلك نصادمهُ والنصر بيد الله يؤتيهِ من يشاءُ. ولو دامت سياسة الماضي مدة قرن واحد كما كانت في الأمس لطوى الزمان أجنحتهُ على أملنا وطار بهِ. ولكنهُ أمر مقرر أن الأمة التي لها تعلقات مع أمم متمدنة لا تلبث زماناً طويلاً حتى تتمدن. وهذا هو الذي مدَّن البرابرة الذين هاجموا المملكة الرومانية وأخربوها. فإنهم بواسطة اسبانيا اقتبسوا وسائط التمدن من العرب وامتد بينهم والآن تقتبس العرب عنهم وسائط التمدن. والخلاصة أن السياسة هي روح كل شيء وهي روح الصناعة التي لا تزال ترجع إلى الوراء في سبيلها لأنهُ بدون تنشيطات السياسة لا تقدر الصناعة أن تنجح وإذا تأخرت السياسة عن تنشيط ذلك نقدر أن نقول ان سياستنا لا تحب أن تقدمنا ولكن ظواهر الأمور تبين أنها ترغب جدًّا أن تنشط الصناعة باعطاء الامتيازات للذين يشرعون في عمل مثل هذا مدة عادلة. فعلينا بالامتحان في ما يتعلق بالصناعة، لأن ذلك فضلاً عن انهُ يأتينا بالتقدم يحملنا على الوقوف على حقيقة سياسة دولتنا. أما الحال فيبرهن لنا ما نحب أن نعتقدهُ.

أما الزارعة فهي مرضعة الدنيا ولكن السياسة ترضعها وإذا رأينا زراعة بلاد في تأخر حكمنا أن سياستها تبخل عليها بوسائط التقدم والثروة. وهذا هو حال زراعتنا. ولكن منذ تأكدت الدولة أن أساس الثروة هي الزراعة أخذت في تنظيم الحال وتسيير الأمور في مجاريها. وأمل الغد في زراعة حسنة.

أما العلوم فهي من متعلقات الأمة أكثر مما هي من متعلقات الدولة على أنه لا بد من أن تنشطها الدولة وإذا لم تنشطها تضعف نفسها. ولذلك نرى دولتنا في ترقية أسباب العلوم. أما نحن فقد استيقظنا من غفلة كادت تفنينا ولكننا لا نزال نتمسك بالعرض ونترك الجوهر وفي مراجعة جملة الآن غنى عن الاسهاب في ما يتعلق بالتقصيرات العلمية الكائنة في البلاد ومع ذلك تتقدم كل يوم أكثر من أمسهِ. والشواهد

كثيرة منها عدد المدارس والذين يعرفون القراءة وعدد المطابع والجرائد والكتب والطلبة. ونتيجة المعرفة الصحيحة قطع أصول الغرض والتعصب الديني. فإذا تمكنا من ذلك وضربنا صفحاً عن صرف الوقت سدى بالافتخار بأجدادنا والتفتنا إلى ما يقدمنا تقديماً حقيقياً ننال ما نرغب من الغد وتحملنا العلوم على ترك التعصب بنوع يمكننا من الاتحاد الوطني. فنتحد جميعنا ونكون لمصر مثلاً ما تكون مصر لنا. أما الأغراض فتموت ويبقى غرض واحد وهو غرض الوطن ولكن لا يجب أن يكون أعمى.

والخلاصة أن شموس الغد تكاد تشق حجاب الأمس والآن وتطلع في مشرقنا وتبعث الينا حرارة تحرك دمنا العربي. فقد فتحنا الكلام بطلب قتل العصبة الدينية وسنختمهُ بها لأنهُ بدون ذلك لا أمل لنا من نوال المرغوب. وإذا قال أحد ان ذلك ضرب من المحال أقول لهُ إن العنصر الذي قتل التعصب الديني من أوربا الذي كان يحمل الكاثوليك على تعذيب وقتل واضطهاد البروتستانت ويحمل البروتستانت في انكلترا على قتل واضطهاد الكاثوليك سيقتل عنصر التعصب من بلادنا التي لم تدرك من دركات التأخر والجهل والتوحش ما أدركتهُ أوربا وكل من يقول ان ذلك ليس بممكن يكون قد حكم كالذي يحكم بعدم وجود النور لأنهُ ولد وعاش في الظلمة بدون أن يتمكن من استماع ما يدلهُ على وجود النور وكل من أمعن النظر في أخبار أوربا في الأعصر الماضية يقول ما أصدق ما قال نابوليون الأول وهو أنهُ لا بدَّ من حذف كلمة غير ممكن من القاموس وما أحسن ما قيل كل من سار على الدرب وصل.

جملة سياسية(*)

قد اشتد الخصام في هذه الأيام بين الدين والسياسة وبات عصرنا عصر مناظرة عنصرين من أهم عناصر العالم ولا نعجب إذا رأينا الشرق متعجباً ومندهشاً عندما يسمع بالقتال الأدبي الجاري بينهما

(*) افتتاحية ج ٢١، مجلة الجنان ١٨٧٢، ص ٧٢١، ٧٢٢.

لأنه مهد الأديان ولم ينفك الدين فيه عن السيادة التي كانت له في القرون المتوسطة وعادتهُ إخضاع كل شيء لهُ فكيف لا يتعجب عندما يسمع بأن أكثر دول أوربـا لا بل كلها تحاول إخضاع الدين للسياسة وذلك عند الشرقيين كفر وعدوان وعاقبتهما نار جهنم ومهما افتكروا وقالوا لا يقدرون أن يغيروا الواقع وتحديدهُ في أوربا أما سيادة حضرة البابا وأما سيلدة الذين يضادونهُ من الروم والبروتستانت والكاثوليك الذين لا يزالون يحافظون على إيمانهم كلهِ في التعاليم المسيحية أو على بعضهِ أو الذين باتوا لا يؤمنون بشيء منهُ ولو انحصرت مضاده رئيس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في الذين هم من كنائس أخرى لما أمست في الضيق الذي أمست فيهِ منذ سنين ليست بقليلة على أن كثيرين من مضاديها هم من أولادها والعدو الداخلي أشد تأثيراً من الخارجي ولولا الصوالح السياسية المستندة إلى الدين لما تمكن من أن يثبت في المواقف التي لا يزال واقفاً فيها فإن ما خسرهُ في المانيا وإيطاليا واسبانيا قد عوضهُ بعض التعويض في فرنسا لأن مجرد مضادة البرنس بسمارك لليسوعيين الذين تحسبهم الكنيسة الكاثوليكية من افتك جنودها وأشجعهم وأثبتهم يجعل فرنسا توافقهم تتحد معهم وتسعفهم مع أنها هي التي ابتدأت في مقاومتهم وتركتهم في قلق عظيم وخوف لا مزيد عليهِ عندما نشرت بالدم والنار المبادي الجديدة العمومية في العالم ومع أن موسيو تييرس يعرف أن خدمة الدين باتوا يضادون سياستهُ بعد أن كانوا قد فرحوا بإقامتها لأنهُ لم يمكن البوربون وهم أولاد الكنيسة الأمناء من أن يتبوأوا عرش فرنسا لا يقدر أن يتظاهر بمضادتهم لأنهُ يعلم أنه من صوالح فرنسا أن تستخدم الدين في الظروف الجارية لتنفيذ السياسة وهذا ليس هو من الأمور الجديدة في العالم فإن اسكندر ذا القرنين اقتبس عادات الفرس واختلط بهم وتزوج ابنة ملكهم وزوج كثيرين من قومه ببناتهم تنفيذاً لسياستهِ مع أن ذلك كان مضادّاً لمشرب أمته اليونانية وعند الاسرائيليين والنصارى أن سليمان الحكيم عليه السلام اقتبس أديان الأمم التي كانت لهُ صوالح تجارية وسياسية عندهم حتى أنهُ تزوج من

بناتهم حال كون ذلك مخالفاً كل المخالفة لنصوص ناموسهِ وفعل كذلك نابوليون الأول في مصر مع أن ما فعله لم يكن موافقاً لمشربهِ واعتقاده ولذلك لا نعجب إذا رأينا موسيو تييرس يجاري الذين يعرف أنهم عاملون على خلع طاعتهِ للحصول على أصحاب الراية البيضاء الذين بسبب مخالفة سياستهم لروح العصر أمسوا مخلوعين من عروش أكثر من أربع ممالك من أوربا كما أننا لا نعجب عندما نسمع أن كثيرين من أكابر خدمة الدين الكاثوليكي غيروا عزمهم وتبعوا التعاليم التي كانوا قد ترددوا عن الانقياد إليها لأنهُ ما دامت الكنيسة بدون أعداء خارجين عنها تلتفت إلى الخلاف الداخلي وعند اشتداد الخصام بينها وبين عناصر أجنبية عنها تضم وحدة الصالح كل خدمتها في حضنها والحاصل أن الحرب بين الدين والسياسة حرب شديدة وكل من يعرف التاريخ معرفة حكمية يقدر أن يخمن النتيجة ومهما عضدت السياسة الدين في أوربا لا تقدر أن ترجع به إلى ما كان عليه رجوعاً دائماً لأن أحوال الزمان قد تغيرت وقد تكبدت رومية الدينية منذ نحو أربعة قرون خسائر متصلة لا تعوض فإنها خسرت انكلترا وخسرت أكثر المانيا وخسرت الكنيسة الشرقية كلها وخسرت السطوة السياسية وقوتها في بولونيا وفي ايطاليا فباتت محصورة في دائرة ضيقة قليلة الأهمية بالنسبة إلى سلطانها الذي كانت تخضع له ملوك الأرض كما يخضع العبد لسيده وإذا قابلنا ما خسرتهُ بما كسبتهُ في الهند والصين وغيرهما بإدخال قليلين من أهاليها إليها نرى أن ذلك المكسب هو عدم بالنسبة إلى الخسارة هذا ومن واجباتنا أن نبين الواقع لقراء جرائدنا وعلى الخصوص بعد أن بينهُ نفس حضرة البابا بكلامهِ الذي نشرناهُ في الجزء الماضي من الجنان لأنهُ بعد أن وصلت الكنيسة إلى ما قد وصلت إليه لا تقدر أن تستغني عن تحريك شفقة أهل العالم بنشر مصائبها وإظهار الاضطهاد الذي يقول المضادون انهُ ليس باضطهاد لأنه مضادة تعليم جديد لم يتقرر في المجامع السابقة وهو العصمة وقد أتاها ذلك بفوائد كثيرة وحمل جيشاً عرمرماً من الذين لا يزالون متحدين معها اتحاد اعتقاد أو اتحاد صالح على المبادرة إلى

مساعدتها أدبياً ومادياً وعندنا الدين محترم ومكرس ولهُ سطوة عمومية ولكنهُ مقيم في قلوب فاترة تحب أن تعتقد بالشيء بدون أن تحمل أثقالاً مادية بسبب الاعتقاد به ولذلك لم نشعر بهذه الحرب كما شعرت بها أوربا وعلى الخصوص ألمانيا وإيطاليا ووقوف القوم على الحقائق يجمع بين مصلحة أحزاب الباباوية ومصلحة المضادين فإن كلًّا منهما ينتفع بها بنوع مختلف عن انتفاع الآخر والزمان يكشف عن النتائج كشفاً لا ينتظرهُ الذين ينظرون إلى الأمور من جهة واحدة.

جملة سياسية(*)

على مَ نَخلط الدين بالدنيا ونحط شأن السماويات بمزجها في الأرضيات فنجعل لاعتقاداتنا دخلاً في أعمالنا فتوثر اختلافاتنا الدينية في أعمالنا العالمية فينشأ عنها ذلك الشقاق الذي طالما كرر الأمم وأتى بالحروب والويلات فإن زماننا قد تغير فمن الحكمة أن نتبعهُ وقد تبدلت الأحوال فالإصابة في مجاراة ذلك التبديل فما كنا نراهُ في الأمس لا نراهُ اليوم لأن نسبتنا إلى دولتنا العلية ونسبتها الينا وصلاتنا الغربية وصلات الغرب عندنا قد أخذت غير المجرى المعهود وأصبحنا جميعاً رعية واحدة لراعٍ واحد عندهُ من الحلم ما يوافق لين عريكتنا ومن التأني ما يناسب ارتباكاتنا الناتجة عن التعلق ببعض الماضي وتعلم بعض الأمور الجارية والتأهب لقبول ما سوف يجري ولذلك لا بد من أن نكون في معابدنا اسلاماً وارمن ودروزاً وموارنة وروماً وكاثوليكاً ونصيرية وسرياناً وغير ذلك وفي ميادين الأعمال عثمانيين لنا راية واحدة استبداد الحال لنا انما يكون بالاجتماع حولها بالغيرة والحمية والصداقة ولو كانت سياسة السائس في الزمان الماضي سياستهُ في الحال وعرفنا ما فيهِ خير لنا عند الفوز بسياسة خيرية لحصلنا من الحقوق السياسية ما لا نزال نتمنى الحصول على بعضهِ في نفس هذا الزمان فإركان دولتنا إلينا إنما يكون بقدر اركاننا إليها وكلما زاد ذلك الاركان يزداد تقدمنا عندها وعلى الخصوص إذا جمعنا من المعارف ما

(*) افتتاحية ج ٦، مجلة الجنان ١٨٧٤، ص ١٨١ ـ ١٨٣.

يؤهلنا للوصول إلى المراتب والمناصب ومن أصعب الأمور أن يغير الانسان ما تقرر في عقلهِ بشواهد كثيرة وبراهين واضحة جرت في زمان ليس بقصير وعلى الخصوص عندما يسوق سوء الحظ إلى الولاية التي هو منها أو المتصرفية أو القائمقامية مأموراً لا تزال قواعدهُ السياسية من بقايا الزمان الماضي أو عدم القاعدة بات لهُ قاعدة لحدة الطبع أو فساد الفطرة أو حب الذهب أو ظلام التعصب أو آفة الكسل والاهمال فإن المأمور الجاهل يرجع بأفكار الذين يسوسهم خمسين سنة بعمل واحد كأعمال مأموري الزمان الماضي فيبعدون عن الغاية التي سيقوا بإصابة الرأي والسياسة في سبيلها ويطردون ما تقرر في عقولهم من تغيير الأحوال وهذه الأمور هي آفة جريان سياسة دولة تسير بأمتها إلى أمور جديدة عند الرعية سيرها بها إليها إنما هو حق وهبةُ الله لكل حيوان ناطق وقررتهُ الأديان المشهورة وأفسدهُ ظلم البشر وكما أن حب التخلص من الخدمة العسكرية ومن القيام بالواجبات الوطنية يحمل كثيرين من الألمان وهم الآن من طليعة أمم أوربا على بذل المال والوقت للحصول على التبعية الأمركانية فخوف الوقوع في يدي مأمور لا يستحق منصبهُ وحب التمتع بحماية أجنبية تعفيه من واجبات رعائية ومن الخدمة العسكرية يحملان كثيرين من أبناء الشرق على طلب الحماية الأجنبية فحكمنا في ذلك ليس هو إلا كحكم الألمان وحكم كل أمة للأجانب فيها امتيازات قررت في أزمان ماضية سببها رغبة الحكومة المحلية والدول الأجنبية في إقامة صلات تجارية وبغض أهالي بلاد لما هو أجنبي عنها فلا تستأمن تلك الدولة ولا الدول الأجنبية على رعاياها ما لم تتقرر لهم امتيازات تصونهم من تأثير ذلك البغض في حقوقهم وأمنيتهم النفسية والمالية وبرهان صحة ذلك وقوع التعدي في الزمان الماضي على كثيرين من الأجانب في البلدان المخالفة لهم في العادات والأديان لمجرد كونهم أجنبيين على أن هذه الحال قد تغيرت عندنا في الممالك العثمانية وبتنا نخاف على حقوقنا من غارات كثيرين من أولئك الأجانب حتى من بعض الذين هم في حماية بعضهم منا فتغيرت الحال ولما كان كثيرون منهم لا يرتضون

بحقوقهم كان لا بد لنا من أن نسعى في طلب ما يحمينا من تعديات بعضهم كما سعوا هم منذ عشرات سنين في طلب ما يصون حقوقهم من تعصبنا ضدهم ونالوا بمساعدة دولتنا في زمان لا نزال نعجب من قدر نفوذ سطوتها فيه الامتيازات التي صرنا نستثقلها وقد عرفت دولتنا أن الابتداء في ذلك من واجبات السياسة فمنحت الأجانب حقوق التملك بابطال بعض امتيازاتهم وصارت سياستنا نافذة في أمور لم يكن لها نفوذ فيها ولا تزال معرفتها محصورة في بعض الخاصة منها تغيير بعض المامورين الأجانب لسوء التصرف وطلب ذلك حق مقرر في القوانين الدولية وهذه الأمور لا تتم في زمان قصير فكم من سنة صرفت الحكومة الخديوية المصرية للحصول على تغيير الأمور التي تقررت بالعرف والاتفاق بينها وبين الدول الأجنبية فإذا ابتدأنا نحن باتباع دولتنا في الميل إلى ذلك والسعي في سبيله ندركه عندما تكون نقائص بعض مجالسنا قد سدت وصارت ليست كمجالس دول كثيرة من أوربا فإنها كذلك الآن ولكن كمجالس الدول المنتظمة الأحوال الداخلية التي لا نسمع بها ولا نرى غير أصغر جزء من أصغر أجزائها حال كوننا نرى ما هو عندنا على ما هو عليهِ هذا ولا توثر هذه الأمور في الصلات السياسية والتجارية العمومية الجارية بيننا وبين الأجانب فإن لسياستهم نفوذاً عندنا ولسياستنا نفوذاً عندهم ولذلك أصول مقررة في عهود سياسية وتجارية وقوانين في كتب القوانين الدولية المرعية الأجراء في جميع العالم المتمدن ومع أننا نحب أن نبطل الامتيازات الشخصية للأسباب المذكورة نرغب في تكثير العلاقات العمومية لأن صوالحنا متفقة مع صوالح كثيرين منهم ومن مصلحتنا أن تكون التجارة جارية بيننا وبينهم جميعاً واتفاق الصالح قد حملهم على أن يبذلوا الدم والمال في سبيل يهمنا أكثر مما يهمهم وعلاوة على ذلك نرى أن روح العصر يدعونا إلى تمكين العلاقات التي تجعل العالم عائلة واحدة فإن ذلك يكثر مالنا ويحسن أحوالنا الزراعية والصناعية والتجارية ويجعل لرإينا نفوذاً في العائلة الأوربية الدولية فالعموميات لا تضيق أنفس الأمم فحصول زيد على ما لا يحصل عليهِ عمرو غصّة

عليه وأي غصة ومع ذلك لا بد من احتمالها إلى حلول زمان ابطالها فإن حالتنا الماضية هي التي قد أتت بها فانظروا يا أيها العثمانيون إلى تغيير هذه الأحوال واجعلوا ديدنكم موافقتها فالاجتماع حول راية واحدة بالاتحاد من بحر الدانوب إلى ما عند خليج العجم من الجنوب وإلى الجزائر من الغرب والعراق من الشرق عز للأمة الشرقية ونفوذ لها وشان ولا سيما إذا كانت لها عاصمة كالاستانة فبالاتحاد والاتفاق على الاجتماع حول تلك الراية العثمانية والاتيان ببراهين تدل على سلامة البواطن وموافقتها للظواهر نقرر لأنفسنا نحن الذين لا نتكلم اللغة العثمانية حقوقاً لم نحصل علهيا بعد. ليس لأننا لسنا بأهل للحصول عليها أو لا نرغب فيها ولكن لأن الزمان الماضي كان ظلاماً حالكاً فلم نرَ الصواب وكان الذين يستلمون إدارة أعمالنا يفرحون بعمائنا ويضيفون إليه عماء الظلم والذل اما الآن فقد انكشفت حقيقة الأحوال وعرفنا أنهُ مهما احتملنا في بعض الظروف من الأثقال الناتجة عن سوء إدارة مامور أو مجلس مصلحتنا إنما هي في المسير وراء الراية الوحيدة التي تقدر أن تلم شعثنا وما من مستقبل أسعد من مستقبلنا ونحن على تلك الحال فمعرفة الصالح عندنا والابتعاد عن العناصر المفرقة والملقية للشقاق تفعلان نفس ما فعلهُ السيف والنار في إيطاليا ومن يا ترى كان يظن منذ عشرين سنة أن تلك البلاد المنشقة المضعضعة الأحوال ستصبح في زمان قصير بالنظر إلى حيوة الأمم ايطاليا فنحن لا نفتقر إلى كـاريبالدي ليدخل في ربقة الطاعة الذين يجاهرون بالعصيان فإن اتحادنا السياسي تام وبالإشارة إلى وجوب الاتحاد القلبي يتم هذا أيضاً وإذا توهم بعضنا أننا في أسوإ حال وقطع حبال أملهِ من الفوز بالمرغوب من جرى ظلم راهُ أو عدوان صادفهُ بخروج مامور أو مجلس عن سبيل العدل والقانون يغلط فإن من واجبات البشر الاجتهاد للاصلاح ولو كانوا في أشد الحالات انحطاطاً ولولا انشغال حكومتنا في أحوالها المالية بعد اصلاح أحوالها العسكرية والبحرية لرأينا ما لا بد من أن نراهُ ومن يا ترى كان يظن أن بوارجنا القليلة وجنديتنا التي كانت مضعضعة الأحوال تصبح في أقل من خمس

عشرة سنة على ما هي عليه الان مع قيامنا بحرب أكريت وجبل الأسود وحملة اليمن فالدولة التي أصلحت ذلك تقدر أن تصلح ما لا يزال محتاجاً إلى الإصلاح والضيقات المالية عمومية إلا في انكلترا وبعض الدول الثانوية والاستقراض جارٍ في أكثر الجهات فالابتدا بعمل كل ما يضمد جراح الخلاف الديني في الأمور السياسية وحصر ذلك في المعابد من أهم الأمور ولوم كل من يكدر ذلك بالأقوال أو الأفعال مفروض على ذمة جميع الذين يحبون السياسة الصحيحة. ومن الأمور المقررة عند أهل السياسة أن الأمم لا تحب حكوماتها فإن أصعب الأمور خضوع نفس لحكم نفس ومن المقرر أن العقلاء من الشرقيين الذين يدركون حقيقة الأحوال يعرفون ذلك وعندهم أن فوزنا بالاتحاد حول راية قد قال صاحبها ألف مرة أن المساواة قاعدتي والتقدم في سبيل هذا العصر مقصودي فمن خالف ذلك يخالفني وتقلباتي أدلة اهتماماتي ونحن نقول أن مصلحتنا اتحادنا وأول المطر وبل.

في الاصلاح والترقي(*)

حيوة البلاد وسعادة العباد

ان لنمو البلاد وسعادة العباد مصدرين أحدهما الاتحاد والالفة وثانيهما العدل والتسوية. فكل بلاد يسَّرت لها العناية الحصول على ذلك تكون أهاليها في رغدٍ وراحة وإن بخل الزمان عليها بهما أو بأحدهما كانت على أسوإ حال وعمَّها الخراب والدمار. ولا يخفى أن للحصول على ذلك أسباباً أعظمها وأهمُّها الحكومة. فان الحكومة للانام كالملح للطعام ان احسنت أصلحت وإن أساءت أفسدت. وهو من المباديء المقررة أن وجود حكومة مصلحة يستلزم اصطلاح الأهالي. وذلك لأن الذين بيدهم زمام الأمور هم بعض الأهالي قد انتدبوا إلى تولي الاحكام وإدارة الأنام فلا بد والحالة هذه من المشابهة بينهم وبين الشعب الذي هم منهُ.

ومن ثم تكون حكومة كل أمّة نظير تلك الأمة مشرباً وتمدُّناً وعملاً أي أن خاصة الحكومة تكون كخاصة الشعب وعامة الحكومة كعامة الشعب. فكل شعب أحبَّ أن تكون لهُ حكومة ممتازة إدارةً وعدلاً وجب عليهِ الاجتهاد في تمييز نفسهِ أولاً. لأنهُ إن كان الشعب مطبوعاً على الانشقاق والنزاع وتفضيل صالح النفسْ على صالح العموم تكون حكومتهُ متصفة بتلك السجايا نفسها. وبناء على ذلك كل شعب يتشكي من حكومتهِ إنما يتشكي من نفسهِ. هذا إذا كانت الحكومة من نفس الأمة المسودة. ولكن إن كانت الحكومة من أمَّةٍ وشعبها أو بعض شعبها من أمَّةٍ أخرى فربما حصل تفاوت بين السائد والمسود. فإن كان المالك أقل تمدناً من المملوك لا يستطيع سياستهُ. وهذا قد أجمع عليه رأي أصحاب السياسة والمورخين وإن ساسه برهةً لا يمكن أن يدوم تسلطهُ عليهِ. وإن عكس الأمر بأن كان المالك أكثر تمدناً من المملوك اكتسب المملوك نجاحاً من المالك إلا إذا كان التفاوت بينهما بحيث

(*) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ٢٨، ٣٩.

تكون الشرائع غير مناسبة للمملوك لأنها ربما فاقت حالتهُ ومقتضيات أعماله وادراك عقلهِ. وإن كانا كلاهما في حالةٍ واحدة من جهة التمدن كان حكمهما حكم الأمة التي تسود نفسها إلا في ما ندر.

فقد تبين أن نجاح الشعب إنما يكون بنفسهِ وعلى الخصوص إذااستخدمت الأمة السائدة أشخاصاً من نفس الشعب المسود لسياستهِ. وذلك كما تفعل الحكومة السنية في ممالكها المحروسة مثلاً. فإنها تختار بواسطة المامور الأول باقي ماموري الحكومة من أعضاء مجالس وكتاب وضبطية وغيرهم. وهؤلاء ينتخب أهمهم الشعب وعلى ذلك يكون المتولين زمام الأمور من الشعب إلا في ما ندر. وأما المامور الأول في المكان فيكون غالباً غريباً. على أن الدولة العلية قد أخذت في تنصيب مامورين من جميع الشعوب والملل من دون تمييز كما هو معلوم لدى الجميع. هذا إن وجدت من بهم الأهلية للارتقاء إلى الماموريات وإدارة العباد فضلاً عن تجنب ما من شأنهِ أن يشبَّ نيران الحسد المضر في صدور الأقران من أهل المكان. لأن السيادة إنما تكون بالاستحقاق ولا بدَّ لذلك من استعداد عظيم كمعرفة القوانين والعلوم وأصول السياسة ولغة الدولة إلى غير ذلك من الأمور. فكلما تقدمت الأمة في ذلك يكثر منها المتقلدون الوظائف.

وحسبنا مثلاً ما هو جارٍ في نفس السلطنة السنية من تنصيب من بهم الأهلية مع قطع النظر في الغالب عن أمتهم. وقد بلغوا بعناية الدولة العلية درجةً سامية من المناصب. والخلاصة أنهُ ما دام أعضاء المجالس من الشعب المسود وجميع المهامّ والمشاكل تصير رويتها وفصلها بمعرفتهم تكون حالة الحكومات المحلية بحسب حالة أعضاء مجالسها الذين ينتخبهم الشعب. وكفانا برهاناً على ذلك أن الحكومة المحلية في هذه البلدة فإن أعضاء مجالسها الأربعة وهي مجلس الإدارة ومجلس تمييز الحقوق ومجلس التجارة ومجلس البلدية هم من أهالي البلاد. وكذلك روساء هذه المجالس ما عدا مجلس التجارة هم من أبناء العرب. ولولا الإنشقاق لكان رئيس هذا المجلس أيضاً منهم. على أننا قانعون بما قسمهُ لنا النصيب من هذا القبيل فاما مجلس تمييز

الحقوق الذي هو للأهالي شديد الأهمية نظراً لكثرة الدعاوي الخاضعة لحكمهِ فهو كما سبق مؤلف من أعضاءهم من أهالي البلاد. ورئيسهُ أيضاً عربيٌّ وليس أعرب منهُ وهو سيادة صاحب المكرمة والفضيلة سيدي عمر بهجة أفندي نائب بيروت الذي يلهج كل لسان بحسن صفاتِه وعدالتِه ورقة جانبهِ ونشاطهِ ومواظبتهِ الأعمال ولا حاجة إلى ذكر غيره من المتصرفين والقائمقامية ورؤساء المجالس والمديرين ورؤساء الضبطية.

فبناءً على ذلك نقول أن تشكّي أحدٌ ممَن تضرُّ بهِ العدالة من حكومتهِ يكون قد تشكّى من نفسهِ. ولا ريب أن جري الأمور في مجاريها يتوقف كثيراً على دراية وعدالة المأمور الأول في الولاية والمتصرفية والقايمقامية وهلمَّ جرًّا. هذا مع قطع النظر عما ربما يعترض دون ذلك من مقتضيات سياسة المملكة العمومية. ومن لاحظ حقَّ الملاحظة حالة الولاية السورية من حين تولّى إدارتها حضرة صاحب الدولة محمد راشد باشا المعظم يرى أن ما وصلت إليهِ الولاية في أيام دولتهِ من ضبط الأحكام والعدالة والرفاهة لم تصل إليهِ من حين تشكيلها ولاية واحدة. وذلك بخلاف ما لو باينا طالع السعد وساق لنا النحس والياً لا يحسن الإدارة ولا يعتني بالأحكام. وبالإجمال نقول إن نجاح الشعب وديمومة سعادتهِ يتوقفان على الشعب نفسهِ. فإن كان دأبهُ الانشقاق والانقياد إلى الميل والأغراض المنحرفة فلا يحق لهُ أن ينتظر شيئاً من ذلك وإن الحصول على المرغوب إنما يكون بتعليم وتهذيب وتثقيف الفتيان بحيث يصيرون أهلاً لتقلد الوظائف وحينئذٍ تزهو حياة البلاد وتنمو سعادة العباد.

الاصلاح(*)

هل يصطلح العرب. هل يردُّ الزمان إليهم الاتحاد. هل يقيم لهم الدهر عزّاً. هل يكلل تاج النجاح جبالهم. هل يطلع في مشرقهم بدر العلم. هل تنير شمس التمدن سهولهم. هل يغرّد بلبل السعادة في

(*) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ١٢٩، ١٣٠.

جنانهم. هل يرتفع عمود الثبات في حصونهم. هل يحرّك البخار آلات صناعتهم ومحارث زراعتهم. هل تدير تجارتهم دولاب البخار. هل تتحلى ألسنتهم بصحة لفظ درر لغتهم. هل يخط المداد صحيح عباراتها. هل يطلع طالع السعد في برج الصعود. أو لا.

ان من تصفح صفحات التاريخ. وأمعن النظر في تقلبات الزمان. وتمكن من معرفة أحوال الشعوب والدول. وبحث في أسباب ارتفاعها وهبوطها. وعرف الوسائل التي تذهب بها إلى قمم النجاح. ووقف على حقيقة الوسائط التي تنزل بها إلى أسافل التاخر. وقاس ما يأتي على ما فات. يجيب قائلاً انهُ لا بد من أن يرجع بنا الزمان إلى الأفق الذي قد حجبتهُ عنا غيوم السياسة ودفعتنا عنهُ صواعق القوة والانشقاق. لأن من انتبه يسمع لرعود ظلمات الأجيال الماضية ولجان زمان الأوهام الباطلة ولاسد الظلم الهالك دمدمةً وغطيطاً وزئيراً بعيداً يكاد لا يسمعهُ من أنهمك بالترحب ببلابل الحريَّة وبروق التمدن. غير أن البدر لا يخلو من الكدر. وفي الشمس ما يحاكي سواد كَلَف القمر.

قد زعم البعض أن كل صلاح العالم يكاد لا يصلح فساد الشرقيين. وذلك لأنهم منذ انفردوا أمماً قد تعوَّدوا العبودية الداخلية تارةً والعبودية الخارجية أخرى. وذلك غلط. والشاهد مثلاً مملكة العجم التي كانت تحسب في مصافّ الدول العظيمة. فمع أنها كانت خاضعةلنيري هيئة الأصناف والحكومة المطلقة لما كانت ترتقي قوةً وتمدناً ومجداً وتعوَّد شعبها الذلَّ والانقياد لملوكها حتى درسها دارس الأمم الاسكندر العظيم ثم فتحها العرب وانقسمت إلى ممالك كثيرة نرى أن شعبها آخذ الآن في التقدم. فكم بالأحرى العرب الذين منذ انفردوا أمة وتمكنت عصبتهم الوطنية بالعصبة الدينية سادوا واعتزُّوا وتقدموا وتمدنوا وفتحوا البلدان وأذاعوا العلوم وهم خاضعون لشريعةٍ سيَّان في حكمها عبد وسلطان. وذلك بخلاف العجم وغيرهم من الأمم الشرقيين الذين كانوا يتقدمون وهم خاضعون لنظامات وقوانين غير عادلة وحكومة مطلقة. هذا ولا نقول أن هجمات الصليبيين وانقسام الخلافة وحروب أسبانيا لم تؤثّر في العرب تأثيرات مضرَّة ولا نفت

منهم روح الاستقلالية والعدل والاستقامة ومحبة الوطن والثبات والشهامة والناموس لأن الشواهد على ذلك كثيرة وظاهرة. منها شدة الانقياد مثلاً فإن بعض مستخدمي المامورين المحليين أو الأجنبيين ينقادون أحياناً إلى مستخدميهم انقياداً مخلاً ثالماً للناموس ومضرًّا للبلاد والعباد فإنهم يكادون لا يكونون غير آلةٍ يديرها رئيسها فينقادون إليه في ما ربما يخالف واجباتِهِ وينافي العدالة ويجلب على الأفراد والعموم ويلاً وهوائاً حال كونهم قادرين في أكثر الأحوال على ابداء ما ربما يرجع بالأمر إلى مجراهُ بدون أن يعرّضوا أنفسهم للخسران. ومن كان ذا ناموس لا يتأخَّر عن مثل هذا ولو أفضى به الأمر إلى خسارة ماديَّة. وليس ذلك إلا منِ نتائج الذل والانشقاق. ولا ريب أن كل ذي ناموس واستقامة يحسب من كان كذلك لعنةً وضرراً على البلاد والدولة ولا يستحق اعتبارهُ وصداقتهُ. لأن كل من خلا من الفساد لا يفضل فقط خسران نفعٍ ماديٍّ أو أدبيٍّ على ذلك بل خسران الحيوة أيضاً. لأن الإنسان لا يملك في هذا العالَم شيئاً لا تقدر أن تسلبه طوارق الحدثان وأيدي المطامع غير الناموس والصدق وأمثالهما. هذا ولا نسلم بأن الحاجة تحملهُ على ذلك لأنهُ كل ما كثر مال الإنسان اشتدَّ سعيهُ في طلبهِ. ولذلك لا يكون الغنى مانعاً للرشوة. لأنها إنما تكون بحسب الفطرة والعادة والقدوة. والخلاصة أن ذلك هو من نتائج العبودية التي حملت كثيرين على الذهاب إلى أنهُ لا أمل في اصلاح العرب لأنهم في مدة عشر سنوات لم يروا فيهم تلك النتائج التي تتوسط بين الفساد والاصلاح. وهذا هو غير الصواب. وحسبنا برهاناً آل اسرائيل فإن الله سبحانه وتعالى لم يصلحهم دفعةً واحدةً بل أعاقهم في البرية أربعين سنة إلى أن تُوفّي كل الذين كانوا تعودوا الذلَّ وفساد المصريين وأدخل إلى أرض الميعاد شعباً حرًّا نشيطاً ذا ثباتٍ وإقدام. فإن كان الله فعل ذلك في مدة طويلة كتلك فكم يقتضي لنا نحن من الزمان مع ضعفنا وفقرنا والعناصر الضدية التي تقاومنا لكي نمحو من أفقنا الكدر الذي علاهُ ونسير في سبيل يأتي لنا بالسعادة والرفاهية بدون أن نضحّي صوالح الجمهور لصوالحنا الذاتية. مائلين عن ذلك الطريق

الذي مهدهُ لنا جهل وطمع الحكام الذين كانوا حاكمين للتمتع بلذات السلطة وليس لحمل أثقال السياسة. ولولا الانتباه لأفضى ذلك بالحكومة والشعب إلى ما لا يحبهُ محبو الخير والنجاح لأن ما يضرُّ الحكومة يضرُّ الشعب وبالعكس. فإن افتقر الشعب تفتقر الحكومة. وإن قلَّت الأمنية تقلُّ الأعمال فتقلُّ المكاسب ويضعف ينبوع مداخيل الخزينة. فإن الحكومة هي للشعب الروح. والشعب هو للحكومة الجسد. فإن ضعف الجسد تتعب الروح. وإن تعبت الروح يضعف الجسد. على أن الروح هي الجوهر الذي يقوم بهِ الجسد وهو بالنسبة إليها عرض. فبناء على ذلك نقول أن الراحة هي كرة صغيرة بين أنامل أعضاء الحكومة تدار كيفما شاءُوا. غير أن تقليبها يتوقف بعض التوقف وربما كلهُ على حالة الشعب الذي ينظر إلى أعمال أعضاء الحكومة وينتقدها سرًّا أو جهاراً بحسب الامكان والحال والزمان. لأنهُ إن رأى المرتكب أن الجميع يقدمون له الاحترام اللايق بمن هو غير مرتكب وهم عارفون أنهُ مرتكبٌ ويستحق اللوم والاحتقار والنفي من اجتماعات أصحاب الناموس لا يرتجع عن أرتكابه ولا يرتد عن غيهِ بل يزداد ارتكاباً لأنهُ ربما ظنَّ أنهُ كلما توغل في الفساد يلتزم الشعب أن يحترمهُ حذراً من أن يمسي فريسة لظلمهِ وعدوانه. ولكن إذا رأى أن سادهُ يجلب عليهِ عاراً واحتقاراً رجع عنهُ وسلك سبيلاً يتكفل لهُ الاحترام والوقار. هذا ولا يخفى أن وصول الشعب إلى الدرجة التي تمكّنه من ذلك إنما يكون شيئاً فشيئاً. وبالوسائل التي تنسيهِ الفساد الذي تعلمهُ من أرباب الفساد والغايات. وهذه الوسائل هي نوعان الأول السطوة الصالحة لدفع عناصر الفساد وإخجال المفسدين. والثاني الوسائط التي تأتي بالمعرفة والناموس والمبادي الصحيحة. وبذلك يتمُّ اصلاحنا نحن العرب ويصبح هلال نجاحنا بدراً في أفقنا الرايق.

لماذا نحن في تأخر(*)

إذا سقط شيءٌ من فوق إلى أسفل أو ارتفع من أسفل إلى فوق

(*) مجلة الجنان، ١٨٧٠، ص ١٦٢ ـ ١٦٤.

نقول ان قوةً جاذبةً جذبتهُ أو قوةً دافعةً دفعتهُ. واذا دمدمت الرعود ولمعت البروق نقول ان الغيوم قد حكّ بعضها بعضاً والرياح تصدمها. واذا نجح زيد وتأخر عمرو نقول ان ذاك جدَّ وسعى واغتنم الفرص وهو اهل للقيام بحق العمل وهذا تكاسل وتهامل وهو غير اهل لذلك. واذا تأخرت لأمم أو نجحت نقول انهُ لا بدَّ لذلك من اسباب. اما ادراك حقيقة تلك الأسباب والوقوف على ينابيعها فمع انهُ صعبٌ فهو ضروري لمن اراد ان يتأصلها. لأنهُ لا بد من معرفة المرض واسبابهِ قبل اعطاء العلاج. وهذا هو سرُّ التطبيب. لأن معرفة العلاج سهلة بالنسبة الى معرفة المرض ولا سيما اذا كان المرض داخلياً غير ظاهر. وهذا هو الذي اعيا اعظم فحول اطباء السياسة واحذق علماء التأريخ الذين دابهم البحث عن امراض الأمم واسبابها. وعلى الخصوص لأن هذه الأسباب وتلك الأمراض لا تكون واحدةً في كل الشعوب بل تختلف باختلاف الزمان والمكان والدين والذوق والفطرة والاحكام اما ادراك اسباب امراض أمَّةٍ فهو صعب على من ليس من اهلها كما ان من كان مريضاً لا يحسن تطبيب نفسهِ. ولذلك يلزم ان يستعان بما من شأنهِ تسهيل السبيل الذي يقود الى معرفة تلك الأسباب وهذا انما يتم بالبحث المدقق الخالي من الغرض والتعصب في مرآة العالم وهي التاريخ. لأنهُ بمقابلة ماضي أمة بحاضرها ومعرفة اسباب ارتفاعها وسقوطها ينكشف الحجاب الكثيف الذي يحجب حقيقة الحاضر. ويصبح كل مستور مكشوفاً. لان المقابلة بين الأشياء تظهر جيدها من خبيثها. لأنهُ لو عمَّ الظلم أمةً بدون وجود ماتقابل به مما هو احسن منها في غيرها او في نفسها في زمان حاضر أو ماضٍ لظَنت تلك الأمة ان ما عندها هو كل ما يمكن الحصول عليهِ. أما اسباب تأخُّرنا فسهلٌ ادراكها على من ينظر اليها بعين التاريخ العادلة. وهي كثيرة تكاد لا تحصى.

وقد ذكرنا بعضها فيما سبق من الجنان وسنذكر بعضها الان وفيما يأتي ان شاء الله تعالى لعل ذكرها وتعداد اضرارها يحملنا على الابتعاد عنها وسلوك سبيل يسوقنا الى الاتحاد والاشتراك في الأعمال. لأننا منذ انقسمنا الى عصب دينية واخذ كلٌّ منا يحاول عضد عصبتهِ

وتنكيس غيرها قد عمَّنا التأخُّر وخسف ظلام الجهل بدرنا. وقد دخل ذلك التعصب في بعض وربما أكثر مجالسنا وجمعياتنا وشركاتنا. وقد قام لنا فيها منتصرون من أبناء عصبتنا الذين يكـادون يحكمون لنا فى الدعوى قبل استماعها. وهكذا تنشقُّ جماهيرهم ويصبح كلٌّ منهم خصماً سرياً لندهِ ومحامياً متعصباً لابن جنسهِ. فاين العدل ممَّن اعماهُ الغرض وسدَّ أذنيهِ التعصب. وهذا هو وباءٌ شديد العدوى يسري من الكبير إلى الصغير. ومن شانهِ سلب راحة العباد ونزع أمنية أصحاب الأعمال والصوالح. ولا ريب أن من أهمّ واجبات كل حكومة يهمُّها أمر ترقية أسباب العدل والراحة المبادرة إلى منع ذلك بالوسائل التي ييسرها الزمان وتحتملها حالة البلاد. لأنهُ متى انقطع ذلك من دوائرها ينقطع من جميع الدوائر. لأن المحكوم عليهِ يقتدي بحاكمهِ في جميع الأمور من مليح وقبيح. ولذلك نرى أن خصال وسجايا وعادات الشعب تكون كخصال وسجايا وعادات الحكومة. ويا ليت حجاب المعرفة يسدُّ مداخل تلك الأعمال الغير الممدوحة التي أمُّها التربية الرديئَة ولبنها الجهل وثديها محبو الانفصال لقيام السطوة ونفوذ المآرب الذين يعلمون بأن الدين والجنس يرفعان أو يحطان الإنسان. فيسوقون البشر إلى أن يحتقر بعضهم بعضاً. وهذا هو أكبر محركات البغض وأسباب الانشقاق لأن الإنسان العاقل يفضل خسران المال على خسران الكرامة. قال المتنبي:

غثـاثـة عيـشي ان تـفت كـرامـتي
وليس بـفـتٍّ ان تـفـتَّ المـآكـل

هذا ومن بعض وأكبر اسباب التأخر الانشقاق الداخلي. فاننا لا نكفُّ عن رشق ابناء مذهبنا بسهام الحسد والملامة والقذف. على اننا نتكاتف معهم في رشق امَّة اخرى بها. وذلك لاننا لا نطيق ان نرى احداً من ابناء ملتنا وغيرها في صدور المجالس ومراتب الأحكام بل احبُّ الينا ان نخسرها نحن واياهم من ان نراهم متمتعين بها دوننا. وهذا هو من اخبث واعظم اسباب التأخير. لأن الأمة التي شأنها ذلك تكون منشقة تحارب نفسها وغيرها بدون راحة ولا فتور. ولذلك لا امل لها

بالنجاح ما دامت على تلك الحال.

أما الدواء الذي يشفي ذلك الداء فهو العلم(وليس المقصود مجرد معرفة العلوم المتعلقة باللغة) الذي يطرد من ذهن الانسان المبـادي الفاسدة ويرسخ فيهِ المبـادي الحقيقية. لان كل من نظر الى الأمور نظر عادل محقق يرى أنه لا يسوغ لهُ ان يحتقر غيرهُ ويحكم عليهِ بفساد الدين مثلاً حال كونهِ صاحب دين لأنهُ ذو غرض هذا مع قطع النظر عن الايمان المبني على التسليم. ومن نتائج العلم الاتحاد والمحبة وتضحية الصوالح الخصوصية للصوالح العمومية. ونتيجة ذلك الشفاءُ من تلك الأمراض العضالة ورجوع الصحة التي هي اعظم بركات الله. فعلينا بالاتحاد والينا عن الانشقاق. وكل يمين حاولت تكدير هذا الدواء فخيرٌ لها أن تُشَلَّ وان يُحسَب صاحبها جيفة تكدّر اريج الاتحاد الذكيّ وتعكر صافي كؤوس الألفة والاتحاد

الراحة(*)

اذا نام الانسان مرتاح الفكر والجسد لا تزعجهُ الأحلام ولا الخيالات المخيفة. وكذلك من لم يعمل الزمان عواملهُ فيهِ يعيش مرتاحاً لأن الحيـوة بالنظر الى مستقبل الانسان هي كالحلم بالنسبة الى اليقظة. أما الراحة فأسبابها كثيرة ومكدراتها اكثر. فكل مرتاحٍ هو غير متكدرٍ وبالعكس. غير أن من امسى مرتاحاً ربما يصبح متكدراً وهكذا يدور بنا الدهر ونحن على ظهرهِ لا نعلم كيف نوجه مسيرنا لننجو من داهية الدوار. وهذه الداهية هي نوعان عمومية وخصوصية. ولكلٍّ منهما اصول واسباب واحكام ونتائج تقودنا الى الراحة او الى التعب. اما الخصوصية فهي مما يتعلق بكل انسان على حدتهِ وهي تشبه العمومية وكثيراً ما تنتج منها أو تغور فيها. اما العمومية فهي التي تهمُّ الأمة قاطبةً وتكون غالباً اصلاً للخصوصية. ولذلك هي اهمُّ منها والبحث في احكامها اقرب وأسهل. لأنها ذات أصول وأحكام عامةٍ بخلاف تلك فان

(*) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ١٩٣ ـ ١٩٥.

حكمها انما يكون بحسب الأفراد. ولما كانت كل أمة تهتمُّ بما يريحها لان الراحة هي أسُّ النجاح والثروة والقوة والعمران وغيرها. وكان لا بد لكل أمة من حال ولكل حال من زمان. ولكل زمان دولة ورجال وراحة واتعاب. كان لا بدَّ لأهلهِ من البحث عن اتعابهم وراحتهم ورجالهم ودولتهم وزمانهم وحالتهم واسبابها ونتائجها وتأثيراتها كلها او بعضها او احدها. أما الأتعاب فكثيرة. اما الراحة فقليلة. اما الرجال فكالزمان. اما الدولة فكالرجال. غير انها قد سبقتهم في ميادين التقدم. هذا مع قطع النظر عنهم. لأنها قد مالت عن سبيلٍ لم ياتِ لها بمرغوب وها هي سالكة في سبيل تأمل ان تنال بهِ المقصود. وذلك انما يكون بحسب الامكان والزمان. والأهالي والبلاد والمال. أما الزمان فكالرجال. اما الحالة فكالزمان. اما اسباب هذه اجمع فهي مما لا يحاول جواد الافكار أن يخطها على سهول القرطاس. لأن دون ذلك اهوالاً. على أنهُ يلتفت شزراً تارةً إلى هنا وطوراً الى هناك. يحسب الحال والزمان والامكان. وهو من الأمور المقررة ان اسَّ الراحة العمومية هو الدولة. لأنها ان سلكت بحسب مقتضيات الحال وروح الزمان واعتبرت صالح رعاياها صالحها قادتهم الى جنان الراحة والأمان. والاَّ فتطرحهم في ساحة الفقر والانشقاق والأتعاب والرزايا. امَّا اسباب الراحة العمومية فهي العدل والأمان والاسعاف مادياًّ وأدبياً. فأما العدل فهو ولد الاستقامة والمساواة. واما الأمان فهو ابن القوة والضبط والصرامة والانتباه. واما الاسعاف فهو ماءُ ينبوع تقدم المحبة والنجاح. ولكلٍّ منها اشواك تكزها فتنفر منها. فشوك العدل الرشوة والتعصب والمطاولة في انجاز الأشغال. وشوك الأمان هو الضعف والتراخي والتغفُّل. وشوك الاسعاف هو محبة الذات. وراحتنا متوقفة على جري هذه الأمور في المجاري الصحيحة وجريها في تلك المجاري إنما يكون بحسب استعداد واقتدار الحكومات المحلية. وهذا يتوقف على حالة اعضائها من الكبير الى الصغير. فان اعمال الكبير تُبنَى على اعمال الصغير. واعمال الصغير تكون بحسب حالة الكبير. ولذلك لا بدَّ من تنظيم حالة الصغير للحصول على النتيجة المرغوبة من الكبير. واصلاح من كان

غير مصطلح من الكبار ليصطلح الصغار. والخلاصة أن الشعب سلسلة واحدة مركزها حالتها. والحكومة سلسلة اخرى داخل تلك السلسلة ومركبة منها. فاذاً الأمة سلسلة واحدة. غير انهُ لا بدَّ من انتخاب احسن حلقات تلك السلسلة لتسوس الأمة وتسوس نفسها. وكل حلقةٍ بحسب اهمية عملها. أما الضابطون فهم سنام القوة وبرُدُ السياسةٌ. فان كانت حالتهم غير حسنة ثقلت القوة وتوقفت حركة السياسة. لأن عليهم يتوقف امر الضبط وسرعة الاجراء. فان أُخلَّ بالضبط وأُبطىءَ في الاجراء تقف حركة عالم الحكومة فتُسلَب الراحة. هذا ولا نقدر أن نحمل بغلاً حمل جملٍ. وكذلك لا يقدر أن يقوم زيد الجاهل بحق عمل عمرو العاقل. ولا خالد المريض بحق عمل عُمَر الصحيح. لأنهُ ينبغي ان يُطلَب من كل انسان على قدر طاقتهِ. وهكذا لا يسوغ ان ننتظر من الضابطين الذين هم في تأخر بقدر ما ننتظر من الضابطين الذين هم في تقدُّم. فبناءً على ذلك يلزمنا أن نرتضي بما نحن عليهِ ما دامو هم على ما هم عليهِ أو ان نتبصَّر في ايجاد طريق يسوقنا الى المرغوب. هذا اذا كانت حالة الضابطين هي بحسب حالة الشعب الأدنى الذين هم منهُ. فمن اراد الوقوف على حقيقة ذلك فعليهِ أن ينظر أولاً الى حالتهم وما لهم من الوسائط. فان كانت دون اللازم فينبغي ان يُرتقى بها الى الدرجة اللازمة. التي هي الاستعداد الشخصيُّ والاكتفاء الماليُّ لئلا يحدث تقصير من عدم الاقتدار او من السعي في طلب ما يقوم بالاود. وعلى ذلك نقول إن ثلاثة من الجاهلين لا يقومون مقام عاقل. فإذاً الأحسن تقليل عدد الجاهلين وتكثير عدد العاقلين. فينتج من ذلك امرٌ مهمٌ وهو اجتماع ما كان يصيب ثلاثة من المال في واحد. وهذا ياتي بمن بهم الأهلية للقيام بحق العمل. فترتقي الخدمة بدخولهم فيها ويصبح لها شرفٌ وشان. ويصير امر منعهم عن طلب غير المرتب القانوني في حيز الامكان. لأنهُ ما دام المرتب يقصر عن سدّ احتياجات المعيشة لا يمكن بسهولة اجراء القصاص الصارم على من يسعى في طلب سدّ تلك الاحتياجات. ولكن اذا كان الشعب غير قادر على تقديم من بهم الأهلية للعمل فمن اللازم أن يصير اتخاذ الوسائل اللازمة

لايجاد الأشخاص المناسبين بعد أن يصير استخدام كل الذين بهم الأهلية ليعضدوا اولئك ويمهدوا السبيل للذين يلحقونهم. ثم يصير الاعتناء بتربية جمهور ممن بهِ اللياقة من الفتيان بطريقة تغرس فيهم محبة الوطن والاستقامة والأمانة والنشاط والانتباه والتهذيب في كل مكان بحسب احتياجهِ. ويصير ايجاد كل الوسائط التي من شأنها أن تغرس في الانسان الناموس والرزانة والحذق من كتب وجرائد وأعمال ومواعظ وغيرها. ويصير أيضاً فتح أبواب الارتقاء الى اعلى مناصب هذه الخدمة بحسب الأهلية مع قطع النظر عن الجنس والأصل. وقبل أن يصير استخدام احدهم يلزم ان يجري فحصهُ امام هيئَةٍ مخصوصة. ياخذ في ممارسة مهامّ وظيفتهِ. على انهُ ينبغي أن يصير النظر في اصلاح كل من يلزم اصلاحهُ من الذين يكون لاوليك الفتيان تعلُّق معهم بالاشغال لكي لا يكلفوهم اعمالاً تخلُّ بتلك المبادي الصحيحة. فيذهب سدىً تعب التربية ومصروفها. أما الذين هم في الخدمة ولا يصلحون لها فيرجعون الى ممارسة الأعمال التي تليق بهم ن فلاحة وصناعة وغيرهما ويلزم لاتمام ذلك زمان ليس بقصير. ولا يب أنهُ اذا حصل الانتباه الى ما ذكرناهُ في ما سبق من الجنان والآن ترتقي سعادة العباد. ويغنّي بليل الراحة في كل صقعٍ وناد.

الدوران(*)

من ذا الذي لا ينظر تارةً الى امسهِ وتارةً الى يومهِ وطوراً الى غدهِ. ليرى ما كان فيهِ. ويقابلهُ بما هو عليهِ وبما ربما يسوقهُ الزمان اليهِ. من ذا الذي لا يندب كرامةً فقدها. وذلاً طرحهُ دهرهُ فيهِ. ونحساً يرى لهُ هيئة في مرآة المستقبل. من ذا الذي لا يصبو الى ردّ ما فات من النعم ودفع ما يدهم من الرزايا. والترحب بما يسوقهُ اليهِ ساعد الدهر من جيوش النجاح. وكل من لا يسير في ذلك السبيل ويقوم بحق تلك المقتضيات يعثر بصخرة الغفلة والهوان ويسقط في حفرة التأخر

(*)مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

والفقر والذل والأحزان. لان من لا يتبصر في احوالِهِ. لا يكلل اكليل الظفر هامة اعمالهِ. بل يدخل النقص في خلال شهدهِ ابرَهُ ويظلم التغفل بصرهُ ويصبح ديدنهُ التاخر لا النجاح. والخبط في ميادين الذل والويل لا الفلاح. وهكذا الأمم فان شأنها شأن الأفراد. مع قطع النظرعن اختلاف الهواء والبلاد. وما يصون حقوق الفرد من حصون حسن التدبير. يصونها ولو ابطأت عجلات مركباتها في المسير. ولذلك تنهض الأمم من غفلة التأخر وتطلب الطراد في ميادين النجاح والتقدم لترجع بنفسها الى قصور التقدم والنجاح او لترتقي الى درجات غيرها من الأمم المرتقية الى اعلى جبال التمدن والعز والارتياح. ولما كان لا بدَّ لذلك الارتقاء من اسباب ولتلك الأسباب من وسائط. ولما كان لا بدَّ لما دهم من التأخر أو كان من التقدم من ظروف وأحوال. ولتلك الظروف والأحوال من مفاعيل وتأثيرات في تقدم الأمة أو تأخرها بالنظر الى ذاتها او بالنظر إلى نسبتها الى غيرها وكان لا بد لتلك الأمة من نسبة سياسية وأدبية وطبيعية مع غيرها كان لا بد من النظر في تلك الأسباب والوسائط والتقدم والظروف والأحوال والمفاعيل والتأثيرات والنسبة اجمالاً او افراداً للوقوف على حقيقة ما كنا فيهِ وما نحن عليهِ لنعرف ما الذي ستساق اليهِ. وما هو مخزون في خزاين المستقبل لغيرنا من الأمم ولأنفسنا كلاًّ على حدتهِ وبنسبتهِ الى غيرهِ. لأنهُ قيل ان الدهر دولاب يدور. وما كان عليهِ جارنا في الأمس سنصبح نحن فيهِ وهو في ما كنا نحن عليهِ وهكذا قد سارت القرون وهي تدور بالعالم وترجع بهِ كل برهة الى ذلك المركز الذي ابتدأت منهُ وحسبنا برهاناً شهادة التاريخ التي تزيدنا معرفة في احوال الزمان كلما افترَّ ثغر الصبح عن محيَّا الغزالة فاذا لا بد من أن تدوس الأمم الشرقية على ناعم تلك الطنافس التي سلبتها اياها ايدي الزمان وطوارق الحدثان. وتصعد الى الأفق الذي هبطت منهُ منذ ارتقى اليهِ غيرها من الأمم. ولكن هل يظلم الغرب عند شروق النور في الشرق بحسب دوران الدهور او يعمُّ النور العالم باسرهِ. او كل ما يكون قريباً منهُ قرباً طبيعياً. وما ادرانا ان قرب المواصلات والسلاسل البرقية التي ضمَّت العالم الى حلقة واحدة لا

تميل بالانقلابات التاريخية المتعلقة بهذا الشان عن مجراها الأصلي وتسلك بها سبلاً جديدة. فيصبح ديدنها الانحصار في دائرة كل أمة على حدتها ويؤثر فيها مع قطع النظر عن غيرها. فلا يقتضي ارتقاوها أو هبوطها ارتقاء غيرها أو هبوطِه. فتعمُّ بركات التمدن العالم اجمع وتصبح كل الأمم رائعة في رياض النجاح والتقدم. وهذه هي مسئَلة شديدة الأهمية للأمم السائرة في سبيل الارتقاء كالأمة العربية. لأن كيفية ذلك المسير تتوقف عليها. فلا بدَّ من تقرير أساس لتقدمها. فان كان لها في المستقبل الخزائن التي كانت لها في الماضي تهتم بالارتقاء بنوع يؤَهلها للقيام بحقها. وإلاَّ فيلزمها أن تفرغ الجهد في التقدم مع حفظ العلاقات التي تسمح لها بحفظها السياسة التي كانت لها في القرون الماضية. ونظن ان هذا الأخير هو أقرب من ذلك. لأن الحالة الحاضرة تكشف لها عن قدوم مستقبل يختلف جداً عن الماضي. ولذلك نرى أنهُ لا بد من أخذ الوسايل التي تتكفل لها بنوال المرغوب من هذا القبيل وغضّ النظر الآن عما ربما يأتي الزمان بهِ مما لا يوافق روح هذا العصر. ومن دقق النظر في الاصلاحات التي قد انهمكت بها دار الخلافة يرى أن في ما ذكرنا صواباً. لأنها قد افرغت جهدها في الذهاب ببلادها الى ذلك المركز الذي يتكفل لها بالمسير على وفاق روح العصر. ولو كان لها من الأهالي من يدير اصلاحاتها بحسب مقتضياتها لكنا نرى شاهداً اظهر على ما قلناهُ من الشواهد التي تبرزها الحالة الحاضرة. لأن من طالع ما سودت صفحات السجلّات من القوانين والنظامات يرى أنها تكاد توافق أكثر الأمم تمدناً. حتى انهُ يقال انها اسبق من الأهلين فأصبحوا يسيئُون استعمالها ويخدشون وجناتها بمخالب سوء التصرف والجهل. لأن من يحاول تفسير ما لا يفهمهُ يسقط في حفر الخيبة والزلل. لا نقول ان كثرة القوانين وسرعة تغييرها لا يكثر الجنايات ويوقف حركة العدل وعلى الخصوص حيثما تقصر القوة الاجرائية عن القيام بحقها لأن الضعف في ادراك الشرائع والقوانين يسبب ضعف الحكم ولو كانت تلك النظامات منتشرة بين أيدي الأهلين بحيث يطلع عليها الجميع

لزالت اسباب تلك المحاذير وعلى الخصوص لأن من شأن ذلك الزام الذين لهم فيها يد ان يتقنوا معرفتها ويقفوا على سريرة روحها. لئلا تصيبهم سهام الملاحظات واللوم. وقد ذكرنا مراراً كثيرة الأسباب التي تأول الى ترقية اسباب العدل والراحة والتمدن ولا نحبُّ ان نذكرها الآن ايضاً. غير أننا نقول انها مع ما اشرنا اليه انفاً هي ينبوع حصولنا على المرغوب والسبيل الذي يذهب بنا الى افق التقدم والعمران والثروة. وعلى الخصوص اذا تحقق من بيدهم الأعمال انهُ يوجد كثيرون يترصدونهم ويفتقدون اعمالهم ويظهرون مليحها من قبيحها ويسارعون الى اذاعتها حال كونهم غائصين في بحار عميقة. وحال كون مياه التجمل والتمليق تسدُّ اذانهم عن استماع ما يظنونهُ مستوراً عن أعين النقاد وملاحظات الملاحظين. وأملنا ان مركز دوراننا سيرتقي الى ما كان عليهِ لما امتزنا امة عزيزة بدون أن تنقطع علاقاتنا الحالية فنصبح نحن ومن حولنا راتعين في جنان النجاح والتمدن والعزّ والعمران مدى الاعصار والدوران.

الممالك(*)

أعلَى الممالكِ ما يُبنَى على الأَسَلِ
والطعنُ عنـد محبّـيهـنَّ كـالقبـلِ

لا ريب أن في ما عناهُ المتنبي بهذا البيت صواباً. غير أنه قد نظرَ إلى جهة واحدة من المسئلة ربـما كان الذي حملهُ على ذلك هو ضيق المقام ومناسبتهُ لحالة الزمان. لأن علو الممالك وانحطاطها لا يتوقف في هذا الأيام على مجرد كونها مبنية على القوة المادية أو على غيرها فقط. ومايصح في هذه الأيام كان يصح أيضاً في الأيام القديمة. والبراهيـن على ذلك كثيرة. لأن الدهر يدور أي يعيد اليوم ما فعلهُ أمس، ولذلك لا نقدر أن نسلم بأن حصول الدولة على درجة سامية من القوة يتكفل لها بالارتقاء إلى أعلى درجات المجد والسطوة ويمكّنها من

(*) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ٢٨٩ ـ ٢٩١.

القيام بحق واجباتها السياسية وإذا ارتقت بها فارتقاوها يكون موقتاً وضعيفاً لأنهُ لا يكون مبنيًّا على أساسات صحيحة. وحسبنا برهاناً ارتقاءُ تيمورلنك الذي داس بقدم عزمهِ وسطوته كل الممالك الشرقية وشيد حصون مملكتهِ على رؤوس العوالي وصانها بحد السيف. ولكنها لم تثبت بل سقطت بموته. وكذلك مملكة الاسكندر وغيره من الذين كانوا يعتمدون على القوة لقيام الملك. وذلك لأنهم لم يلتفتوا إلى ما يمكّن جلوسهم في سروج السطوة من أخذ التدابير اللازمة التي من شأنها تمكين العلائق الكائنة بينهم وبين الشعب بل كانوا يحاولون أن يتسلطوا على رعاياهم تسلطاً مطلقاً ويجذبوهم إليهم بعصا القوة وليس بحسن السياسة المبنية على أساسات العدل ومراعاة الحقوق وظروف الأزمنة والأماكن. ولذلك نقول أن ثبــات الممالك وقوتها ومجدها وغناها لا يكون بمجرد الاعتناء بترقية أسباب من شأنها تقوية قواتها المادية وتضعيف تلك الينابيع التي يظهر لنا أنها صغيرة. مع أنها هي أسُّ لتقدم والنجاح وثبات الملك لأن الصغائر تأتي بالكبائر. ولذلك يرى ن دقق النظر في سياسة الممالك أن كل مملكة انهمكت باجراء ما تكفل بترقية أسباب قوتها وضربت صفحاً أو تهاملت عن القيام بحق الدقائق التي منها تتركب تلك القوة يأول بها الأمر إلى سرعة الضعف المادي والأدبي وبالنتيجة إلى الانحلال. فإذاً لا بد من النظر أولًا في صغائر الأمور لأنها متى صعدت إلى الأفق الذي يناسبها تبادر للقيام بحق واجباتها بدون أن تكلف أصحاب السياسة أثقالاً ومتاعب كثيرة. ومَثَل من حاول تنظيم كبائر الأمور قبل صغائرها مَثَل من يحاول تشييد بناء وتنقيشهُ قبل أن يبني لهُ أساساً. وهذا هو ضرب من المحال لأن النواميس الطبيعية لا تمكنهُ من ذلك ولهذا لا نرى عيناً تنظر بدون رأس ولا جسداً يمشي بدون قدمين ولا مطراً يسكب بدون غيم ولا غيم يجتمع بدون بخار وهلمَّ جرًّا. ومن يشاءُ أن يدرك علة معلول يبحث عن أصلهِ. وأصل ارتفاع الممالك انتظام أحوالها الكلية والجزئية. وانتظام أحوالها الجزئية والكلية يتوقف على حسن سياسة رجالها وهذا إنما يتم بأنهماكهـم بما يتكفل لهم بدوام جري تلك الينابيع التي تأتي لهم بما

يمكّنهم من سدّ احتياجاتهم واحتياجات سياستهم. لأنهُ متى انقطع جري تلك الينابيع ينشف البحر الذي تصبُّ ماءها فيه. أما تلك الينابيع فلكل منها محاقن تقطر فيها المياه التي تخرج منها إلى تلك الينابيع ومن ثم تجري إلى البحر. وهذه الينابيع ثلثة وهي الحكومة والحكومة والحكومة. والمحاقن ثلثة أيضاً وهي القوانين والقوانين والقوانين. أما المياه التي تقطر في تلك المحاقن فهي واحدة فقط وهي الشعب .هذا مع قطع النظر عن حالة الشعب ومبادي أخرى كثيرة لا بد من الاحتياج إليها. لأن المقصود الآن هو البحث عن الهيئة على ما هي عليهِ بدون تفصيل كيفيتها. فالأول هو الينابيع الثلثة. فالأول منها هو الحكومة بالنسبة إلى نفسها. والثاني هو الحكومة بالنسبة إلى الشعب والثالث هو الحكومة بالنسبة إلى حكومة أخرى. والثاني هو المحاقن الثلثة فالأول هو القوانين بالنسبة إلى الحكومة والثاني هو القوانين بالنسبة إلى الشعب والثالث هو القوانين بالنسبة إلى الأجنبيين. والثالث وهو واحد فقط وهو الشعب بالنسبة إلى جميع ذلك افراداً وإجمالاً وبالنسبة إلى نفسهِ. أما نسبة الحكومة إلى نفسها فعليها يتوقف العدل والسطوة والنفوذ والثروة وبالجملة هي من أهم أساسات الملك. لأنها هي التي تجعل الأحوال تجري في مجاريها الأصلية العادلة. هذا إذا كانت مستوفية حقها وبخلاف ذلك إذا خامرها خلل. فمنهُ الرشوة مثلاً فإن كانت نسبة الرئيس إلى المرؤوس نسبة رشوة فتصبح نسبة هذا المرؤوس إلى مرؤوســة نسبة رشوة أيضاً وهكذا حتى ينتهي الحال إلى الشعب. لأن الرئيس المرتشي لا يحاسب مرؤســه المرتشى على الرشوة. وهذا هو كافٍ ليهدم حصون الملك ويكدّر صافي كاس الشعب وصاحب المسئولـية الأولى في المملكة. ومن ذلك التعصب لدِين أو صداقة لأنهُ كالرشوة يكدر نسبة الحكومة إلى بعضها بعض فإنهما يعميان بصر الرئيس عن زلات المرؤوس. فيغوص هذا في لجة بحر طلب الذهب والطغيان والعدوان فيصبح كل من طلب منهُ أمراً فريسة لتلك المطامع لأن الحكم لا ينحصر في صاحبه بل يمسي عرضةً لمن هم حولهُ ممن يطيل لهم زمام الإدارة محافظة على الدخل والصداقة.

ومتى ارتفعت المسؤولية عن الإنسان لا يرتد إلا في ما ندر عن ارتكاب الغواية والمعاصي والعدوان. وهكذا يصبح كل الأرب في بذل الذهب .أما نسبة الحكومة إلى الشعب فهي أهمّ أساسات الملك لأن فيها تنحصر ثقة الواحد في الآخر. وبدون هذه الثقة لا ينال أحدهما الراحة. وما زال الشعب يظن أن الحكومة تحاول أن تفعل ما يوافقها بدون ملاحظة صوالحهِ ولا حقوقهِ وأن تكلفهُ حمل ما لا طاقة لهُ على حملهِ وأن تضعفهُ لتقوى بضعفهِ وتستغني بفقرهِ وما زالت الحكومة تظن أن الشعب يحب أن يعصيها ويخالفها وينقاد إلى غيرها ويستحلّ مالها لا تصفو كاسات نسبتهما ولا ترتقي أسباب نجاحهما بل يضعف الواحد بضعف الآخر وعلى الخصوص الحكومة التي يقوم بها الشعب فإن قصَّر الشعب عن القيام بأودها تقصر عن القيام بحق واجباتها فيسقط الفريقان. وهذه الثقة عامة وخاصة. فالثقة العامة تتعلق بسياسة الدولة العامة أي بالمبادي التي تسوس الحكومة شعبها بها. والخاصة هي التي تتعلق بكل فرد من الشعب وكل فرد من أعضاء الحكومة بما فيه المحاكم افراداً واجمالاً. وهذه هي كثيرة الأهمية لأنها أساس الراحة والامنية. وللرشوة والتعصب والصداقة ومراعاة الخاطر مدخل واسع. وكذلك للغش والخداع والكذب. مثلاً اقام الحجة زيد على عمرو وقرر الحال كتابة وقدم التقرير لمحلِه. فإن كان عمرو أغنى أو أشد سطوة من زيد فما أدرانا أن تقريرهُ لا يصادف أهوالاً ومخاطر ومصاعب في الجبال والوديان وقطع الأبحر والأحراش بحيث يعاق مدة تكلف زيداً من المصاريف ما هو أكثر من قيمة دعواهُ. وربما يغور والعياذ بالله. فيرى أن الإنكفاف خير من طلب الحق. ولكن إذا صار اتخاذ وسائل للتخلص من هذا المحذور الذي هو بعض محذورات كثيرة باعطاء وصولات مثلاً تكون مطبوعة ممن يتسلم التقرير يسلم من هذا الخطر. هذا هو من أصغر فروع تلك النسبة وينجم عنه أضرار كثيرة فكم بالحري تكون أضرار الفروع العظيمة شديدة وعلى الخصوص متى أبتدأ النظر في الدعوى وكثر الأخذ والرد. وفي نباهة المطالع ما يغنينا عن الاسهاب. أما نسبة حكومة إلى حكومة أخرى فهي ما نحبُّ أن.

نضرب صفحاً عنها لضيق المقام غير أننا نقول إنه كل ما كثرت المداخلة بين الأمم تكثر المنافع وتروج الأشغال ما لم تكن إحدى الأمم المتداخلة غير أهل للقيام بحق المداخلة لأنها تصبح في تأخير بينما تجمع الأمة المتداخلة غناها. أما القوانين بالنسبة إلى الحكومة فعلى جريها في مجاري العدل والانصاف يتوقف ضبط الأحكام وعدلها. لأنها هي التي تقصر أيدي الرشوة وتجعل المتوظفين يسلكون السبل المستقيمة لئلا يقعوا تحت المسئولية ويسقطوا في حفر الويل والهوان. وعلى الخصوص لأن الحكومة التي لا تجري قوانينها على المرتكبين من أعضائها لا تستطيع اجراءها على رعاياها وهذا هو ركن العدل وبالنتيجة الراحة. لأن الحاكم الذي لا يشعر بمفعول قوانين دولتهِ في نفسهِ لا يعتبرها بحيث يحملهُ اعتبارها على الاهتمام بتنفيذها في غيره ولا يخفى أنهُ بدون ذلك تسقط سهام الحكومة دون الغرض ويصبح شأنها الفساد والعدوان. أما نسبة القوانين إلى الشعب فهي من أعظم دعائم الراحة والأمنية والتقدم. هذا إذا شعر من داس على هامتها بقوتها كما يشعر من يقوم بخدمتها وترقية أسبابها بالمكافأة. وبدون ذلك لا يعتبرها الجاني ولا يغار عليها من دأبهُ المحاماة عنها وبذل العمل والأموال في سبيل خدمة وطنهِ في كل ما يتعلق بالعلم والزراعة والصناعة والتجارة والسياسة وغيرها. أما نسبة القوانين إلى الأجنبيين فهي ممَّا يتعلق بالعهود الدولية. وقد أعطتهم العادة في أكثر الممالك حقوق الرعايا. ودخولهم في سلك أبناء البلاد التي يأتونها من شأنِه ترويج أشغالهم وأشغال أهالي تلك البلاد الذين يحق لهم على الأقل أن ينالوا المعاملة التي ينالها الأجانب إذا لم نقل أكثر. ووجود التفاوت يكدر الراحة ويسبب التشكي والتذمر ويوخر أشغال الأهلين ويذهب بالأجنبيين إلى مقدمة جيش النجاح. أما نسبة الشعب إلى جميع ذلك افراداً واجمالاً فتتوقف على نسبة ذلك إليه. فإن كانت حسنة فينتسب الشعب إليها نسبة حسنة وإن كانت غير ذلك فتتكدر تلك النسبة وتكثر المحذورات وأسباب الابتعاد. وأما حسن نسبة الشعب إلى نفسهِ فهي أساس تقدمهِ لأن عليها يتوقف النجاح الذي إنما يتم

بالاتحاد لقيام صالح العموم وقد سبق الكلام على ذلك بالتفصيل. هذا وإننا نسأل اله الممالك وملك الملوك أن يلهمهم أجمعين إلى ما بهِ راحة العباد وخير البلاد فتصبح الدنيا عيلة واحدة تتنافس في الأمور الصالحة فيعم السلام والنجاح كل الجبال والبطاح.

روح العصر(*)

لما كانت الجبال والوديان والبحار. والقفار وبعد المسافات والأنهار حواجز تحول دون الرجال والحيوانات والمراكب ودون مقاصدها وتصعب وسائط الاجتماع والافتراق كان كلما اجتمع قوم في رفعٍ أو خفضٍ ينفردون أمةً ويمارسون الأعمال التي تأتيهم بالراحة والنجاح. وتدفع عنهم الأخطار وذلك بحسب ما تدعوهم إليهِ استعدادات ذلك المحل الطبيعية واحتياجات هيئتهم الاجتماعية مما يتعلق بأسباب المعيشة والراحة والأمنية والأديان فكلما قويت علاقاتهم الداخلية تضعف علاقاتهم الخارجية. ويباينون غيرهم من الذين اجتمعوا في حلٍ آخر في اللغات والعادات وكيفية المعيشة والسياسة والأديان. يصبحون أمةً منفردةً في ذلك. وهذا مع مساعدة الانتساب إلى أصلٍ من فروع الأصل الأول هو أساس انفراد الجنس البشري أممًا وأدياناً ولغات وعوائد ومشارب وذلك الانفراد وهذه الأديان واللغات والعوائد والمشارب تكثر وتقل بحسب المفاعيل السياسية المحضة أو السياسية الناتجة عن المشروعات الدينية التي كانت تفعل في كل منها بحسب استعدادها وقوتها وضعفها وقلة عدد رجالها وكثرتهم وقدميتها وحداثتها. فكانت تارةً تجتمع بعض الاجتماع في الصوالح وطوراً تتفرق كل التفرق فيها. فنتج من ذلك الاجتماع والعلاقات التجارية والتفرق والاختلافات السياسية روحٌ عامٌ وخاصٌ بحسب الاجتماع والتفريق والاتحاد والانفصال يوافق كلًا من ظرفي المكان والزمان أو أحدهما دون الآخر وهذا الروح هو ما يسمى بروح العصر. أي

(*) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٨.

المبادي التي تؤسس عليها أعمالها كل أمم العالم أو بعضها أو واحدة منها بحسب الاجتماع والانفصال. فان كانت إحدى تلك الأمم أو بعض أعضائها مخالفة لتلك المبادي التي اتخذها العالم أجمع أو بعضهُ مع قطع النظر عن الأفراد والشاذ بالنسبة إلى العالم قاطبةً أو بالنسبة إلى أمةٍ من أمم العالم يقال أن روحها مخالف لروح الزمان. ولما كان المخالف الضعيف يقصر عن التغلب على مخالفةِ القوي وعن بلوغ مبلغهِ كان لا بد من أن المخالف القوي يحوز أكاليل النصر في نزال الزمان. ولذلك كان لا بدَّ من تقلب روح كل زمان على الذين ليسوا من روحهِ. ولما كان التاريخ هو الواسطة للوقوف على حقيقة ما أوردناه وكان لكل راغبٍ سبيلٌ إلى مطالعتهِ كان لا بدَّ من الاقتصار عن إيراد البراهين التي تعضد ما قلناهُ لضيق المقام. ولذلك نقطع النظر عن الماضي ونمعنهُ في الحاضر وفي ما ربما يحدث في المستقبل. فنقول. أنهُ باختراعات القرن التاسع عشر للميلاد الناتجة عن البحث المدقق في كل ما من شأنه ترقية أسباب المعارف والعلوم والزراعة والصناعة والتجارة قد سهل أهل هذا القرن ما كان مستصعباً وقرَّبوا ما كان شاسعاً وخفضوا ما كان مرتفعاً ورفعوا ما كان مخفوضاً وساروا في البحار كما ساروا في القفار وسابقوا النسر في طيرانِه واذلوا المحيط في هيجانهِ. فأصبحت الدنيا بنشاطهم وحذقهم وإقدامهم وأموالهم كأنها سهل واحد يجول فيهِ من شاء بدون أن تصادمهُ آفات القرون السالفة أو تعارضهُ أيدي الصعوبات الطبيعية. وربطت القوانين الدولية الأمم برباطات تفتح للبشر كل بلدان العالم. فانضم الجنس البشري بعضهُ إلى بعض وأضحى بعد اضطرابات القرون المتوسطة كأنهُ عيلة واحدة غايتها واحدة وهي ارتقاء درجات التقدم والنجاح أدبياً وماديًّا. ولذلك كان لا بد من روح واحد لعصر واحد اهتمَّ أهلهُ في نوال مقصود واحد وكل من سلك على خلاف سبيل ذلك الروح أو حاول وهو متردّد بينهُ وبين غيرهِ أن يجمع بين الاثنين يخيب سعياً ويحبط عملًا. ولذلك لا بدَّ من الاتحاد مع أهل روح العصر أو الانفصال عنهم. وتفضيل الاتحاد على الانفصال وبالعكس فهو مما يتعلق بكل انسان. ولما كان

لا بد للإنسان من معرفة الشيء قبل اختيارهِ أو رفضهِ كان لا بد من تعريف روح عصرنا هذا لنتمكن من الاختيار.

فنقول: إنهُ لما كان الذين في أيديهم زمام الأمور السياسية والعلمية والتجارية مع قطع النظر الآن عن الدينية هم للعالم كمدبر الدفة للمركب كان لا بدَّ من سير العالم بحسب أفكارهم. فإذاً في الكلام عن روح العصر لا بدَّ من اعتبار روحهم كالروح الذي يختلج في جسد العالم قاطبةً. لأن الذين هم في رتب دونهم ليسوا إلا كآلةٍ يديرونها كيفما شاءوا. هذا ولا نقول أن العامة ليس لها في ساحة العالم أعمال تظهر بأنها قادرة على تغيير هيئتِهِ في بعض الظروف بل نقول إنها غير قادرة على القيام بعمل من هذا القبيل بدون مساعدة الخاصة التي تنسب إليها تلك الأعمال حال كونها في باطن الأمر هي القائمة بها، فتقرر إذاً أن روح العصر إنما يكون بحسب روح الخاصة. وهو غنيٌّ عن البيان أن خاصة عصرنا قد أسست أعمالها أولاً على المساواة ثانياً على لحرية المطلقة التي لا تضرُّ بالغير. ثالثاً على ترقية أسباب تقدم العالم خصوصاً وعموماً وهذه المبادي الثلثة هي روح العصر الحاضر. ولكل من هذه المبادي فروع كثيرة وعوارض تعرض عليها وتكدرها. أما الفروع ففي نباهة المطالع غنىً عن ذكرها. وأما العوارض فهي مما لا بد من ذكرهِ قياماً بحق استيفاء الموضوع. فللمساواة عارض قويٌّ جداً وهو الدين. وللحرية عارض أساسهُ محبة الذات لقيام السلطة وحفظ المركز وهو السياسة. ولترقية أسباب تقدم العالم خصوصاً وعموماً عارضان وهما الدين والسياسة. هذا مع قطع النظر عن عوارض أخر قانونية وَعن العوارض الطبيعية التي نظراً لرحمة الباري سبحانه وتعالى تكاد لا تضرُّ شيئاً بالعالم لأنها إذا أضرت هنا عوضت هناك. فبناء على ذلك قد أصبح لروح العصر الحاضر ضدان قويان وهما الدين والسياسة. وليس المقصود مطلق وجود الدين ومطلق وجود السياسة لأنهما ركنا حفظ الميزانية وراحة العباد وبدونهما يخرب نظام الكون البشري وتقف حركتهُ. ولكن المقصود إنما هو الدين بالنظر إلى تفاعلهِ في ما لا يتعلق بهِ ويضادُّ مباديهُ وإلى استخدامهِ للقيام بأعمالٍ

ليس من خصوصياتهِ القيامِ بها كتحميل الدولة الانكليزية رعاياها الكاتوليكيين والايرلنديين مثلاً مصاريف الكنائس البروتستانتية. ولا يخفى أن العار الذي لحق بانكلترا من جرى الاصرار على التمسك بهذا النظام إلى أوائل السنة الحاضرة لمجرد كونهِ قديماً هو أعظم من العار الذي كان يلحق بها بسبب عدم تنصيبها في المناصب احداً من الذين هم من غير مذهب الملكة لعدم اركانها فيهم لأنها حافظت على هذه النظامات مع أنها منافية جدّاً لروح العصر ولكن لما رأت أن روح العصر قد أبدل العصبة الدينية بالعصبة الوطنية الغت ذلك القانون مع أنه قديم فأصبحنا نرى أصناف رعاياها في جميع المناصب. ومع أن الأمة الاسرائيلية فيها هي أقلُّ عدداً من جميع أممها نرى أن كثيرين منها قد ارتقوا أعلى المراتب. وقد أعفت الايرلنديين من القيام بمصاريف غير كنائسهم. والسياسة التي تشرد عن صراطها المستقيم وتتحرش بالقوة أو بالخداع إلى ما لا يعنيها التحرش له وتحاول القيام بأعمال تنافي على خطِّ مستقيم الواجبات التي يسوقنا العقل إلى الحكم بأنها إنما وجدت للقيام بحقها كمداخلة المملكة الاسبانيولية مثلاً قبل هذه السنة في الأمور الدينية لأنها عوضاً عن أن تهتم في تحسين أحوالها وسعادة رعاياها أخذت تضطهد الذين يخالفون دين الملكة وتعذّبهم بعذابات شديدة. أما الدين فهو الناموس الذي يؤمن كل انسان بأن الله قد سنَّهُ لهُ ليعرف بهِ واجباتهِ لالهه ولقريبهِ ولنفسهِ مع الاعتقاد بوجود ثواب وعقاب مؤجلين ولكن لما كان عقاب الدين مؤجلاً وكان الإنسان مائلاً طبعاً إلى الشر كان غير كافٍ للقيام بحق ما يقتضي القيام بحقه نظام العالم دفعاً للتعديات والخلل. فاحتاج الإنسان إلى إنشاء قوَّة تقوم بحق ما يقصر الدين عن القيام بحقه. وهذه القوة هي الحكومة وهي تلك القوة التي تسهر على المحافظة على نظام العالم بنسبة كل إنسان إلى نفسه وإلى غيره وإلى حكومتهِ. وكثيراً ما مُزج الدين بالسياسة. ونتج من ذلك اضرار لا تحصى. والبرهان مملكة المصريين القديمة ومملكة الهند والصين وغيرها. لأنهما ضدَّان. لأن أساس الدين هو الاختيار بحسب الاقتناع وهو يتعلق بكل إنسان على

حدتهِ وأما أساس السياسة فهو عامٌ وهو الرضوخ لما يستحسنهُ أكثر جمهور ارتبط أفرادهُ بعضهم ببعض برباطات الصوالح المدنية. وهذا الرضوخ هو الزامي بخلاف الرضوخ للدين فانهُ اختياري. لأنه مع وجود السياسة ينحصر الدين في خصوصيات نسبة الانسان إلى خالقه وإلى نفسهِ وقريبهِ في الأمور الفكرية أي التي لا نتائج لها كالحسد وما أشبه. ولذلك قد أصبح الدين مما يمكن أن تصير موافقتهُ لروح العصر. لا نقول إنهُ يقتضي أن يصير تغيير أصول الدين لمناسبة روح العصر لأنهُ لا يمكن أن يخضع الإنسان ما يؤمن أنهُ يقودهُ إلى سعادة ابدية لما لا بقاء له. لأن ذلك إنما يكون ضرباً من الحماقة. ولكن لا يخفى أنهُ لا يوجد دين يمنع أهله من موافقة روح العصر في الأمور المدنية. لأن الدين لا يتعرض للأمور المعاشية. فإنه لا يقول لصاحبهِ مثلاً إذا نحتَّ حجراً فابدأ بنحت زاويتهِ أو الجهة الفلانية منهُ كما أنهُ لا يكلفهُ محبة قومٍ دون آخرين ممن هم من غير أهل دينه. فان علمهُ أن يحب الجميع فيوفر عليه أثقالاً كثيرة وإن علمهُ غير ذلك ورأى أنه لا اقتدار له على القيام بحق ذلك التعليم قياماً مستوفياً فتركهُ إياهُ هو من قبيل الضرورات التي تبيح المحظورات ولذلك لا حرج عليه إذا وافق روح العصر وسلك بحسب مقتضياته وهو محافظ في كل ما يمكنه المحافظة عليه من أصول دينه. وليس المقصود الاخلال بأركان الدين كاباحة القتل مثلاً موافقةً لروح عصرٍ أو قوم فان هذا مما لا يسلم بهِ دين من الأديان. ونظن أنهُ لا يمكن أن يطلب روح أيّ عصرٍ كان من أهله ما لا طاقة لهم عليهِ. فإن معظم مقتضاهُ هو أن ينظر الإنسان إلى جميع أبناء البشر بعين واحدة وليس المقصود أنهُ يحبّهم جميعاً كما يحب امرأتهُ ويركن إليهم كما يركن إليها أو إلى ابنهِ وأخيه بل المقصود أن يسلم لهم بنفس الحقوق المدنية التي يطلبها لنفسهِ ولذلك نظن أنهُ لا يوجد دين لا يسلم لغير أهله بأكثر الحقوق التي يطلبها لهُ. هذا إذا جرَّدنا الدين الاعتيادي أي المتعلق بالروحيات عن الدين السياسي أي النواميس التي سنتها الكتب الدينية مما يتعلق بالأمور المدنية. وهذا مما يقبل التغيير بحسب روح العصر. لأنه مثلاً إذا كان المذهب

الفلاني لا يسلم لأهله بلبس الحلى الذهبية في عصرٍ كان فيه الذهب ثميناً ويحمل صاحبهُ على الافتخار والتكبر ثم بعد مرور القرون أصبح الذهب قليل القيمة ويستعمل مثلاً عوضاً عن الفرو للاستدفاء. فهل ينبغي أن يبقى أهل ذلك المذهب محرومين لبس الذهب. لأنهُ حرّم عليهم لأسباب لم يبقَ لها أثر. ويلبسون الفرو حال كونه أصبح كالذهب عندما حرم عليهم. والتعصب هو من النتائج الدينية التي لا توافق روح هذا العصر. على أن من فهم حقيقة الدين يعرف أن التعصب هو من الأمور التي تضرُّ جداً بهِ لأن من شأنه إبعاد غير أهله عنه. لأنه يغرس في قلوبهم نفس الكره والبغض اللذين يكونان مغروسين في قلوب أهله لمن هم من غير مذهبهم. وهذا من أكبر الأسباب التي تؤخر تقدم العيلة البشرية. والقائمون به هم أجناد الدين الذين يغارون على دينهم غيرةً باطلةً. أما لخوفهم عليهِ وإما لعدم اركانهم بالمتدينين به. ولذلك هو من أكبر البراهين على الضعف لأن القوي لا يحتاج إلى عضدٍ بل يفتح سبيلهُ بمجرد قوتهِ. والخلاصة أنه من حسن التدبير الموافقة لروح العصر. لأن من لا يوافقهُ بالرضى يوافقهُ على رغم أنفهِ. كما التزمت دولة روسيا ودولة أمركا أن توافقهُ بتحرير العبيد. ولو كان في ذلك محذور ماديٌّ على الدين لكنا أول من يتخذ الوسائل اللازمة لعدم سريانهِ في العالم. ولكن لما كان روح العصر مما لايكلّف ديناً أكثر من وسعهِ كان خيراً لكل المتدينين أن يوافقوهُ على رضاهم فيامنوا غوائل الموافقة الجبرية التي لا بدَّ من أن يعقبها تشتيت الشمل. لأن فرنسا والنمسا وأسبانيا لم تخسر دينها بموافقتها لروح العصر. وكذلك دولتنا العلية لا تزال على دين الإسلام مع أنها آخذة في موافقة روح العصر. لا نقول إنه لا يوجد بين الذين يوافقون روحهُ من لا يعتبرون الدين ودابهم ارتكاب المنكرات. لأن أمثال هؤلاء موجودون بين الذين هم من روح العصر وبين الذين هم من غير روحهِ. فإن الإنسان لا يستحق أن يدعى إنساناً ما لم يكن عضواً من جسم واحد وهو العيلة البشرية التي لها أعضاءٌ كثيرة تختلف عن بعضها بعض هيئة ولوناً وتركيباً ووظيفةً. وذلك كأعضاء الجسد فإنها تختلف بعضها عن بعض ومع ذلك ما هي

إلا أعضاء جسد واحد قائمة بعملٍ واحد. فنسال الله أن يوهلنا لأن نكون من المنتظمين في سلك روح هذا العصر لئلا يسوقنا الزمان إليه على غير رضانا فنصبح مخجولين في أسره العادل. أما السياسة فهي مما لا بد من موافقتها روح العصر. على أنها تتاخر أحياناً عن المبادرة إلى الانتظام في سلكهِ. فيخامرها اضطراب واتعاب. هاك مملكة أسبانيا مثلاً فإنها تاخرت عن ذلك لأن سياسة حكومتها كانت مبنية على محبة الذات لقيام السلطة. فلما كشف روح العصر عن رعاياها برقع الروح القديم نهضت وحررت نفسها من نيرٍ طالما أناخت له عنقها. وهكذا كل حكومةٍ لا تزين جيد قوانينها بعقد المساواة ولا تلبس في ذراعها سوار العدل ولا تتنطق بنطاق الحرية ولا تتكلل بأكاليل المشروعات المفيدة والأعمال الحسنة ولا تسير على قدم محبة متبادلة بينها وبين رعاياها تزلُّ بها القدم حين لا ينفعها الندم. لأن روح العصر لا يسمح بذلك إذ إنهُ قد شبَّ في قلوب العيلة البشرية محبة المساواة والعدل والحرية والتقدم في كل شيء مادياً وأدبياً وكل من لا ينظم نفسهُ في سلكهِ ستسوقهُ إليهِ وتكتب على جبهتهِ هذا أسيرنا وأسير هذا العصر مكرَّم.

الاصلاح(*)

يا أيها الشرقيون. يناديكم منادي العصر التاسع عشر وتحثكم ايادي التمدن والنجاح فلا تدعو الدماء التي هرقت تذهب ظلفاً ولا تتركوا كنوز المال التي صرفتها خزينة العالم تنفق سدًى. اليكم عن الكسل والاهمال والتقاعد فانها نتيجة الذل والعبودية والفقر والظلم ودونكم دابة هذا الجهر فاركبوها ولو كانت خروطاً فان الزمان قد تخللكم برمح الويلات والرزايا وربطكم بقماط المصائب على راحلة بعير سجن النجاح ومرادُه يجهر بكم في قفار تأخر التقدم وعمى البصيرة. فان لممتم شعث صوالحكم واستترتم بمجان الأقدار والعزم والثبات وتقلدتم اسلحة التروّى من ينابيع العلوم وهدمتم حصون مكايد الجهل

(*) مجلة الجنان ١٨٧١، ص ١٧٧ ـ ١٨٠.

بمجانق المعارف يبرأ جريحكم وإلا فتجهز عليهِ غزارة انسكاب دماء الحيوة فيضرب على جهازِه. ومن يا ترى لم يقل النصر لفرنسا لما اسمعنا سلك البرق دمدمة مدافع الموت الأحمر ولكن اين جنود فرنسا من النصر. فانها انما كانت تسير تحت خفق بنود آلعز والجد لما كانت تقاتل في ساحة الوغى من هم دونها معرفة وتمدناً. وكانت كل ما تجهز القوم في ساحة النزال اشتدت سواعدها وقويت عزائمها ونثر بطشها. فكانت تعود في مركبات النصر الى عروس الدنيا وزهرتها باريز وتقول العالم دوننا فلا نخشى بأسهُ ولو تذامر كلهُ اجمع علينا. ولكن اين ذلك منهم الآن ولماذا خانهم الدهر اليس لأنهم رضوا بما كانوا عليهِ او ليس لأنهم سكروا براح المجد وجلسوا على فراش الراحة والتنعمات ونسوا ان العالم يسير دائماً فان كانت آفة الاهمال تأتي أمة قيد اسمها في رأس دفاتر الأمم بما قد اتت فرنسا بهِ فبماذا تأتينا نحن وبماذا تأتي سياستنا مع ما نحن عليه مما نحن عليهِ. يا أيها الشرقيون. اذا خدعنا أنفسنا مثل ما خدعت الامبراطورية الأمة الفرنساوية وهي تسمي الكسر نصراً تستفيق ونحن في حفرة ويلٍ لا نقدر أن نخرج منها ولذلك ليس هو من ترقية صوالحنا أن نجهر صغائرنا ونعظم ما هو محتقر لدينا ولا يفيدنا لا نحن ولا سياستنا ان نجلس في صدر مجلس الدنيا لأننا جلسنا فيهِ ونتوهم البعوضة جملاً والذبابة فيلاً. لقد تقلبت علينا الدنيا وقد قلبناها على موائد تشريح بواضع الأقلام وفحصنا جسمها وريداً فوريداً وشرياناً فشرياناً وعرفنا جهازها وقلنا هذا ضعيف وذاك قوي وذلك بينهما ورأينا النجاح والتاخر والجهل والمعرفة والغنى والفقر والعز والمجد والذل والهوان والصدق والكذب فاختبرنا كبائر الأمور وصغائرها والأعضاء الأولية والثانوية حتى أننا دخلنا حصون الزمان واختبرناها وطعنًا في ما يستحق الطعن منها ومدحنا ما يستحق المدح فأمسى الزمان والمكان من حشمنا. على أننا لا نزال نجهل اقرب الأشياء الينا واضرها لنا وأحبها عندنا واعزها في اعيننا ولولا لسان الحال لجهلنا أننا نجهلها فان شأننا بات التحديق بكل ما ربما كان لا يجدينا نفعاً وتركنا أهم الأمور التي منها معرفة انفسنا. فان ايادي

تقليد التمدن قد دخلت ربوعنا وأغرقت بطوفانها ما كان لنا من السجايا والعادات ولم يمخر فيهِ سفن ما ياتي بهِ التمدن الصحيح وعوضاً عن ان تجود أرضنا بانسكاب ذلك الغيث غرقت فيها حبوب النشاط وغاصت في حمأتها أيادي الهمة والتقدم الصحيح فباتت الأراضي صلقعاً بلقعاً. وبتنا نصرف ما كان باقياً لنا من خيرات السنين الماضية وما كنا نلتقطهُ من هنا ومن هناك في السبيل الذي يصرف فيهِ بقايا أموالهم من تمخر أراضيهم غيوث خيرات مفاعيل التمدن الصحيح. ونزلنا في ميادين سباق فرسان الثروة وبذلنا في هذا السبيل الغير المستقيم بالنظر الينا ما كان ثميناً وعزيزاً حتى كدنا ننفق كل حضيضتنا. فطلبنا العلم ولم ندرك منهُ غير طرفهِ لأن راسهُ كصخرة ململومة لا تقدر الأنامل أن تمسكها بدون أن تطيلها نيران معامل الانصباب الطويل والثبات الدائم. وطلبنا التجارة فسرنا في أثرها في مركبات تنفق كل ثروة بلادنا قبل ان ندرك منها ما يقوم بأود الأمة وبالجملة نقول إن مثلنا مثل الفرنساويين الذين لم يجنوا فائدة من مصائب غيرهم فاتاهم الزمان بمصائب تلزمهم أن يجنوا منها الفوائد. أما نحن فلم نقطف ثمار المنفعة من رزايانا أفلا تقطفها من ويلات غيرنا أم نجلس منتظرين حلول دواءٍ لم تحل بعد لنحسَّ بسريان الوباء بيننا وننهض لقطعهِ حينما لا ينفعنا النهوض. لأنهُ معلوم أن الأمة الفرنساوية هي أمة قوية وكثيرة العدد وتقدر أن تحتمل ما قد حل بها ولكن هل نقدر نحن أن نثبت في خمس ما ثبتت فيهِ أو هل نستطيع احتمال ما احتملت يوماً واحداً. كان الانشقاق والتحزب ديدنها والاختلاف شأنها والنزاع عملها فحصدت شروراً من هذه الشرور فهل ترجع اليها هل يحب احد محبي فرنسا خصوصاً أو محبي الجنس البشري عموماً أن يرجح أن الفرنساويين لا يتحدون على دكّ جنود الخلاف والنزاع بعد ان رأوا من نتائجها ما رأوا وإذا حملهم الجهل وعدم الثبات على ما لا نحب أن يحملهم عليهِ فهل يتأخر احد منا عن أن يقول للأمة الشرقية هاك تلك الأمة الجاهلة التي لا تثبت على حال بعد أن انخرطت سحنتها انخراطاً ارتعدت لهُ فرائص العالم بل شأنها سلوك الصراط الذي يذهب بها إلى ما لا تكاد تصدق

أنها قد صدرت عنهُ. فإن كنا نقول عن فرنسا ما نقولهُ فماذا نقول عن أنفسنا. كم من مرة تتمخض امرأة الحيوة من ثقل جنين الرزايا الذي كان يختبط في رحمها وكم من مرة اذقنا بعضنا البعض كاسات تكاد تكون أمر من الكاسات التي شربتها الأمة الفرنساوية عندما رفعت يد الانتقام بعضها على البعض الآخر من منا ينظر إلى ماضينا وإلى حالنا ولا تصب عيناهُ دمعاً قانياً حزناً علينا ويقطر قلبهُ من دمهِ حنواً وشفقة يا أبناء الشرق وأولاد مهد الدين والعلم والتجارة والصناعة والزراعة والثروة هل نبقى على ما نحن عليهِ هل نطعن في السكر ونحن الخمر وهل نذم المتحزبين ونحن التحزب وهل نتغافل عن القيام بحق ناموسنا ونذم الذين لا ناموس لهم انطلب الى الغير أن يعطونا ما نحتاج إليهِ ونحن لا نحمي ذمارنا ونلعن الكاذبين والمرتشين والمنافقين والمخادعين ونحن الكذب والرشوة والنفاق والخداع. هل يسوغ أن نترك لأولادنا ميراث الذل والهوان لماذا لا ننهض ولماذا لا نهب ولا نستيقظ ولا نستفيق ولا نضرم نيران محبة المبادي الصحيحة ولا نسكب غيث الاتحاد والمحبة والعز والفخر. من لا يحب أن يكون محبوباً من الجميع ومن يقدر أن يكون كذلك بدون أن يحب الجميع ومن لا يحب أن يكون مرتاحاً ومن يرتاح اذ لم يرح غيره ومن لا يرغب ان ينال حقهُ بدون نزاع ومن لا يحب أن الجميع يصدقونهُ في الأخبار والصداقة والأمنية والطوية ومن يا ترى يحق لهُ أن ينتظر ذلك من غيرهِ إذا لم يقم هو بحقهِ تجاه غيرهِ يا ابناءَ الأفاضل قد اضعنا ما ورثناهُ من الفضل لأن كثيريـن منا يرتشون ويحابون بالوجوه ويميلون بعنان الغرض ويعمون بظلام التعصب والرفض ويزوّرون ويكذبون ويخدعون ويمكرون ويغشّون ويدعون المعارف والآداب ويقامرون ويسلبون الأموال بالكذب والنفاق. ويفعل هذه الأفعال كثيرون من غير أمتنا على أن أمثال هؤلاء في البلدان الصحيحة التمدن لا اعتبار لهم ولا ناموس ولا اركان ولا دخل بين أهل الأدب والعرض والناموس والدين. أما نحن فسوءُ حظنا قد صير لبننا مذيفاً أي أن المرتشين منا والمنصفين العادلين يسيرون على قدم اعتبار واحد والكاذب والصادق والشرير

والصالح لأن مجد المال قد سدل ستاراً على عيوب اصحابهِ وصيَّر المرَّ حلواً والحلو مراً والحسن قبيحاً والقبح حسناً والصواب خطأ والخطأ صواباً فأمست الفضائل والآداب نسياً منسياً مقهورة تحت أرجل الدرهم الوضاح. فهل نقدر أن ننجح والمحتقر أصبح معتبراً والمعتبر محتقراً. هل نجني ثمار العدل والعدل بات يخدم المال وهل نقدر أن نقطف ثمرة الأدب والأدب هو عبد المال. كيف نتقدم والعرض عندنا جوهر والجوهر عرض. وان الصدق منا الذي هو أساس التقدم ونجاح الأعمال وعندنا الصدق بدون مال كذب والكذب بالمال صدق. من لا يسلم بأن الاستقامة والأمنية هما دعائم التقدم وهل يا ترى ينجح حق النجاح بيننا المستقيم والأمين. هل يقدر ان يرتقي سلم التقدم والنجاح عندنا الذي يأتي مرسح العالم الواسع المضطرب وما في يديهِ غير بضاعة المعرفة والاستقامة الا يميل عالم الذهب عينيهِ عنهُ ويقول اليَّ عن ويقول اليَّ عنهُ فإنهُ ليس في كيسهِ ذهب وليس لهُ في هميانى اسعاف. مَن منا يفعل ما يأتي الجمهور بفائدة بدون أن يرى أن لهُ فيهِ فائدة. وهل يرتقي احدنا معالي العلم أو مناصب الأحكام أو خزائن التجارة والزراعة بدون أن تحدق بهِ عيون الحاسدين وتنصب لهُ أيادي الشر شراكاً ويفرح كل الذين يحسبون انفسهم من أمثالهِ بسقوطهِ ومن منا لا يقول انني حرٌّ فإذاً لا يجب أن احمل نفسي اثقال تقديم الاعتبار لمن لا احتاج اليهم فيسير الهوينا عجباً ويرى نفسهُ اعظم من أعظم البشر الذين لا صالح لهُ في ايديهم واحقر من احقرهم إذا كان لهُ صالح عندهم أو منفعة منهم فبئس الحرية وبئس التربية وبئس المبدا. ومن منا لا يعتبر المرتشي أكثر من الأمين الصادق ويستعطف خاطرهُ ويجالسهُ ويهابهُ حذراً من الوقوع تحت قسيّ ظلمهِ وجورهِ وكفرهِ. ومن منا لا يرى أنهُ اعرف واعلم من غيرهِ ومتى خطر ببالهِ خاطر واقتنع من نفسهِ بأنهُ صواب يصرُّ على غيهِ وبهتانهِ ويغمض طرفهُ عن ظروف الأحوال والأزمان ويقول قلت وأقول ولا أغير قولي. فترى غادة السياسة ملقاة واحرباهُ بين ايدينا مخدشة الوجنات وسائلة الدماء تبكي وتنوح من ألم فعل مخالب الجهل كيف لا تبكي وقاطف ورد

خدها لا يعرف ما هو القطف وهاصر خصرها لا يدري ما هو الهصر لا بل نحاول تقرير الأسباب والنتائج ونحكم بالخطا والصواب بدون أن نعرف القوانين الدولية والمبادي التاريخية لا نقول ان مبادلة الأفكار هي من الأمور المكروهة لا بل هي كثيرة الفائدة على أنها تخلو من كل فائدة متى امست عرضة للعناد والاصرار والادعاء وترى فتاة التاريخ في حالة اسوأ من حالة غادة السياسة وكذلك علم رسم الأرض والحكمة. فان كانت هذه الحال حالنا فالى أين يكون مصيرنا. وهل يقدر الانسان أن يصلح غلطهُ بدون أن يعرفهُ ولذلك كان من واجبات الجنان بعد أن انهمك مدة طويلة بحرب فرنسا وألمانيا أن ينهمك مدة أقصر من تلك المدة في جمع أفكار أهل الأدب والمعرفة والذوق ونشرها في الجنان لتنبيه افكار الأهلين إلى الغلط الذي نرتكبهُ لنتمكن من اصلاحهِ. لأن أهم أعمال الجرائد الأدبية هي الانهماك في الاصلاحات الداخلية قبل الغوص في محيط فوائد وأخبار العالم قاطبة. وبناء على ذلك ألا يسوغ لنا أن نطلب إلى جميع أبناء وطننا أن ينظروا، بعين الاحتقار والازدراء والشجب إلى الكذابين والمزوّرين ولا سيما المرتشين منا لأنهُ ما دام أمثال هؤلاء الأدنياء الذين لا ناموس لهم ولا شرف يحصلون على المال بوسائط دنيَّة بدون أن يخسروا اعتبارهم ومراكزهم ويبيعون الحق بدون أن يفعل الحق فيهم فلماذا يمتنعون عن ارتكاب الرشوة حال كونهم قد بايعوا الدين أهلهُ. ولما كنا لا نقدر أن نخضع المرتشين منا ومن غيرنا لما يحملهم على الميل عن سبيلهم خوفاً من عذاب الجسم أو خسارة المال كان من واجبات كل ذي ناموس وغيرةٍ منا أن يحتقر المرتشي في وجههِ وأن تعسر ذلك فبغيابهِ وإن تعسر هذا فبقلبهِ وعلينا برشقهم بنبال ثلم الصيت وبالقول بأن المرتشي هو نجاسة الأمة. وهو معلوم أنهُ لا يصعب علينا معرفة أكثر الذين يرتكبون هذه الرذيلة والعياذ بالله. وهو معلوم أن الرشوة تشتمل الكذب والخداع والنفاق والتزوير والشر والظلم. ولذلك نلحق هذه الرذائل بها على أننا نقول إنها رأس الشر والمعاصي. هذا وقد ضاق بنا المقام الان ولا بد من الاقتصار وترك التفاصيل الباقية الى فرصة

أخرى على أنهُ لا بد من أن نطلب إلى أبناء الوطن أن لا يحيدوا عن الطعن في الرشوة وشياطينها وعندنا أن مجالسة الشيطان هي اصلح من مجالسة المرتشين. ونقول للمرتشين إنهُ اذا خلعوا الدين وثوب الحياة والمروَّة ولم يفعل بهم احتقار المحتقرين فسنبحث عن واسطة افعل من هذه الوسائط لأننا مع مساعدة أهل الأدب والصلاح والناموس لا ننفك عن مثل هذه الايضاحات المؤثرة إلَّا بعد أن يطلع بدر الاستقامة والصدق والأمانة في مشرق مصدرهِ ونرتع نحن وأولادنا في بحبوحة راحة البال.

الاصلاح(*)

يا أيها الشرقيون. تسابقكم بنات الدهر في ميادين أداب هذا الحقب فلا تتركوا مركباتها تسبقكم وتترك مركباتكم مرطومة في حماة التاخر. فإن نور هذا الجهر قد رفع اللثام عن محيًّا ليل الظلام فبان لكل ذي بصيرة بدر المبادي الصحيحة وكشف عن مضلات البشر. فعرفنا بما وقع علينا من الأشعة التي انحدرت الينا في احدور القرن التاسع عشر ما يقودنا الى أرياف النجاح والتقدم وما يسوقنا الى .ركات الويل والتأخر. وقد عرفنا بالاختبارات الكثيرة التي جمعناها بقطع الآماد المتطاولة التي قطعناها في طريق عرقوب ظلام الأيام الماضية أنهُ لا سبيل للتخلص من حمارّة قيظ الرفض والتعصب وصبارّة برد الرشوة والكذب والغرض إلا بارتقاء قمم جبال المعرفة الصحيحة وتنكب قسي مهلكات الرشوة والكذب والغرض والتعصب. وقد عرفنا ان اتمام الأعمال إنما يكون بالعمل وليس بالقول. فان نادينا أهل الفلاح ألف سنة وحرضناهم على ما يوافقهم ويأتيهم بفشل ما يؤَخرهم وسمعوا وضأضأوا في نزال الظلام ولم يعتقلوا رمح العمل ولم يركبوا جواد الاجراء فماذا يفيدهم ذلك وإلى أي ربع من ربوع التقدم يسوقهم. يا أيها الشرقيين لا نحتاج الى الكلام بل احتياجنا انما هو

(*) افتتاحية ج ٧، مجلة الجنان ١٨٧١، ص ٢١٣ ـ ٢١٦.

الى الأعمال فان كلًّا منا ينقل سماً قاتلاً على ما هو ينبوع تأخرنا ولكنهُ إذا رأى أن نفوذ مصلحتهِ إنما يكون بنفث السم على عناصر التقدم والنجاح يبادر الى ذلك ويلسع احب الأمور عندهُ وأعزها لديهِ. لقد عرضنا تشكياتنا الكثيرة على القريب والبعيد وعلى أهل البيان وأهل الرطانة ونشرناها في القراطيس الوطنية والأجنبية فلم يجدِنا ذلك نفعاً ولم يرفع عنا الأيادي التي نشكو أثقالها ولماذا أليس لأنها أيادينا ولا يقدر أحد أن يرفعها عنا إلا نحن الشرقيين. وهل نقدر أن نتخلص منها ما دام شاننا التترع الى الشر وإلى ما يوافق كلامنا مع قطع النظر عن غيرهِ إن هذه الحالة هي بئس الحالة وهي جديرة بالتبصر والبحث. وهذا البحث إنما يكون بحثاً عمومياً يدخل تحت كنفهِ كل ما يتعلق بالصالح إذا كان سياسياً أو تجارياً أو صناعياً أو علمياً أو غير ذلك. ذكرنا الرشوة وأوضحنا بأجلى بيان أنها نجاسة الأمة وأن المرتشي هو أشقى من شيطان وأشر منهُ. فعلينا اذاً الآن أن ننتقل بالبحث مما يتعلق بالرشوة الى ما يتعلق بالكذب. فان الكذب هو من أضر الأمور التي تطرأ على السياسة والتجارة والعلم والصناعة وغيرها. قالوا إن المرؤوس يقتدي بالرئيس في أعمالهِ وملابسهِ وعاداتهِ وغير ذلك ولما كانت الدولة هي الرئيسة العمومية للأمة والمقصود من الدولة هو الذين يرتقون مراتب السياسة من الشعب وكان أكابر الأمة روساء لا صاغرها كان الصغير يقتدي بالكبير والكبير بالدولة وفي بعض الأمصار بالدولة السياسية وبالدولة الروحية وبناء على ذلك يقال إنهُ إذا سرى في الرئيس رد: أو غير ذلك مما يضر ولا ينفع يسري في المرووس وربما كانت البلدان الخاضعة لسياسة جمهورية مستثناة ولا تنخرط في سلك البلدان الخاضعة لسياسة غير جمهورية. على أن ذلك هو مما لا يهمنا والقصد انما هو تنبيه أفكارنا الى ما يحتاج الى الاصلاح عندنا. ولذلك كان من واجباتنا أن نظهر ذلك في أول الأمر للذين يصبحون قدوة لنا في الصالحات والطالحات وهم الذين يسوسوننا منا. قال قوم إن الكذب هو مما لا تستغني عنهُ السياسة الخارجية لأنها كثيراً ما تفتقر إلى سدل قناع فوق أعين السياسيين تنفيذاً لمارب سياسي فيهِ نفع للأمة.

ومع أننا لا نسلم بذلك لا نحاول الآن أن نقيم الحجة عليهِ لأن اهتمامنا ليس هو بخارجيتنـا ولا بكيفية سياستها ولكنهُ بالداخلية وبعد الفروغ من البحث فيهِ يرهو طائر الاصلاح ويأتي ربوع الخارجية ويغرد في افنانها تغريداً يجلو صدا هموم محبي الوطن وخير الأمة. هذا وقد قلنا غير مرة أن الذل والظلم يعلمان الأمة المكر والرياء والكذب والخداع وهذه انما هي واحدة وهي التظاهر بغير الحقيقة ولذلك نرى أن الأمم التي لم يسمح لها الدهر أنْ ترقص في مراسح العز والمجد قد امست مفسودة وقد فقدت ما يحلي جيد الأمم من عقود الاستقامة والثبات وحسن الطوية والصدق وغيرهما ولما كنا نحن الشرقيين من الذين قد طرحهم الزمان في حفر الاعنات والظلم وكنا قد أقمنا بحق احتمال أثقال تقلبات الدهر وصروف الأزمان وكان الزمان قد رفع قناع الظلمة عن محيا النور كان لا بد لنا من التعريج عن ذلك الصراط المعيب ومن تروّض مهر تمدنا بحيث نقدر أن نقطع جهر النور بدون أن تعيّرنا ملائكتهُ وتجعلنا ملاحظات الملاحظين هدفاً لوقع نبال العيب والذل. وإلا فيقول أهل هذا العصر ما قالوهُ قبل هذه السنة من أن الشرقيين قوم روبى شأنهم طلب اللذات والمكاسب والتنعمات فيحبون ركوب الفرس الرهو ولو ركبتهم دابة الظلم الجموح. ويبيت أهل الفساد والطمع من المرتشين والكذابين في صفوف عالم الأدب والناموس كمسير الجارية القبيحة السودا في صفوف الغواني المنعمات المجملات. فان الفساد هو الظلمة والاستقامة هي النور فلا يجتمعان. فمن أضر نتائج الكذب عدم الأركان فإذا هدم الخداع متكيات أركان الأمة إلى الدولة ترتبك السياسة وتضطرب الأمة ويتعرقل رجال السياسة وكذلك إذا قطعت حبال الأركان التي لا بد من مدها بين الخادم والمخدوم من حاكم وعالم وتاجر وصانع وزارع وغيرهم. ومن الكذب ما هو مغناطيس الرشوة وهو كثيراً ما يظهر لابساً حلى الغد وفي الغد يستتر في ثوب غدهِ وهلمَّ جراً إلى أن ينضح اناؤه بما تصبو اليهِ نفس ذلك الذي جمع بين الكذب والرشوة وهذا يدخل مكاتب العلماء ومخازن التجار وحقول الزراعين ومعامل الصانعين ومصدرهُ طمع

المستخدمين ومنهُ ما يمهد سبيل نوال المآرب بالكذب الممقوت من سدل ستار الغش على عيني صاحب الحق بحيث يركن الى امر فيهِ عكس ما ينتظرهُ وذلك إنما يكون لمنعهِ عن اجراء ما ربما كان واسطة تمكنهُ من القبض على زمام العدالة والحق. ومن تنشيط رجل وتحريضهِ على اقامة دعوى منها كسب للذي يتحاكم الخصمان اليهِ ومن تضعيف أمل كل منهما من النجاح طمعاً ببذل المال لتخليص الحق ومن اقامة المال والسطوة الواسطية مقام اهلية الذين يطلبون المناصب والوظائف وهذا هو من أكبر أسباب فساد مأموري دول كثيرة من دول العالم حتى ان المسموع ان هذا الكذب المصنع قد خامر كل أحكام العالم والكمال لله وحدهُ على أنهُ لا بد من التفاوت بين سريانهِ في بلاد وبلاد. ومن هذا الكذب ما يدخل التجار والعملة وغيرهم فإنهم كثيراً ما يمهدون سبل الربح بالكذب والمكر. ومنه ما هو كذب يدوس على رأس العدل وهو نتيجة الرشوة أو الغرض أو التعصب أو كلها أو بعضها فيبيع الانسان الحق في الحكم أو في الشهادة أو في التفسير أو غير ذلك ويبيع ناموسهُ بأبخس الأثمان وربما تم المبيع بدون ثمن فيسند الحكم إلى شهادة ضعيفة أو إلى قول ضعيف أو غير ذلك مما في ملاحظة الملاحظين غني عن الاسهاب فيه. وأعجب من هذا أجمع هو الكذب الذي يخدع بهِ الانسان نفسهُ طمعاً بنوال المرغوب من مال أو مجد أو غيرهما منهُ تغيير اسم الرشوة أو المكر أو الكذب تسلية لنفسهِ وإخماداً لنيران ضميرهِ فيقول مثلاً إذا أخذت مالاً من زيد لأسرع بكتابة أوامر لهُ ومضبطة حكمت لهُ بحق على منازع لا أكون قد ارتكبت إثم الرشوة المعيب حال كونهِ يعلم أنهُ بتفضيلهِ عمل على عمل يكون قد نفع قوماً بضرر قوم وأن هذه هي الرشوة بعينها إلى غير ذلك مما يحب الانسان أن يستر بهِ عيوبهُ ويحجب بهِ نظرهُ عن ان يرى عيوب نفسهِ. مع أنهُ معلوم أن كل ما يأخذهُ الحاكم أو المتوظف أو المتحكم من الأموال والهدايا يلزم أن يعتبر رشوة لأنهُ لا بد من أن يؤثر ذلك تأثيراً حسناً في المُهدَى إليهِ ربما كان يحملهُ على مراعاة المُهدِي عندما تصبح لهُ خدمة في يديهِ وعلى الخصوص في البلدان التي لا تزال

حديثة الإقامة في ربوع النور وحاصل الكلام أن الكذب هو مما يقدر أن يدوس كل بساط وأن يدخل كل ربع فإنهُ كالنعاس يدخل في الانسان بدون أن يدري. وعلى الخصوص الكذب الذي لا يسوغ أن نسميهُ كذباً محضاً وهو ما يتعلق بالتجمل وغير ذلك فإنهُ معلوم عند الجميع أنهُ ربما كان الإنسان المتجمل يظهر ما لا يشعر بهِ مثلاً إذا دخل عليّ زيد وقلت لهُ أهلاً وسهلاً لا يتأكد زيد بأنه أهلاً ومع ذلك يسر بتجملاتي ولما كان الكذب من الأمور التي تشين الانسان جداً لأنها تظهر أنهُ مكار خداع يجلب الضرر على البشر كان من الواجب تجنبهُ وعلى الخصوص في البلدان التي كانت غائصة في بحرهِ المضطرب وتحب أن ترجع لنفسها ما كان لها من الناموس والأركان كبلادنا التي قد سمعت البعض يقولون ان شهادة ألف رجل منها في أمر عمومي لا تكفي لذبح ديك لأن الأهالي متعودون الذل والانقياد وعلى الخصوص إلى أكابرهم وحكامهم فإن قالوا لهم اكتبوا أن زيداً رجل صالح كتبوا بدون أن يتبصروا في معنى ما يكتبونهُ وإذا قالوا لهم بعد يوم اكتبوا عكس ذلك اجابوا وهذا هو مما يوقع الحكام الكبار في ارتباك عظيم لأنهم لا يعرفون ماذا ينبغي أن يصدقوا من تقريرات المتشكين. ولذلك كان لا بد لنا من الاجتهاد في اصلاح الحال والمقصود ليس هو ابطال الكذب بالمرة لأن المظنون أنهُ لا يباين ربوع الانسان على أن تقليلهُ من الممكن ولا سيما تقليل الكذب الذي يكاد يكون بلا ثمرة كالكذب الذي يخلقهُ الانسان تمجيداً لنفسهِ وتعزيزاً لها ورفعاً لشأنهِ وقدرهِ فيأخذ بزخرف قولهُ بأخبار أعمالهِ وحسناتهِ وقدرتهِ وحوادث حياتهِ ومعارفهِ مما يظهر نقصهُ وعيبهُ عند اصغر الامتحان. ومن الكذب المضر جداً الكذب على الأطفال والنكث في القيام بحق ما تعدهم بهِ وتخويفهم بما لا وجود لهُ أو ما يجب أن لا يخافوا منهُ فانهم يتعلمون بذلك الكذب ويقل اركانهم بالبشر. والخلاصة أن الكذب هو آفة تهلك آداب الأمة وتثلم صيتها وتأتيها بأتعاب تشعر بها عند ما تلتجي الى ما تطلب اليهِ أن ينصفها وأهون وسائط اصلاح الكذب هو ابطال الزي أو العادة الحالية التي هي عدم الخجل من ارتكاب الكذب حتى ان البعض

من الجهال المتمولين والغير المتمولين يفتخرون بالكذب والتزوير وبالنفوذ في الدعاوي والأعمال الباطلة الكاذبة وابدالها بزي آخر وهو الزي الصحيح أي الخجل من الكذب وكره الكاذبين واعتبار المستقيمين واحتقار الكاذبين والمزورين فان جرى هذا في بلدة بين مائة من أهلها ينتشر في مدة ليست بطويلة في كل البلاد فيبطل الانقياد الأعمى ويتحرك الناموس في قلوب الأهلين فيضحون مصلحتهم الخصوصية لمبادي الصدق والاستقامة عندما تمس الحاجة. ولا ريب أن كلاً منا يحب أن يمتنع عن الكذب ليسلم من شر كذب غيره لأنهُ يكاد لا يسمع الانسان شيئاً من صديق أو جار أو نسيب أو غيرهم بدون أن يقول في نفسهِ ربما كان هذا صدقاً وهذا كذباً والقصد من هذا الكذب هو كذا وكذا ومن تلك كذا وكذا فبئس العيشة وبئس المبدأ وبئس الأمة التي لا تنفك عن مثل ذلك. فيا ايها الشرقيون ان ينبوع اصلاحنا هو همتنا وجدنا وكدنا فهل يسوغ أن نسير سيراً زميلاً والدهر يركض في المركبات النارية والأسلاك البرقية اليكم عن الفساد والكذب والرشوة والخداع ودونكم الصلاح والصدق والعدل والاتحاد والتعاون والألفة والمحبة فيجتمع العاشقان وهما خير الأمة وخير الدولة.

صوت الأمة(*)

اطالت بلايانا الدهور وضعضع الزمان صروح آدابنا المرتفعة فرجعنا بعد أن تململنا جهراً طويلاً خاثري الأنفس لا نعرف ما يضربنا ولا ما نمهج بهِ بعد أن امتُهجنا. فاعجب من حالة هي بئس الأحوال ومن أمة تباهت بحمل مصباحَ النور في وسط القرون المتوسطة ولكنها ليست بلا شمس في عصر طلعت فيهِ شموس التمدن في ما جاور بلادها من الأمصار ومع أنها قد قطعت اماداً متطاولة في دهر العالم لا تزال تهتز طرباً من ذكرى زمان لبزتهُ آفات النوائب وطوارق الحدثان. لأن ذكر مجدها الخالي وعزها الذي لُبط به هو أحلى في فمها من

(*) مجلة الجنان ١٨٧١، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧.

الشهد وأعذب من زلال مبرَّد. وقد عرفت من مقابلة يومها بأمسها أن الزمان قد ضرَّسها وأن الرزايا قد أحدقت بها وسارت في احدور تأخر التقدم. ولولا ذلك لوقفنا وقفة خاسر والدهر يُجتهر بنا في وعور هذا الزمان بدون أن نعرف إلى أين مصيرنا على أنهُ لما كنا قد عرفنا موقفنا من عالم التمدن والنور وكانت حمية أجدادنا حميتنا كان لا بد من أن نركب فرس مقتضيات الأحوال ولو كان جموحاً ونسير في سبيل طلب اصلاح الفساد وعمران الخراب. فإن تخللت أنامل السعي مياهُ عوارض منع التقدم وطرات على أرجل قطع الظلام فخاخ منع الاتحاد والنجاح تحط بانمل البرق كتابات النهوض والاصلاح ونركب مطايا البخار الى جنات المعارف والتمدن ونجهرها بأسواط محبة التقدم والوطن فتبيت موانع التقدم تسير في طلبنا على ظهر وجناءِ القرون الماضية فلا تقدر أن تدركنا لأن أجناد هذا الزمان ومركباتهِ لا تسمح لها بالانخراط في سلكها لأنها من غير أهلها. فإن أصبح شأننا ذلك الشأن ومسعانا ذلك المسعى فمن يقدر أن يصدنا ويسلب منا ما ملكتهُ أيادي العزم والجهاد. ومن يقدر أن يغالبنا وسيف روح العصر هو سيفنا ومجانُّ الاتحاد هي مجاننا وموضوع مهاجماتنا وتعميم المعرفة التي أجلست انكلترا في صدر مجالس الذهب وقوة البحار وألمانيا على هامة جيوش البر والاتحاد وجمعت في الأحضان الأمركانية الذهب والبر والبحر وصعدت بفرنسا منذ أقل من قرن من دركات الذل والظلم والويل والعناءِ والفقر إلى قمم المساواة. ولولا طوارق فضلات زمان الظلام لجمعتها بالاتحاد الداخلي أمة واحدة عزيزة ولله درها من أمة تنفق ما ملكتهُ يداها من كثير أو قليل في سبيل تعميم المعارف وتقدم الأمم. ولما رهى نسر المعرفة في تلك الأطلال وطار فوق خلال تلك الديار وسهولها وجبالها وأنهارها وبحارها وقع ظل جناحيهِ علينا وحجب عن العالم أهميتنا وبان الفرق بين الظلمة والنور في انسان عينيهِ اللتين كانتا تنظران الى كل أمر بحسب حقيقتهِ وليس بحسب ظاهرهِ. فرأينا كفة الميزان ترجح بهم لأنهم ثقلوها بقناطير المعارف وأرطال الذهب ومثاقيل الجواهر وأين ذلك منا ونحن منهمكون في لسن بعضنا البعض

وفي الانشقاق والتعصب والغرض وتشييد اطام العز والمجد المبنية من حجارة سلب أموال العباد بالتجارة التي تدفع مجاريها مياهها الى الخارج ومن أخشاب الرشوة ومبايعة المراتب والناموس الوطني طلباً للتخلص من الاشتراك بأثقال الأمة وعنائها وتأخرها ومن نقوش نهب أموال الحارث والزارع بالوسائط التي يسهلها زمان الجهل وعناء الحق لنوال مآرب أهل المطامع والشر. فكم من جائع اعتقد وهو يرى بعين الألم والضيق حيطان الأبنية التي بنيت بالأموال التي لو لم تسلبها منهُ يد الطمع القبيح لأقامت بحق أودهِ والجراد يأكل عنهُ مزروعاتهِ وهو لا يقدر أن ينقذها من فمهِ. وكم من والدة بكت ضيقاً لضيق ولدها الباكي جوعاً ولعريهِ وبردهِ ومالـها قد تحول الماساً لتميل بهِ تيهاً وغنجاً من ليس لها من المعرفة والادراك ما يكفي ليحملها على تنكب قسي الملامة واعتقال رمح الشجب ومغالبة رجلها الذي ينهب ما للفقير ليسد مطاليب جهلها وكبريائها. وأعجب من بعض الذين قد سلمتهم أيادي السياسة درع المحاماة عن المظلومين وسيف ردع الظالمين فيطولون لأنفسهم حبال الشر ويشتركون مع أولئك الظَلَمَة في سلب أموال الذين من واجباتهم المحاماة عنهم ومع الذين يدوسون على هامة العدالة والحق والانصاف استجلاباً للأموال. الا يعلمون أنهُ لا بد من أن صراخات المتظلمين تتمكن بواسطة مساعدة محبي الخير أو مرور الأزمان من ارتقاء سلم آذان أولياء الأمور وتنحدر بويل عظيم على رأس الظالم الذي أولى بهِ أن يموت جوعاً من أن يتنعم بموت كثيرين أولا يعلمون أن الأمة قد تقدمت وكشف بعض النور عن بعض بصرها بعض لفاع الظلمة والجهل فأصبحت تعرف الذين يتعنتونها والذين يعتلون إلى الشر طلباً لاقامة صوالحهم باندكاك حصون صوالحها ولا يتعاظم في عينيها غير ما يستحق التعظيم من المبادي الصحيحة المبنية على أساسات الحرية والمساواة والعدل والانصاف وترقية أسباب تقدم الأمة ترقية صحيحة خالية من ايقاع الشقاق واضرام نيران الحسد بين الأهلين أولا يعلمون أن سلطاننا ومولانا الأعظم هو عبدالعزيز خان وان دهر دولة عظمتهِ لا يعتم قرانا بل يعثر الظالم إلى سجن القيود والأغلال

أو إلى سجون سلاسل شجب العموم وملامتهم ورشقهم بسهام إذا لم تجرح حالاً تميت غرضها بتخلل وقع السهام. وكم من مرة اتسع الخرق على الراقع باهمال اولئك الذين يحملهم على الاهمال وجه الدينار الوضاح وكم من مرة قال مولانا السلطان الأعظم في نطقهِ المنيف ما يحمل ماموري الأمة على النهوض بالعزم الثابت لتعميم المعرفة في دوائر ماموريـاتهم لأنهُ قد تبين بالتجارب أن قوة الأسد بأنيابهِ وذراعيهِ وقوة الطير بجوارحهِ أما قوة الانسان فبمعرفته فان المعرفة هي سلاح يمكّنهُ من قهر كل سلاح وجيش العلم جيش يمكنهُ من دك كل جيش فإنهُ يدخلهُ الى عالم من التبصر والدقة والإناءة والوقوف على أسرار الأمور وحقائقها إلى غير ذلك. ولكن هل نقدر أن نشهد أن كل المأمورين قد أقاموا بحق كل ما أمر بهِ مولانا الأعظم. أمـا نحن فنقول إن سورية منذ سنين قليلة قد تقدمت في سبيل العلوم وازدادت فيها المدارس وان حضرة متصرف لبنان قد شرع في فتحها في الأماكن المهمة من متصرفيتهِ وكذلك في بعض الولايات وفي دار السعادة ولكن هل نقدر أن نقول إن المأمورين الثانويين والصغار قد أقاموا حق القيام بواجباتهم أو أن ما تأسس هو بحسب اللازم والمقتضى وأنهُ كافٍ لسد احتياجات الأمة. وكم من مرة نكاد ندوس بحوافر خيلنا ونسحق بدواليب مركباتنا أولاداً منكودي الحظ سائرين في الشوارع وسالكين سبيل الشر والكسل والجهل فلماذا لا نرى قوة الحكام فاعلة في أمثال هؤلاء ولماذا لا تعلم السياسة أنهُ ليس بمسموح للوالدين أن يلدوا أولادهم ويطلقوا العنان لهم ويتركوهم في وسط بحار الشر والجهل وأن في الزواج واجبات غير اقتران الرجل بالمرأة. ولماذا لا نرى الذين قد جنوا ما تيسر لهم من ثمار شجرة المعرفة في المراتب والوظائف ونسمع دائماً المامورين يقولون إننا في احتياج الى رجال ولا نقدر أن نجدهم أليس لأن الذين هم في الوظائف لا يقرّبون من هم أعرف منهم وأساسهم أمتن من أساسهم وإن جمعوا نصف ما جمعوهُ من الاختبار يسبقوهم في ميادين السياسة. ولماذا نرى أعمالنا البلدية في تأخر ولماذا لا تقام في ربوعنا الأعمال العمومية أليس لأن البعض من

المأمورين وأعضاءِ الأمة هم في اهمال وكسل ولماذا نراهم في ذلك الاهمال فيا أيها الشرقيون إن آذاننا قد سمعت نطق مولانا السلطان كما سمعتهُ آذان غيرنا وقد عرفنا ارادتهُ التي تكرم علينا باظهارها من فم عظمتهِ الشاهانية وقد تأكدنا أن تعميم المعرفة وتمدن الأمة وتفتيح أعينها هي الوسائط التي تأتي بالاصلاح رغماً عن فساد المفسدين ولو كانوا من المأمورين فعلينا إذاً أن نطلق عنان مركبات المعارف مستندين الى الارادة العلية الملوكانية ونتقدم في سبيل العلوم والتمدن والمساواة بمساعدة بعض المأمورين المحليين والدوائر البلدية أو بغير مساعدتهم وإذا قصروا عن القيام بحق واجباتهم نلتفت إلى ورائنا بعد أن نصعد في قمم النجاح إلى حيث تقدر أن ترانا عينا الحضرة الشاهانية متسربلين بمجد التقدم والمعرفة ونقف هناك لتسربنا وترى بضاعتنا وتسمع تشكياتنا إذا حدث ما يوجب التشكي ثم نلتفت الى أسافل التأخر فنرى الذين نشكوهم متمرغين في حماة الخزي والعار. فما أثمن تلك البضاعة. وما أحلى هاتيك الساعة.

هل(*)

هل من مصلحة لنا أن نخرج من ظلمات الماضي ونوائبهِ ورزاياهُ نتقمه في فيافي الحاضر ونسلك سبيل المستقبل على غير هدًى حتى نستأمع فنمسي عرضة لاستهزاء أهل هذا العصر ومثلا يتعلم بهِ المستقبل مجانية السلوك في المسالك التي سلكناها أو هل يسوغ للذين مكنتهم حوادث الأيام التي لا تزال آثارها في حاضرنا من الوقوف على ما يعلمهم ما تحب كل الأمم أن تتعلمهُ أن تنسيهم انهماكات الحاضر وأفراح التخلص من مهالك الماضي ما لا يجب أن ينسوهُ مما تقشعر الأبدان لذكرهِ ويذهبون في أعمالهم مذاهب الذين لا تؤثر فيهم حوادث الأزمان ولا تحملهم بنات الدهور على التيقظ والانتباه بحيث يستعدون حالما يمكنهم الزمان من الاستعداد إلى جمع جيوش الصدام لدفع ما ربما كان الدهر يأتيهم بهِ في الاستقبال مما أتاهم بهِ في الأيام

(*) مجلة الجنان ١٨٧١، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٥.

الماضية أو هل يسوغ لنا أن ننام على الوسادات التي طالما تضعها أيادي بنات الاستقبال تحت رؤوس أهل الحاضر ونستريح لأن ما سوف يدهمنا لم يدهمنا بعد أو لأن آمال خداع الحاضر تحملنا في مركبات الكسل والاهمال على الأمل بمصادفة مستقبل لا تخامرهُ نوائب الدهور فنبيت نصلف ونخدع أهلنا الذين ربما يحبون أن يسعفونا في الاستعداد لمصادمة جيوش ويلات الاستقبال فيمتد خداعنا الى أنفسنا حتى نمسي نتوهم أن عندنا ما ليس عندنا ونقور لئلا نُوقِظ بصوت وقع أرجلنا الحقيقة فنرى حالنا ونحن على بئس الحالات ونجفل جفلة تبعدنا عن الصراط المستقيم فنجهر في قفار فقدان البصيرة حتى نضرب على جهازنا فإن كانت هذه الحالة حالة حاضرنا فهل ترضى لنا بهِ سياستنا وإن كانت في حالة سياستنا فهل نرضى لها بها وإن كانت حالتها وحالتنا فمن يا ترى لا يرضى لنا بهما هل ننظر إلى جهة مغيب الشمس مترصدين قدوم من يهبنا ما نحب أن يكون لنا أو نتفرس في جهة مشرقها منتظرين حضور النجدة المطلوبة من الأمم الأعجمية التي افتقارها إلى ما نحن في افتقار اليهِ هو أشد من افتقارنا أو ماذا نفعل يا ترى هل نجلس جلسة من هشمتهُ أيادي الياس وندفع في بلاد أقام الله فيها ما طاب وحلا من كل ما يطيب ويحلو لأبناء آدم وبنات حواء أو ننهض نهضة البسالة والشجاعة والأقدار ونحض بعضنا بعضاً متكاتفين لنوال المآرب ومشتركين في الصبر في الضراء وفي الحبور في السراء وناظرين إلى ماضينا لنجني منهُ ثمار الاختبار لنستخدمها في الحاضر لدفع جيوش الويل والهوان في المستقبل وقطف أثمار النجاح والتقدم من تلك الأثمار التي تجري من تحتها أنهار الاتحاد والحب وتغرد في شامخ أغصانها بلابل الأمنية والراحة والمساواة كيف لا وفي حوادث فرنسا الأخيرة مرآة نرى فيها أنفسنا ونجفل عن مثالنا كما تجفل المرأة التي لم يلبسها الله حلى الجمال والحسن عندما تقابل مثالها فكيف لا ننتبه وقد راينا نتائج الحالة التي هي حالتنا لا بل حالتنا هي دونها على مسافة طويلة وقد عرفنا أنها أتت فرنسا بما اتتها بهِ مع ما كانت عليهِ من العز والجد والغنى والمعرفة

فماذا يقول عنا العصر إذا لم نرجع عن شقاقنا ولم ننظر في ما يطرد فاقتنا ويزيل عنا ظلمة الجهالة والتعصب والغرض الذي هو في غير محلهِ عندنا ومن قائل يقول لقد ضاق صدرنا من صرخات القلم الأصلع الذي يدخل صاحبهُ بهِ إلى مخدع خلا من الأضداد ويصرف زماناً بعد زمان في محاربة لا يقوم لهُ فيها ضد ولا يصدمهُ فيها صادم ولا يكسرهُ مكسر ولا يدافعهُ مدافع فيبني بالمداد المطيع على صدور القرطاس قصوراً وحصوناً تحاكي القصور والحصون التي تبنيها تصورات حدة الشبوبية في هواء الآمال ويطلق منها مدافع اللوم والشجب موجهاً كراتها تارةً إلى العامة وتارةً إلى الخاصة وطوراً إلى السياسة وطوراً إلى غيرها فإن كان من أبطال النزال فعليهِ بالانحدار إلى ميادين الاجراء ومصادمة أبطال المقاومة فإن رجع سالماً نرفع لهُ شاناً ونعزز لهُ اسماً وإن أخمدت انفاسهُ تلك النوائب يريحنا الله منهُ ومن صرخاتهِ التي كادت تمزق طبول الآذان فلو انصف هذا القائل لقال غير ما قد قال وعرف أن نزال الأقلام هو بئس النزال لأن من خط برأسه النحيف أمراً يعرّض نفســه لألوف من الأعداء يهاجمهُ كلٌّ منهم بسلاح يختلف عن سلاح غيرهِ فكل ما أتى الميدان مرة يرجع بجراحات مختلفة الهيئات والأنواع ومع ذلك نراهُ ثابتاً ينفخ في بوق الفلاح من قمة طود راسخ أساساتهُ عز الأمة ونجاحها ولا يرجع مكسوراً ولو عرف أنهُ يبيت مقتولاً لأنهُ قد عرف بالتجارب والاختبار أنهُ الينبوع الذي تشرب منهُ الأمة ماءً زلالاً يحملها على السلوك في السبيل الذي يوافقها وينبه أهل الحمية والنخوة إلى واجباتهم الوطنية هذا إذا عدل فكم مزق من ستارات الجهل وكم فتح من أعين العميان وكم قوى من العقول الضعيفة وأغنى من الذين ذاقوا مرارة الفاقة ورفع من الذين كانوا في زوايا النسيان وكم سكن من عواصف الفتن التي اهاجتها عناصر العدوان وكم وكم ساد وشاد وبنى وهدم ونصر وكسر وأغنى وأفقر وجاد وبخل وقتل وخلص فما هو غير أساس الكون تدور على أمّ رأسهِ هذه الكرة التي طالما قلبت وانقلبت ولما كان هذا الشأن شأنهُ كان لا بد لهُ من المسير في سبيلهِ ومن يا ترى أعوز منا إلى نورهِ وهدايتهِ

هاكم الماضي يا أولي الألباب فابحثوا فيهِ وانظروا إلى نقائضهِ وإلى زلات سياستهِ وعدوان أهلهِ وشقاقهم ثم انظروا إلى الحاضر وتأملوا في ما نحن عليهِ مما لا يجب أن يكون عليهِ وبعد تحقيق النظر فيهِ انظروا إلى المستقبل من نافذتهِ وأقيموا المقياس فإن وجدتم أننا سائرون على هدى فبشرونا ولكم منا الدعاءُ وإن وجدتم أننا على ضلال فانتبهوا وتيقظوا ألم يجمع رأيكم أننا مفتقرون إلى أمور كثيرة أو لم تروا أن بعضنا قد ساروا طالبين ما ليس لنا من الاتحاد والمعرفة وغيرهما فهذه هي الشواهد على ما اطلنا الكلام عنهُ فتيقظوا متعصبين مع من بيده زمام أموركم فإن لم يعتصبوا معكم فاتركوهم وراءكم وتقدموا مقدمين تقريرات الشكاية إلى حضرة الذات العلية فإنها هي التي قد أمرتنا بالتقدم فإن رأيتم مأموراً صغيراً لا يسلك بحسب تنبيهات الذين هم فوقهُ ولا ينشط العلوم والمعارف والزراعة والصناعة والتجارة ولا يقطع أسباب الفساد والرشوة والغرض والتفضيل وغيرها فاشكوهُ ليس لأسباب خصوصية ولا لأغراض نفسانية بل لقيام صالح العموم ولا يميل أحد منكم إليهِ ويحامي عنهُ ويملقهُ لانه يلاطفهُ ويضع أعمالهُ وصوالحهُ في قالب الرواج ويساعدهُ دون غيرهِ على نوال مآرب صالحة أو فاسدة بل اتحدوا جميعاً في مساعدة المستقيم منهم الذي يقوم بحق الواجبات المفروضة عليهِ وفي مدحهِ وتكاتفوا كلكم على اقامة التشكيات على من سلك السبل المعوجة فإن هذه هي ارادة ولي النعم ووكلاء دولتنا العظام وكذلك إذا رأيتم ماموراً من المامورين الذين هم فوقهُ وهكذا إلى أن نبلغ المراد لأنهُ إذا لم نبلغهُ دفعة واحدة ندركهُ شيئاً فشيئاً وكذلك إذا حدنا نحن الرعايا عن طريق واجباتنا فمن واجبات حكومتنا تأديب المتعدين منا. فيا أبناء الوطن لا تتحزبوا للمذنب ولا تدافعوا عن الشرير ولا تضيعوا أوقات المأمورين ورؤساء المجالس وأعضائها بطلب تخفيف قصاص الذي يستحق القصاص ولا بالعفو عمن تحكم الشريعة الغراءُ أو القوانين المنظمة بقصاصهِ لأننا إذا لم نقم بحق واجباتنا الوطنية في ما يتعلق بترقية أسباب الراحة والأمنية فكيف يسوغ لنا أن نشجب الذين يقصرون عن القيام بحق

واجباتهم من مأموري دولتنا التي قد فتحت آذانها لاستماع التشكيات التي تصدر عن أسباب صحيحة ولا تنقادوا إلى تمليقات الذين يكلفوننا وضع أختامنا على شهادات ربما كانت لا تقارن الواقع فابعدوا عن هذا الأمر وتجنبوهُ ول انفذ فيكم صاحب المصلحة ضرراً موقتاً وسارعوا إلى نشر لواء المدح والشكر فوق رأس الذي يستحق ذلك لأنكم إذا سلكتم أنتم هذا المسلك وحملتم أعضاء المجالس على السلوك معكم فيهِ يزول نصف أسباب التشكي وتغلُّ أيادي العدوان ومتى اصطلحت الأحوال من هذا القبيل تصطلح من غيرهِ أيضاً لأن عدم اتحادنا وانقياد بعضنا إلى الذين لو عرفت الدولة بتصرفاتهم لأدبتهم وعاقبتهم بما يستحقون هو الذي يوقع الخلل في بعض الأماكن لا أخص منها ماكناً واحداً لأنهُ ربما اصطلح هذا المكان مدة في أيام سياسة زيد ثم انعكس اصطلاحهُ في زمان سياسة عمرو وكم من مرة رأينا الحكومة المركزية مثلاً تؤدب الجاني وتعاقب المرتكب من المأمورين لأنها تعرف ونحن نعرف أيضاً أن السياسة هي نور البلاد والأمة فإن كانت مصطلحة في مكان يزهو ذلك المكان ويتقدم وإلاَّ فيتأخر ويحل بهِ الويل والهوان ومتى اصطلحنا نحن والتزمت السياسة في كل مكان أن تصطلح تنفتح أمامنا مذاهب التقدم ويصبح المأمور الذي قوتهُ هي بقدر قوة نصف أهل دائرة مأموريتهِ منهمكاً في ترقية أسباب المعرفة التي هي أساس التقدم والتجارة وأهل الزراعة الذين يضرُّ بهم جداً الظلم والحلم فلا ينفعهم غير العدل وإن رغبت السياسة في تنشيطهم ومساعدتهم فعليها بمنحهم المساعدات المادية ومعاملتهم بالعدل الصارم في ما يتعلق بنسبتهم إلى بعضهم البعض وإلى غيره وصارفاً همتهُ في تنظيم أحوال المدن والقرى والطرق والمنافع البلدية وإلا فلا يكفيهِ كل وقتهِ لمصادمة حيل أهل التحزب والغرض ومهاجمتهم والتوفيق بينهم فيقع في حفرة اليأس وينقاد إلى مراعاة صوالحهِ الخصوصية فيبيت يزرع الفساد والشقاق ويبقى على هذه الحال إلى أن تعلم الدولة بأفعالهِ فتعزلهُ وهكذا إلى ما شاءَ الله فهذه هي السبل التي يقتضي أن نسلكها إذا كنا قد جنينا نفعاً من حوادث الماضي

وهي التي تنظم أحوالنا وترتقي بنا إلى ما نرغب أن نرتقي إليه وتقصر أيادي الشر عن أن تفتك بنا وتحسن أحوال المأمورين والذين هم في مناصب عمومية وبالجملة هي الطريق التي لا تعثر فيها قدم من يسلكها وهذه الأمور إنما هي أمور ابتدائية ولكنها أساسية فمتى توطدت أركانها تجري في الربوع التي تتوطد فيها مياه الثروة والمعرفة والراحة والرفاهية والسعادة ويأخذ الماضي بتشييد الحصون للمستقبل بالاتحاد والمعرفة والغنى فنصبح بعد مدة ليست بطويلة نذم ماضينا ونفرح بذهاب حاضرنا ونتلقى بالسرور والترحاب مستقبلنا.

الحقوق(*)

هاكم العصر ينادي بالنائمين عنهُ هبُّوا فقد خفقت بنود التقدم والنجاح. ورفرف نسر النصر فوق جيوش الفتك والفلاح. ورقصت بنات المعارف في مراسح الطرب والانشراح. ولبست عرائس الأفكار حلى المعاني والبيان. لما طربت عُرُس الاجتهاد في أزهى جنان. وشقت طوالع السعود مطالع الجهالة والنحوس. لما بانت طليعة جيش المعارف في مطلع هاتيك الشموس. شموس طالما بكت المشارق وهي في غروب. وأذرفت لفقدانها دموعاً ينبوعها دماءُ القلوب. ولما رأتها مقبلة بعد الصدود تجر ذيول الغنج والاعجاب. مدت لها أيادي السلام والترحاب. ولم تسر الينا سيراً زميلاً على قدم الخوف من طوارق الحدثان. ولكنها سلكت سبل دمدمة رعود البخار ولمعان بروق هذا الزمان. وكتبت أياديها بأقلام هذا العصر على جبين هذا الدهر. لكل انسان في هذا الزمان حقوق. ولما كان الانسان مفطوراً على محبة الدفاع عن ذمارهِ والذب عن حقوقهِ وكان الطمع من الشرور الغريزية كان لا بد من اقامة ما يمنع وقوع التعدي على حقوق العباد وكثيراً ما كان هذا المانع مصدر التعدي الذي أقيم ليقطع أسبابهُ ويمنع حدوثهُ ومتى سلك هذا السبيل وشرد عن صراطهِ المستقيم يسهل عليهِ

(*) مجلة الحنان ١٨٧١، ص ٥٧٣ ـ ٥٧٥.

الوصول إلى مرغوباتهِ الفاسدة لأنهُ لما كان هو المانع وكان زوالهُ ازالة ذلك المانع كان لا بد من أن يرى نفسهُ مطلقة التصرف تفعل ما تشا بدون حاجب ولا دافع وهذا هو الذي أوصلنا إلى ما كنا قد وصلنا إليهِ كما انهُ هو الذي كان يهبط ببلدان التمدن والراحة إلى دركات الجهالة والتعب لأنهُ معلوم أن الدولة التي تغض النظر عن واجباتها التي إنما هي المحافظة على الحقوق وتأخذ هي نفسها في سلبها تنحدر ببلادها الى حفرة الويل والهوان. ومن أسباب ذلك جهل الأمة لأن الجهالة تعمي بصرها وبصيرتها عن معرفة حقوقها وتحملـها على الانقياد إلى ما يسلب منها حقوقها وبالنتيجة يأتيها بالضعف والفاقة وإذا سلكت الدولة سبيل سلب حقوق الأمة بدون أن تصادف ممانعة ومقاومة تتوغل في قفار العدوان وتمسي بعد مدة قصيرة عنصراً شريراً شأنهُ قطع أسباب الراحة والأمنية على أنهُ معلوم أن المعرفة هي الضد الذي يلزم الدول أن تسلك في السبل المستقيمة وأن تقوم بحق الواجبات المفروضة عليها التي انما هي المحافظة على حقوق الأمة كالمحافظة على حقوقها وما من أمة اعرف منا بذلك لأننا طالما بتنا عرضةً لعدوان السياسة قبل أن كشف لنا بدر اليقظة عن الحقوق التي يحق لنا أن نطلبها وأن نحافظ عليها لأنهُ معلوم أننا كنا لا نستامن على مالنا ودمنا لأن سياستنا كانت تحسب أن حقوقها هي كل ما كانت تشا أن تحسبهُ لها مما كان لا يحق لها أن تأخذهُ منا وفي مراجعة تواريخ أيام الجزار في هذه البلاد وغيرهِ في غيرها براهين كثيرة تشهد بصدق مقالنا ولا يخفى أن سلب حقوق الأمة لا يكون بالمجاهرة بسلب أموالها ودمائها فقط ولكنه يكون بعدم تمكينها من كل ما يحق لها أن تتمكن منهُ فإن رأينا سياسة لا تقوم بواجباتها تجاه رعاياها حق القيام يقول إن هذه السياسة تسلب حقوق الأمة لأنهُ من حقوقها أن تطلب من السياسة القيام بحق واجباتها وهذه الواجبات هي كثيرة وفروعها متنوعة منها الانصاف في الحكم والصرامة في اجراء الشرائع والقوانين وملاحظة حالة الأمة في أخذ الأموال الأميرية وحفظ أسباب الراحة والأمنية المادية والأدبية ورواج الأعمال ومساعدة الأمة في ارتقاء سلم

المعارف والثروة وترقية أسباب تقدم الصناعة والزراعة والتجارة وحرية الضمير والأفكار وغير ذلك على أن هذه الواجبات تختلف باختلاف ظروف الأحوال والأزمان فما يكون منها مناسباً في الصين لا يكون كذلك فيْ الهند غير أن الظلام لا يكونِ نوراً وبالعكس أي أن الأصول الأولية تكون واحدة في كل البلدان مثلاً الانصاف فإنهُ لا يضر بقوم ولو كان زمانهم زمان تيمورلنك ومكانهم مكان الجان كما أن الرشوة تضر بكل الأمم ولو كان زمانهم زمان هرون الرشيد ومكانهم مكان الملائكة لأن الشر شر أينما كان والخير خير في كل الأحوال والأزمان وليس المقصود الكلام في الحقوق وماهيتها ولكن الكلام عنها بالنسبة إلى غيرها وعلى الخصوص بالنسبة إلى السياسة ولا يخفى أن الذي حمل الفرنساويين على اثارة الثورة هو ما كانوا يعتقدونهُ من التعدي الواقع على حقوقهم لأنهم كانوا ينظرون صوالح الدولة في المحل الأول وصوالحهم في المحل الثاني لا بل في المحل الثالث لأن امتيازات الأمراء وخدمة الدين كانت في المحل الثاني بعد صوالح العائلة المالكة وأعوانها فهاجت الأمة وماجت وطلبت ما كان يحق لها أن تطلبهُ من الحقوق ولو لم تتجاوز حدود الاعتدال في ثوراتها لتقررت في صدور التواريخ بدون ذكر الحوادث التي تسود بياض بعض اجتهاداتها وهذه الثورة التي انتشبت نيرانها في أواخر القرن الماضي هي ابتدأ عصر الحقوق وعلى الخصوص في أوربا وليس المقصود حقوق كل أمة بالنسبة إلى غيرها ولكن حقوق كل أمة بالنسبة إلى دولتها لأن مطامع الدول قد كدرت تلك الحقوق فنرى دولة زيد متعدية على الأمة العمرية وكثيراً ما قال الامبراطور نابوليون الثالث أن سياستهُ في جمع الجنسيات أي أن يساعد كل أمة على أن تسوس نفسها حال كونهِ كان ضاماً الى امبراطوريتهِ قسماً من البلاد العربية وحاصل الكلام أن الثورة الفرنساوية حملت أمم أوربا على طلب حقوقها والمحافظة عليها ومنذ ذلك الزمان أخذت الدول العاقلة في الميل عن سبل سياستها الأولى وفي اعطاء رعاياها حقوقها حتى أن بعض الدول التي اصرت على سلب حقوق أمتها انقلبت منها الدولة

الأسبانيولية التي أمست مقلوبة منذ أقل من ثلث سنوات ومن نتائج هذه التغييرات هو ما فعلهُ حضرة امبراطور روسيا الحالي فإنهُ رد إلى نحو عشرين مليوناً من رعاياه حقوقهم وكذلك دولة أمركا فإنها حررت خمسة ملايين من الذين سلبت العبودية حقوقهم وقد سرى هذا الروح إلى الشرق وقد شعرنا بسريانهِ ولا نزال نشعر بهِ غير أنهُ كما أن كثيراً من أمم أوربا تقول أنها لم تتمكن بعد من كل حقوقها نقول نحن أن حضرة مولانا الأعظم عبدالعزيز قد وهبنا حقوقنا والشاهد الفرمانات العالية وخطب عظمتهِ على أن يد الأجرام لم تأتنا بها جميعاً لأنهُ لا تقدر أن تأتينا بها دفعة واحدة وإذا رأينا في بعض الأماكن قصوراً في ما يتعلق بتلك الحقوق وعلى الخصوص إذا كان من التقصيرات الغير الظاهرة يكون مصدرهُ ميل مأموريهِ عن سبل واجباتهم ولكن إذا نظر الأهلون بعين المعرفة والانتقاد إلى تلك التقصيرات وجعلوا القصر يعرف بأنهم يعرفون تقصيراتهِ يحملونهُ على الاصلاح في بعض الأمور إذا لم نقل كلها ومن هذا القبيل الرشوة والغرض والتعصب وقد قررنا في ما مضى ما يكفي لحمل الأهلين على الانتباه وإن قيل إن ذلك لم يأتِ بنتيجة نقول إن اتيانــه بالنتيجة المرغوبة متوقف علينا نحن الأهالي لأننا إذا شجبنا المقصر واحتقرناه مع قطع النظر عن بعض صوالحنا نجرهُ إلى جنات الاصلاح على غير رضاهُ وبخلاف ذلك إذا سلكنا مسلكهُ بواسطة التمليق والمصادقة على أعمالهِ لأننا بذلك نساعدهُ على سلب حقوقنا ومخالفة ارادة حضرة مولانا الأعظم الذي من أعظم مرغوباتهِ المحافظة على حقوق تبعتهِ المحروسة وإذا ظن المقصرون أنهُ ما من أحد يرى تقصيراتهم وشرعوا في ايراد الأقوال والشواهد التي يظنون أنها تحجب أعين الأهلين عن النظر إلى عيوبهم السياسية يخدعون، أنفسهم كل الخداع لأننا نؤكد لهم بناء على الاختبار أن الكبار والصغار والذكور والإناث يقيمون ذكراً يكاد يكون غير منقطع لمغايراتهم ويشجبونهم ويثلمون صيتهم والصيت هو أعز شيء عند الانسان فإن حسنهُ هو أحسن من المال المجموع وموت صاحب الصيت المثلوم احسن من حياتهِ ولا ريب أن من حقوق الأمة

الطلب إلى أولياء الأمور اجراء قصاص الذين يتعدون على حقوقها من المأمورين الكبار والصغار وهو معلوم أن معاقبة عشرة رجال من المتعدين تصلح أكثر المأمورين إذا لم نقل كلهم والتراخي في المعاقبة يحمل الصالح على اتباع سبل الطالح وقد قررت الدولة العلية قانوناً لجزاء المقصر ولذلك يسوغ لنا التشديد في طلب اجرائهِ إن كان غير جارٍ في بعض الأماكن والسياسة الناجحة والعادلة هي التي لا تغض الطرف عن تقصيرات السائسين وهذا هو أساس الانصاف والعدل والظلم يكون في غض الطرف عن ارتكابات المذنبين من المأمورين والرعايا الغير المتقلدين الوظائف وإذا قيل إن اختلاف تقريرات الأهلين يوقع أولياء الأمور في ارتباك ويعيقهم عن الفحص نقول إن هذا هو الخطأ بعينيهِ لأن ذلك هو شأن كل الشعوب ولكن من واجبات أولياء الأمور البحث عن صحة التشكيات مع قطع النظر عن المناقضات ولا نقول إن هذه الأمور هي جارية في محل دون آخر على أنهُ معلوم أنهُ حيثما أقام الانسان تقوم معهُ الشرور فإن سلك سبيل مراعاة حقوق غيرهِ تنتصر الراحة وتزول أسباب التشكيات والأتعاب.

اعجب العجب(*)

علـى مَ الغنج والدلال والهرم قد هدم صفوف تلك الأسنان وقد بيض الشيب سواداً كان أبيض الخصال فليس أقبح في عيني من عجوز تهتز تيهاً وغنجاً إلا عرجاء ترقص وتميد عجباً ودلالاً وأقبح منهما الذي يعاير الأواقي ولا يعاير الأرطال ويرى انف غيرهُ كبيراً ويستصغر أنفهِ ولو كان طولهُ مائة ذراع ويستقبح الحسد في غيرهِ والحسد قد اجلسهُ على جبال من النار وقد اطال الكلام المتقدمون في هذا الباب واقاموا لها نوافذ ونقوشاً فحسبنا ذكرها بالاختصار والانتقال منها إلى ما يدعونا اليهِ روح هذا العصر الذي كتب على جبهة الاداب والأدباء عليكم بالمسير في السبل التي توافق العلوم التي تحرزونها وتذيعونها وإليكم عما ياتيكم بالنزاع والخصام فانه شأن الذين قد اطلقوا لانفسهم عنان

(*) مجلة الجنان ١٨٧١، ص ٦٠٩ ـ ٦١١.

الفطرة مع ما هي عليهِ مما تكون عليهِ قبل أن يصقلها ساقل العقل ويزينها مزين الانسان بحلى الانسانية وزهور رقة الجانب والأدب والتواضع وعدم الاكتفاء بالنفس فتسقط أشواك الفظاظة وكلف السفاهة ونقائص الكبرياء وكم من مرة افتخر اولوا المعارف في هذا القرن على اولي السيف لأنهم كانوا يمدون بينهم بعض علاقات المودة وأهل السيف يتخاصمون ويتقاتلون ويشبون في الدنيا نيران الويل والهوان ويهلكون الرجال ويدمرون المدن والقرى ويسوقون أمام جيوشهم خراب عمران الزراعة والصناعة والتجارة وجيوش المعارف اللطيفة تسير على قدم الحزن باكية شاكية وما من نصير يمكنها من الانتصار على تلك الأعداء التي طالما كدرت صافي كأس حياتها.

وحاصل الكلام أن لكل قوم شاناً ولكل انسان ميلاً ومشارب وعادات ومن اعجب العجب ما نراه فينا مما يحملنا على عدم مراعاة حقوق غيرنا مع أننا نحملهم ثقل مراعاة حقوقنا فإن رأيناهم يستقبحون ما نستحسن نحكم عليهم بما يحكمون علينا بهِ إذا استحسنا ما يستقبحون ومن هذا القبيل احتقار كل أمة غيرها من الأمم حتى النَوَر فانهم يضحكون على عادات غيرهم ويحتقرون غير قومهم ويحمدون الله لأنه عزَّ وجلَّ خلقهم نَوَراً ومع أن كل الأمم تعرف هذه الأمور حق المعرفة ترى أنها كلها تحكم لنفسها بأنها مصيبة في زعمها وبئسَ حكماً صادراً من ذي غرض وميل ومع أن المثل العالمي قد قال أنهُ لا جدال في الذوق نصرُّ على استقباح ذوق غيرنا فان أكل العربي الضفادع يتقيأ الأفرنجي ويقول إنهُ بربري لا ذوق لهُ وكذلك إذا أكل الأفرنجي السنور والصيني الفار ينفر ذوق العربي ويرشقهما بسهام الشجب ويقول إنهما قذران وينسى أن مصدر ذلك جميعهِ هي العادة التي تصير الحسن قبيحاً والقبيح حسناً في هذا العالم فإنها تحمل الانسان في زمان واحد على مدح الشيء نفسهِ وذمهِ فالدخول إلى البيوت والرووس مكشوفة قبيح عند العرب ومستحسن عند الافرنج وعكسهُ الدخول إلى البيوت والأحذية مخلوعة عند العرب وكذلك الاكل باليد وبالشوكة والاكتساءُ والعري فان عادة عدم الاكتساءِ قد حملت

أهالي أواسط افريقية على عدم الخجل من الخروج عراةً أو بثياب قليلة عند الوسط وكذلك عادة تجريد أعلى الصدر والأذرع والعنق أصبحت مستحسنة عند الافرنج ولا يستحون بها مع أن المرأة المحصنة عندهم لا تخرج ورجلاها مجردتان ولو أعطيتها ما أعطيتها حتى أن الفرنساويين استقبحوا الدين في أواخر القرن الماضي وامسى الكفر مستحسناً ومانوساً عند أكثرهم وغير ذلك مما في ملاحظات اللبيب غنى عن ذكرهِ وكان من الواجب أن يسلك البشر غير المسالك التي يسلكونها ويذهبوا غير مذاهبهم بعد الوقوف على هذه الحقائق ولكنهم لا يزالون لا يعرفون أن يتفقوا على أن يختلفوا بدون أن يبالوا بذلك الاختلاف لأنهُ ما اختلفت بهِ عن زيد هو ما اختلف بهِ هو عني أيضاً لأنهُ لولا اختلاف الاثنين لانتصر الاتفاق وهو معلوم أن الانسان وقف على أكثر هذه الحقائق منذ آماد متطاولة ولكنهُ لم يقدر أن يجد دواءً يداوي مرضهُ بهِ لأنهُ حماقة والحماقة قد أعيت من يداويها وكذلك نرى الكتاب لا يستحسنون كتابة بعضهم بعض وإذا قطعنا النظر عن الحسد والغيرة نقول إنهُ على الغالب يختلف الكاتب عن غيرهِ من الكتاب في ما يتعلق بالذوق في الكتابة ولو اتفقوا جميعاً في ذلك لكتبوا كتابة من نسق واحد وقل الاختلاف في كيفية الانشاء ونسق العبارات وصب المعاني في قوالبها وهذا هو مخالف كل المخالفة للاتفاق البشري في الاختلاف ومع أن الكتاب يعرفون أكثر من غيرهم طباع الانسان وذوقهُ نراهم لا يعذرون بعضهم بعضاً في ذلك فان كانت كتابة زيد معقدة وحسنة في ما خلا ذلك يطعنون فيهِ وفيها وهذا هو خطا مبين ويا حبذ لو كان هذا هو كل الشر لأن البعض لا يستحسنون ما هو غير خطاء من كتابة غيرهم فإن أكثر كاتب من البديع أو من نوعين أو من ثلثة أنواع منهُ يرشقونهُ بسهام اللوم والشجب ومصدر هذا على الغالب هو الحسد والغيرة مع أنهُ من واجبات الكتاب أن يصلحوا العادات القبيحة ويحاربوا الشرور فما أقبحهم إذا سلكوا سبيلها واحب إليَّ أن اخسر ما أقدر أن اخسرهُ من أن أرى بنات أقلامي ترقص في مراسح النميمة والفساد فإن للقلم عرضاً وناموساً وحكمهُ حكم الفتاة في أمر الصيت

والعرض والناموس ومن أهم واجبات الكاتب وأعظمها أن لا يسلك السبيل الذي يذمهُ فان كان يحب الحرية فلا يسوغ لهُ أن يذمها وإن كان يكره التعصب فلا يسوغ لهُ أن يمدحهُ ولو الزمتهُ ظروف الأحوال لأننا إذا عرفنا أن هذا الكاتب لا يراعي ذمتهُ وينشر ما يوافق اعتقادهُ لا نقدر أن نركن إلى كتابتهِ لأنهُ ربما البس النفاق أثواب الصدق والشر حلى الخير ليخدع القراء لغرض والمهرب الوحيد للكاتب الذي يكتب في بلاد كبلادنا أو كروسيا وغيرهما من بلدان العالم التي لا تسمح قوانينها بحرية الكتابة أن يسكت إذا ضايقتهُ الحقائق عن تقرير اعتقادهِ في أمر من الأمور أو تقرير ما يخالفهُ لأنهُ في ظروف كهذه إن كان الكلام من فضة الصمت من ذهب وكثيراً ما يظهر الكتاب أفكارهم بأساليب تستحق تدقيق نظر المطالع مثلاً إذا أراد أن يذم عدم الحرية في بلاد غير حرة يقدر أن يسكت عن ذم عدم الحرية ويشرع في مدح الحرية والمأمول أن مطالعي هذه الجملة لا يظنون أن القصد الآن هو استخدام الأسلوب المذكور لأن اعتقادنا هو أن انتقال الانسان من الظلمة إلى النور دفعة واحدة يضر بهِ وكذلك نحن إذا انتقلنا من العبودية الماضية إلى حرية الأمم المتمدنة من أبناء هذا العصر نصادف ضرراً لا مزيد عليهِ ونظن أن السبيل الذي أخذت دولتنا في سلوكهِ من اطلاق العنان شيئاً فشيئاً هو الصواب بعينهِ ولكن متى جاءَ الزمان وحل الأجل ولم نحظ بما يحق لنا أن نحظى بهِ ونستخدم هذا الأسلوب معتذرين إلى سياستنا عن ذلك وإلى أبناء وطننا عن عدم الايضاح وتكثير الاستعارات وغير ذلك مما يسدل ستاراً فوق المقصود تزيحهُ يد التدقيق والحذق ونظن أنهُ لولا تقصيرات البشر لما أضعنا الزمان في تقرير هذه الأمور التي انما هي تنبيه الأفكار إلى أمور يعرفها القوم ولا ملأنا هذه الصفحات بما لا يحسب خبراً جديداً ولو كان ملحوظاً مفيداً يخصنا منهُ ما يخص غيرنا وبناءً على ذلك نتوسل إلى أسيادنا الكتّاب أن يحفظوا لنا ولأنفسهم الاعتبار الذي يحق لنا والاركان الذي نتمنى أن يكون فينا وإلى أبناء وطننا أن يعاملونا باللطف ويغضوا النظر عن تقصيراتنا وتعدياتنا والله يصلح الجميع وهو خير مصلح.

الاصلاح(*)

اهذا هو الزمان الذي طالما تمنينا أن تصل سياستنا بنا اليهِ أم هذا زمان يمر اليوم ويأتينا الدهر في الغد بزمان كالزمان الذي طالما تنهدنا من ثقل أحمال هومة ومن ذا الذي يرى ما نرى ولا يبشر نفسهُ بالحصول على ما يرغب في الحصول عليهِ وإن كان لا يرى الآن أمام عينيهِ ما كان يجب أن يراهُ بعد أن حمل مولانا الأعظم رجال دولتهِ أثقال مسئولية المسير في السبيل الذي لا يرضي شاهانيتهُ ولا يوافق روح العصر وكم من مرة تنهد أهالي الولايات تنهداً يرق لهُ الحجر الصلد من جرى عدم اصغاء الذين كان من واجباتهم أن يصغوا إلى تشكياتهم وكم من مرة امسكنا أعنة الاقلام خوفاً من أن تقودها جيوش الحقائق إلى المسير في ميادين القرطاس مسيراً يكون مجلبة للمسئُولية التي لا نقدر أن ننفع غيرنا بحملها ولكن أين ذلك منا الآن وسلطان البلاد يقول إنني لم أكن مرتضياً من تصرف كثيرين من رجال دولتي لا بل قد قال إنهُ لم يرَ اجراء نواياهُ الخيرية في دار السعادة ولا في الولايات وأين ذلك منا بعد أن رأينا ثلاثة من الوكلاء العظام منفيين في قلعة قبرس لأنهم خانوا حكومتهم وجمعوا في خزائنهم الخاصة الأموال التي كان من واجباتهم أن يحافظوا عليها لسد احتياجات الدولة التي إنما هي احتياجات الامة ومن يسمع أن كاتب المابين الهمايوني ووزير المالية ووزير الضابطية وغيرهم ممن هم دونهم في المراتب قد ارتكبوا ما ارتكبوا ولا يحزن على ما فات من الزمان وتكبدناهُ من الخسائر ويفرح لأنهُ قد فات أهل السياسة الآن الزمان الذي كانوا يجنون ما كان يطيب لهم جناهُ من ثمار المنافع والمقاصد وهم مستندون إلى مساعدة روسائهم عندما كان المظلوم يقيم عليهم الحجج ويجتهد في الحصول على الاصغاء أو الالتفات الذين يجب أن يحصل عليهما من يتشكى من ظالم أو غاصب تشكياً يقبل أن يحمل فيهِ المسئُولية التي يحتملها من لا يقدر أن يثبت شكواهُ

(*) افتتاحية ج ٢٢، مجلة الجنان ١٨٧١، ص ٧٥٣ ـ ٧٥٥.

في ظروف كهذه أما الان فاذا كان مولانا الأعظم وحضرة ملجا الصدارة العظمى قد أوقعا تحت القصاص أكبر رجال الدولة فكيف لا يوقعان المأمورين في الولايات عندما يقفون على اجراآت مخلة ومنابذة للرضى السلطاني وكيف لا يخاف المرتشي من ظهور شرهِ وخيانتهِ ودناءتهِ ظهوراً يجلب عليهِ عاراً نعوذ بالله منهُ ولو كان ذلك بعد أن يجمع من الرشوة ذهباً مثقلاً على سعادة الانسان ما يغنيهِ وبعد أن يتمتع بسعادة السطوة والمراتب عشرين سنة أو أكثر لأنهُ ماذا يفيدهُ كل ذلك إذا ساءَت بهِ العواقب وإذا قلنا إن الولاة أو المتصرفين أو القايمقامين أو المديرين يسلكون السبل التي توافق الرضى العالي وأوامر حضرة ملجا الصدارة العظمى محمود باشا لأنهم يستندون إلى المجالس في كل أعمالهم نكون قد قلنا ما نعرف أنهُ بئس البرهان وعلى الخصوص في الولايات لأنهُ معلوم أن القصد العالي من اقامة رئيس الحكومة المحلية أي الوالي في الولاية والمتصرف في المتصرفية وهلمَّ جراً ودفع معاش لهُ يكاد يكون قدر كل معاشات المأمورين والمستخدمين الذين هم في دائرة حكومتهِ وتقليدهُ رتبة هي فوق رتبهم جميعاً ليس هو ليكون كانهُ كاتب لكل المجالس يأخذ عنها التقرير ويجري أوامرها ولكن لتزايد وترقي المعمورية وسعادة حال صنوف تبعة الحضرة الملوكانية وهذا هو الذي قررهُ حضرة محمود باشا الصدر الأعظم في الأمر السامي الذي بعث بهِ إلى الولاة والمورخ في ١٢ رجب سنة ٨٨ عدد ٥٩ والمدرج في عدد ١٤١ من الجنة لأنه معلوم أنهُ ما دامت للرئيس المحلي السلطة التي لهُ لا تكون المجالس حرة التصرف وعلى الخصوص في الأماكن التي تعودت مجالسها الانقياد واجراء القوانين بحسب رضى المأمور الأول ولذلك كان من واجبات هؤلاء المامورين السهر على المجالس وعلى الذين هم تحت رياستهم لدفع ما ربما كان يطرا من المغايرات على العدالة والانصاف ولما كانت هذه الأمور مما أمسى في زوايا الاهمال كان لا بد من أن عدالة حضرة محمود باشا المشار إليهِ الذي قد فعل ما يليق فعلهُ بنظيرهِ أن تحملهُ على أن يقول في أمرهِ أنهُ فهم من المسموعات الموثوق بها أن أصحاب الحقوق غير

مسرورين وأن أعمال الحقوق منذ تشكيل هذه الادارات كانت تقع بالعكس في التأخرات وذلك ناشي عن عدم الاهتمام بهذا الأمر المهم والمعتني بهِ لا من طرف الولاة والمامورين ولا من المجالس أيضاً ولا ريب أن كل من طالع هذا الأمر ووقف على ما فيهِ مما يدل على الكدر الناشي عن تقصيرات المامورين يحزن جداً وعلى الخصوص إذا كان هو من الذين شعروا شعوراً شخصياً بما قد شعر بهِ مولانا الأعظم ووزيرهُ الأول الكريم ومن منا يقصر عن ايراد البراهين الكثيرة على صحة ما يتشكى منهُ الصدر الأعظم في ذلك الأمر الذي لم نذكر أنهُ صدر مثلهُ من الباب العالي منذ زمان طويل فإنهُ يقرر بكل أمانة التقصيرات الماضية ويحرض بكل حماسة على مجانبتها والاجتهاد في الاصلاح وذلك ليس في ما يتعلق بصوالح الدولة فقط ولكن في ما هو من الأسباب التي تتكفل براحة الأهلين وتقدمهم باصلاح الأحوال البلدية ورفع الأثقال عن الأهالي والاهتمام بالتربية العمومية ونشر المعارف هذا وهو معلوم أنهُ لا يخفى أصحاب المعارف ما يلزم أن يجريهُ المامورون والعبيد إذا كان السلطان العظيم الشان يجري همات وعنايات شتى باتعاب نفسهِ النفيسة بامر رفاه وسلامة ملكهِ وتبعتهِ وهذا هو الذي كان يكدّر عيش كل العارفين بالأحوال التي كانت جارية لأنهم كانوا يعرفونها ولا يتجاسرون أن يظهروا أنهم عارفون بها ولو لم يعرفوها لكانوا وفروا على أنفسهم أثقال معرفتها واحتمالها إما الان فقد تبين لنا بواسطة ما كتب على القرطاس أن الحال قد تغيرت وأن الذين يعرفون شيئاً من ذلك ويصيبهم سهم الظلم يقدرون أن يقرروا عما يعرفونه ويظهروا سوءَ حالهم بواسطة التشكي رأساً أو بواسطة مأموري التفتيش الذين سيرسلهم الباب العالي إلى الولايات فإن أتى ذلك بالمرغوب نقول قد مضى الزمان الذي كانت فيهِ الاصلاحات ممتدة بالاجراء بقدر ما كانت احرف تقريرها ممتدة على القرطاس وقد مضى زمان استقلال المأمورين وتصرفهم بدون الخوف من سوء العواقب فإن لم ينصفنا الواحد ينصفنا الذي هو فوقهُ وهكذا إلى أن نطرق باب المراحم السلطانية وأن ظلمنا حكم مجلس نرفع دعوانا إلى مجلس

أعلى منهُ وهكذا إلى أن نبلغ المراد ونرجع حاملين ألوية الانتصار لأنفسنا وسيف التأديب للمجالس التي تظلمنا وعلى الخصوص إذا ثبت أن تلك المجالس لم تحكم بما حكمت بهِ جهلاً بل ظلماً وفساداً وتغرضاً والخلاصة أن من أصعب الأمور اجراء ما يبين أن مولانا الأعظم ووزيرهُ الأفخم قد عزما على اجرائهِ في ما يتعلق بالميل بالمامورين والمجالس عن الصراط الذي كانوا يسلكونهُ في مدة السياسة الماضية التي قد تبين أن الفساد كان سايراً فيها من الرأس حتى القدم والبرهان ما ثبت على الوكلاء الذين حكم عليهم بالنفي وما قالهُ مولانا السلطان وما بينهُ الصدر الأعظم ومع أنهُ قد تبين ان الاصلاح في الرأس قد جاء بأهم عمل وهو اجراءُ قصاص المذنبين من رجال السياسة الماضية لا نزال نخاف من أنهُ لا يصل الينا حق الوصول أو أن فعلهُ في رجال السياسة الحاضرة لا يكون كفعلهِ في رجال السياسة الماضية الذين كانوا يعتبرون الذين قد شرعوا في تأديبهم اعداء لهم ومقاومين لسياستهم غير أننا لا نشك أن مولانا السلطان هو الذي يبذل الهمم الوفية في الوقوف على حقائق الأمور وأن حضرة محمود باشا يهتم في ما يرفع العار عن الدولة والأمة ويأتي بالاصلاح المرغوب الآن أو بعد زمان ليس بطويل فعلينا بالاعتصام بالصبر الجميل إلى أن تتمكن هذه الأوامر من الوصول إلى حيز الاجراء ومن يصبر ينال والله يحب الصابرين.

مركزنا(*)

قد أقامنا الله في مركز يحسدنا عليهِ كل قاصٍ ودانٍ وأجرى في ربوعنا انهاراً وغسل شواطينا بأمواج البحار وجمع في بلادنا بين الخفض والرفع والسهل والوعر والصيف والشتاء ومد في غربنا بلاد التمدن والنجاح وفي شرقنا ربوعاً كثيرة الأهالي والمحاصيل فأصبحنا باباً يدخل منهُ الغرب إلى الشرق ويخرج الشرق إلى الغرب وجعل في جبالنا وسهولنا المعادن الكثيرة والأحراش المرتفعة الأشجار وأقام

(*) مجلة الجنان ١٨٧٢، ص ١٤٥ ـ ١٤٧.

حولنا حواجز طبيعية بحرية وبرية تحمينا من طوارق الحدثان وعدوان الزمان وأقام لنا قوات نستند اليها في الشمال والجنوب وننضم اليها عند حلول الرزايا والخطوب [illegible] لنا قوة حتى أقاصي الغرب فنرى الأمة الشرقية مع اختلاف طوائفها ومذاهبها مجتمعة في بلاد يلاصق بعضها بعضاً ونحن في الوسط وهو أقوى مراكز الجيش وهكذا نرى أن لنا من القوة الطبيعية ما يكاد يكون أقوى قوة في العالم وأن سندناهابالقوة الادبية نفوز ذلك الفوز العظيم وقد أراحنا الله من أثقال المشاكل السياسية وحملها لمركز القوة الذي هو حصنها في الاستانة العلية وحمل بعضها للطرف الثاني وهو مصر وتونس فأصبحنا ونعم الصباح كالبطن من الانسان يعيش بتعب اليدين والرجلين وهو محمول ومكرم وكفانا راحة وحسبنا سعادة راحة البال وسعادة المكان على أن تلك الراحة وهذه السعادة لا تكونان لنا بدون أن نكون قادين أن نقوم بحق مقتضياتهما وقيامنا بذلك إنما يكون بالكد والجد بعد أن بتنا في ما بتنا فيهِ من عواقب السياسة الماضية التي قد عودتنا الذل وعلمتنا سلوك سبل الفساد فأمسى شأننا شأناً مذموماً وديدننا ديدناً عاقبتهُ شر وضعف قد بتنا في طليعتهما وإذا اطال الزمان غفلتنا نمسي فيهما ويمسيان فينا والعياذ بالله ومن يبحث أقل البحث في حالتنا الحاضرة ولا يرى مما أشرنا إليهِ أكثر مما قررنا منهُ كيف لا يرانا سائرين مسيراً سريعاً إلى الفقر والضعف حال كونهِ في مراجعة دفاترنا يرى أن بيروت وحدها قد خسرت في الثلاث سنوات الماضية أكثر من ثلاث مائة الف ليرا ويا ليتها خسرت بكسب غيرها من بلادنا فإن المال المفقود قد بات في خزينة الافلاس التي صرفتهُ في سبيل ابتياع حلى وملابس وأطياب لنسائنا وأثاث ونقوش لبيوتنا وملابس لشبابنا وأرسلتهُ إلى أوربا ليأتي بذلك مع الشرف الافرنجي ونعم الشرف الذي لا يجتمع عندنا مع المال ولكنه يدخل بخروجهِ وحسبنا خجلاً إذا صعد على جبالنا ورآها مستغرقة في الدين وأثمان أرزاقها اقل من نصف اثمانها الماضية والعار المبين في وصولهِ إلى داخليتنا والبحث في أحوال الزراعة ونسبة الفلاح للداين والداين للفلاح وبالجملة نقول إن قيودنا لا تبين

إلا التأخر فكان التقدم ممنوع عن الدخول اليها وإذا رشقنا القاري بسهام اللوم قائلاً لماذا لم يقرر الأسباب التي أوصلتنا إلى ما وصلنا إليهِ نقول رافعين سهام لومهِ أن المقام ضيق والأحوال صعبة المسالك ولا فائدة في الانشغال في ما نرغب أن ننشغل عنهُ بما ربما كان يأتينا بفائدة مصدرها انتباه القوم إلى الواجبات التي بها يستقيم لهم الأمر استقامة نافعة لدولتهم ولأنفسهم ولا يتم ذلك إلا بأن ننفع أنفسنا بالمركز الذي أقامنا الله فيهِ ذلك المركز الذي مكن سلفاءنا سكان فينيقيا من أن يكونوا الأمة الأولى في العالم فإنهم عرفوا أنهم مصب لغنى الشرق يجذب اليهِ ثروة الغرب ويجمع عندنا المكاسب التي نجمعها من الجهتين جمع سلامة لا يعقبهُ هيض ولا كسر ولا يستبدّ لنا ذلك إلا باستغنام الفرص التي تمكننا سياسة الغرب وصوالحهُ التجارية من استغنامها لأن مغناطيس المحصولات في هذا العصر ثروة الغرب وصناعتهُ المتقنة وما لم نسر مسيراً يحملهُ على الاركان الينا لا نقدر أن نحول اهتماماتهِ الينا فالأمنية هي الأساس الأول لأعمالنا وهذه الأمنية تستند إلى مساعدة الدولة والأمة فإن الانسان لا يقدر أن يوسع دايرة أعمالهِ بدون أن يكون محققاً أن الأمنية تصونها وتحميها من مطامع أهل الطمع وتعديات أهل التعدي وليس المقصود الأمنية التي تكدرها قطاع الطرق واللصوص لأنها عندنا كما هي في البلدان الأخرى ولكنهُ الأمنية الأدبية التي تقوم بتنفيذ الشرائع والقوانين نفوذاً واحداً في كل الأحوال والظروف الاعتيادية فانها روح الأمة وقوة عملها وقوة الدولة والأمة يتكفلان بالقيام بها داخلاً وخارجاً لأنهُ لا بد من القوة لتنفيذ الشرائع والقوانين ولا بد منها لدفع المخاطر التي تنشأ عن المطامع الخارجية والاتحاد والمعارف والمال هي أركان هذه القوة ومركزنا يسعفنا في الحصول عليها كلها أجمع إذا تكاتفنا نحن ودولتنا للحصول عليها وهذا إنما يتم لنا شيئاً فشيئاً تمكنا من تقريب المواصلات بيننا وبين الشرق وبين بعض بلادنا والبعض الآخر واشتغالنا في الأعمال الزراعية اشتغالاً صحيحاً مستنداً إلى تملك الاراضي تملكاً لا يكون عرضة لتكديرات النزاع والتغاضي الذي فيهِ

من المتاعب في كل البلدان ما يحمل المكد المجد على مجانبتها ومجانبة أسبابها خوفاً من صرف الوقت الثمين والذهب الوضاح للرجوع إلى مصدر النزاع أن يصدر عنهُ وفي النظر إلى الخسارة التي تكبدناه بفقدان نصف قيمة عقارنا ما يكفي ليقنعنا بأنهُ لا بد لنا أن نغير كيفية أعمالنا طلباً للتقدم الذي قد أتت اعمالنا الماضية بعكسهِ وافعل أسباب النجاح تكون في القيام بالأعمال التي توافق مركزنا لأن الذي يبيع الثلج في جرود لبنان يبيت بلا قميص وبلا طعام وكذلك الأمة التي تعمل الأعمال التي لا توافق مراكزها تمسي تتقدم إلى خلف وتصعد إلى تحت وبئس المصير فمركزنا ذو قوتين القوة الزراعية والتجارية فالأولى تقوم بالاجتهاد والاعتناء والثانية في الوصل بين الشرق والغرب وصلاً يناسب هذا العصر ويسير على أجنحة البخار والبرق وإذا اتجهت أفكار دولتنا إلى هذين الأمرين اتجاهاً مخصوصاً ننال ما يوافقنا نوالهُ متعهدين بحماية تلك العلاقات من تعديات أهل البدو والأجانب بمالنا ودمائنا وكل من نظر إلى الاجراآت الممدوحة التي اجرتها الدولة العليا في الروملي وغيرها من بلدانها يرى أنها تصرف العناية في سبيل نتمناه لأنفسنا ولذلك كان من واجباتنا أن نتكلم على مسمع من وزارتنا الجديدة المتمنطقة بالعزم والنشاط كلاماً يبين لها أننا نعرف احتياجاتنا كما تعرفها هي وأننا نعلم أنها قد كفّت تعديات أبناء البدو عن أبناء الحضر لتتمكن من أن تسعفهم على الوصول إلى ما لا يوسس إلا على الأمنية وعلى كل حال نطلب إلى الله أن يوفقنا واياها إلى ما فيهِ خيرنا جميعاً وهو السميع المجيب.

جملة سياسية(*)

على مَ نرد جماح جواد القلم والزمان عنيد وبنات الدهر آفات تحل على بنيهِ فتبكيهم بكاءَ الثكلى فإنهُ لا مرد لما فات ولو بذل الانسان في سبيل ردهِ كل ما عزَّ وهان فأمسنا الدابر لا يعود وما مضى من حياتنا لا يعوَّض ومع ذلك ديدننا دخول حدائق اللهو والطرب كأننا جمعنا مال

(*) افتتاحية ج ٣، مجلة الجنان ١٨٧٣، ص ٧٣ ـ ٧٥.

قارون أو حكمة سليمان فأصبح زماننا الحاضر يزهو ويطرب فإن غواني الجهل والطيش قد أصبحن يطفن على مراى منا ويجررن ذيول الغنج والدلال ويملن خصور العجب والتيه ولسان حالهن يقول هلموا فقد دنا زمان الوصال وما أحلى اجتماع المحب والمحبوب وجنى ثمار الملذات في جنات تجري فيها أنهار والقمريُّ على أغصان أشجارها المزهرة يبشر القوم بنوال السعادة بنوال كل المرغوب فان طوالع السعد قد دكت أنجم النحوس من أفقنا الزاهي فيا بني الشرق هذا خداع ومكر فإليكم عنهُ فلا يغررنكم زهاءُ الحال فظواهرها غير بواطنها ودونكم الحقائق للوقوف على ما لا نزال في احتياج إليهِ فإن يد الدهر الخوون قد قبضت بخلاً على ما تصطلح حالنا بهِ فلا يخرج منها ولو ثقبناها بمسمار ما لم نتمنطق بنطاق العزم والثبات ونلبس خوذ التعقل والاصابة ودرع الفضائل والآداب فنكبر ونعظم ويصير لنا شان خطير فينجذب الينا كلما نحن في احتياج اليهِ فنصبح مركزاً عظيماً تدور حولهُ عوالم المرغوبات ويقع عليهِ ما نشعر بلزومهِ في أوانهِ وكيف يتم ذلك أيتم برفع شان الكذب والنفاق وبترويج سوق الحسد والانتقام وبنشر ألوية التعصب والغرض وبتمهيد سبل الاحترام للذين يرفلون في أثواب الرشوة والفساد ويجرون ذيول الافتخار وهم يبيعون المروَّة والدين بأبخس الأثمان أَوَيتم بتفريغ صدور المجالس لأولئك الذين يسيرون في مركبات الخزي والعار ونصيبهم في الآخرة غضب الله وعذاب أليمَ فنعجب من حال وصلنا إليها وهي بئس الحال فإننا نعرف الخير من الشر ومع ذلك لا نعتبر الخير ولا نحتقر الشر ونعرف أننا في احتياج إلى اصلاح الحال ومع ذلك قد غصنا في لجة بحار الكسل والتهاون فلا نعتني بشيء غير جمع المال وذلك المجد الباطل المستند إلى ذلك الذهب المجموع فأين يا ترى يبيت ذهبنا وأين يمسي ناموسنا إذا لم نجعل الذين يوتمنون عليهما يحافظون عليهما خوفاً من أن يلحق بهم الخزي والعار ومن يا ترى يقدر أن يستامن على مالهِ ما لم يكن للفضائل عندهُ جزاءٌ وللفساد عقاب ولذلك من الواجب في كل حال أن نجعل ديدننا احتقار الكذابين والمنافقين والمرائن والمخاتلين وعلى

الخصوص الذين لا يخجلون ببيع الذمة والناموس والآخرة ببيع الحق والانصاف للمحصول على المال أو على رضى صديق آخر ذي سطوة ونفوذ وما اجهل الذي يظن أنهُ يصغر جرم دناءتهِ وقلة دينهِ بتسمية الرشوة جائزة أو ثمن فنجان قهوة أو أجرة تعب فات وهذه هي الحماقة بعينها والأحمق هو الذي يدفع بارة رشوة ولا يقول في فكره مائة مرة ما أدنى هذا المرتشي وأقل مروتهِ وقد قلنا في الماضي ما نحب أن نعيدهُ الآن وهو أنهُ من واجباته كل منا أن يحتقر المرتشي على مرأى ومسمع منهُ وأن تعسر عليهِ ذلك فبغيابـهِ وإن تعسر ذلك خوفاً من سوء العواقب ففي قلبهِ وإذا أصبح هذا الشان شاننا وشان كل الأمم في العالم تقل الرشوة كثيراً إذا لم نقل انها تنقطع ويبيت سوق العدل والانصاف في رواج وبعد أن تكون الدنيا جهنم المخاطر والأتعاب والهموم تصير جنة السعادة والراحة والحظ فان الحكومات للعالم هي كالملح للطعام وتقليل الشر والتعب والفساد بها لأنها بقلع الشر بدون ابقاء أثر منهُ تنتظم الحال فيقل شر البشر بحيث يصير لا يؤثر في العالم اكثر مما تؤثر قنينة حبر في البحار فما أحلى ذلك الزمان ولكن أين العالم منهُ الآن وأين كان منهُ في ما مضى من الأزمان على أن التفاوت لا ينكر وتضجر الأمم من الوقوف على حالة غيرها اذا كانت احسن من حالتها لأن الإنسان لا يقدر أن يعرف حسن ما عندهُ أو قبحهُ إلا بعد أن يقابلهُ بما عند الآخرين منهُ وكذلك الأمم بدون التاريخ وبدون الوقوف على أحوال غيرها تنظر إلى ظالميها بعين طلب الفرج وهي خاضعة كل الخضوع لنصيبها اذ انها تعتقد بأنهُ ملازم لها في كل زمان ومكان وكان ذلك شان الأمم في القرون المظلمة أما الآن فكل انسان يعرف أن لهُ حقوقاً فلا يقدر أن يخسر أقلها بدون أن يتذمر ويتضجر والنادر كالعدم وهذا هو الذي جعل مراكز الحكام صعبة لأنهم باتوا آلة لتنفيذ الشرائع والنظامات والقوانين وإن حادوا عنها وسلموا أنفسهم لانفعالاتهم فهم بئس الحكام ولا يظنن الذين يظلمون الفقير أو الذين يحبون أن ينتقموا منهُ أنهُ قد استبدت لهم الحال فإنهُ قبل مضي زمان طويل يرون من المقاومات ما يجعلهم يندمون على ما فعلوا وكم من مرة رغبنا في اظهار

هذه الحقائق ليس لأنها مجهولة عند القوم ولكن لأنها توبخ الذين يستحقون التوبيخ وتجعلهم يرون أنفسهم صغاراً بعد أن كانوا يتوهمون بأنهم أصحاب عظمة وشأن فانهم يرون العالم حولهم أعيناً تنظر إلى فسادهم ودناءتهم فان قبضوا غرشاً أو ليرا أو أكثر ووضعوها في جيب بيع الناموس والمروة والدين والعدل يجفلون لأنهم يشعرون بأن اهداب أعين جيبهم قد مست تلك اليد السوداء التي تحمل رسول العار ومن المعلوم انهم يصيبون في ذلك لأننا لم نرَ شيئاً أشد ظهوراً من الرشوة فكان للمرتشي ألف رقيب لكل رقيب ألف عين وألف لسان وبئس الحال حالتــه فما احسن الفقر وما أكثر انشغال بال الذي يبقى خائفاً من السقوط بظهور أمرهِ فالتسول أحسن من ذلك الإثم والموت خير من حيوة ذل وعار فهذه واجباتكم يا أولي الفضل فإن قصرتم ترتكبون ما يجلب عليكم العار ومن يا ترى يرتضي بأن يمكن قصورهُ من أن يجرَّ لهُ ويلاً فوق ويل ومن يا ترى لا يستحي من نفسهِ إذا كان من أهل الشيمة والناموس إذا قصر في واجباتهِ ولم يحارب الفساد محاربة أدبية إذا لم يتيسر لهُ أن يحاربها محاربة مادية فهذه أبواب السعادة وقد أبت أن تفتح لمن لا يطرقها بمطرقة المبادي الصحيحة والفضائل والآداب فدونكم المبادرة إليها فان فيها أثماراً لذيذة وماءً عذباً وبنات الدهر فيها لا تزججن الحواجب ولا تصبغن الخدود ولا تضفرن الشعور ولكنهن رافلات بجمال صنعةُ الله وذيولهن الفضل والأدب فيجررنها وراءهن ليبقين اثراً أينما حللن فيا حبذا القرب منهن والاجتماع بهن في مجالس لا يكدرها شر فانها بساط الخير والعدل وماذا يفيدنا التأخر والفوز في هذا الدهر لمن يسبق والغنيمة لطليعة الجيوش.

جملة سياسية(*)

إذا نظرنا إلى العالم المتمدن وإلى أقسام كثيرة من العالم الذي لا يزال التمدن ناقصاً فيهِ نرى أنهُ يسير إلى التقدم والنجاح أدبياً

(*) افتتاحية ج ٧، مجلة الجنان ١٨٧٣، ص ٢١٧ - ٢١٩.

ومادياً فتقام فيهِ الشركات وتبنى المراكب وتمهد الطرق وتحفر المعادن وتصب فيهِ أنهـر الثروة من جميع الجهات ومع أننا قد حصلنا على الوسائط التي تمكننا من أن ننظر إلى ذلك لا نزال في تأخر عظيم فلا نعرف أن نجمع ثروة مع أن في بلادنا من القوات الطبيعية ما هو ينبوع الثروة وبما أن الأهالي عارفون بان البلاد غنية وانهم لا يقدرون ان يحصلوا على الثروة إلا بمساعدة الحكومة ولم يحصلوا في هذه الأقطار على ما يحبون أن يحصلوا عليهِ بات بعضهم يعتقد بما لا يوافق أن يكون اعتقاد المسوس بالسائس ولم يقتصروا على الاعتقاد بذلك ولكننا طالما سمعناهم يقولون ان حكومتنا لا تريد تقدمنا لاسباب سياسية وهي الأعمال على ابقائنا في حالة الضعف ومن المعلوم أننا ننكر عليهم اعتقادهم بنوايا دولتنا العلية ولكن لا نقدر أن ننكر الواقع وهو أننا محتاجون إلى مساعدة الحكومة للحصول على الثروة وبالتالي على الرفاهية والسعادة ومن يا ترى لا يعلم أن ظواهر بلادنا فقيرة وبواطنها غنية فإن معادنها كثيرة فيكاد لا يقطع المسافر ثلث مراحل حتى يصل إلى مكان يرى فيهِ ما يدل على وجود معدن فحم حجري أو حديد أو زيبق أو حمـر أو فضة أو نحاس أو غير ذلك واقرب الأماكن الينا جبل لبنان وفيهِ من المعادن ما يكفي للقيام بمعاش عشرة آلاف عائلة هذا خلا معادن اسيا الصغرى واحراش الممالك المحروسة الشاهانية الكثيرة فهذه كنوز لا نقدر أن نبين تفاصيل منافعها وحسبنا الوقوف على احوالها وقوفاً اجمالياً فكيف لا نتكدر عندما نرى أننا لا نقدر أن ننتفع بها وكل سنة تزداد خسارتنا بخسارة منافع استخدام أموالها في الأعمال العمومية والخصوصية ومع أن قلب جبالنا فحم حجري نأتي بذلك الفحم من انكلترا والمفاعلـة عندنا ارخص من المفاعلة فيها ولا سيما بعد ارتفاع أجرة الفعلة في معادنها والمظنون أنهُ إذا صار تمهيد الطرق وإقامة إدارة حسنة للمعادن المذكورة في لبنان نصبح قادرين أن نبيع فحمنا في أسواق أوربا ولو ارتفعت الأجرة عندنا فكيف لا يشتد كدرنا عندما نرى الفقر يأكلنا ونحن ننظر إلى ما هو لنا مما يقدر أن يأكلهُ ولا نقدر أن نصل إليهِ وكيف لا نبادر إلى

اظهار الواقع وكل سنة يذهب كثيرون من رجالنا إلى الديار المصرية طلباً للمعاش وبلادهم من أغنى بلدان العالم فهذه هي الحالة التي لا نرضى بها لأنفسنا ولا ترتضي دولتنا العلية لنا بها والشواهد كثيرة فإن الطرق للبلاد كالعروق لجسد الانسان فلا حيوة بدونها لأنها هي التي يجري الدم فيها ويحيي الجسم والدولة العلية مهتمة اهتماماً عظيماً في انشاء الطرق حتى أن الباب العالي يصرف أوقاتاً كثيرة في الاهتمام بها وقد أقام ناظراً للنافعة حضرة صاحب الدولة راشد باشا وإلينا الأسبق ومن منا يا ترى لا يعلم أنهُ من محبي العمران وان معارفهُ تسعفهُ في ذلك ولو لم يكن قد تقلد هذا المنصب المهم وعلى الخصوص بعد أن تكررت الأوامر الشاهانية بخصوص الاعتناء التام في الأمور النافعة لما اتعبنا نفسنا في تقرير هذه الجملة وصرفنا بضعة أعمدة من أهم أعمدة الجنان لإظهار احتياجنا إلى الحصول على ما في بلادنا من الثروة وانتباه الأهالي إلى ذلك وتذمرهم من جرى عدم الحصول عليهِ هذا وقلوبنا تحدثنا بأنهُ يحبنا كما نحبهُ وبأنهُ سيعتني اعتناءً نافعاً بنا نحن أهالي البلاد السورية كلها والزمان الحاضر أحسن زمان للقيام بذلك فإن أسعار الفحم الحجري والحديد وغيرها مرتفعة وسوقها في رواج ومن يا ترى لا يتعجب عندما يسمع البعض يقولون ان دولتنا لا تحب تقدمنا ولذلك لا تساعدنا حال كونهِ يعلم أن قوة الدول في هذه الأيام في اخلاص الرعية نيتها لحكومتها وهذا الاخلاص لا يتم إلا بارتضاء الأمة من الحكومة وكيف ترتضي إذا كانت ترى أنها لا تحب تقدمها وتمنعها عن الحصول على الثروة لقيام مصلحتها الخصوصية ومن يا ترى من الذين يتأكدون صحة ما قيل من هذا القبيل لا يقول ان الحكومة التي بات ذلك الشأن شأنها لا تستحق أن تدعى حكومة لأن السياسة الصحيحة في ارضاء المسوس بالحصول على المنافع بحيث تصير الحالة الحاضرة عندهُ حالة سعادة ونجاح وتقدم فيفرغ كل جهدهِ بالمحافظة عليها وفي بذل كل ما عز وهان في سبيل الدفاع عنها فيجتمع صالح الدولة والأمة بذلك وتستبد الحال لهما فأية دولة يا ترى لا تعلم أن مخاطر الفتن الداخلية في هذه الأيام

هي أكثر من مخاطر المهاجمات الخارجية ولا تفرغ الجهد في ارضاء امتها وترقية أسباب راحتها وسعادتها بحيث ترى أن لها وطناً صحيحاً لها فيهِ صوالح عزيزة ذماراً محفوفاً بصفاء العيش والهناء والعز والسرور وهذا هو الذي يحملنا على اصلاح غلط الذين يعتقدون بأن حكومتنا لا تحب تقدمنا وما يرونهُ من الابطـاءِ هو نتيجة قوة الانسان المحدودة فإنهُ لا يقدر أن يصلح بلاداً واسعة في عشر سنين ولا في عشرين سنة وهذا عذر واضح غير أنهُ ما من أحد يقدر ان يعذر النافعة في اهمال اخراج الثروة من بطن الأرض وعندنا ان وصول حضرة راشد باشا إلى رياستها هو نتيجة ملاحظات الحضرة الشاهانية والصدارة العظمى فإن الأمة لم تصل إلى ما كنا نترصد وصولها إليهِ ولذلك أقيم دولتهُ فنهض الأمل في صدورنا بعد أن كان نائماً وشعرنا بتأخرنا وفقرنا بعد أن بتنا نكاد لا نشعر بهما لأننا تعودناهما وبناءً على ذلك نقول بلغتنا العربية لمن يفهمها بالنيابة عن أمة ذات نباهة وحذق تقدر أن تكون من أقوى أعضاء الحكومة إذا حصلت على مساعدة قليلة إننا لا ننفك عن طلب الحصول على عنايتهِ لتعمر ديارنا وبدل فقرنا بالثروة وكدرنا بالسعادة وما من مركز أهم من مركزنا لأننا باب الشرق والغرب فإن حصلنا على وطن يحق لنا أن نسميهُ وطننا السعيد تكون لنا يد طولى في ماجريات العالم بعد أقل من ٢٠ سنة. أما الآن فلا بد لنا فيها لأن الفقر يعمي الأبصار ولله در الأمة التي تقدر أن تصل إلى ما قد وصلنا إليهِ والفقر يعمي أبصارها ولو لم تكن الدولة العلمية آخذة في التقدم الينا شيئاً فشيئاً بانشاء الطرق لقطعنا الأمل من الحصول على المرغوب أما التفاوت الذي نراهُ بين ولاية وولاية في التقدم فهو نتيجة التفاوت بين الولاة فإن منهم من يخرب الولايات ومنهم من يعمرها ومنهم من يدخلها ويخرج منها كما دخل فإذا نظرنا إلـى عمران ولاية بغداد نندهش ما لم يقل أنهُ عمل يد حضرة صاحب الأبهة مدحت باشا وقد نشرنا في الجنة رسالة مطولة بهذا الخصوص مورخة يوم انفصالهِ عن تلك الولاية فهي ولاية ناجحة لان واليها نشيط وغيرها متأخرة لأنهُ ذو اهمال وكسل فشهرة حضرة مدحت باشا ومعرفتهُ

ونشاطهُ وحذقهُ أو صلتهُ إلى مسند الصدارة العظمى وهو الآن وزير العدلية والكسلان والجاهل الظالم لا ينجح في الدنيا والنادر كالعدم والأمة المنصفة هي التي تجازي بالحب والثناء الذين يستحقون حسن الجزاء من أرباب سياستها والذين خدموا في مركز ذي أهمية عمومية فيها وأقاموا بحق خدمتهم فأصلحوا وعمروا ورمموا ونشروا المبادي الصحيحة والأدبية واقلعوا عن الفساد والطعن والتنديد والادعاء والكبرياء وجعلوا سلوكهم واسطة لتشديد البغض المذهبي والتعصب الديني وعلى الخصوص إذا كانوا من أهل المناصب العالية الذين من واجباتهم في كل حال القاء الألفة والحب فكم من حاكم في الدنيا يجهل واجباتهِ وكم مِن محكوم ويجهل حقوق مركزهِ وحقوق مركز حاكمهِ مع أن أساس أعمال أهل العالم هو الحقوق ولبعض الدول حقوق على بعضها الآخر فكيف الأفراد الذين هم من أمة واحدة ونسبة بعضهم إلى البعض الآخر نسبة بعض العائلة إلى بعضها وهذه الحقوق الدولية هي التي تقرر حقوق السفراء والقناصل والحيادة وواجبات المتحاربين وغيرها وسننشر جملاً بخصوصها إن شاءَ الله ويا حبذا لو أمكن الوصول إلى المرغوب حالاً لأن الاحتياج قد أفرغ صبرنا فلماذا لا نشرع في العمل بمساعدة الشركات الافرنجية في أول الأمر فإن أكثر النفع لنا فإن أكثر هذا المال يصرف عندنا هذا إذا لم نقل كلهُ لأننا سنأخذه أجرة لعملنا ولولا الخوف من معاندات الزمان لبشرنا أنفسنا بادراك المنى قبل أن تراهُ عيوننا.

جملة سياسية(*)

إن زمان السلام هو زمان الانقلابات في الأدبيات فان فاتنا المطلوب عند سنوح الفرص يبعد عنا النوال وتنقطع حبال الامال ولما كانت الادبيات أساساً للماديات كان لا سبيل إلى أن نربح بالنا من جهة أنفسنا لنتعبهُ بالاهتمام بفرنسا أو بغيرها وعلى الخصوص بعد أن زال الخوف من حدوث ثورات دموية بعد أن جرت الحوادث السياسية في

(*) افتتاحية ج ٢٤، مجلة الجنان، ١٥ كانون الأول ١٨٧٣، ص ٨٢٩ ـ ٨٣١

تلك البلاد ولو كانت حالتنا الأدبية أحسن من حالتها السياسية لما أشغلنا أنفسنا بما هو لنا عنها فإنها نقطة مركز دوران أشغالنا وبالتالي ينبوع حياتنا فاحتياجها إلى الاصلاح السياسي والاتحاد بعد الحوادث الأخيرة هو أقل من احتياجنا الى الاصلاحات الأدبية والمالية ولو كانت معرفة ذلك محصورة فينا لما علقنا اضعف أمل بتغيير الأحوال لأن قوتنا هي عين الضعف فإنها مصروفة في سبيل مضاداتنا الداخلية واتفاقنا هو نفس الشقاق فإننا قد اتفقنا على أن لا نتفق وثروتنا هي الفقر فاننا تعودنا بذلها في سبيل المجد الباطل وان جعلناها رأس مال لأعمال نسعى بها إلى ما طالما عاد علينا بالخسران وكم من مرة نظرنا إلى ينبوع الفرج وهو مركزنا السياسي فوجدناهُ مظلماً فطاطانا روسنا ورجعنا بخيبة الأمل اذ إننا لم نكن نرى فيهِ غير ما كنا نراهُ عندنا ونحن في احتياج إلى غير ذلك وكم من كاتب وخاطب في الشرق والغرب تشآم قائلاً ليس إلى المقصود من سبيل فلا حيوة لمن تنادي فالناس موتى عن الآداب والدهر لغيرنا والسياسة لا نقدر أن تشتغل بغير المحافظة على نفسها ولا يزال ذلك مقرراً في عقول كثيرين فيقولون معادنا الفساد والنفاق ولا سبيل إلى التملص من تلك الحال فأتعابنا تذهب سدى ان تعبنا في سبيل الاصلاح فمصيرنا في اليوم إلى ما صرنا إليهِ في الأمس وبئس المصير فلماذا يخطب خاطب ويكتب كاتب وينذر منذر ويحرض محرض وما ذلك إلا كالكتابة في الهواء أو النقوش في الماء هذا والبلاد تسير الهوينا من ساحة التاخر والظلام إلى أربعاء التقدم والنور على أن حركتها مطلقة فتسير بأهلها كما تدور الدنيا بمن عليها أو كما يسير المركب بمن فيهِ فلا يُشعر بدورانها ولا بمسيرهِ لاشتراك كل ما عليهِ بحركتهِ ولولا ذكرى الماضي وآثارهُ وقوة المقابلة لما رأينا ما نراهُ منهُ وكفانا برهاناً على ذلك ادراك حقوقنا وحدود الحكام الذين كنا نحسبهم أرباباً فجرى على لساننا مثلنا السائر وهو حاكمك ربك فادراك القوم نقص حاكم ساقةُ نحسهم اليهم يدل على تقدم أولئك كما أن ادراك الحكومة احتياجات الرعية يدل على حذقها فنحمد الله سبحانهُ وتعالى على الوصول إلى ذلك كما أننا نشكرهُ على وزارة

اقامتها يد مولى عظيم في زمان كانت الرعية ترى فيهِ نقص السياسة والسياسة في غفلة من الغايات المركزية أو المقاصد الخصوصية أو غير ذلك حتى أنها أمست لا ترى نقصها ولا تدرك احتياجات سياستها فتغيير تلك الحال بالعناية العلية مفتاح باب الأمل ولا سيما بعد أن صدرت الارادة السنية بتلك الاصلاحات التي طالما بحثنا في منافعها أن جرت في مجاريها وأهدتها أيادي السياسة الصحيحة الى الصراط المستقيم ولتلك الاصلاحات نفعان أعظمهما مالي والثاني صناعي ومع أن ذلك لا يسد غير خرقين صغيرين من الخروق الكثيرة المحتاجة إلى تجديد النسج وليس إلى الترقيع ما يتعلق بالمالية منهُ أساس لكل تقدم فإنهُ كيف تقدر الحكومة أن تعتني بالاصلاح وبخير الأمة وهي في ضيق مالي يغل يديها ويقرمط سعيها وبمراجعة تاريخ لويس السادس عشر ملك فرنسا وكلام وزيرهِ تورجو المشهور تظهر نتائج الضيقات المالية واهمية اصلاحها فعندما يتم ذلك نكون قد رأينا في أيام حضرة مولانا الأعظم عبدالعزيز خان اصلاحات عظيمة الأهمية وهي القوة البرية والقوة البحرية والصناعة المتعلقة بالمهمات العسكرية مع المعارف الحربية والطرق الحديدية والمالية فهذه فتوحات عظيمة يرى أهميتها وعظمها من يتذكر حالة الجنود منذ ثلث عشرة سنة وحالة أسلحتها ومآكلها وضباطها وإنشاء الله بعد أقل من عشر سنين نرى بوناً بين حالة المالية الآن وحالتها حينئذٍ قدر البون الذي نراهُ بين حالة الجنود وجميع الاصلاحات المذكورة الآن وحالتها منذ نحو ١٣ سنة ومن مصلحتنا وصول المالية إلى مركز يمكنها من أن تسير من تلقاءِ نفسها في طرق تستقيم أمورها فيها لتتفرغ وزارتنا الميمونة إلى أمور كثيرة هي اعرف منا بها فإن جميع أعضائها قد اختبروا حالة الولايات فتبين لبعض المامورين بالانتقال من الاشتغال باصلاحٍ إلى الاشتغال باصلاح آخر ان المناصب ليست لتمنع الرجال الذين يسوقهم الحذق أو الوسائط إليها بمالها ومجدها مع المحافظة على راحتهم ولكنها تقدم لهم ذلك بدلاً عن راحتهم وكدهم وانشغال بالهم باهتماماتهم ليلاً ونهاراً ومن أهم الاصلاحات اللازمة في أكثر الولايات الأمنية الزراعية أي

التي تحمل أصحاب الأموال الذين تكاد تضيق الدنيا دون نقودهم لافتقار التجارة والمالية إلى الأمنية على وضع أموالهم في الأعمال الزراعية ففوزهم بذلك فوز الصناعة وهما ينبوع العمران ففي لبنان يحمل الفلاح التراب من مكان إلى مكان ويضعهُ على الصخور ويغرس التوتة فيهِ ومع ذلك هو من أكثر بلدان الدولة عمراناً حال كون الزراعة سهلة في السهول المخصبة الكثيرة المياه وغلتها تزيد عن غلة لبنان أربعة أضعاف ولكنها خربة بالنسبة إليهِ فما هي محصولات مرج ابن عامر وما هي محصولات مصر الثانية الواقعة في ولاية أطنه وفي الجهة الغربية منها وغيرها مما لا يحصى ولا ريب في أن عناية وزارتنا المشهورة بالنشاط وحب الاصلاح والتقدم ستتوجه إلى تلك الجهة عند الشروع في الاعتناء بالمعادن ولا بد لذلك من أمرين وهما جعل قوانين الأراضي قليلة وسهلة وايجاد وسائط لفصل دعاويها بالسرعة ومعاقبة كل الذين يخرجون عن تلك القوانين أشد العقاب وعلى الخصوص إذا كانوا من المجالس ويا حبذا لو كان ذلك كل المطلوب فلو كان كذلك لاستسهلنا الحصول عليهِ في زمان تصير على انهُ اصلاح اداب عمومية لتقليل الفساد والنفاق وهذا لا يتم إلا مع الزمان وبتحويل صرامة الروساء إذا كانوا من المأمورين أو من اصحاب الأشغال الخصوصية من جهة معاملة الرعايا إلى جهة معاملة المروسين وبحمل الأهالي على الابتعاد عن خوفهم من المداخلة في الأعمال العمومية والتعاضد على ما فيهِ الصالح العام وأصعب الأمور عند أصحاب الناموس والصدق مراعاة أصحاب الفساد والنفاق فعندما يقل ذلك من بين الذين هم أعيان بالأهلية والمعارف وليس بالمال والفساد تستقيم أمورنا أكثر من استقامتها الحاضرة ويصبح أصحاب الأهلية معززين مكرمين بعيدين عن الأكدار وعن كثرة السؤال وقلة النوال وما أحسن ما قالهُ أبو الطيب المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحُرِّ أن يرى
عدواً لهُ ما من صداقتهِ بدُّ

وهكذا قد ظهر أنهُ لا بد من حدوث انقلاب تام في كل ما لا يزال

عندنا ولا نطلب أن نراهُ في أيامنا بل نكتفي بأن نرى أننا سالكون سبل التقدم والنمو مادياً وأدبياً فان هذا هو سعادة الدنيا وليس سواهُ لان بلوغ الكمال لم يتيسر للأمم قبلنا ولا في زماننا ولا للأفراد فالسعادة تقوم بأن يتيقن الانسان بأنهُ لا يخسر من مركزه بل يكتسب ما يضاف إليهِ ولو رأينا من تقدمنا في الأدبيات والماليات والعدليات ما يناسب تقدمنا في القوات البرية والبحرية لكانت سعادتنا أتم على أنهُ ربما كان الله سبحانهُ وتعالى قد أعاق وصول وزارتنا الحالية إلى ادارة المهام ليطيل زمان اصطبارنا على النكد فنفرح بالشروع في الابتعاد عنهُ فرح من يفوز بالفرج بعد أن يطول زمان ضيقهِ.

جملة سياسية(*)

لو كان السوس في الأغصان لقطعناها فماذا نفعل إذا كان في الأصول ولو كان محصوراً في نوع دون نوع لأصلحنا ما وقع فيهِ بما لا يزال سالماً واستغنينا بالواحد عن الآخر ومن عجائب الله سبحانهُ وتعالى أن نرى حكم الانسان في هذه الأمور حكم النبات ولولا امتداد الأمراض من الوالدين إلى المولودين والعدوى لكانت ذات دائرة محصورة وليس الطاعون ولا الهواءُ الأصفر أكثر امتداداً بها من داء سوس الناس وللامراض ظروف موافقة لها أو مضعفة لقوتها وهي اما زمانية وإما مكانية وكذلك سوس الانسان وما من ظروف أشد موافقة لنموهِ وامتدادهِ من وقوعهِ في السائس حال كون المسوس في ضعف وجهل فينتشر يميناً وشمالاً ويملأ الأقطار وبما أن قابلية التمدد فيهِ كثيرة وكذلك قابلية الانضغاط يحل في أصغر الأماكن بدون التذمر من ضيقها ويملأ أوسعها بدون التشكي من وسعها افتراها في يد أقل الضابطين وأعظم المأمورين وكم من بلاد قد بليت بهِ وكم من أمة قد خطت الى دركات العبودية والهوان بعد أن نخرت عظامها بفعلهِ والذي خلق الداءَ خلق الدواءَ فالحصول على العلاج تعليق الأمل بالشفاء ولو كان المرض مزمناً وأمل الشفاء بعيداً والطبيب الواسطة الفعالة التي

(*) افتتاحية ج ذط، مجلة الجنان ١٥ تموز/يوليو ١٨٧٤، ص ٤٦٩ ـ ٤٧١.

تشير بالدواء الموافق وان لم يتيسر الحصول على طبيب او اختلفت آراءُ الأطباءِ يطول المرض فيلزم المريض بان يعرف ما يضر ليتجنبهُ بالاختبار وهيهات يشفى الذي لا يقدر أن يتجنب ما يضرهُ إلا بعد أن يحتمل ضررهُ فالطبيب الشافي في السياسة الحكومة فانها للامة كالفلاح للمزروعات فان كانت الحكومة منها وليست أجنبية كالانكليز في الهند أو صارت بتمادي الأزمان منها كالسكسون في انكلترا نعرف حالة الحاكم من حالة المحكوم وإلا فلكل منهما حالة فان كان الفاتح أكثر تمدناً من المفتوحة بلادهُ يمدنهُ ويقدمهُ وإلا فيكتسب منهُ تمدناً أو يبتلع تمدنهُ فلا يؤثر فيهِ فيخسرهُ الفريقان والعياذ بالله وما بعد ذلك غير الفساد والخلل والضعف ففي تاريخ الرومان في زمان فتوحاتهم وعند هجوم برابرة الشمال عليهم وسقوطهم وفي تاريخ تأثيرات الفتح العربي في أسبانيا والأسبانيولي في أميركا براهين واضحة تشهد بصحة ذلك ولا نحب أن نرجع بأنفسنا إلى ما قد مضى من تاريخ اجتماع شعوبنا الكثيرة أمة واحدة لنرى تأثيرات الفتوحات فينا وتأثيرها في أصحابها لأننا مرتضون بهيئتنا العمومية من جهة انقيادنا إلى سياسة لها القسطنطينية مركز وقد جمعتنا جمعاً يصوننا من استخفافٍ نبلى بهِ إذا كنا أمماً صغيرة مستقلة ومن وقوع العدوان بيننا بمناظرات الجيرة واختلاف الصوالح ولا نحب أن نغيرها ولا أن نبدلها بغيرها وهذه سياسة كل ذي تمييز منا ورغبتنا في المحافظة على هذه الهيئة هي قدر رغبتنا في التمتع باصلاح يقتل ذلك السوس الواقع في أصولنا فكيف تنمو أغصاننا وتثمر وهو فيها بل كيف تعيش ولا يهمنا بعد هذه الحال أن نبحث في العلة الأصلية فان ذلك لا يخفف أثقال الحال ولا يقلل منافعها وعلى الخصوص لأننا مصممون على محاولة التقدم في الظروف التي نحن فيها ولو كان تقدمنا بطيئاً جداً وعندنا انهُ لا يسوغ أن نتذمر مما هو منا كما نتذمر مما هو من الآخرين ولا يخفى أن افعل أسباب التقدم وجود روح حب العدل قياماً بفروض دينية أو مراعاة لحقوق المرؤة والناموس فالذي لا يحب العدل خوفاً من قصاص وضعهُ دينهُ للظالمين يجب أن يحبهُ لارضاء المبادي التي توسس أعمال اهل

المروءة من الرجال عليها فما لنا وللمامورية الأولية في الحكومات ال المحلية التي تكون في الغالب في يد غير أهل المحل فان البحث في الماموريات والوظائف المسلمة الينا نحن الأهالي كافٍ فمن منا يا ترى يمتنع عن قبول وظيفة أو مامورية حال كونهِ يعلم أنهُ لا يقدر أن يعيش بها ما لم يفتح كيسهُ لذهب الدناءة وهو ثمن الحق وعنصر الظلم حتى أنهُ قد بلغنا أن البعض يقبلون بوظائف معاشها السنوي أقل من ثلثة آلاف غرش بل منها ما لا تزيد عن الألفين حال كونهم أصحاب عيال ويلتزمون أن ينقلوا من المركز أو غيرهِ إلى مراكز مامورياتهم بعد ان يصرفوا من الهبات ما يكاد يكون قدر معاش سنة وأعظم برهان الفساد صرف المامور أكثر من ضعف معاشهِ حال كونهِ ليس بذي ثروة ولا دخل آخر وكم من مرة رأينا المامورين الاولين يحاولون تحسين بعض الأحوال غير أن تحزبنا نحن أو تحزب روسائنا وأكابرنا للأفراد يمنع خروج نواياهم الخيرية من القوة الى الفعل فوقوع الحقوق في هذه الآفات وحدها مسوغ عظيم للتذمر والتشكي والذين يتذمرون ويتشكون هم الأمناء للدولة وهم أهل الغيرة والحمية فإننا لا نرتاب في حسن نوايا مليكنا الأعظم ولا في رغبة رجال دولتنا في أن يروا الانصاف جارياً إن اتت رغبتهم بالنتيجة المطلوبة أو أن لم تأتِ بها والذين شأنهم تمليق المأمورين وخدعهم بكلام يدل على استقامة الأحوال عندهم إذا كانت مشوشة هم أهل رياء فيتخذون تمليق الحكام واسطة لتنفيذ غاياتهم ليوهموهم بحسن الحال فيرتاح بالهم من جهتها فيخلو ميدان الفساد لهم وما دامت أكثرية الأمة على هذه الحال ولا تراعي الذمة والناموس من الواجب أن تلوم نفسها قبل أن تلوم الحكومة المأخوذة منها ونحن نعلم أنهُ يتيسر قطع أكثر سبل الاصلاح في الأحكام بواسطة وقوع التاديب على الذين يثبت البرهان الواضح أو بالشبهة القوية بأنهم قد داسوا العدل واعتنقوا الظلم طمعاً بالمال أو ارضاءً لأهل النفوذ أو لعناصر التعصبات الدينية أو الجنسية غير أنهُ لا أمل بالفوز بذلك ما دام بعض الذين من تعلقاتهم ذلك التأديب هم من الأمة المحتاجة إلى اصلاحات أدبية أساسية حتى أنهُ ربما كان بعضهم

يستحقون نفس التاديب الذي يستحقهُ أولئك وهذا برهان وجوب اجراء اصلاحات أساسية وسن قوانين تضيق أبواب الظلم مثلاً إذا تغرضت أكثرية مجلس لجهة دون أخرى فأخذت في أن تاخر ابراز حكم مراعاة لغريم من مصلحتها مراعاتهُ فماذا يصون حقوق صاحب الحق من أضرار تغرضها ما دام ما من قانون مآلهُ وجوب ابراز الحكم في الدعاوي الفلانية في ظرف سنة مثلاً وفي غيرها في ستة أشهر ولا نقدر أن نقول بتأكيد أنهُ لا وجود لذلك القانون غير أنهُ ما الفائدة منهُ إن كان موجوداً ولا يجرى عندنا فاضطرارنا الشديد الى الاصلاحات الأساسية بتربية أولاد الأمة تربية نتيجتها انهاض همتهم للقيام بواجباتهم بالنشاط والدقة بدون ابطاء وتحويل شغل اليوم إلى غدهِ إلى أن يضيق الزمان بشغلهِ ويسن قوانين من شأنها تضييق أبواب الظلم والفساد وبانشاء الاصلاحات العمومية التي تاول إلى ترقية أسباب التقدم المادي لمرافقة الأدبي والاحتياج الى ذلك هو الذي يحملنا على الدوام على ان نطلب الى الله أن يجعل احوال خزينة دولتنا ذات يسر فإنهُ لا أمل بالفوز بذلك إلا بعد وضع المالية في مركز يريح بال الذين في أيديهم أعنة الأمور وعلى كل حال لا نعلق أملنا بالتمتع نحن بذلك لأن الزمان قد فات على أن اعظم سلوان للإنسان أن يرى نفسهُ عند الشيخوخة أو وهو على فراش الموت تاركاً لأولادهِ ما يتكفل براحتهم بعد ان يثوي فإن راينا في الحال أو بعد خمس سنين ما يدل على فوز أولادنا بما يقدر الانسان مع ملازمة النقص والضعف والشر لهُ أن يفوز بهِ يطمأن بالنا ونرتضي بحالنا إذ اننا نعلم ان اصلاح حالة الأمم بعد أن تكون في حالتنا لا يتم إلا بعد أن تشتغل أيادي الزمان فيهِ قروناً وهذا هو الذي يرعب قلوبنا تعجباً عندما نرى أننا في عشرين سنة قد تقدمنا حتى أصبحنا على ما نحن عليهِ فهو تقدم عظيم بالنسبة إلى تأخر الماضي مع أننا لا نزال في تأخر محزن بالنسبة إلى التقدم الحقيقي وما من غلط أعظم من غلط الذين يقولون إنهُ لا فضل للدولة التي تصلح أحوالها بعض الاصلاح أو كلهُ بواسطة العناصر التي تسوقها إلى ذلك على غير رضاها حال كونهم يرون في تواريخ أوربا

الماضية وفي حوادثها الجارية أن الدول أي الملوك وأعوانهم لا يصلحون الاصلاح الموسس على مراعاة حقوق الرعية بتضعيف السلطان المطلق وما يشابه ذلك إلا خوفاً من الثورات الداخلية والهجمات الخارجية وكفى الدولة فضلاً أن تقدر على مجاراة مقتضيات الأزمان والأحوال ومن أصعب الأمور أن نختم هذه الجملة قبل أن نقرر كلما يخطر لنا ببال من الآراء غير أن مراعاة الظروف واجبة فكيف لا نراعيها وقدرضاق المقام بنا فنسأل الله أن يوسع عقولنا ويصلح أعمالنا ويجعل ما هو ضيق من جرى ضعف أدبياتنا وماديانتا ميداناً رحباً.

جملة سياسية(*)

سبحان من جعل النقص في جميع أعمال البشر بحصر الكمال في نفسهِ ومع ذلك وضع لنا كمالاً بالنسبة إلى حالنا وهو غلبة العناصر الحسنة فينا على العناصر الفاسدة فكمال الأمم وكمال الأفراد انما ينحصر في ذلك والجميع نقص بالنسبة إلى كمال الخالق سبحانهُ وتعالى ولذلك من المفروض على الدول والأمم عند البحث في أحوال أنفسهم أن يقفوا على هذه الحقيقة وهي هل يا ترى نقائصنا متغلبة على كمالنا أو بالعكس فلا ينبغي أن نجعل نقائص دول أخرى أو أمم متمدنة عذراً لنموهم أنه يحمينا من لوم اللائمين ومن عقاب الله ويبلغ فينا عندهم إذ يقولون إن نقائصنا هي كنقائص الآخرين فلا نلام لأن ما نسمعهُ عن الآخرين ربما كان القليل ولا سيما إذا كان مصدرهُ بلاداً متمدنة ذات حرية تامة أو تقييد مرتب لأن الأمم التي تتمكن من نشر نقائص سياستها إنما هي المتغلبة صالحاتها على طالحاتها فنشر ذلك دليل الكمال والعكس بالعكس لأن افعل اسباب تقليل النقائص السماح بنشرها وللتقييد درجات بحسب الأحوال أو بحسب اهواء الذين في أيديهم السلطان النافذ في العموم وربما كانت ظروف الشرق موجبة للتقييد فإن كانت كذلك أو لم تكن ترى أن صالحهُ إنما هو في الانتقال

(*) افتتاحية ج ١٧، مجلة الجنان ١ ايلول/سبتمبر ١٨٧٤، ص ٥٧٧ ـ ٥٧٩.

إلى حالة أكثر موافقة من الحالة التي كانت تناسب الأمة منذ عشرين سنة ومع أن بعض الجرائد قد صادفت معاملة صارمة قد وقعت تلك المعاملة في محلها بالنظر إلى المبادي التحزبية المعول عليها عوضاً عن أن تكون كل الجرائد المطبوعة في الممالك المحروسة عاملة على نشر ما فيهِ اتحاد وتعاون وتكاتف فإنها لا تكتفي بنشر الحوادث مراعاة للوقائع ولكنها تجعل صوتها المرتفع المؤثر محرضاً على الشقاق وعلى التمسك بأمور من المصلحة العمومية فضها بالحب والسلامة وهذا نقص حيث يجب أن يكون الكمال سائداً ومثلهُ نقص المأمورين والمجالس الذين وضعوا للمحافظة على العدل والانصاف وعينت لهم معاشات وأقيم لهم شأن ومتعوا بلذة السيادة ولا سيما في الأماكن التي قد استولت الجهالة عليها ودليل وجود هذا النقص المعرب كثرة الدعاوي فإن اصحاب الحقوق لا يفوزون بالانصاف والمتعدون يعلقون امالهم بالحصول على نتيجة بالوسائط المعلومة وكل هذه الأمور هي بقايا مظالم القرون المتوسطة التي كانت الجنود فيها تنهب المدن والقرى التي تمر بها مع أنها جمعت للدفاع عن الوطن والذمار فأبطل التمدن ذلك لظهورهِ وأبقى ما لا تظهر مفاعيلهُ في بلدان كثيرة من العالم ومن أسباب تعلق الأمل بالاصلاح وقوع القصاص حيناً بعد حين على الذين يتعدون من المأمورين أو من المجالس وإذا لم نر ذلك لا نعلق الأمل باصلاح قريب وما من شيء أثقل على الأمة من أن ترى قانوناً بدون أن تراهُ جارياً على الخصوص إذا كانت في احتياج إليهِ أو أن تراهُ جارياً في ظروف دون ظروف أو مراعاة لخاطر زيد وقطع النظر عنهُ لغايات ولو اتى بخراب البيوت ولو ابدل سعادة العيال بالشقاء وضحك البنين والبنات بالبكاء وتبسمات آلام بالدموع وجري هذه الأحوال في كل مكان مضر ولسوء الحظ نراها جارية في أماكن كثيرة فصفاءُ العيش لا يجتمع معها والثروة لا تجمع في دولتها والصناعة لا تنجح والتجارة لا تتسع والزراعة هي الأساس لا تصب ميازيب الذهب في أحضان أهل الزمان ولا تستقيم أمور مالية الدول ولا تقوى في البر ولا البحر ولا يكون لها قدر وشان وإذا دققنا النظر في بعض الأحوال

عندنا نرى أن ميادين الاصلاح واسعة وان الفلاحة الموجودة في أدنى حال من جرى ضعف الفلاح الأدبي والمادي وجهلهِ وخوفهِ من وقوع غدر عليهِ قابلة التقدم في الشرق قبولاً لا يحد ولا يعرفهُ إلا الذين قد قراءُوا تاريخ بلادنا وعرفوا أنها كانت تقوم بأود عشرين مليوناً وبحار الثروة مزبدة فيها فمراعاة أحوال الفلاحة بالمحافظة على حقوق الفلاح بواسطة صيانتهِ من المغدورية التي ينتج عنها تهاملهُ في الشغل لمجانبة نفع غيرهِ بعرق جبينهِ وبواسطة تمكن أصحابُ الثروة من معاطاة الفلاحة وامداد الفلاح بالمال ليعمر الأراضي ويغرس الأشجار ويأتي بالمياه من مكان إلى مكان ويكثر المواشي وصيانتهم من مطامع الفلاح الحسود وصيانته من مطامع بعضهم الدنية بانفاذ للعدل والحق بواسطة قوانين واضحة خالية من كل التباس وتعقيد ومطبوعة بلغات جميع الأهالي إذا كانت لغاتهم متفرقة والدولة التي لا تجعل ذلك الشأن شأنها وتثقل على عاتق الفلاحة تمهد سبل ضعفها بيدها إذ إن ضعف الفلاحة يأتي بضعف الدول والأمم ولا نخصص قوماً دون قوم بهذا الكلام ولكننا نوجههُ إلى كل الأمم الشرقية في الغرب والشرق الأقصى وهو حقيقة قد أتى الزمان بألف برهان على صحتها كما انهُ قد برهن بأن الأمة والمدينة والقرية التي يقع الانشقاق فيها تبيت مضعضعة الأحوال ولسوء الحظ قد جعلت دوائر الأعمال مع اتساع مطامع الأهالي وعلو هممهم الانشقاق شنشنة في الشرقيين وباب اصلاح حالهم من هذا القبيل مسدود كأبواب اصلاح أمور أخرى وكم من مرة قد كتبنا بهذا الخصوص في الجنان وقد جعلنا اعادة الأمور ديدنا لنا ولا سيما في الجمل السياسية فان في التكرار نفعاً فكتبنا عن الرشوة مرات كثيرة من تلقاء أنفسنا وقياماً بتنفيذ ارادة بعض أصحاب الغيرة الذين كانوا يطلبون الينا كتابة وشفاهاً اعادة بعض معانٍ وقواعد وأمور تقررت عندهم افادتها فاجبناهم إلى ذلك ولا نزال نحب أن نعيد بعض الأمور وأخصها أنهُ من الواجب أن يقول الراشي في نفسهِ وهو يدفع الدراهم للمرتشي أن الله قد لعنهُ وهو كالدرهم الزائف مجرد عن الناموس والصدق وهو لص لابس ملابس أهل الفضل والتقوى فهو

سارق مال غيرهِ وما خصصهُ الله بأهل الفضل ومن الواجب أن يجعل الناس ديدنهم الطعن في الرشوة وفي الذين يرتشون لأنهُ إذا كثرت الرشوة في المكان تقف حركة الحكومة ومحورها الشرائع والقوانين والنظامات وتصير الأكياس والدنانير والدراهم القواعد الثلث لحركة الحكومة وتصير هي السلطان فلا يخاف الغني على نفسهِ من عدوان غيرهِ بل يكون خوفهُ من ان تمتص براغيث مطامع الرشوة كيسهُ وتحرك عليهِ الدعاوي فيبيت فقيراً ويبيتون هم أصحاب الثروة فكيف لا نعيد كلاماً كهذا الكلام حال كوننا عارفين بأن عار الرشوة عندنا هو دون عارها في البلدان التامة التمدن وظهورها في الجرائد قليل لقلة بحث الحكومة عليها لقصاص بعض أصحابها بالشبهة القوية واشهار اسمائهم ليكونوا عبرة لأولئك الذين قد جعلوا تجارتهم بيع الحقوق ومن الآفات المؤثرة في اساسات بنيان الهيئة الاجتماعية والمدنية في الأمم جريان الرشوة بدون قصاص بعض المرتكبين إذا لم نقل أكثرهم فالانتباه إلى أمور كهذه الأمور من المفروض على ذمة كل مامور ويا حبذا لو أكتشف على وسائط من شانها تقليل ذلك ومن الأمور التي تستحق البحث هل النقص فينا من هذا القبيل غالب على الكمال أو بالعكس واظن ان المرتشين أنفسهم قد أكثروا من الاشاعات عن كثيرين من الأفاضل حتى أن كلاً منا يقول إن الغلبة للنقص في ميدان الرشوة عندنا لأن المفلس يجب أن يكثر المفلسون وكذلك المرتشي يجب أن يقرر في عقول الناس بأن أفضل قومهم مرتكب إذ ان ذلك يضعف لومهم وتنديدهم ولا نعلم ماذا ينبغي أن نفعل للتخلص من نصف النقائص الملازمة لنا ومن الموافق أن نطالع تواريخ أمم كالإنكليز لنرى كيف أنهم تمكنوا من أن يجعلوا الغلبة للكمال في الأعمال عندهم وليس المقصود في ما قد مضى من الكلام حصرهُ في نقائص السياسة في العالم ولكنهُ في كل النقائص في الأمم ومن المستغرب أننا قد تقدمنا في أمور كثيرة تقدماً سريعاً بالنسبة إلى قصر الزمان غير أننا لم نتقدم في سبل الاتحاد ولا في سبل حب الحق والعموميات ومن المفروض على ذمة كل منا أن يجعل البحث في هذه

الأمور ديدنهُ في بعض أوقات الفراغ لعل الكلام فيها يأتي بفائدة وبالاتكال على الله نوال المآرب وادراك المطالب.

جملة سياسية(*)

للأمم أدوار تنال بها الترقي أو تبلى بتضعضع الأحوال وسنوح الفرص أبواب الفرج والفوز وقد يكون فواتها خسران الانتفاع بها فاستغنائها استبداد الحال وقد رأت الأمة العثمانية في هذه السنة ما لم نرَ مثلهُ منذ أعوام كثيرة فجمعت من الاختبار ما يوازي ما تكبدت من الاتعاب وأصبحت في مركز متوسط أمامهُ سبل الفوز والاصلاح ووراءهُ طرق التاخر والمشاكل فلها الخيار في أن تسلك ايهما شاءت وقد استبان أن الدولة العلية أخذت في أن تنهج منهجاً لم نعهدهُ قبلاً وبشرت الناس بحلول عصر جديد فهل نربح بذلك يا ترى وهل نطيق مشقات الانتقال مما نحن عليهِ من الضعف المادي والادبي وهل نثبت اذا صدمتنا الموانع وعاندنا الزمان وضايقتنا الأحوال أو ترجع القهقرى تاركين النمو والراحة والرفاهية من جرى مشقات الطريق المودية إليها ومن الناس من لا يرى شيئاً يدل على ذلك وقد قرروا في عقولهم أننا لم نفز بشيء بما جرى من التغيير في الاستانة العلية وأن بلاياهم على ازدياد وأحوال السياسة لم تأتِ بما فيهِ شيءٌ من الخير لهم فيمسون في ياس واضطراب فلا نلومهم ولا نعمل على تنديدهم بل نعذرهم لأن الزمان الماضي لم يقرر في عقولهم ما يحملهم على الاركان الى الاستقبال ولو كثرت الوعود وهذا هو الذي جعل حضرة مولانا السلطان الأعظم يقول في فرمانهِ العالي ما نصهُ وقد عرف الناس أجمع أن ما طرأ من مشكلات الاحوال على الدولة في أمورها الداخلية والخارجية ولد في أفكار العامة قلة الامنية فأفضى ذلك الى مضرتهم مالاً وملكاً وتنوعت بناءً عليهِ اشكال عدم استراحتهم. انتهى. ولكننا نبين لهم الواقع بالصدق والتبيان لعلهم يرون ما يجعلهم يشرعون في أن ينفوا من عقولهم قلة الأمنية التي تولدت فيها فيوجهون قواهم إلى

(*) افتتاحية ج ١٣، محلة الجنان ٢٠ حزيران/يونيو ١٨٧٦، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٥.

ترقية أسباب ما يأول إلى ترويج تقريرات الدولة العلية على أنهُ من الجلي أننا لا نزال على ما كنا عليهِ ولم نرَ في الولايات أثراً لما من شأنهِ ازالة قلة الأمنية من الأفكار ليس لأنهُ لم يصر التصميم على اجراء ذلك ولكن لأن الاصلاحات في الأمم بل في البيوت وسائر الأعمال لا تتم في يوم ولا شهر ولا سنة ولا يقام بها إلا بالسيف والنار لدفع عدو أجنبي أو محلي وبمراجعة تاريخ ابتدا الاصلاح في فرنسا وما تورطت اليهِ يظهر أنها لم تخرج من حالة الويل والهوان إلا بعد أن لعبت فيها أيادي الزمان من داخل ومن خارج وصبت عليها بنات الدهر بلاياها ونوائبها وكذلك الإنكليز في أيام كرمول والاسبانيول والايطاليان لأن الأمم جسم ضخم عظيم لا يدار ولا تسلب منهُ بعض عاداتهِ ما لم يتألم وتلحق بهِ بعض المضار غير أن العاقبة حسنة والأوجاع المؤقتة تعقبها غبطة طويلة وانتعاش عظيم ولا ينصف من يقول إنهُ لم يصر الشروع في الاصلاح حال كونهِ معلوماً أن له أربع حالات وهي حالة التقرير وحالة النشر وحالة الاجرا وحالة جني الأثمار فالأولى لا تظهر للعيان في الأمة ولا تعرف بالتفصيل بل يسمع بها بالخبر وتعرف بالاجمال من روح الزمان واحتياجاتهِ وصعوباته وهي قابلة للتغيير بانقلاب الأحوال أو تبديل الأشخاص أو ظهور ميل عام إلى ما يخالفها أو غير ذلك فلا يركن اليها لا من جهة بروزها من القوة إلى الفعل ولا من جهة موافقة ما لها للأحوال لأن الانسان قد يوهم ولو ادرك من الحكمة دانيها وقاصيها وعرف من أبواب السياسة وطبائع الهيئات الاجتماعية ونسبة بعض الامم إلى البعض الآخر ما كان ظاهراً وغامضاً فان طبيعة الزمان التوليد فقد يتولد من الأدبيات أو الماديات أو كليهما ما يأتي بتغيير الاراء والثانية حالة النشر وهي التصريح بأسباب الاصلاح لتبليغ الأمم التقريرات الاصلاحية المذكورة فتظهر قواعدها وترى مقاصدها وهي أيضاً قابلة الارتياب بعيدة عن اليقين لأن المنشورات العامة الغير المجراة في الشرق أكثر من التي أصبحت في حيز الاجراء فالنظام المقرر بدون أن ينفذ أشد ضرراً من عدم وجودهِ لأنهُ يخدع الناس فيستندون اليهِ في أعمالهم ويجعلونهُ أساساً لها وعند البنا عليهِ يسقط

فيحل الخراب ويقع الارتباك وتكثر المشاكل ويستدل على هذا الحال بفقرة مهمة جداً تضمنها ذلك الفرمان العالي ونصها ثانياً أن المهم اللازم نظراً لهذه النية الاساسية انما هو تجديد تنظيم نظارات وادارات شورى الدولة والأحكام العدلية والمعارف العمومية وأمور المالية وسائر المأموريات فينبغي إذاً النظر في تنظيم ذلك بالتتابع. انتهى. وافتقار ذلك إلى تجديد التنظيم هو في الأكثر من جرى عدم نفوذ النظامات المقررة ولذلك قال تجديد التنظيم الذي يترتب عليهِ تجديد الاجراء والبرهان وجود نظامات متقنة نافعة ولو كانت جارية لما مسَّت الحاجة إلى تجديد تنظيمها كلها ولعل عدم اجرائها كلها قرر في العقول عدم موافقتها فعول على تجديدها كلها وسيظهر ذلك عند بلوغ الحالة الثانية المذكورة أعلاهُ والثالثة حالة الاجراء وهي الأساس بل ينحصر كل النفع فيها ومع ذلك لا تكون على الدوام سليمة العاقبة فإنهُ قد تظهر النظامات عند النشر موافقة من أكثر الوجوه أو من كلها وعند الاجراء يتبين نقصها بالنظر إلى أحوال الهيئة الاجتماعية أو غير ذلك فإنهُ قد يظهر بالاجراء عدم موافقة المعقول والرابعة حالة جني أثمار النظامات وهي وحدها الحالة الموكدة ومن يا ترى ينتظر الوصول اليها في شهر أو في سنة ولا ريب في أن العالم يغبطنا إذا أدركنا ذلك الشأو في عشر سنين فاننا لا نزال في الحالة الأولى مع ما يترتب عليها من الشكوك والآمال وغير ذلك غير أننا قد فزنا بالحصول على وعد من حضرة مولانا الأعظم قد ضمنهُ في فرمانهِ العالي بل نفس ذلك الفرمان بداية اصلاحية مراعاة لروح هذا الزمان فإنهُ قد تقرر في عقول أهلهِ أن كثرة التعظيمات والتبجيلات لا تدل على أن المعظم المبجل ذو قوة وأهمية فإن برهان ذلك الأعمال وقد يتخذ اصغر الملوك أعظم الألقاب فلا يوافق أن تكون منشورات حضرة مولانا الأعظم معما لسلطنتهِ السنية من الاتساع والأهمية وحسن المركز غير موافقة لروح الزمان ولذلك لم نرَ في الفرمان العالي التبجيلات والتعظيمات التي كانت جارية في الماضي وهذا اصلاح قد مر بالحالات الأربع ووعد بالاصلاحات التي لا تزال في الحالة الأولى ومن أهم فروع الاصلاح انشا مجلس نوا

أو مجلس أمة ويقال إنهُ سيسمى مجلس الممالك وقبل أن عرف الناس حقيقة حالهِ قالوا باجماع في هذه الديار اننا في احتياج اليهِ لضبط ثلثة أمور وهي المالية واجراءات الوكلا الفخام واسباب الترقي أي أن لا يكون وزير أو وزيران أو عشر وزراء تتوجه اليهم المأموريات العالية بالارادة السنية مطلقي التصرف مستبدين بكل عمل بمجرد الحصول على ارادة سنية وهذا هو حقيقة أهم اعمال مجالس النواب فإن الأهالي ينتخبون في كل ولاية رجالاً من أصحاب الأهلية والحذق والاستقامة فيعقدون مجلساً ويقررون النظامات التي يطلب اليهم تقريرها ويناظرون على الاجراءات ويعينون المداخيل والمصاريف وغير ذلك ولا يزال نظام مجلس النواب في حالة التقرير ولذلك لا ندخل في البحث عنهُ بل نكتفي بالاشارة إليهِ وما نعهدهُ من همة الوزارة الحالية وحبها للتقدم يحملنا على تعليق الأمل بأنهُ يكون موافقاً معتدلاً ولا ريب في أنهُ لا يأتي بكل المراد في بادي الأمر ولا يخفى أن الزمان الحالي هو زمان سنوح الفرصة التي ينبغي استغنامها لأن حضرة مولانا الأعظم علي الهمة محب لخير الرعية وراغب في اجراء الاصلاحات اللازمة وقد فرح العثمانيون جميعاً وكل محبي الدولة العلية من الأجانب بالتغيير الذي جرى ولئن كان في أثناء ثورات لا تنكر أهميتها فإن هذه الثورات تدعو إلى ذلك في الحال وحفظ الراحة ينشأ عنهُ في الاستقبال فإن انشا مجلس لضبط أهم أمور الدولة في أيام حضرة مولانا السلطان مراد الأعظم يكون بداية عصر جديد ونتفال بالخير بمجرد جلوس عظمتهِ فإنهُ جاءَ بتلك الوعود التي طالما انتظرتها الأمة معلقة الأمل باجرائها وجاءَ بمجاهرة الانكليز بما منع انفاذ لائحة البرنس كورتشاكوف وزير روسيا الأول وحمل أكثر دول أوربا العظيمة على أن تعود إلى المحافظة على معاهدة سنة ١٨٥٦ والمنتظر عقد جمعيات دولية جديدة بعد ذهاب توسطات فرنسا سدى وحالة أوربا لا تحملنا على التشام من جهة وقوع حرب عمومية لانهُ بالاجتماع يكون النفوذ لأكثرية الاراء وهذا يوافقنا ويجعل التقريرات ذات اعتدال ومما سرنا ما بلغنا من أن قتل صاحب الابهة والدولة حسين عوني باشا ناظر الحربية وحضرة صاحب الدولة

راشد باشا ناظر الخارجية وجرح صاحب الدولة أحمد باشا قيصرلي ناظر البحرية لم ينشا إلا عن أمور شخصية بل كان المقصود حضرة حسين باشا فنهوض حضرة الوكلا الفخام لالقاء القبض على القاتل جاء بحمام حضرة راشد باشا وجرح حضرة أحمد باشا وقتل وجرح غيرهم وقد اجلنا الكلام عن فضِلهما وأيديهما البيضاء ومنافعهما إلى ورود ترجمتهما ولم نبن سرورنا من كون الانتقام شخصياً إلا لعدم موافقة ظهور قوة لحزب مضاد في الحال غير أن استقامة الأمور بعد نهاية الثورة لا تكون إلا بظهور حزب مضاد فإن ذلك علة لتيقظ القابضين على أزمة الأمور وضبطهم للأعمال وتوسيع دوائر المنافع واستجلابهم ميل الأمة فالمضادات في السياسة مع الاتحاد في الصداقة للدولة وحب الوطن من أعظم أسباب استقامة أمور البلدان وترقيها.

الشرق والغرب(*)

انفع الكتابات ما كشف القناع عن وجه غادة الحقائق للميل عن السبل المعوجة إذا ظهر اعوجاج وللاستمرار في طرق الصواب إذا ظهرت استقامة الأحوال فالغريب يعذرنا في ذلك وابنا الوطن يثنون علينا وشأننا في التقريرات افراغ الجهد في سبيل تقرير الواقع بدون ادعا اصابة الرأي ولا سلامة الوصف وصحة النقل ولذلك ربما كان اختلاف الاختبار بين الناس في الشرق مع تباين أسباب التربية يجعل اختلافاً في الحكم فمن المطالعين من يستصوب الكل ومنهم من يستصوب البعض وبالعكس وقصارى المطلوب وصف الحال لعل ازاحة الستار تأتي بانتباه تجنى منهُ أثمار بعد سنين. ولا ريب في أن الشرق قد انتقل من حال إلى حال في برهة قصيرة بالنسبة إلى الأزمان اللازمة لاحداث تغييرات كالتغييرات التي نراها في ربوعنا وجاءَ ذلك بانقلاب عظيم في الأفكار والعادات والأحكام والمشارب والمعارف والتجارة والمالية فلو جاءَنا رجل من أهل الزمان الماضي بدون أن

(*) مجلة الجنان ١٨٧٦، ص ٧٤٢ ـ ٧٤٦.

يكون قد شاركنا في الانتقال بتدريج لما ادرك شيئاً مما نحن عليهِ ولا عرف أن يقوم بعمل من أعمالنا. ولم يتم انتقالنا بحسب ناموس انتقال الأمم من درجة منحطة الى درجة عليا أو بالعكس ولكنهُ تم بانتصارات قوات مجاورة فتحت بلادنا بقوتها الغالبة واستولت علينا استيلا جبرياً واختيارياً وللفتوحات نواميس لا بد من نفوذها فإن كان المغلوب أضعف من الغالب أدبياً ومادياً يزداد ضعفهُ بالنسبة إلى التفاوت في القوة وإذا كانت القوة متساوية لا تأتي الغلبة المادية بغلبة أدبية ما لم يكن شأنها الظلم والاعتساف. والشرق في هذا العصر أضعف من الغرب ولما ضاق باهلهِ وتحركت في قلوبهم المطامع وجهوا أفكارهم وقواهم إلى البلاد الشرقية ورغبوا في احراز ثروتها ومشاركة أهاليها في ما قد جمعوا بل في نفس محصولات بلدانهم فركبوا المخاطر وشنوا الغارات والقوا الشقاق بين الشعوب الشرقية وجدوا وكدوا الى أن سمح الله لهم بفتح بلدانهم أما بالسيف واما بالتجارة فاستولوا على الهند وعلى أواسط آسيا وعلى جزائر بحرية وحلوا فيها وفي أماكن اخرى ذات أهمية تجارية وأنفذوا فيها نظاماتهم وقوانينهم وسلبوا الحكم من أيدي أهاليها واستولوا على عروشهم ونقلوا كنوز امرائهم وملوكهم وشرعوا في أن يسوسوهم سياسة جديدة مكروهة عندهم ولئن كانت لا تخلو من الفائدة في بعض الأماكن. أما فتوحاتهم التجارية فعمت القارة الشرقية ودخلت كل بلاد من بلدانهم واحدثت في عاداتها وسياستها وثروتها وتجارتها تغييرات ظاهرة قد اختلفت الآراء من جهة نفعها وضررها في الحال والاستقبال. وليس المقصود التنكيت ولا التنديد واللوم ولكن اظهار الواقع حال كوننا نقر بان حذق الأوربيين واقتدارهم ومعارفهم وعلو هممهم قد مهدت لهم وعورنا وسهلت جبالنا فعبروها وحلوا في ربوعنا ولا يلامون على ذلك كما أنهُ لا يحق لهم أن يلوموا سلفاءنا الشرقيين الذين كانوا مصباح العالم في القرون المتوسطة ففتحوا بالسيف وبالتجارة ونفذت سطوتهم في البلدان المحيطة بالبحر المتوسط امتدت في الغرب إلى الداخلية وفي افريقية استولت على السواحل الشرقية والجنوبية وجهرت في داخلية مجهولة

حتى أن آثارها لاتزال تدل عليها، فمجاري الأمم الطبيعية تسوقها الى التوسع والتمدد طبعاً كما أن المجاري الطبيعية في البشر تجعل الجسم يشغل حيزاً أعظم من الحيز الذي يشغلهُ عند الولادة وتوقيف ذلك ينشأ عن عوارض تمنع جري الطبيعة في مجراها. ففوز الأوربيين يحملنا على الثناء عليهم إذا كنا قد انتفعنا بهِ أو لم ننتفع على أن ذلك لا يمنعنا عن البحث في تأثيراتهِ فينا مادياً وأدبياً. ومن ينظر إلى الظواهر ويدخل الشرق بأفكار أوربية ويقابل بين ماضيهِ وحاضرهِ لا يتردد عن أن يحكم قطعياً بأن الشرق قد تقدم تقدماً عظيماً وهذه هي الآفة الكبرى التي تجعل كتابات كثيرة خالية من الفوائد الصحيحة فان الانسان الغريب أو المحلي لا يقدر أن يقف على حقيقة أحوال أمة بالبحث عن حـال أقلية ساكنة في بعض المدن أو عن حالة فيئَّة دون فيئة أخرى. ولا يخفى أن الملابس والبيوت والمأكل لا تدل على التقدم الصحيح ولا يكتفي بها للتفال بالخير أو للتشام بالشر في الاستقبال فإنها قد تكون للأمة كالدم على المبرد الذي كان يلحسهُ الهر فالتقدم الصحيح عبارة عن وصول أسباب القوة المستندة إلى المعارف إلى الكمال الذي يتيسر ادراكهُ في عصرها فيصبح شأنها الربح من كل عمل مع استمرار ازدياد الاتقان وابتعاد الأفكار عن مكدرات الهيئة الاجتماعية كالتعصبات الدينية والانشقاقات الناشئة عنها أو عن أمور اخرى تأول إلى تضعيف الاجراات وتأخر الأشغال التي تنشا عن اجتماع الكلمة والتكاتف بنشر القواعد الصحيحة بالتعليم الصحيح والتربية المنزهة عن كل ما يضيق العقل ويجعل الانسان علة ضرر وشر عوضاً عن أن يكون ينبوع خير ونفع. فالزمان الماضي عندنا كان مكدراً بالتعصب الشديد الأعمى الظاهر الذي تتيسر مجانية قسم عظيم من أضراره بوسائط كثيرة لا لزوم لذكرها وبالانشقاق أيضاً وبالاستبداد ونفوذ كلمة السائد وكان ذلك الخلل نظاماً والتعصب حقاً كما كانا في أوربا منذ قرون ليست بطويلة غير أن البلاد كانت تكفي نفعها بصناعتها ومحصولاتها وتجارتها ومالها. وكان مقرراً في عقول الأهالي إن ذلك الظلم هو العدل النافذ فيهم فلم يكـونوا يعرفون الحقوق

الانسانية ولا يدركون قواعد الحرية فترفهوا بما كان بعد سعادة عندهم واستأمنوا بمجانية اسباب الأضرار وارتضوا بحالتهم لأنهم لم يكونوا عالمين بحالة أسعد منها وكانوا يطوون الأيام على تلك الحال بالهدوء والسكينة. ولا ريب أن كل من عدل في الحكم يرى أن هذا الزمان مفضل على الزمان الماضي القريب من بعض الجهات ولتوضيح ذلك ينبغي أن نبحث عن كيفية دخول ما قد دخل ربوعنا من الغرب وعن تأثيرهِ فينا فتسهل المقابلة جداً وتظهر الحقيقة. ولا يخفى أن الأوربيين جاوءُنا في بادي الأمر بقوتين وهما قوة تجارية وقوة دينية أي أن تجارهم حملوا الينا مصنوعاتهم ومحصولاتهم والقسوس جاونا بتعاليمهم الدينية وانتشر الفريقان بيننا واجهدوا أنفسهم في تغيير عاداتنا وقواتهم السياسية في مركز البلاد والويلات تعضدهم وتسعفهم لتصونهم من عواقب كرهنا لهم وليروجوا اشغالهم بنفع ممالكهم بالأرباح الناشئة عن تجارتهم فغيروا العادات حتى رجت أسواق وارداتهم وانحصرت أعمالهم الدينية في فيئة دينية قليلة جداً بدون أن تمتد إلى الداخل امتداداً يستحق الذكر واستخدموا نشر المعارف ولكنها انحصرت أيضاً في الأقلية فكان التقدم الأدبي الناشي عن الاختلاط بهم تقدماً ضيق الدائرة لا يأتي بمعاش مع أن مصنوعاتهم اخربت مصنوعات البلاد عموماً وأمسى القليلون الذين انتفعوا بعض الانتفاع من قربهم ومعاملتهم والكثيرون الذين لم يجنوا أقل نفع منهم يصرفون أموالهم في سبيل الحصول على مقتنيات كانوا في غنى عنها أو كانوا يحصلون عليها بأعمالهم الصناعية التي باتت في خبر كان فنشا عن ذلك فقر عظيم ودخلت عوائد مفيدة مضيعة للأموال ومضرة بالأبدان ربوعنا الشرقية فتعلمنا المضر الذي يميل الانسان اليهِ طبعاً لسهولة المأخذ وشدة الميل وقصرنا عن تعلم الأمور النافعة لأنهم جاوا بها بدون أن يأتوا بوسائط تعلمها فإن مقاصد مدارسهم دينية وقل ما علمت ما يقوم بأسباب المعاش الا باستخدام لغة أجنبية أو بتعليم ما تعلمهُ الانسان مما لا يأتي باتقان صناعة ولا بعمل بضاعة ولم يأتِ ذلك بتضعيف التعصب ولا أزال الشقاق ولكنهُ كثرهُ وقد انتفعت الأقلية

التجارية انتفاعاً موقتاً لا يوازي جزءًا واحداً من مائة جزء من اضرار اخراج المال فكنا ننسج حريرنا ونلبسه وكذلك صوفنا وقطننا أما الآن فأرباح نسجهِ تخرج من بلادنا وكذلك آلاتنا الحديدية كانت من صناعتنا فكانت احتياجاتنا قليلة ولكنها كافية لحالتنا البسيطة. ولا نقول اننا نفضل البقاء على تلك الحال على اقتباس تمدن الأوربيين. ولا يتمنى ذلك غير كل من يجهل أسباب التقدم الحقيقي ويفضل الظلمة على النور غير أننا قد جعلنا مقابلة بين الحالين لنبين أنهما غير موافقتين لنا فنبحث عن الحالة الموافقة لعلنا نفوز بالوصول اليها ونتخلص من آفة قد سلبت أموالنا حتى أن اقل تأخر أو شدة تطرحنا في جوع ومن المقرر أن النمو الذي نراهُ ظاهرياً هو نموٌ غير طبيعي وهو مضر بل قتّال فإننا بلغنا في بعض أمور ونحن في الطفولية مبلغ الرجال فلا نقدر أن نحمل حملهم والشاهد سقوطنا الحالي في الفقر ووجود اكثريتنا في ظلمة الجهل المدلهمة فلا ترى في معيشتهم تحسيناً ولا في معارفهم تقدماً ولا في معيشتهم تأخراً عظيماً حتى أن تحل سنة يلقيهم في جوع شديد بل تراهم بدون محل يمرضون بالحميات وامراض أخرى من رداءة المعاش لأن نسبتنا إلى أوربا ونسبة حكومتنا قد كانت سبباً لاخراج أموالنا من أبواب كثيرة ويا حبذا لو رأينا سوء حالتنا قبل هذا الزمان أي قبل أن بتنا في خراب وتأخر وكان أولى بنا أن نمتنع عن ادخال أسباب مصاريف أوربا قبل أن ندخل أسباب المداخيل التي نقدر أن نقوم بها وإتمام ذلك يكون بزمان طويل. وكنا نصدق ما كنا نقراهُ في الكتابات الافرنجية عن اجتهادنا الشديد في سبيل التمدن ونسر المدح الذي نقراهُ حال كونهِ تحريضاً على فعل ما يخربنا ويضربنا أدبياً ومادياً وقد فرغت جعبتنا فوجهت أوربا اجتهاداتها الى الشرق الأقصى فنرى الجرائد تمدح اليابان وتثني على امبراطورها وتقول إنهُ محب للتقدم وأنهُ من أهل روح هذا العصر وقد حرضتهُ على مداومة ذلك وعلى استقراض مال من أوربا لتلحقها بمن قد سبقها وكل ذلك من حذق الأوربيين ومن عدم تبصرنا في العواقب وقبول عاداتهم بسرعة وبقطع النظر عن موافقتها لحالتنا وبلادنا أو

عدم موافقتها لذلك ودخول لغاتهم إلى بلادنا قد أفادنا من أوجه ونشر بيننا أفكاراً لا طاقة لنا على احتمالها وهي الاراء التي تضر بأشد البلدان تمدناً ما لم تكن نظاماتها موافقة لها فكيف لا تضر بنا وتزيد شقاقنا وقد رأينا في اتصالنا باوربا اضراراً أخرى كثيرة ومنافع أيضاً على أن العاقبة ردية ما لم نستيقظ ونجعل لجاماً لميلنا ونسعى وراء ما هو مقدم فعلاً. وما من شيء يكدرنا اكثر من أن نسمع الأوربيين يقولون إنهم قد احسنوا الينا مع أن صوالحهم من كل الوجوه هي التي تسوقهم الينا ومنهم من يحسن عندنا كما يحسن في بلدان أخرى فإن الله قد جعل حب الاحسان مطبوعاً في بعضهم وهؤلاء الأفراد هم الذين نراهم في الحروب يعتنون بالجرحى ويطعمون الجياع في كل مكان وهؤلاء ليسوا الذين جعلوا الصلات الجارية تجري بين بلداننا الشرقية وبلدانهم وقد احسنا نحن أيضاً في أوربا على جرحى وجياع بقدر طاقتنا فأعمال البر العمومية هي غير الأعمال التي تؤثر في الأمم عمومياً وتأتي بتغيير مهم في أحوالها. أما العادات المضرة التي دخلت البلدان الشرقية وتعممت فيها فهي كثيرة جداً وقد جاءت بفساد عظيم في الأخلاق وأضرار شديدة بالأبدان وما دمنا على ما نحن عليهِ لا نقدر أن نربح ربحاً صحيحاً ولا أن نتقدم تقدماً حقيقياً فإن الخسائر لاتنفك عنا ومن مرغوباتنا أن نمكنهم من القيام بالأشغال التي لا نقدر أن نقوم بها وحدنا لفقرنا وجهلنا ولو علمونا ما يرقي أسباب صناعتنا ويمكننا من معرفة هذه الأمور في مدارسهم حال كونهم قادرين على أن يعلمونا لما خطر لنا ببال أنهم يودون أن يقوموا بما يحملنا على اقتباس عاداتهم بدون أن يعلمونا ما يمكننا من الاستغنا عنهم فبعد أن عرفنا حالتنا فالقرب منهم انفع من الابتعاد ولا سيما إذا جاوا صانعين وحارثين للتعيش وتمكننا من أن نتعلم منهم كما كانوا يتعلمون من سلفائنا في اسبانيا وغيرها واجب علينا أن نرى بعض معادننا مفتوحة بأموالهم فقبل أن يطول زمان اقامتهم عندنا نتعلم منهم فنفتح معادن أخرى ونود أن يقوموا بما يجمع بين خيرنا وخيرهم وفي مصر قد انتفعوا من البلاد وجمعوا منها ثروة عظيمة حتى أن الذين جاوها لا يملكون بارةً يعدون

الان ذهبهم بالملايين وقد طالما افرغوا جهدهم في سبيل القيام بمشروعات مع قطع النظر عن منافعها ولا يزالون يفرغون الجهد في سبيل الحصول على ذلك حتى أن اختبار البلاد قد قلل أرباحهم وأقل خسارة تقع على أعظم منتفع من الشرق تحملهُ على اللوم والتنديد والطعن. ولما كان روح العصر يدعو الى اختلاط الأمم ومبادلة الأشغال والقيام بالصلات التجارية وكان التقدم بدون ذلك ضرباً من المحال بعد أن صارت الدنيا كأنها عائلة واحدة كثيرة الأعضاء كان لا بد لنا من أن نجد الوسائط اللازمة لنصون أنفسنا من اضرار الاختلاط لننتفع بهِ كما تنتفع سائر الأمم فنبيعهم ما هو أوفر عندنا مما هو عندهم ونشتري ما هو أوفر عندهم فنربح منهم ويربحون منا ولا نكون نحن النبع وهم الحوض الذي تجري مياهنا فتجتمع فيهِ. ولا يتم ذلك إلا باجتهاد الأهالي ومساعدات الحكومة والأوقات الجارية ليست بموافقة للبحث عن التفاصيل ولذلك قد حررنا هذه التمهيدات اظهاراً للواقع موملين أن رواق الأحوال ليس ببعيد فنأخذ في تقرير التفصيلات بالاستناد إلى هذه القواعد العامة التي يحتاج الشرق بجملتهِ الى الانتباه اليها وإلاّ فتبقى بلاده معدن الذهب وأهاليهِ الفعلة الذين يحفرون فيها والغرب السادة الذين يأخذون الذهب المجموع وهم بعيدون لا يعرضون أنفسهم لأتعاب الجمع ومشقاتهِ ولا للهلاك والضعف اللذين ينشأن عن رداءة الهواء.

جملة سياسية(*)

ما أحسن الاصلاح وما الفوز إلا بنهج مناهج الفلاح وشتان بين أمة تدار أمورها برأي فرد واستبداد أفراد الأمة التي تساس بالتشاور ومراعاة نظام مسنون وقانون موضوع ولمن المعلوم أن البلاد المصرية تحملت من المشاق وعانت من الأتعاب والضيقات ما جعل الناس يحولون أبصارهم اليها ويوجهون خواطرهم إلى البحث عن أعمالها وأحوالها وقد شمت بها العدو ورق لها الصديق الصادق ليس لأنها قد

(*) افتتاحية ج ١٨، مجلة الجنان ١٥ ايلول/سبتمبر ١٨٧٨، ص ٥٧٥ - ٥٧٧.

احتملت مصائب لم تحتملها سائر البلاد الشرقية ولا لأنها أمست خاضعة لادارة لم تألفها أو سياسة امتازت بالاستبداد عن الديار المجاورة لها ولكن لأن مصائب الحروب وعلل التجارة العامة أصابتها وهي في حالة انتقالية فضاقت سبلها ووقفت دواليب أعمالها بوقوف دولاب ماليتها من جرى اسراف طالما بليت بهِ خزائن الدول عندما تصاب ببلوى الحروب وأثقال عدم مراعاة الاقتصاد في الانشاءات الجديدة والمصاريف الشخصية فمثلها مثل رجل يعدو بكل عزمهِ في سبيلهِ فيصدمهُ وهو على غير انتباه صادم فلم ينشا عن ذلك مجرد الوقوف عن المسير ولكن نشـا عنهُ الرجوع إلى الوراء بتهشم ودفع من أثر الصدمة ولو تفردت مصر فيما ألقاها في العسر وأوقع فلاحها في الضيق وتجارتها في الكساد وفي عدم مراعاة أصول الاقتصاد وقواعد التوفير في العموميات والخصوصيات إذا كانت على غير هذه الحال في الأزمان الماضية أو لم تنتفع باختبار اشترتهُ من مالها لما استحقت صرف النظر لا في أوربا ولا في الشرق عن ماض رأت أنهُ من الواجب عليها أن تعدل عما يكرر حوادثُهُ ووجهت الخواطر في كل صقع وناد إلى الترحب بالدور الجديد والتاهل بهِ كأنهُ دواءٌ لا تعيش النفوس بدونهِ ولا يسلم العمران الموجود إلا بهِ ولا يفاز بالنجاة من عواقب دلت مباديها عليها ومن المعلوم أنها بلاد سهلت المأخذ سريعة الحركة بالأدبيات والماديات فكما أن جمع الذهب فيها يتم بسرعة بخصبها المدهش وتسهيلاتها الكثيرة الطبيعية والصناعية يتم أيضاً الانتقال بها من حال إلى حال بسرعة تحير العقول وتخالف المألوف والمنقول وهي بدون ريب معدن الذهب وميدان علو الهمم والظاهر أن الله تعالى قد اتاح لها أن تري اليسر بعد أن رأت ما يعجز القلم عن وصفه من العسر ولقد طالما قيل إن الجنان يملقها ويداهنها وما ذلك إلا لأنهُ وصف بعد التروي والبحث والاختبار قوتها المالية التي تقضي بالعجب العجاب والمشروعات المدهشة الخديوية التي جعلت مدنها العظيمة جنات تغرد فيها بلابل الأمن وتنمو فيها أشجار الرواج وجعلت فيها أسباب الاتصال ممتدة إلى كل جهة وما هي إلا كالعروق في الجسد وقد رأينا

خزينتها تنقلب على فرش من شوك القتاد من العسر والضيق ومع ذلك لم نفتر عن أن نصرح كتابة وشفاهاً بأنها لا تلبث أن تفوز بالفرج وتعود إلى ما يليق بها من الرونق والبهاء وهوذا وادي النيل وهبة مائهِ قد وضعت قدمها في الدرجة الأولى من سلم اصلاح الشؤون ولكنها بلاد الغرايب فارتقاؤُها إلى اعلاهُ يكون كلمح البصر وأعظم التقدم يعقب أعظم التأخر ويغبط من يتاح لهُ أن يصلح ما تأخر في زمان سابق لزمانهِ أو فيهِ. وكذلك من يمكن الأمم من الحصول على احتياجاتها التي تتغير بحسب ما تقتضيهِ أحوالها الناشئة عن انقلاب أدبي أو مادي ناتج عن نمو طبيعي فيها أو عن الاقتداء بجار أو عن وقوف دواليبها من جرى عدم موافقة حركاتها والمصلحون من الذين جعلهم الله سبحانهُ وتعالى في رياسة الأمم قليلون وهم الذين يزين التاريخ بذكر اسمائهم وتفتخر أممهم بهم وتحيي الألسن ذكرهم قروناً فهم الذين لا تنطوي عليهم أيادي الدهر ولا تحجبهم عن أبصار البشر وإن كانوا قد ثووا فهذا الفخر قد وضع أكليلهُ على رأس حضرة الخديوي اسمعيل المعظم فإنهُ قد ابطل الدور الاستبدادي ووهب وطنهُ ما جمعهُ بحقوق ذلك الدور الذي تناولهُ من سلفائهِ وفوض أمر الادارة إلى ذوات لا يدرك قدرهم إلا من تمكن من تدقيق التأمل في تصريحاتهم ومنشوراتهم واختبر قواعدهم فحضرة صاحب الدولة نوبار باشا رئيس الوزراء وناظر الخارجية والحقانية قد اجمعت أهل السياسة في أوربا وأفريقيا وآسيا على مدحهِ والثناء عليهِ لأنهُ قد تقرر في العقول أنهُ قد جمع في نفسهِ كل الصفات التي تجعلهُ أهلاً للقبض على اعنة الأمور بالوجه التقيدي الشوروي المنـزه عن جميع الغايات الخصوصية والأغراض الشخصية ومعارفهُ الغزيرة تجعل اعمالهُ محفوفة بالاصابة والفوائد وفي يمينهِ حضرة صاحب السعادة رياض باشا المجمل بأبدع السجايا والمزين بأبهى الصفات الجامع بين العقل والقلب أي أن عقلهُ الثاقب ترافقهُ شفقة ويزينهُ حب نفع الناس واراحتهم وقد طالما سمع منهُ الثنا على حضرة نوبار باشا وقد قيل أكثر من مرة أن رياض باشا رياض خير واستقامة وحمية وصداقة وتوجيه نظارة الداخلية إليهِ ياول إلي نفع

عظيم وإلى اراحة الأهالي في المديريات وسعادة راتب باشا لنظارة الحربية وهو من الذين قد امتازوا بحسن الادارة وتفردوا بعلو الهمم واستقامة الأطوار وسعادة علي باشا مبارك للأوقاف والمعارف اصالة وللنافعة موقتاً وهو من الذوات الذين يكرهون المداهنة والتمليق ويعكفون على الأعمال ويسرون بالكد والجد ولا يفترون عما ياول إلى نشر المعارف وإنارة العقول بالمصابيح العصرية ولهُ تأليفات جمة جيدة جداً تهذب العقول وتروضها ومستر ولسون متمتع بأركان أوربا والأهالي لأنهُ مشهور بالدراية وحسن التدبير ولا بد من أن تكون لاجتهاداتهِ ثمرات مالية يانعة فبمجرد تفويض ادارة البلاد إلى أولئك الذوات تحت أنظار الجناب الخديوي المعظم يبشر بحسن الاستقبال بل يجعل الآمال وطيدة بأن مصر تحوز قصبات السباق في ميدان الاصلاح في الشرق والفضل.في ذلك على ما قد أسلفنا إنما هو لحضرة الخديوي اسمعيل المعظم الذي أدهش العالم بمشروعاتهِ السابقة وبصبره على مضض سنين تزعزعت فيها أساسات الشرق وارتجت قواعدهُ وبمبادرتهِ الى منح بلاده ما يبلغها أياماً راتها بلاد الرشيد حالما توقفت ايادي البلايا عن أن تجعل مخالبها منشبة في جسم الشرق الذي بات نحيفاً بطوارق الحدثان وملمات الزمان وهكذا أصبحت مصر سالكه سبيلاً يبلغها بحبوحة الراحة ورياض الاستراحة.

جملة سياسية(*)

لو عرف العثمانيون أن المخاطر الخارجية ليست بذات عواقب أردأ من عواقب المغايرات الداخلية لوجهوا خواطرهم الى اصلاح شؤونهم وتنظيم أمورهم كما يوجهونها الى دفع الغوائل والطوارق الخارجية ولو تيقنوا أن ما تكبدوه من الخسائر وبلوا بهِ من الآفات هو من عمل ايديهم كما أنهُ من أعمال الأعداء لما كان خوفهم منهم أشد من خوفهم من أنفسهم وإذا عددنا المصائب التي ألمت بنا في كل زمان نرى أن مسبباتها ليست بغريبة عنا فإننا أصبحنا في زمان مساواة

(*) افتتاحية ج ٢٢، مجلة الجنان ١٨٧٨، ص ٧٠٣، ٧٠٤.

وانتظام وعلوم ومراعاة حقوق العموم وجعل المحل الأول لصوالح الأمة والثاني لمصالح الدولة ونبذ التعصبات بدون أن نراعي شيئاً من هذه الأمور التي تقتضيها أحوال الزمان فعولنا على المحافظة على امتيازات جنسية ودينية وأمسى شأننا وضع النظام واعلام الناس بهِ لنبين لهم أننا لا نحافظ على ما يسن حتى بات الأهالي يقولون اقرأ تفرح جرب تحزن وصرحنا في كل صقع وناد أن العلم أفضل شيء عندنا وأن العلماء ورثة الأنبيا ولم نقم بعشر ما ينبغي أن تقوم بهِ أمة متمدنة سلفاوها حفظوا العلـوم قروناً وزادوا عليها وأوصلوها إلى سلفاء الأوربيين الذين جعلناهم قدوة لنا والشرائع التي ورثناها لا تجعل امتيازاً في الحق بين الملك والصعلوك ومع ذلك أوشكنا أن لا نرى حقاً بدون امتياز فامسى للجنس امتياز وللدين والمركز بل للغني والمحل الاول في الامتياز للذهب الوضاح وأمست المعاملات على غير رضى صاحب الملك تدوس الف حق عام لقيام صالح دولي أما التعصب الذي يعمي الأبصار ويسوق الى ارتكاب أعظم المغايرات فقد كاد يضيع الملك واستقلال الأمة بل ضاع هذه المرة بالتعدي على البلغاريين القسم الأعظم منهُ في أوربا وأصبح مسوغاً لنا خير خروج الروس من أراضي السلطنة وأبعد عنا قلوب أصدقائنا وغل أيدي حلفائنا وسود صفحات تاريخنا والبسنا ثوباً من الذل والعار لم يتيسر لنا بعد أن نلبس ثوباً مثلهُ لأعدائنا وهذه التعصبات هي علة ضعفنا فنحن الأهالي إذا لم ننتصر لأنفسنا لا نجد في الانام نصيراً فإنها قد اورثتنا انشقاقاً عظيماً وخلافاً مبيناً فرق كلمتنا وضعضع قوة اتحادنا واضعف هممنا فاعمل المامورون الظالمون غاياتهم فينا وانتفعوا بما نشا عنهُ ضعفنا العظيم حتى بتنا نرى الضابطي الذي يقلد السلاح لصيانتنا وحمايتنا ناهباً سالباً لا يخشى غيظ الأمة لأنهُ عالم بان تعصباتها قد أوقفت دولاب محاماتها عن حقوقها وقد أشغل كل منا بصوالحهِ التي يروم أن يشتريها بالمال أو الخاطر واكتفى بالفوز مرة بدون حق وإن كان عالماً أن الثروة لا تنمو وأسباب التقدم لا تستقيم ما لم يكن محور دوران دولاب الادارة والحقوق العدل والانصاف ولم نعذر حكامنا وأولي

القضاء والادارة منا ولكننا رشقناهم بسهام اللوم والتنديد وشكوناهم بالكلام وبالسنة الجرائد وبالعرضحالات إلى أولياء أمورهم وإلى الرأي العام فلا ينبغي أن نعذر أنفسنا ولا أن نلتهي عن عيوبنا بعد عيوبهم ومن المحقق أن شكوانا وتنكيتاتنا ذهبت سدى وقد تحقق ذلك الأجانب أيضاً حتى قالوا ان عناصر الاصلاح لا وجود لها في الحكومة العثمانية ولا نلومهم على ذلك لأننا لم نقصر عن اصلاح ما لا يصلح إلا بمرور زمان كافٍ ولكننا قصرنا عن اصلاح ما يتيسر اصلاحهُ في سنة كالضابطة حتى خيل للغربا بل لهم ولنا أننا نعرف أبواب الاصلاح ولا نقرعها لتفتح لنا أو أننا نراها والمانع لقرعها العجز الناشيءُ عن الشيخوخة وقرب الانحلال فحكموا بأننا أمة لا تصلح والحال إن العجز فينا ليس بناشيء عن الطعن في السن وقرب الانحلال فإن الأعدا قد شهدوا بكتاباتهم بأنهم رأوا منا في الحروب ما دل على أن الامة لا تزال من جهة الأمور الطبيعية في عنفوان الشباب ولكن الضعف بل العجز في الادارة والتدريب ونحن نقول لكل من لم يقف بعد على حقيقة الحال أن عجزنا ناشيءٌ عن القتال الدائم المنتشب بين القديم والجديد في ربوعنا بل في قاعات أصحاب الادارة والمالية وفي المحاكم والعسكرية فإننا نكره اقتباس ما جربه أهل الغرب ورأوا أنهُ علة ارتقائهم سلم الفلاح والنجاح والزمان قد سلب منا عاداتنا وقوتنا الادارية والحربية على رغم أنفنا فإنها لا تفي بالمقصود ولا تقوم بسد المطلوب فالزمان زمان بخار وبرق وهي فنون الجمال وحمام البطاق وشتان بينها وبينهما ومع ذلك لا نزال نتسلى بالألقاب التعظيمية والادعاات الفارغة والافتخار بالجدود وبما كان لنا ظانين أننا روح العالم وأن ما عندنا لا يملكهُ غيرنا وكل ما هو لأمم أخرى خطا وجهالة وحماقة نبتعد عنها هذا والافرنج تمس ممالكهم ممالكنا ونشاهد بمرأى العين ثمرات علومهم وفنونهم وانتظامهم ونغمض أجفاننا عن الواقع ونجرد عزمنا لكرههم وبغضهم عوضاً عن أن نفرغ كل الجهد في سبيل اقتباس ما هو حسن منهم فإذا لم نصطلح ونعدل عن هذه الطرق لا نحتاج إلى سيف روسيا ولا إلى رصاص السلاف لنضيع ملكنا فإن

تأخرنا ومغايراتنا وخلل أعمالنا وكبرياءنا وجهلنا كافية لأن تضيع أعظم ممالك العالم فمن يا ترى يختلج في صدره قدر ذرة من حب الوطن ولا يضيق صدره بمطالعة هذه الحقائق وبمشاهدة أمة أجنبية كالإنكليز تصر على أن تجعلنا نصلح أنفسنا ولا نروم أن نضيق الصدور على أنهُ قد رأينا أنهُ من الواجب علينا أن نظهر الحقائق ونحرض الأهالي على الاتحاد والألفة ونبذ التعصبات والعدول عن أمور قد مضت أزمانها ولا تعود والانتصار لأنفسهم بكل جسارة بدون الخوف من مقاومات بعض المأمورين المستبدين لأن الأمة التي لا تعرف أن تحامي باتحادها عن حقوقها لا تصان لها حقوق ولا تستقيم لها حال.

جملة سياسية(*)

لم يبقَ ريب في أن استعفاءَ حضرة صاحب الدولة والأبهة خير الدين باشا نشا عن الاصرار على نقل الحكومة من الحالة الجارية إلى حالة تشابه التي خرجت منها أثناء الحرب بفض مجلس المبعوثين وإنشاء الحكومة العرفية في الآستانة وفي محلات أخرى. فإنهُ بعد أن فضت أهم المشاكل وتغلبت الحكومة على أعظم الصعوبات بانفاذ المعاهدة البرلينية وانجلاء الروس عن الأراضي العثمانية وأصبحت أوربا شاخصة فينا لترى ماذا نفعل لتعويض خسائرنا ودفع أسباب التأخر عنا رأى **انهُ لا مندوحة لنا عن المبادرة إلى صرف المشاكل اليونانية والمصرية وتوجيه الخواطر إلى أمورنا الداخلية بالابتداء بالاصلاح في ينبوع الادارة ومصدر القضاء وأساس الحكومة وارجاع الحكومة الشورية ومسئولية الوزارة وغير ذلك مما تقرر عندهُ** انهُ لا سبيل إلى ادارة السلطنة ادارة موافقة لازائهِ إلا بأن يكون هذا هو المعول عليهِ عندنا وأن نعكف عليهِ بكل قوتنا عكفاً ناشئاً عن التحقق بأنهُ يكون علة سلامتنا. ولم نرَ الادارة في مجرى شوروي طويل المدة صحيح المباني لنبرز حكماً من جهة موافقة ذلك أو عدم موافقتهِ بل من جهة تفضيلهِ على الحالة الجارية في

(*) افتتاحية ج ١٦، مجلة الجنان ١٥ آب/اغسطس ١٨٧٩، ص ٤٨١ ـ ٤٨٣.

السلطنة. على أنهُ قد أمسى موكداً عند الجميع أن رجال الدولة قد أصبحوا على انقسام في الرأي من هذا القبيل فمنهم من رأى السلامة في نهج مناهج مدحت باشا من جهة نقل الادارة الى نظام شوروي تام ومنهم من لا يرى أن في ذلك شيئاً من الخير. أما خير الدين باشا فالظاهر أنهُ لم يرضَ بأن يستمر قابضاً على أعنة الصدارة ما لم ينل ما تقرر عنده أن اصلاح الشؤون متوقف عليهِ فإنهُ انقطع عن المجي الى الباب العالي منتظراً قبول لائحة تضمنت هذا الأمر الأساسي مع أمور أخرى متعلقة باكمال انقاذ المعاهدة البرلينية من جهة اليونان والمادة المتعلقة بالاصلاحات وبصرف المشاكل المصرية صرفاً مطابقاً لارادة الدولتين اللتين اتخذتا على نفسهما تدبير أمورها. وفي بادي الأمر تعلقت الآمال بفوزه بمطالبهِ بصدور الارادة السنية بقبول لائحتهِ بعد أحداث تغييرات طفيفة فيها لا تمس جوهرها ولا تحجف بما حسب أساساً لها. على أنهُ يقال خطأ أو صواباً أنهُ لدى طرحها لصدور الفتوى بها تبين أنها غير مطابقة لنصوص الشرع الشريف على خلاف رأيهِ فكان ذلك سبباً لتجديد استعفائهِ وصدور الارادة السنية بقبولهِ. وقد استدللنا بظواهر الأمور والأخبار التي نشرت في أوقاتها أن حضرة مولانا الأعظم كان يروم أن يصير الاستغناء عن قبول استعفائهِ ولم يرضَ بهِ إلا بعد أن فرغت جعبة وسائل الاتفاق. ونشأ عن ذلك ابطال الصدارة العظمى وإنشاءُ الوكالة الأولى اتباعاً لما جرى في أثر انفصال حضرة صاحب الأبهة والدولة مدحت باشا. فمن المهم بعد حدوث ما قد حدث أن نبحث عن تأثير هذا لانقلاب في الأمور الاصلاحية والقواعد الشوروية التي قد طالما سمعنا أنهُ لم يصر توقيف دولابها إلا بسبب الحروب وان أعظم دليل على أن الحكومة قد عولت على اجرائها وعزمت على جعلها أساساً للإدارة تعهدها بذلك في المعاهدة البرلينية ثم في العهدة الانكليزية التي نشأ عنها حلول الانكليز في جزيرة قبرص. ولا يخفى أن الأمة العثمانية قد أصبحت راغبة في نوال الاصلاح الفعلي في كل مكان خاصة بعد أن سمعت تكراراً بمنشورات الحكومة أن البلاد في

احتياج إلى الاصلاحات لانتظام الأحوال وترقي الثروة واستتباب الراحة العمومية واستقامة القضاء وأسباب الضبط. ولا ريب في أن الوسائل الاصلاحية المبنية على الأساسات العصرية التي نرى لها أثراً في ولايتنا وولايات أخرى إنما هي دليل على التصميم على الاصلاح وقد خرجت من القوة إلى الفعل خروجاً كافياً لمنع العدول عنها بدون الأضرار بالصوالح العامة. وقد نشرنا في هذا الجزء اعلاناً بعث بهِ غبطة بطريرك الأرمن منذ نحو أربعة أشهر إلى سفراء الدول المتعاهدة بشأن الاصلاحات التي يرى أن صالح أبناء ملتهِ إنما يكون بنوالها. وقد استغربنا فيهِ أمراً جعلهُ أساساً لتشكياتهِ وقاعدة للاصلاحات التي يطلبها وهو أن تأخر الأرمن وما يدعيهِ من سوء حالهم ناشيءٌ عن اجراءات المامورين المسلمين وعن مراعاة الشريعة المطهرة في احكامهم القضائية. اما نحن أهالي جنوبي السلطنة فالتماساتنا موسسة على قواعد اخرى أوسع دائرة وأكثر موافقة لروح العصر وهي القواعد التي وضعها حضرة مولانا السلطان الأعظم بقانونهِ الأساسي وجعل ابنا السلطنة عموماً امة عثمانية واحدة. فإننا لا نرى التاخر عندنا ناشئاً عن سيادة فيئة في البلاد على فيئَة اخرى ولا الاصلاح في مجرد اشتراك فيئة من أهالي البلاد مع فيئَة اخرى بالأحكام لكننا قد تيقنا أن احتياجنا إنما هو إلى سبعة أمور كبرى وهي. أولاً أن يكون للأهالي أجمعين مع اختلاف مذاهبهم اشتراك في الادارة محلياً وغير محلي انقاذاً لقاعدة وحدة الأمة العثمانية وتمكيناً لروابط الأخوة الوطنية في السلطنة قاطبة وصرف النظر في الأمور الادارية والقضائية وغيرها عن الدين وجعل المعول عليهِ عندنا عصبة جنسية وما هي إلا العصبة العثمانية. ثانياً اجرا القوانين التي قد صار وضعها وجعلت الأمور الدينية منفصلة كل الانفصال عن الادارة والقضاء وتعيين معاشات كافية لجميع المأمورين وأرباب القضاء والضبط ليتدرجوا في سلم العدل والانصاف ويصير الابتعاد عن الرشوة ومراعاة الخواطر. ثالثاً وضع أساسات لفصل القضاء عن الحكومة الاجرائية بالتدريج لقطع أصول الاستبداد الرائي

في مدة قصيرة. **رابعاً** ربط الأموال الأميرية كلها بحيث تمتنع المداخلة في أمور أهل الفلاحة وتمكين كل انسان من أن يعرف في بادي سنتهِ المال الذي يلتزم بدفعهِ عن نفسهِ وملكهِ. **خامساً** الانصباب على الانشاات النافعة كانشا الطرق الحديدية وغيرها والترع والمرافي. **سادساً** اتخاذ الوسائل اللازمة لجعل التعليم عاماً اجبارياً في سنين قليلة. **سابعاً** انقاذ القواعد الجديدة المتعلقة بصيانة الراحة واجرا الأحكام. فهذه هي أهم الأمور التي قد رأينا حكومتنا شارعة فيها وننتظر بفروغ صبر خروجها من القوة الى الفعل **عالمين أن اجرا أمور مهمة كهذه لا يتم في برهة قصيرة وأن نقل الأمة من حال الى حال دفعة واحدة يضر بها وإن كان الانتقال إلى الجهة الاصلاحية.** ولا فوز إلا بقطع أسباب الاختلافات الدينية والمباينات المذهبية وتيقن الأهالي أن ترويجهم لعناصر الشقاق والتعصب إنما هو ترويج لعلات تأخرهم وانمحاق ثروتهم وانسلاب راحتهم وأن المملكة التي أهاليها ليسوا بأخوة في الوطن هي مملكة منشقة على نفسها لا تكفي قوتها كلها لمنع مضار ذلك الشقاق. **وان الانسان لا يحسب لنفسهِ وطناً يستحق مدافعتهُ عنهُ ما لم يكن متمتعاً بهِ بما فطره الله على حب التمتع بهِ من الراحة والأمنية والعدل وترويج الأعمال والاشتراك في ادارتهِ. فهذه قواعد لاتهملها أمة وتفوز بالنجاح ولا بد من أن ينشا عن مراعاتها تقدم عظيم وراحة عمومية.**

جملة سياسية(*)

تنشرح الصدور بتدوين أخبار تشف عن التقدم والنجاح والانتظام والفلاح واليسر والراحة والرفاهية والاستراحة خاصة في الشرق المنكود الحظ الذي قد طوى أزماناً مستطيلة متمرغاً في حماة الذل والهوان يتقهقر مضيعاً آثار تمدنهِ القديم غير مقتبس من تمدن هذا العصر إلا ما يؤول إلى ازدياد الانحطاط وإكمال السقوط بضياع الأموال واقتباس أسباب المصاريف دون تعلم ما يؤول إلى ازدياد

(*) افتتاحية ج ١٨، مجلة الجنان ١٥ ايلول/سبتمبر ١٨٨٠، ص ٥٤٥، ٥٤٦.

المداخيل. وقد أمست الأمة الشرقية خاصة الأمة العربية فيها في اسوأ حال واردا مآل وَعمَّ الظلامُ فلكَها وغُمرت بالجهل ربوعُها ورجعت صفر اليدين بعد أن اضاعت طارفها وتليده ولولا هلال التقدم في الديار المصرية لحكمنا بأن هذا السقوط لا يعقبهُ نهوض وأنهُ ما يعقب هذه الحال غير الانقراض ومحو الأمم من دفتر الأمم السالكة السبل المؤدية إلى التمدن الحقيقي. وكان طلوع ذلك الهلال منذ سنين واستمر ينمو لكنهُ لم يكن عمومياً في تلك الأقطار لأن العناية صرفت في سبيل تحسين المدن والمشروعات النافعة التي غيرت حالة ذلك القطر ولكن نشات عنها احمال مالية تقيلة تركت الفلاح الذي هو روح جسد الأمة فيْ حالة الانحطاط وسلبت من البلاد قوتها المالية فما لبث أن خسف ذلك القمر أو لا نعجب من قمر يطرأُ عليهِ الخسوف. وإذا بحثن عن الأسباب العظيمة التي نشأ عنها ذلك الحادث العظيم يطول بن الشرح خاصة بعد أن اصبحت الأنفس تضجر من ذكر ضيق مضى حال كونها في فرج نقلها من حال إلى حال. ومما يفضي بالعجب العجاب ان اشتغال الحكومة المصرية في سنة بما وطد أركان ماليتها وازال علات عسرها ومكنها من الاستواء في مجلس الحكومات الصحيحة المالية الرفيعة الجانب لم يمنعها عن توجيه الخواطر والاشتغال بما يؤول إلى تنظيم أحوالها الداخلية تنظيماً يؤول الى احقاق الحقوق واذاعة المعارف وتقييد المأمورين وتعميم الانتفاع بالمشروعات النافعة ووضع أسس المساواة لرفع شأن الأمة عموماً وإبادة عناصر الظلم لجمع المال وابطال الاسراف ومراعاة الممكن وما تقتضيهِ أحوال هذا العصر والسياسة الصحيحة المباني التي تدفع الأضرار وترضي الدول حال كونها تعود بالنفع العميم على الغني والفقير. وقد نشرت قوانين ونظامات كثيرة حققت ما طالما بشرنا الناس بهِ وهو أن الجناب الخديوي توفيق المعظم قد فتح لبلادهِ أبواب عصر جديد لا يلبث أن ينهضها من سقوطها ويمكنها من الانخراط في سلك الأمم الغزيرة التمدن المتقنة الانتظام وأن حضرة صاحب الدولة رياض باشا وزيره الأول وناظر المالية وسائر الوزراء الفخام موجهون كل

قوتهم باذلون كل جدهم وجهدهم في سبيل انقاذ نواياهُ الحسنة وأوامره النافعة بالاستقامة الباهية والاخلاص الزاهر جاعلين مسند أعمالهم حب الوطن ونفع الأمة مع التنزه عن الأغراض الشخصية والغايات الذاتية مؤسسين الادارة على أسس صحيحة تنمو بها أشجار الثروة والراحة والرفاهية في ديار لا ينبغي أن يشاهد فيها فقير لغزارة ثروتها وسهولة تحصيل المحصولات فيها. وما أحلى الوقائع التي تفحم المعترضين وتقطع تشكيات المتشكين من عدم موافقة الحال لأغراضهم ومنافعهم الشخصية وما اقطع برهانها. فهاكم مصر رافلة في حلل السعادة والانتظام وقد سقط عن عاتقها حملها المالي المضر وبدل بحمل عادل منظم لا تلبث أن تخففهُ بمرور الزمان. فكان الله سبحانهُ وتعالى قد رضي عنها وكلل أعمالها المفيدة بإقبال سنتين لم ترَ مثلهُ منذ سنين كثيرة. فأنعم عليها بفيضان نيل وغزارة محصول سهل قيامها بأعباء ما تعهدت بالقيام بهِ ومكنها من أن تردفهُ بتدبيرات حقوقية وإدارية لا تلبث أن تجني ثمراتهِ. وما أصعب الانتقال من حال إلى حال فان الاصلاح لا يتم بسن القوانين ونشرها فإن الاجراء أصعب من الوضع غير أنهُ يصير التغلب على صعوباتهِ باخلاص النية والتمنطق بنطاق الاستقامة والتدرع بدرع حب الوطن والعكف على مراعاة الخير العام دون الخاص. وهذا هو شان الحضرة الخديوية وكل من عرفها يحكم دون تردد بأن من تحلى بصفاتها البديعة وسجاياها الحسنة وتقوى بأقدامها وصبرها وثباتها لا يصعب عليهِ الاتيان بالنتائج المفيدة التي شاهدناها في بلادها. وقد سررنا بلائحة اصلاح المحاكم الشرعية كما سررنا بلوائح اصلاح المالية وتيقنا أن اصلاح الادارة المصرية بعنايتها العالية وبجد وزيرها الأول واجتهاد سائر الوزراء يتم بسرعة كما تم اصلاح شؤونها المالية ولا ريب في أن الأمة العثمانية تنتفع بقدوة مصر وأن حب الاصلاح الذي رفع شانها واراحها لا يلبث أن ينتشر في ربوعنا لأن قابلية التقدم عندنا ليست بأقل مما هي عندها وقد فازت بالنجاح والانتظام مالياً وإدارياً فما من شيء يمنعنا عن الفوز بذلك وإن كنا نعجز أن نقوم

بتدبيرات مالية كالتي قامت بها. فقد بدا هلال الفلاح في الربوع المصرية ولا يلبث أن يصير بدراً فنسأل الله أن يجعلهُ يضيء في ديارنا أيضاً فلا نرى في جيرتنا ما لا نراه عندنا والمامول الحصول على ذلك بعد أن تنتهي مشاكلنا السياسية التي تشغل رجال دولتنا.

جملة سياسية(*)

بسطنا الكلام في الجزء السابق على تقدم بيروت وأوضحنا بالايجاز أسباب نموها السريع ونجاحها العظيم في المعارف والصناعة وانتظام الأحوال وبينا أن الكد والجد والأقدام والعكف على اقتباس الآداب العصرية وتعلم صناعات هذا الزمان مع موافقة المكان لذلك هي علة ادراك المدينة ما ادركت في برهة قصيرة والسبب في دوام اتساعها وثرائها. وقد مالت إلى سكناها أنفس كثيرين يرومون أن يقضوا أيامهم بالسكون والراحة وينتفعوا بهوائها الجيد ومائها الخفيف الطيب ويشرحوا صدورهم بمناظرها الجميلة فإنها مبنية على رواب بينها خفض قليل يجعل أكثر بيوتها مشرفة على ما تبتهج العينُ بمشاهدتهِ وينبسط الجسم بمعاينتهِ. ولولا خمسون أو ستون يوماً من فصل الصيف لكانت بالحقيقة فردوساً أرضياً صغيراً حوى من أسباب الانشراح الطبيعية كل ما يتيسر لحاضرة أن تحواهُ. ولا يعدل الذين يشكون صبارة الحر فيها فإنهُ ولو اشتد يكون من ٦ إلى عشر درجات أقل من حر الاسكندرية ومصر بل من حر غالب الجهات الجنوبية من اوربا التي تصيبها رياح صحراء أفريقية الحارة ولا من غبارها بعد ترطيب شوارعها الكبيرة ولا من بيوتها الحسنة التي يندر انقطاع الهواء فيها حتى في الصيف إلا في بعض الليل. ومن لا يتجول فيها لا يضايقهُ الحر ولكن الشكوى الكبرى من بلوى يبتلى بها الكبار بالأرق والسهاد والصغار بالألم والامراض الجلدية وما هي إلا البعوض المعروف بالناموس أو البرغش. ويشق على الناس أن يتعبوا ويحرموا الرقاد والراحة بما يتمنى التخلص منهُ بأعمال نافعة تتمتع بفوائدها

(*) افتتاحية ج ١٦، مجلة الجنان ١٥ آب/اغسطس ١٨٨٤، ص ٤٨١ ـ ٤٨٣.

حاضرات أصغر من بيروت وأبعد منها عن كمال المدنية وغاية الانتظام. وقد توهم البعض أن الأشجار والنباتات والحياض في الحدائق والبيوت هي التي تجلب جيوش البعوض وهذا الوهم ناشيءٌ عن ظاهر أمره فدمشق خالية منهُ مع أنها محاطة بالأشجار وبها ألوف من الحياض في البساتين والدور. والصحيح أن آبار الكنف أي المراحيض أو حفرها هي مكان تكاثره ولا سيما التي تصب فيها مياه المطابخ أو التي قعرها وجوانبها صخرية فيطفو الماءُ فيها فوق العذرة أي الغائط. فأناث البعوض المار ذكره تقصد ماءً عذباً ساكناً جداً وإن كان كدراً وتلقي بزورها فيهِ على جوانب المرحاض على شكل قارب صغير مؤلف من نحو مائة بزرة ثم تقضي نحبها فإذا اضطرب الماءُ بالهواء أو بمؤثر آخر ينقلب القارب فتهلك البزور غرقاً وإلا فتتفقس وتصير ديداناً صغيرة ترى كأنها معلقة بسطح الماء عمودياً إلى أسفل ثم تصير هذه الديدان بعوضاً ذكوراً وإناثاً. فالذكور تأتي الأشجار والنباتات تتغذى بها ولا تمتص دم البشر وأما الإناث فتبرز كأنها سباع البعوض الطائر مفتشة على الناس لامتصاص دمهم وسلب راحتهم ونفي الرقاد من أعينهم بصوتها ولسع أبرها ويعز دفعها بالستر المعروفة بالناموسيات فإنها دروع قلما تفيد في نزالها. فالعلاج الشافي لهذا الداء الذي يحرم الناس حلاوة الرقاد ولذة الراحة إنما هو حفر كظامات أي قنوات تجري فيها الأقذار تحت الأرض إلى البحر. ولما كانت المدينة في حدر كان يسهل جري الأقذار في المجاري على جوانب الطرق إلى البحر بلا ماء يدفعها أمامهُ خصوصاً إذ بلط قعرها. ولا يتم جعل جميع مجاري الطرق صالحة لذلك بأقل من ١٥ ألف ليرة وهذا قليل بالنسبة إلى الراحة التي تنشأ عنهُ والاصلاح الصحي العظيم من منع اجتماع الأقذار في الحفر المتصلة بالكنف أي المستراحات المعروفة ببيوت الماء فإن أمراضاً كثيرة عضالة تسري بالعدوى بواسطة ما ينبعث منها وثبت أن جرثومة الهواء الأصفر في الغائط فتحصل العدوى غالباً بهِ وعلى ذلك يحق للموتمنين على الصحة العمومية أن يتخذوا وسائل جبرية لمنع ذلك الضرر. وقد تعود أهل

بيروت بذل المال لتنظيم أحوالهم ووقاية أبدانهم من الأمراض فإذا سعى أولو الغيرة في قضاء هذه الحاجة يحصلون بسهولة على عرض من الأهالي يطلبون فيهِ هذا الاصلاح ويتعهدون بدفع المال اللازم للقيام بهِ بعد أن يوزع على أرباب الأملاك بالاسوة بحسب أهميتها أو يطلبون وضع خراج موقت على شيء كاللحم مدة ٣ أشهر كل سنة أو على ما هو أقل أهمية منهُ كالبطيخ أو العنب. وعادة أهل المدارك في المدن الجميلة افراغ الجهد وبذل المال تحسيناً لها لجذب الغرباء اليها بما يجدون فيها من نعيم العيش ورفاههِ ويلاقون من الراحة والسكون وسهولة المعيشة ورخائها. فإذا ضايقهم حر الصيف يلجأون إلى لبنان وصيفهُ شتاءً. وإذا تم لبيروت اكمال نظامها يتقاطر اليها كثيرون من المثرين لما تقدمت الاشارة اليهِ ومن أرباب الصناعة والمعارف وغيرهم. الا ترى أن همّ الباريسيين تسهيل أسباب المعاش والمبالغة في اكرام الغريب ومعاونتهِ على قضاء حاجاتهِ. وينشأ عن تكاثر السكان ازدياد الأجور فتغلو أثمان الأملاك وتروج الأعمال كلها فتنمو الثروة العمومية. الم ير البيروتيون نتائج تكاثر سكان مدينتهم في الزمان المتأخر. وتحتاج فضلاً عن ذلك إلى أربعة أمور لتتم راحة سكانها والغرباء الذين يأتونها. فالأمر الأول رخص المأكولات ولا سيما اللحم والأثمار والخضرة التي لا يعجز أهل التدبير عن تخليص سكانها من غلاء غير طبيعي وسنأتي على بيان ذلك إن شاءَ الله.والثاني تسهيل أسباب التجول والانتقال وتنظيمها براً وبحراً فيها وفي فرضتها. والثالث اعتناءُ أهلها ولا سيما الأدباء الاعيان منهم باكرام الغريب وتعزيزهِ وموالفتهِ وموانستهِ ومعاشرتهِ والامتناع عن مفاخرتهِ بطول الدعوة وعرضها فلا يجد نفسهُ فيها منقطعاً عن الناس كراهب في صومعتهِ. وفي المدن الكبيرة يبالغون في ذلك حتى لو سألت عظيماً باريسياً عن مكان يجعل نفسهُ دليلاً لك وأما المعاشرة في الحاضرات العظيمة فيستغني عنها بما يتوفر فيها من أسباب التنزه والفرجة للأديب والعالم والجاهل. والأمر الرابع منع خلط المأكولات وقد كثر ذلك في بيروت حتى يكاد يكون من المحال وجود سمن او عسل او صابون

او بن او زيت أمـركي او حليب او أرز او دبس وغير ذلك بدون ان يكون مخلوطاً بما لا يصلح للأكل ويمجهُ الذوق. وقد رتب القانون جزاءَ للذين يغشون الناس بذلك كما رتب قصاصاً للذين يخدعونهم بالوزن والكيل. وسنستأنف البحث عن هذه الأمور ان شاءَ الله في الجنان والجنة. وما القصد إلا بلوغ هذه المدينة درجة عالية من الانتظام فتمتاز بالمدينة كما امتازت بالمعارف والصناعة والجد والاقدام.

في الأخلاق والتربية والتهذيب والتعليم

التهذيب(*)

إن رقة الجانب وتهذيب الأخلاق هما من جملة أثمار التمدن فإذا خلا انسان منهما لا يستحق أن يسمَّى متمدناً. فكل أمة لم تصل إلى الدرجة اللازمة من سلم التمدن لا تناسبها العادات التي تستلزم وجودهُ وتكون نتيجةً لهُ لأنها تكون غير قادرة على اتقانها والقيام بحق مقتضياتها لأن العادات إذا كانت سابقة للجيل على مسافة بعيدة تكون مضرةً لهُ لا مفيدة فإذا فتحنا قاعات خطب مثلاً لقومٍ لا يعرفون العلوم ولا يدركون قوة اللغة والمعاني ولا يحسنون تقديم خطب مفيدة لا يكون من ذلك نفع كبير ونكون كأننا قد اتينا العبث من الأعمال. وكذلك إذا سلمنا للنساء بالدخول في الاجتماعات مع الرجال في بلاد لم تدرك من التمدن غير اطرافهِ فإن ذلك إنما يكون مجلبة للشر والخلاعة عوضاً عن ترقية أسباب التهذيب والعلوم وتثقيف العقل بحيث يصرن أهلاً للقيام بواجبات التربية التي هي أعظم شيءٍ يُبقي تأثيراتهِ في عقل الجيل عند بلوغهِ سن الرشاد. ومن لاحظ الهيئة الاجتماعية الحالية الجارية في الشرق يظهر لهُ ذلك بأجلى بيان على أننا لا نقول إن جميع اجتماعات الشرقيين هي هكذا ولا نقصد أن نبرهن وجوب فصل الجنسين في الاجتماع إلى أن يقوم في البلاد من بهم الأهلية لذلك بل مرادنا إنما هو تنبيه أهل العرض والتمدن وخاصة الفتيان والفتيات منهم إلى وجوب تجنب من ليسوا أهلاً للدخول في الاجتماعات المختلطة. وذلك لأنهم غير مزينين بحلى التهذيب والحشمة التي تقتضيها تلك الهيئة المخصوصة بل دابهم التعدي على أصول الاجتماع المتمدن والدوس على هامة الحشمة والتمدن الحقيقي باحاديثهم الفارغة وحركاتهم المخلة. ومن أمعن النظر في أحوالهم يرى أنهم قد توغلوا في ذلك وغاصوا في لجة الجهل والخلاعة حتى أن المهذبات من النساء

(*) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ٢٢

لا يكدن يتجاسرن على الدنو منهم مسفرات كنَّ أو مبرقعات لئلا يعرّضن أنفسهنَّ لاستماع ما ينفر من استماعهِ من كان متصفاً بالحشمة وسلامة النية. ولذلك نرى كثيرين من الرجال يتجنبون المسير برفقة من ينتسب اليهم من السيدات. ولا يخفى ان كل من ساعد في تنشيط هذه العادة المغايرة لأصول الهيئة الاجتماعية المتمدنة فربما جلب على نفسهِ كدراً وخجلاً مما يعرض من ذلك لمن ينتسب إليهِ من السيدات. ومن أغرب الأمور ان العادة في بعض المدن الشرقية قد سوَّغت للنساء المجاوبة على ما يسمعنهُ من كلام الجهال. ولكن المامول أن شبان جيل قد وضعوا أرجلهم على الدرجة الأولى من سلم التمدن يتفقون في مقاومة وإبطال عادات قبيحة كهذه تخلُّ بالناموس والحشمة والشرف ويتزينون بحلى الآداب حيثما اجتمعوا بذوات النقاب وبذلك يحسنون الهيئة الاجتماعية ويصونون أنفسهم ونساءَهم ما يثلم الصيت والناموس ويجلب الشر والقبيح من العوائد فيستامنون لى نسيباتهم من كذا أمور مغايرة داخل الديار وفي السبل والاجتماعات والأفراح والأكدار.

التنكيت(*)

إن تقدُّم الأمم لا يكون دفعةً واحدة بل شيئاً فشيئاً. أما الوسائط التي تأتي بهِ فهي كثيرة لا يسعنا المقام لذكرها اجمع. ومن أعظمها التنكيت المبنيُّ على أساسات صحيحة ومبادىءَ أدبية حباً بصالح الجمهور وطلباً لاتقان العمل. لا ما كان منهُ مبنياً على أسس الحسد والتعصب والبغضاء والعرض والجهل والكبرياء. فإن التنكيت الصادر عن تلك الأسباب الخبيثة من شأنهِ أن يوقف الناس عن العمل حذراً من أن يكونوا هدفاً لسهام المنكتين. ويحرم البلاد والعباد أشياء كثيرة مما يجلب لها نفعاً ونجاحاً. والذي حَملنا على التعرض لهذا الموضوع الذي كثيراً ما اشغل أفكار الأهلين وكدر صافي كاس أصحاب الأعمال هو ذلك العنصر الخبيث الذي دخل وطننا بعد غربتهِ ووطىءَ طنافسنا

(*) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ٧٥، ٧٦.

بحذائِهِ وداس حرمة الاعتدال ودخل مراسح الافراط وأخذ يرقص ويقول ما أقبح التنكيت. حال كونهِ قد كُتِب على لوح صدرهِ إن كل ما يصنعهُ غيرهُ وغير أخيهِ وابن دينهِ هو باطل. وأغرب من هذا طعننا بالمنكتين ونحن أشدُّ تنكيتاً منهم مع علمنا أن ذلك يفضي بالأمة إلى الشغب والانشقاق. وكلٌّ منا يعلم أن في كل أعمال البشر محلاً لتنكيت من الا يستحسن ذلك المحل من ذلك العمل كما أن فيها محلاً لاستحسان من يستحسنهُ. فكل من اتصف بالمروة ومحبة الوطن وخير العباد يسبل ذيل المعذرة على ما يحسبهُ من الهفوات التي لا بد من أن تكدر كل مصنوع ويرى أنهُ من أعظم واجباتهِ تنبيه صاحب العمل إلى ما لا يناسب ذوقهُ من عملهِ وذلك بطريقة حسنة وحاسيات خالصة فإذا فعل ذلك يتمكن من معرفة صلاحية ملحوظاتهِ التي ربما كان ما ساقهُ إليها عدم فهم مقصود صاحب العمل اما لتباين الذوق واما لعدم وقوفهِ على ظروف الحال ومقتضيات المقام واما لاختلاف الاعتقاد. لأنهُ ربما اعتقد أن زيداً رجل صالح حال كون صاحب العمل يعتقد أنهُ رجل شرير. وهذا هو السرُّ الذي يدور عليهِ دولاب العالم وهو الذي أوقع عقول العقلاء في حيرة وزاد قلوب الجهلاء غباوة. ولولاهُ لوقفت الحركة وأصبح شأن العالم كما امسى شان باريز لما اتى أهلها بألوف من مركباتهم إلى ساحة مرس وكسروها قائلين لا بدَّ من المساواة بين الجميع. لأنهُ إن أجمعت الأفكار على شيء واحد ينصبُّ عليهِ كل البشر فيضجون في شان وعمل واحد فتقف حركة الدنيا. هذا ولا بدَّ لكل من أتى عملاً مهما كان من يحسب قبل الشروع فيهِ بأنهُ سيكون غرضاً لرشق سهام الذين لا يقع منهم عملهُ موقعاً حسناً كما انهُ ينال الشكر والثناءَ من الذين يستحسنونهُ. وهو معلوم أن الطعن في الشيءِ بجملتهِ بسبب عدم استحسان بعضهِ هو ممَّا لا يصدر إلا عن قلب خبيث قد بلي بالحقد والغباوة أو بداءِ الحسد فأصبح كأعور لا يرى من الأشياء إلا جانباً واحداً وغباوتهُ وحسدهُ يجذبانهِ قسراً إلى الجانب القبيح. وهو من الأمور المسلمة أنهُ لا يوجد في هذا العالم خير محض كما أنهُ لا يوجد فيهِ شرٌّ محض كما قال الشاعر:

مـن ذا الذي مـا سـاءَ قـط
ومـن لهُ الحـسـنـى فـقـط

فإن العنب والتفاح والجبس والرمان وغيرها من الأثمار مع أنها لذيذة جداً لا تخلو من شيءٍ من القشور والبزور وغيرها يكدرها. وفي ذلك ما يظهر لكل ذي عقل سليم قبح التنكيت ووجوب الانكفاف عنهُ. ولا ريب أن الجميع يسلمون بصحة ذلك ولكن قليلون هم الذين يقدرون أن يعرفوا أنهم من المنكتين لأن من مفاعيل محبة التنكيت القبيحة أن يعمي بصيرة صاحبه عن معرفة نفسهِ فيظن أن تلك الخصلة القبيحة هي في غيره فيرتكب ما يتوهم أنهُ بريءٌ منهُ بالطعن في غيرهِ حال كون ذلك الغير أقلَّ تنكيتاً منهُ. ومن أغرب الأمور أن المنكت كثيراً ما ينكت على ما يكون قد ارتكبهُ بنفسهِ فكأنهُ يرى في نفسهِ مليحاً ما يراه في غيره قبيحاً. فبناءً على ذلك يجب أن نجعل حداً لملاحظاتنا وخاصةً عندما نرى أن ليس فينا أهلية للتنكيت وأن نعطي المنكَّت عليهِ فرصة للمحاماة عن نفسهِ. لئلا يقوم لهُ منتصرون ويصادمونا في ميدان الحرب فيحلَّ بنا العار والفشل.

أم الدنيا(*)

كيف لا نعلِّم أولادنا. كيف لا نعلمهم ونحن نصبو ان ننظم أنفسنا في سلك شعوب الأرض المتمدنة. ونحاول ادراك الأفق الذي يليق بالأمم الحرة المتقدمة. إن كل من سعى في طلب شيء يهتم أولاً في البحث عن الوسائل التي تقود إليهِ. وكل من أراد ادراك المعلول قبل معرفة العلة يسقط سهمهُ دون الغرض. فإذاً لا بد من البحث في ما من شأنهِ أن يسوقنا إلى المرغوب. فما هو. وأين هو. وما هي الوسيلة التي تذهب بنا إليهِ. إن كثيرين يظنون أن للمدرسين قوةً فعالة تغرس في التلميذ كل ما ياول إلى تثقيف العقل وتهذيبهِ. وتوهلهُ إلى الغوص في جميع بحار اشغال ومهام وهموم وإنهماكات هذا العالم. ولكن من حقق النظر في معرفة الذين حصَّلوا ما حصَّلوه من الأستاذ ويدَّعون لأنفسهم

(*) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ٣٢١ ـ ٣٢٣.

ما يدَّعون من أنهم قد حازوا قصبات السبق في ميادين المعرفة يرى أن ما اكتسبوهُ منها يكاد لا يؤهلهم للانتظام في طرف عقد أصحاب المعارف الحقيقية التي تحلي جيد انسان هذا العالم الذي بلغ من أفقها درجة قصوى. لأنهم وإن كانوا قادرين على ابراز ما ربما يبان ظاهرهُ ذا رونق وشان من معرفة بعض العلوم الابتدائية إلا أنهم يقصرون عن اظهار ما يبرهن أنهم أدركوا الدرَّ من قاع بحر الآداب. وعلى الخصوص لأنهُ يكاد لا يرى فيهم ما يرى في من قد تزيَّن بحلاها من الادراك والاستقامة والتهذيب والرزانة والتواضع والنشاط والتيقظ ولين العريكة وحرية الأفكار ومحبة الوطن والخير والسلام. فأين ما اسبغتهُ المدارس عليهم ولماذا لم تعطّرهم باطياب تلك الفضائل ومع ذلك نرى ان الوالدين لا يزالون يظنون انهم بارسالهم أولادهم الى المدارس وإقامتهم فيها البرهة المعينة يريحون أنفسهم من تلك المسئُولية الثقيلة التي وضعها عليهم باري العباد. ويتوهمون بانهم قد اكملوا تعليم اولادهم حال كونهم بعيدين عن ادراك سهى المعرفة الحقيقية. هذا ولا نحكم بذلك حكماً عمومياً ولا نحاول لوم المدارس التي وان يكن فيها محلٌّ عظيم للاصلاح هي في الغالب مناسبة لحالة البلاد. والمستلمون ادارتها هم ممن يركن اليهم. فاذاً أين هو التقصير وما هو السبب الذي يفتح أبواباً في حصون معرفتنا ويطرحنا في موخرة جيش أصحاب العلوم. لان المدرّس مهما كان حاذقاً وحكيماً لا يقدر أن يغيّر أطوار وخصال الولد الذي لم يكن لهُ من التربية الحسنة النصيب اللازم ولا ان يسوقهُ الى قمة الجبل الذي كان يقتضي أن يصعد اليها وهو خفيف الجسد وليّن العريكة. فإذاً لا بد من الدنوّ من المكان الذي ينشأُ فيهِ الولد ويقيم فيهِ مدة نعومة اظفارهِ لعلنا نرى فيهِ الأسباب التي طالما سعينا في طلبها واجتهدنا في ادراكها. ذلك هو العرين الذي فيهِ تتمكن من الشبل خصال أبويهِ التي نرى فيهِ تاثيراتها وهو على حافة القبر. وذلك هو الكناس الذي فيهِ تنمو في الظبي خصال وسجايا والديهِ كما ينمو جسمهُ بلبن أمهِ. وما الشبل إلَّا كالأسد وما ابن آوى الَّا كأبيهِ. كيف يقدر الوالدون أن يضربوا صفحاً عن تربية

اولادهم ويسمحون لحنوهم الأبوي أن يغلب واجباتهم حال كونهم عارفين ان سعادة أولادهم وشقاوتهم تتوقف عليها. ألا يعلمون أن مستقبل بنيهم يكون بحسب التربية. الا تعلم الوالدة أن عصيان ولدها أوامرها ربما يقودهُ وهو رجلٌ إلى عصيان حكومتهِ فتكون قد ساقتهُ بيدها إلى وهدة الهلاك. ألا تعلم أن غضَّ طرفها عن حدَّتهِ ربما تسوقهُ وهو رجلٌ الى ارتكاب القتل وهو لا يدري. فمن هو المسئُول ومن هو الذي قادهُ إلى الويل. فيا أيتها الوالدة لا تتبسمي لولدكِ وهو مذنبٌ لئَلا تزيديهِ ذنباً. لا تكذبي لئلا يتعلم الكذب. لا تقولي لهُ ها الغول لئلا يصير جباناً. لا تقولي لهُ لتكفي بكاءَهُ هذا طبيب يقطع الالسن لئلا يصير مبغضاً للأطباءِ والدواءِ. لا تخدعيهِ بقولك لا تتبعني ومتى رجعت اطعمك حلواً بدون قصد تتميم ذلك لئلا يتعلم الخداع ولا يصدقك متى صدقتِ. لا تتكلمي بحضرتهِ كلاماً سفيهاً ولا نميمة ولا تنَكيتاً ولا هزءًا لئَلا يقتدي بك. لا تصرفي أمامهُ ما لا يلزم لئلا يصير مسرفاً. لا تحتقري الديانة والواجبات الدينية لئَلا يحتقرها. لا تشتمي الفقير ليلا يكون مبغضاً للفقراءِ. لا تطعميهِ ما يضرُّه ليلا تثكليه. لأن الولد هو أشبه بالفرد يفعل كل ما يفعل غيرهُ. وكم من الوالدات يرسلن أولادهنَّ إلى المدرسة قبل بلوغهم السنَّ التي فيها يصيرون أهلاً للقيام بحق واجباتها ليتخلصنَ من أثقال تربيتهم. وربما لكي يكون لهنَّ فرصة للجـولان حيث يحبسون ساعات كثيرة وهم يتصفحون صفحات كتب لا يدركون معناها ويحرموا التمتع بما هو ضروريٌّ لنفع أجسادهم وقيامهم وتقوية عقولهم وتوسيع دائرتها. فهل يجوز ذلك هل يسوغ لنا أن نحرم الولد الذي هو كالنبات محتاج للحرّ والبرد والهواء والنور المنافع التي يقدر أن يجتنيها بالتنزه والجولان والركض واللعب والضحك والنظر إلى جمال وبهاء ما حولهُ من المكونات حال كوننا نعلم ان جسدهُ وعقلهُ يقصران عن القيام بحق واجبات الحيوة وعن الارتقاء الى ابراج المعرفة والادراك ما لم يكن لهُ ما يلزمه من ذلك. ونسجنهُ في ذلك المخدع الحرج حاجزين حريتهُ العقلية والجسدية ونحملهُ من الاثقال ما تندكُّ قوتهُ دونهُ. لا لا أيها الوالدون لأن في ذلك ويلاً وهواناً

على أولادكم لأنهُ علة أمراض الجسم وأساس ضعف العقل وأرى أن كثيرين قد ابتعدوا عن محجة الصواب وابتداوا من حيث يلزم أن ينتهوا كيف لا وكثيرون يرسلون أولادهم إلى المدرسة يوميةً كانت أو ثابتةً قبل أن يدركوا من السنّ سبع سنين. ألا يعلمون أن مدرسة الولد في أول الأمر انما هي مدرسة والديه المبنية على اساسات القدوة والحكمة. أو لا يعلمون أن رئيسة تلك المدرسة هي الوالدة حيث يجب أن يرضع الولد مع لبن الثديين محبة المعرفة والاشتياق الى ادراكها ومعرفة شدة لزومها والصبوّ الى ارتقاء درجات التقدم وحوز قصبات السبق في ميادين هذا العالم. وبذلك ينالون منهُ نصف المرغوب وربما أكثر. لأن هذا الميل يسوقهُ إلى الجدّ في طلب الرهينة ويحرّك في فؤادهِ الميل المغروس في احشاء كل ولد حاز نصيبهُ من التربية الحسنة لأنه لابدّ من استعمال الوسائط السهلة التي لاتثقل عليهِ لتمهيد سبل العلوم الصعبة. هل رأيتم معلماً يعلم البديع قبل القراءة. وهكذا لا بدَّ من غرس محبة العلم في قلبهِ قبل الابتداء بهِ وذلك بالاقناع والبراهين المحسوسة. وبعد أن نسير بهِ حول حضيض جبال العلوم الشامخة ونلتقط ما نصادف من الزهور التي تنبت هناك نأخذ بالصعود طالبين القمة التي يقصر عن ادراكها كل من لم يتمكن من تثبيت خطواتهِ في أساساتها. لأن التمتع بما صادفهُ في الحضيض يشدّد فيهِ الميل إلى الحصول على ما فوقهُ، فيجدُّ في طلبهِ من تلقاءِ نفسهِ غير مبالٍ بما يعرض دونهُ من المصاعب والأهوال لأن جاذبية كنوزهِ تجذبهُ اليها وتمكنهُ من نفسها. وعلى الخصوص لان ذا العقل الثاقب والعزم الثابت لا يفتر حتى يدرك مناهُ. ولا يخفى ان المعرفة ليست هي سبيل المعاش وارتقاءِ المناصب فقط بل هي أيضاً طريق غايات أكثر شرفاً وأشدَّ نفعاً ولذّة من تلك. فهي ينبوع السعادة واسُّ العظمة. وهي التي تقود الانسان الى جنان الحبور والسلام. فإنها تمكنهُ من النظر إلى حقائق الأمور وتجعلهُ يتجنب ما يقودهُ إلى قفار النزاع والصعوبات وانشغال البال. فيصبح ديدنهُ محبة كل الناس واكرامهم والسعي في ما يأتي لهم بالخير. وهذا بخلاف شان الخالي من المعرفة الذي يتعلق بالعرض من

الأمور ولا ينظر إلى المكوّنات إلا بحسب ظواهرها. فأين هذا من ذلك. أين العاقل المتأنيّ الرزين الرحب الصدر الشديد الادراك الحسن الطوية الفصيح اللسان المتبصر في عواقب الأمور العارف باحوال الدهر وأهلهِ من الجاهل العجول الفظّ الطباع ذي الحدَّة والشرّ. فاطلبوا المعرفة وامتطوا المطايا التي تسلك بنا اليها السبل المستقيمة جائزين من المدرسة الأبوية. وهذا لا يتمُّ إلا بتعليم الفتيات وغرس مبادي الصدق والحكمة وحبّ الفضيلة في صدورهنَّ. وما أصدق ما قالهُ صاحب الخطاب في تعليم النساءِ وهو أن التي تحرّك السرير بيمينها تحرّك الأرض بذراعها. ولا ريب أنهُ عند الحصول على المرغوب من هذا القبيل يصطلح أهل العصر ويجري لنا من ينبوع المهد أنهر من الذين يتحلَّون بمحبة الوطن والصدق وحرية الأفكار وحسن السجايا والاتحاد مع قطع النظر عن الجنس والمذهب. ويكونون مفطورين على غير فطرة الصغار منا الموجودين الآن في المدارس وخارجها. أولئك هم الذين يرتقون بأنفسهم وببلادهم إلى الأفق الذي نصبوا أن نرتقي الآن اليهِ حال كوننا غير قادرين على بلوغهِ بسبب عدم الأهلية. فبناءً على ذلك يجب على كلٍّ من أهالي البلاد ان يسعى في ذلك لينال المرغوب. فإن التي تمسي أماً لأولاد العصر تصبح روحاً للعصر. وهي سعادة الرجل وشقاوتهُ وأكليل فخرهِ وقيد ذلهِ. وعليها يتوقف مستقبل أولادهِ ومستقبلنا أجمعين. فإلينا عمَّا يطرحها في الجهل والتأخر وينبت فيها أشواك الحسد والنميمة والتعصب ودوننا ما يجعلها كالورد لوناً ورائحة. ومع أن الوسائط التي تأتي بالمرغوب هي أكثر مما كانت قبلاً لم تزل قاصرة عن المطلوب. ولذلك نرى أن التربية الحالية تكاد لا تكون دون التربية القديمة وتقدُّم الفتيات في الأمور الجوهرية يكاد يكون أقلَّ من تقدمهنَّ في ما مضى لأنهـنَّ منهمكات في العَرَض منها. فيا أبناءَ الوطن هذا هو الذي يردُّ طالع سعدكم إلى أفقهِ. انتبهوا واحذروا من الانهماك في ما يذهب فيهِ تعبكم سدًى واسرعوا إلى تعليم بناتكم التعاليم المفيدة لكي تدركوا ما تصبو إليهِ قلوبكم. وإلَّا فتهدم أمواج عواصف التربية الرديئّة كل ما تحاول تشييدهُ أيدٍ لم تتزيَّن بخضاب التربية الحسنة.

الاصلاح(*)

هل تقول لقد راهت طوالع سعد الأمة فلا تعود إلى أفقها وقد لُبِط بها فلا تنهض. لأن صدر الدهر قد وغر عليها وايادي الزمان قد تخللتها بذوابل النوائب وقد لشت فلا تقدر أن تاتي بما يمهجها بعد أن خدشت ناعم وجنتيها جيوش الرزايا والآفات وأمست بعد أن كانت تجر ذيول المجد والعز مرطومة في حماة الويل والهوان فمن يا ترى يقدر أن ينجيها. فهل تعتقد بدون أن تصادف من يرفع عنها شدائدها أو يمن عليها العصر بما يحق لها أن تاخذه منهُ بلا امتنان إن الحالة الحاضرة بئس الحالة ومتى قابلناها بما قد طوى عليهِ الدهر بناتهُ تجفل خوفاً وتتلشلش وتطلب الفرار ولكن قد سدت الحيوة علينا المذاهب فلا بد من الثبات وثباتنا إما ثبات يليق بنا وإما ثبات ليس هو غير مجلبة للخزي والعار. فما لنا غير بابين للدخول إلى صروح السعادة والراحة والمجد أو للنزول إلى سجون الشقاء والتعب والذل. فالباب الأول هو الاتحاد والباب الثاني هو الانشقاق والخيار لنا. يقول آباؤنا وأقاربنا ومن لنا بهم حوية من أهل الزمان الماضي أنهُ لا يحق لكم أن تلسنونا لأننا كنا في زمان كانت سياستهُ تمنعنا عن الاتحاد فإنها كانت تسوسنا بالانقسام أما أنتم فقد أصبحتم في زمان كشف عنهُ النور ستار الظلام فلا تعذرون لأنكم قادرون أن تقاوموا كل من رغب في انشقاقكم وكل من حاول شطر قوتكم وإن لم تستخدموا تلك القوة التي وهبكم اياها هذا العصر لا تستحقوا أن تدعوا أنفسكم من أهلهِ وأن ذمتكم الأجيال الآتية تقوم بحق ما يجب أن تقوم بحقهِ. ولذلك انتبهوا استيقظوا انهضوا هبوا وانبذوا عنكم كل ما لا يأتيكم بمنفعة ويضر بصوالحكم التي إنما هي صوالح عمومية. فإنكم البحيرة التي تصب فيها أنهار التمدن متى طلعت شموسة في الغرب وهذه البحيرة هي الحوض التي تلبس فيه تلك المياه الصفات التي توهلها لأن تتوغل في الشرق الأقصى. يا ايها الشرقيون ويا ايها العرب هذا هو لسان حال ابائنا

(*) مجلة الجنان ١٨٧١، ص ٢٤٩ - ٢٥١.

وأهل زمانهم. فهل أتت انذاراتهم بالمرغوب وهل رجعنا عن تلك الفيافي التي كنا نجهرها وحجاب الظلام يمنع عنا أشعة النور. هل حملنا صريحنا قبل أن تجهز عليهِ وعرة تلك الربوع الموحشة. او لم يسمح لنا الزمان بذلك او ماذا. الأساس الفاسد يفسد البناءَ الموسس عليهِ فالزمان أساس ونحن حجارة ذلك الأساس وأعمالنا هي البناءُ الموسس علينا. على أن الزمان هو ظرف واسع منهُ صخر ومنهُ رمل ومنهُ ماءٌ. فإن بنينا فيهِ على الصخر يكون الأساس صحيحاً وإلا ففاسد. ومما يحملنا على البناء على غير الصخر هو عدم الترتيب فاننا لم نرتب زماننا الذي هو الأساس لا نقدر أن نبني بناءً صحيحاً وان صحَّ البناءُ فذلك صدفة وهذا قليل. فإذاً الترتيب في معيشة الانسان هو من الأمور الأساسية. فإذا سألنا بعضنا بعضاً قائلين هل قيامنا وقعودنا واكلنا وشربنا ونومنا واستيقاظنا وصلاتنا وملاهينا وسياستنا وتجارتنا وصناعتنا وزراعتنا وبالجملة كل أعمالنا مرتبة فماذا يا ترى يكون الجواب. وهو معلوم أن الذي لا يرتب أعمالهُ يكاد لا يقدر أن يأتي بنتائج مرتبة. ولما كانت السياسة وإدارة التعليم والتجارة هي من الأمور الأولية التي تسوق الجمهور إما إلى الترتيب وإما إلى عدمهِ كان لا بد من تخصيصها في هذا البحث لأن السياسة هي النور الذي تسير وراءَهُ الأمة والتعليم هو العنان الذي يعود الأمة منذ نعومة أظفارها المسير المرتب أو الغير المرتب والتجارة هي قدوة يخالطها الرفيع والوضيع ولما كان المال عصاها كان الجمهور كثير الاقتداءِ بها هذا مع قطع النظر عن ادارة الدين وغيرها. وكنا نحب أن نذكر شيئاً مما يتعلق بها لأن أهميتها بالنظر إلى هذه الأمور العالمية تكاد تكون كاهمية السياسة وعلى الخصوص عندنا ولكن الاوفق حملها على السياسة أو تركها والخيار للمطالع. وبناءً على ذلك نقول. ان المقصود من الترتيب في السياسة هو مسيرها على قدم الانتظام الذي تقتضيهِ مهامُّها. لأنهُ إذا خامر تلك المهام الارتباك والاضطراب والتاخير والتقديم والتفضيل يقع بها الخلل فتمسي في ضرر مثلاً إذا كان الحاكم لا يفرز لأعمالهِ العمومية وقتاً ولاعمالهِ الخصوصية وقتاً آخر نقول انهُ وقع في ادارتهِ

خلل وكذلك اذا لم يعرف أن يضع حاجزاً بين كل عمل وعمل الى غير ذلك مما في نباهة المطالع غني عن ذكرهِ وهذا الخلل يسري منهُ الى من هم دونهُ ويدخل المجالس التي إذا لم تكن أوقات استماع الدعاوي فيها معينة بحسب اقامتها فيها يدخل الخلل وبالنتيجة الارتباك ومن ذلك ما يتعلق بالتحريرات وبدوائر المحاسبات فإنهُ لا بد لها من أوقات معينة لكل ما يدخلها بحيث تتمكن من القيام بحق أعمالها بدون أن يلزم أصحاب الصوالح أن يلاحقوها وهذا هو من نتائج الترتيب لأنهُ من الواجب ان الاعمال الحكمية تتمم من تلقاءِ نفسها في معملها وتخرج طالبة الوصول إلى من يهمهم وصولها اليهم وإذا حدث تاخر في ذلك يرمي الجمهور المقصر بتهمات ربما كان بريأً منها ومن نتائج الترتيب رفع التعجيز عن المامورين وصيانة الأوراق التي إذا لم تكن محصنة بهِ تضيع وتجلب العار على المضيع ومنها توفير الوقت لأن ارتباك عدم الترتيب يضيع نصف اوقات المامور والنتيجة التقصير في الأعمال لأنهُ إذا كانت مائدة الكاتب الفلاني مثلاً غير مرتبة وأوراق ماموريتهِ مخلوطة بعضها بالبعض الآخر يلتزم أن يصرف وقتاً للوصول إلى ورقة مطلوبة كان كافياً لاتمام العمل وهكذا يضيع نصف الوقت بالتفتيش وحاصل الكلام أن الترتيب هو الواسطة التي تنتظم بها الأعمال ويرتاح بها المامور واصحاب الدعاوي.

أما التعليم فهو المدرسة التي يتعود فيها الجيل منذ نعومة أظفاره المسير على قدم الترتيب أو ايقاع الخلل في الاعمال. فالمدارس المرتبة هي التي تحافظ كل المحافظة على أوقات أعمالها المختلفة ودروس تلاميذها وترتيبها إما عمومياً وإما خصوصياً. فالترتيب الخصوصي هو ما يتعلق بكل مدرسة على حدتها وأما العمومي فهو الترتيب الذي يربط كل مدارس البلاد بعضها ببعض ربطاً يحملها على السلوك في سبيل واحد في ما يتعلق بالتعليم والمشرب. ولا يلزم أن نقول إن الخلل قد خامر تعليمنا العمومي وأصبحت المدارس في البلاد كان كلاً منها في بلاد هي غير البلاد التي فيها المدرسة الأخرى. فإن كيفية التعليم تختلف جداً حتى أنهُ إذا انتقل التلميذ من مدرسة

مدرسة لا يضيع فقط أكثر ما كان تعلمهُ بل يلتزم أن يغير مشربهُ وعاداتهِ وكثيراً ما يخرج التلاميذ من المدارس وهم على غير هدًى في ما يتعلق بواجباتهم الوطنية وعاداتهم ومشاربهم وبناءً على ذلك يلزم أن يصير التبصر في هذا الأمر وربط المدارس الوطنية إذا لم نقل الأجنبية أيضاً بقوانين تجعلها جميعاً خلا الدينية كأنها فروع كثيرة لأصل واحد وهذا هو من خصوصيات السياسة التي إذا كانت منتبهة حق الانتباه إلى صوالحها وصوالح الأمة لا تترك أمراً كهذا الأمر على ما هو عليهِ.

اما التجارة فترتيبها يتعلق بالافراد إذا كانت السياسة قد اقامت بحق ترتيب ما يتعلق بها منها والا فبالحكومة والأفراد وكنا نحب أن نطيل الحديث في هذا الخصوص على أنهُ لما كان ذلك من الامور الواضحة وكان المقام ضيقاً راينا أنهُ لا بدَّ لنا من الاختصار ومن الترتيب التدقيق في المحافظة على الأوقات وتخصيص وقت لكل أمران كان شغلاً أو تنزهاً ولا يخفى أننا في تاخر مبين من هذا القبيل لاننا ليس فقط لا نحافظ على الوقت بل نلزم غيرنا ان لا يحافظ عليهِ فان ضربنا موعداً لا نقوم بوعدنا وان زرنا لا نزور في أوقات الزيارات ونطيلها ولو أردنا التكلم عن ذلك مفصلاً لاقتضى لنا زمان طويل ومقام واسع. فالى متى نتململ على فراش التاخر وإلى متى نترك هذه الأمور التي وإن يكن ظاهرها طفيفاً الا أن باطنها مهمًّا تكدر أعمالنا وتوخرها وتجلب علينا العار والخسران. هلموا إلى جنات الاصلاح فادخلوها واشربوا من عصير كرمها فإنهُ مشرب لزن فان اعاقتكم الغفلة ينفد فان أقوام الغرب قد لزنوا فإن لم نسرع نرجع بخفَّى حُنَين.

الزوج والزوجة(*)

ان التربية من أعظم أسباب وصول الأمم الى حالة حسنة ولا سيما التربية في العيال أي أن تكون العائلة مكاناً تظهر فيهِ فضائل الوالدين وحسن صفاتهما وسجاياهما ظهوراً يؤثر في الأولاد ويجعلهم يقتدون

(*) مجلة الجنان ١٨٧٥، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٤.

بهم. وما لم تكن النساء مهذبات لا يمكن أن يجد الرجل في عائلتهِ ما يجعلهُ ينظر اليها كاهم أماكن سلوانهِ وأفضل محل لصرف زمان الفراغ فيهِ بالتمتُّع بسعادة لا يدركها غير الذين قد ذاقوا لذتها. وما من شيءٍ يحمل الرجل على الابتعاد عن عائلتهِ قدر تقصيرات زوجتهِ وعدم اقتدارها على ان ترضيه بتصرفاتها وأعمالها. ورواج أسواق القهاوي بدخول المتزوجين اليها في أوقات الفراغ من الادلة الكبرى التي تدل على سوء حالة العيال وبالتالي الامة كلها. وما لم يجعل الرجل تصرفاتهِ في عائلتهِ علة لحظها وسرورها لا يقدر أن ينال فيها سعادة وراحة كالسعادة والراحة اللتين ينالهما الذين يعرفون أن يجعلوا تصرفاتهم تعود عليهم بالنفع. وكم من رجل لا يقطب وجههُ ويقلل كلامهُ ويظهر أثر للهموم فيهِ إلا عندما يدخل بيتهُ فعوضاً عن أن يفوز بلذة اجتماع عائلتهِ حولهُ بحيث تفوز بحسن تصرفهِ وكلامهِ وأعمالهِ بالمنافع المقرونة بالحظ تنفر اعضاؤُها عنهُ طالبة الابتعاد عن علة اكدار سريعة الامتداد لأنها في الراس فتوثر بالسرعة في الجسد وقد قرانا في جريدة جملة نفيسة بهذا الشأن والظاهر أنها من قلم امرأة أو منسوبة إلى زوجة وما يأتي هو ترجمتها.

لا ريب في أنهُ مقرر في عقول الناس بأننا لسنا بمخلوقات لا تستحق العناية والالتفات في هذا العالم. فإنهم يصرفون من الأوقات والأتعاب والأموال في سبيل اصلاح أحوالنا ما يحملنا على أن نقول إن لنا أهمية عظيمة في الدنيا. حتى أننا نكاد لا نرى جريدة سياسية أو علمية بدون أن نرى فيها كتابات متعلقة بالنساء فمنها ما هو نصيحة للزوجات أو مشورات للوالدات ومنها ما هو كلام للعرائس أو غير ذلك. ومع ذلك قلما نرى كتابات متعلقة بالرجال ولذلك من الموافق أن يقوم من الكتاب النصوحين من يعتني بامرهم ويقرر افادات لهم. ولنجعلن عنوان هذه الجملة نصيحة للرجال المتزوجين ومشورات للاباء.

ومن المعلوم أن الرجال يرشدوننا ويكلموننا ويكتبون لينفعونا وفي كل هذه الأحوال يحرضوننا على الخضوع والطاعة وعلى الرزانة والاعتصام بالصبر الجميل والتجلد عند حلول الأوجاع واحتمال كل

الأكدار والالام والنكايات بالشكر والثناء. وينتظرون منا أن نكون كموسى في الوداعة وكايوب في الصبر وكسليمان في الحكمة وكداود في الجودة وكشمشون في القوة (عليهم السلام) وأن نلاقي أزواجنا بالتبسم والبشاشة في كل حال وأن نخفف حملهُ بالاشتراك معهُ في حملهِ وأن نعزيهُ ونسليهُ في ساعات همومهِ وقلقهِ وكدرهِ ولو كانت احمالنا ثقيلة حتى أننا نكاد نقع تحتها ولو كانت أنفسنا قد بليت بالضجر من البلايا والأحزان والأتعاب. حتى أنهم في جميع الظروف لا يسمحون لنا بأن نستخدم على مسمع منهم كلمة لنصف بها كدرنا أو همنا. فهذه هي الواجبات التي يلقيها المتزوجون على زوجاتهم ويطلبون اليهن القيام بها.

وإذا دخل الزوج بيتهُ مكدراً مغتاظاً لا يسمح لامرأتهِ بأن تظهر أقل كدر أو غضب. مع أنهُ ربما كان يوبخ الخادم أو الخادمة بصوت مرتفع ويضرب ابنهُ لأقل ذنب أو يكدرهُ حتى يتصل إلى توبيخ زوجتهِ ومع ذلك قد تقرر في عقلهِ أن تكون وهو على تلك الحال مستكنة مسرورة وأن تصب ماءً على نيران غضبهِ المضطرمة لتخمدها. ولو كتب في عقد الزواج أن للمتزوجين حالة نعيم وحالة بوس لحصر كل ما يأول إلى ترقية أسباب الحالة الأولى في نفسهِ وترك لها الحالة الثانية.

وأكثر المتزوجين هم كموسيو فيرفاس وما ادراك ما هو ذلك الموسيو أنهُ من ألطف الرجال وأشدهم وداعة وأكثرهم تساهلاً في الأعمال فتراهُ يبش في أوجه الجميع حتى أنهُ يقال عنهُ إنهُ زهرة أهل المدينة. فما ألطفهُ وهو يسير إلى البيت بعد نهاية الأشغال فإنهُ ينحني عند مصادفة من يعرفهن من النساء بلطف ووقار. على أنهُ عندما يدنو من بيتهِ تتبدل بشاشة وجههِ وطلاقتهُ بالعبوسة وتلوح لوائح الكدر عليهِ ويأخذ لونهُ في أن يميل إلى السواد حتى أنك إذا رأيتهُ في وسط الطريق ثم رأيتهُ وهو يفتح باب منزلهِ تكاد تقول إنهُ رجل آخر. فيدخل قاعة الجلوس العمومية فيرى فيها امراتهُ وحولها أربعة أو خمسة أولاد أو أكثر وكل منهم يطلب شيئاً فترى أحدهم يعجزها بطلب خيط لأن خيط طيارتهِ قد انقطع وبنتها قد قطعت ما يربط بهِ المنسوج الذي يستر ثوبها لصيانتهِ من الأوساخ

ووجه ابنها الثاني مغطى بالحلوى الذي كان ياكلها ولا بد من تغسيلهِ وبنتها الثانية قد أذنبت ولا بد من أن تقاصها والطفلة في حضنها تبكي من ألم خروج أسنانها. فما أتعسها ومن يا ترى يقول إن اشغالها سهلة وتمكنها من أن تلين الصلب الراي وأن تنشط الجبان وترضي ذلك الزوج المتعنت وتدبر البيت وتصبر على تقصيرات الخدامين وجهلهم وخصامهم وذلك بدون أن يكون لها من يسعفها بحيث تجعل البيت كجنة لا يصادف الرجل فيهِ ما يزيد كدرهُ. ومن يا ترى لا يقول إنهُ من واجبات زوجها أن ينشطها ويلاطفها على أنهُ من أين تنال ذلك وزوجها ككثيرين من الرجال يجعلون بشاشتهم وطلاقة وجوههم للناس ويحفظون العبوسة لعيالهم.

هذا وإنني من النساء ولا اعترض على أمور كثيرة تطبع أو تسمع من النصائح التي تجعل النساء يقمن بواجباتهن فإنهُ من المفروض على الزوجة أن تحافظ على اللطف والحنو وأن تعتبر زوجها وتحترمهُ في كل حال ولكنني اطلب إلى الرجل النظر بعين الاعتبار الى اجتهاداتها المصروفة في سبيل حبهِ وخدمتهِ بحيث يلاطفها ويكون صبوراً في معاملتها. فإن في حيوة المرأة أكداراً صغيرة تورث الضجر أكثر من الهموم العظيمة. هذا وإنني اعترف بأن فتيات كثيرات من بنات هذا الزمان ليست بهن الأهلية للقيام بواجبات الزوجات والوالدات على أنهُ من واجبات الذي يلقي بنفسهِ إلى تهلكة بواسطة اختيار زوجة لا تليق بأن تكون زوجة وأماً فمن واجباتهِ أن يحتمل بالصبر الجميل نتائج جهلهِ وسرعة اجراءاتهِ فإنهُ اختارها قبل ان اختبرها حق الاختبار. فالزوج هو الذي يجعل امراتهُ في حالة موافقة لذوقهِ فإن اراها أنهُ يحب المنافع أكثر من التزيينات وأن جمال العقل والخلق عندهُ افضل من جمال الوجه تجتهد بأن ترضيه الى أن تصير موافقة لهُ.

التعليم(*)

يقال عملهُ العلم والصنعة تعليماً وعلّاماً جعلهُ يتعلمهما. والعلم هو

(*) مجلة الجنان ١٨٧٦، ص ٥٩٢ ـ ٦٠١.

الاعتقاد الجازم المطابق للواقع. أو هو حصول صورة الشيء في العقل. أو هو صفة راسخة تدرك بها الكليات والجزئيات. أو هو زوال الخفاءِ من المعلوم والجهل نقيضهُ. أو عبارة عن صفة مخصوصة بين العاقل والمعقول. أو تثقيف مبادي القوة في الانسان بحيث تتربى تربية تجعلها تفعل أفعالاً غير متناقضة في سبيل طاعة نواميس الادراك والآداب. وفيهِ الوسائط العامة التي تقود بها العناية الالهية الجنس البشري إلى غايتهِ النهائية. أو هو متضمن الظروف الكثيرة الطبيعية والمتعلقة بالهيئة الاجتماعية التي يسير الناس تحت سلطانها من المهد قاطعين سبيل الحيوة إلى أن يبلغوا القبر. ومنهُ المعارف والتربية والعناية التي يقوم الوالدون والمعلمون بها ليروضوا الصغار ويقدموهم جسدياً وعقلياً وتهذيبياً وأدبياً. وقد قال الحكيم افلاطون أن التعليم الجيد يقوم بإعطا الجسد والروح كل الكمال الذي يقدران على أن يقبلاهُ. وقد قال الحكيم روسو إنهُ جعل عناصر الفطرة والأميال الأصلية ضوابط دائمة الصفات والأعمال. وقد قال كَانْت أن في كل انسان تصورات إلهية وهي المثال الذي خلق على مثالهِ ومبادي انسان كامل وإنهُ من متعلقات التعليم ترويض تلك المبادي والاعتناءُ بتربيتها في أثناء نموها. فهذا التعليم الذي عرف جميع تلك التعريفات وما هي إلا بعض تحديداتهِ هو أساس تقدم الأمم ويكون تقدم الأمة بطيئاً إلى أن تدرك درجة معلومة بالتعليم أي بانتشار المعارف وبعد ادراكها تتقدم من تلقاءِ نفسها وتنمو فالشرق لم يبلغها بعد والمعارف فيهِ في تأخر ولا سيما في الداخلية فقد خسر المعارف التي قررت في القرون المتوسطة باجتهادات العرب ونشاطهم ولم يفز بجمع المعارف الجارية الموسسة عليها مع أنهُ من المقرر أن من فوائد التعليم بل من واجباتهِ أن يروّض عقل الفتى ويثقفهُ وأن يكون الواسطة التي ينفع بها أهل قرن حالي كل ما أدركهُ أهل قرن سابق بل أهل القرون السابقة لازدياد ما ورثوهُ واصلاحهِ. على أن الشرقيين قد اضاعوا الأمرين. ولا نرى في ربوعهم وهي ربوعنا الوسائط الكافية لرد احدهما فإنهُ ما من مدارس لتعليم علوم سلفائنا ومدارس معارف هذا العصر قاصرة جداً

والمقصود من انشاءِ أكثرها المناظرات الدينية أكثر مما هو نشر المعارف الصحيحة المجردة عن الدين ليس لاستغناء الانسان عنهُ ولكن لجعلهِ موضوعاً مقدساً منفصلاً عن الدنيويات في نفس المدارس كما في دوائر الأشغال. وما أحسن ما قالهُ رئيس جمهورية أمركا موخراً بهذا الشأن حتى أنهُ قد اشتغلت المدارس زماناً طويلاً بدون أن تأتي بفوائد صناعية ولا بتقدم أدبي ذي تأثير ظاهر في الهيئة الاجتماعية التي أمست متمسكة بالعرض من الأمور وبما يضر ويسلب الثروة ويوخر البلاد عوضاً عن التمسك بما هو جوهري مقدم. ومع ذلك يجعل لكل دائرةٍ من تلك الدوائر التعليمية أي المدارس أهمية في الشرق والغرب يتوهم من يطالع الكتابات المتعلقة بها بأن حيوة الشرق أو قسم مهم منهُ وموتهُ متوقفان على نجاح واحدة منها أو سقوطها حال كونها محصورة في جهة واحدة وأولاد الأهالي ذكوراً واناثاً يعيشون في الظلم والتأخر والشاهد أننا لا نرى في المدارس في البلاد عشرة من كل ماية ولد وجميع المدارس العالية تعطي من المعارف ما لا يكفي ولا يقدم مادياً وطريقها واحدة ومشاربها مختلفة فانها تحاول تعليم اللغات ورياضيات لا تزيد الكيس درهماً ليس لخلوها من النفع ولكن لافتقارها إلى فروع لا يعلمونها للتلاميذ كما يجري في بعض مدارس البنات التي تعلم شيئاً من الخياطة والتطريز فإن بنتاً تتعلم صنع ورقة الزهرة وأخرى صنع الزر وغيرها جمعهما حتى أنهُ ما من فتاة تتعلم صنع زهرة كاملة حال كونهِ من المعلوم أن حالة البلاد الغير المنتظمة لا تسمح بالتكاتف. فيتعلمون الهندسة ولا يعرفون أن يهندسوا أبسط الطرق ولا أن يقيسوا بعداً ويتعلمون الجبر وكل الحسابات بدون أن يعرفوا أن يمسكوا دفتراً تجارياً. فلا يأتي التعليم بأهم واجباتهِ وهي دوام تقدم الهيئة الاجتماعية بالحصول على ما للسابقين واضافة ما هو من نتاج الحاليين. ومن جرى اختلاف المشارب والمقاصد لا يغرس في عقول أهل الصبوة والفتوة قواعد وآراءٌ من مصلحة الهيئة الاجتماعية تقريرها وتأييدها. فإنهُ كيف يمكن تقرير صالح الهيئة الاجتماعية أي الأهالي حال كون لكل قسم منهم

مشرب بسبب اختلاف مشارب الذين ينشرون المعارف في البلاد وهذا خراب الأمة وما أصدق ما قالهُ الحكيم ارسطاطاليس أن من افعل وسائط حفظ الدولة تربية الرعايا تربية موافقة لروح الحكومة. فإن ذلك هو عبارة عن صنعهم في قالب نظامات البلاد الأساسية. انتهى. فهل نرى شيئاً من ذلك في المدارس الجارية عندنا حتى في الجرائد المنشورة وليس المقصود من كلام ارسطاطاليس ما يظهر عند قراءتهِ بدون التمعن فيهِ وما من شيء يوضحهُ أكثر من كلام هربارت فإنهُ قال إن واجبات المعلم إنما تقوم بواسطة تبليغ الجيل الجديد اختبارات الأمة وتفسير ذلك لهُ لأنهُ بوقوف الجيل الجديد على اختبارات سلفهِ يتعلم اسباب اضرارهِ ومنافعهِ ويجمع صناعتهُ ويرث تجارتهُ فإذا لم يتعلم ذلك يدخلهُ تعليم لا يناسب حالتهُ فيجعلهُ يضيع ما هو لهُ بحق الإرث بدون أن يتمكن مما هو غريب عنهُ وصالح الأمة والدولة واحد بالنظر إلى هذه الأمور لأنهُ في السياسة الصحيحة لا بد من سقوط الدولة التي لا تراعي صوالح رعاياها وكذلك لا تثبت دولة لا تهتم رعيتها بصالحها بل تستغنم سنوح كل فرصة لتعكيس أحوالها وتضييع مصالحها فهما واحد كما يظهر من كلام ارسطاطاليس ومن اللازم أن يقتبسوا روح الحكومة ففرض امكانية اقتباسهم لهُ بالتربية دليل على أن الصالح واحد لأنهُ بدون ذلك لا سبيل إلى صنع الصغار (أي تربيتهم) في قالب نظامات البلاد الأساسية. فأي تعليم يا ترى في الشرق يبلغنا اختبارات سلفائنا ويصنع صغارنا في قالب نظامات البلاد الأساسية فترى اختبارات اقصى البلدان وأبعدها عنا بالمشرب وبنظام الهيئة الاجتماعية تجري في دوائر التعليم وما يخصنا مطروح في زوايا الاهمال حتى أننا نفهم أركان نظام حكومات اوربا قبل أن نفهم أركان نظاماتنا إذا كان تاماً أو ناقصاً ونتعلم وصف اسواق باريز بل قاعات قصر التويلري فيها حال كوننا نجهل ولايات بأسرها من ولاياتنا ونتعلم تاريخ الانكليز والالمان حالَ كوننا نجهل أهم تواريخنا وتغرس فينا بحركات الذين يبلغوننا تلك المعارف وبالكتب التي يجعلونها في أيدينا وبالخطب التي يلقونها على مسامعنا وبالنظام الذي يجعلونهُ لمدارسهم

ما يغير مشربنا كل التغيير وإذا سلمنا بأن انتقالنا هو من الفاسد إلى الصحيح لا توافقنا كيفية الانتقال وقد انحصرت تلك الافادات في النصارى منا مع أنهم الأقلية والأكثرية المسلمون الذين لا يزالون مبتعدين عنها. فنرى أن هذه العناصر قد فتحت سبل التجارة للافرنج فدخلت مصنوعاتهم ومحصولاتهم لطرد أموالنا وقلب صناعتنا فلو استفدنا من مدارسهم مادياً بقدر ما استفادوا هم لجرت الموازنة على أنهم قد نشروا افاداتهم بين الأقلية وانتفعوا بحذقهم من الكل فالمسلمون يأخذون من اوربا أكثر المصنوعات الواردة لكثرتهم ولم ينتفعوا من مدارسهم وليس المقصود التنكيت على المدارس الموجودة في البلاد لأنها ربما كانت تقوم المقصود منها في بعض الأحوال لأننا نقرأ في اعلاناتهم بأن مقاصد أكثرها الأساسية هي دينية وانتشارها هنا انما هو للمناظرة الجارية بين أهل الدين أنفسهم في نشر قواعد دينية ترغب فيئة أخرى في مضادتها فانهُ من الموكد أن تلك المدارس قد جاءت بفوائد كثيرة ولئن كانت قد ادخلت البلاد مشارب مختلفة لاختلاف مشاربها وقد حركت الغيرة في قلوب الأهالي ونوَّرت العقول وأدخلت معارف كثيرة ذات نفع جزيل وملاحظاتنا محصورة في اذاعتها مشارب مختلفة وعدم اعتنائها بما يوصل بالمتعلمين إلى الاجراء في الأعمال لأن أساس انشائها إنما هو للتاثير في العقول دينياً بتربية الصغار ونكتفي بالقول إن كل أمة منهم تعتني بتعليم لغتها في مدارسها فالإنكليز يعلمون الانكليزية والألمان الألمانية والفرنسوِيون الفرنسوية وهلم جراً وهذا جارٍ في القدس وبيروت والشام وغيرها ولم تسبق المدارس التجارة إلى ربوعنا فإن التجارة هي الجيش الفاتح أو المودي إلى الفتح عند الافرنج في هذا العصر. وقد كتبنا عن هذا الموضوع مرات كثيرة وابنًا ما نستغني بهِ عن الاعادة ولم نقصد بذلك غير تنبيه أفكار الأهالي والأجانب إلى النقائص الكثيرة المخامرة أسباب التعليم في الشرق بحيث يبادرون إلى انشاء ما نحن في احتياج إليهِ إذا كانوا راغبين في نفع الأهالي نفعاً فعلياً يمكّن رباطات الحب والالفة بينهم ويبعد أسباب التعصب والشقاق ويسهّل وسائط

التكاثف في الأعمال ويجعل أساس معارفنا اختبارات سلفائنا واحتياجات بلادنا صناعياً وتجارياً وزراعياً لبدل سقوطنا المادي الجاري بالنهوض لأن التعليم يتعلق بهِ نظام الهيئة الاجتماعية وهو تلمذة الذين يخلفون الأمة الراشدة في نظام الأمة المتمدنة. ولا سبيل إلى جعل المعارف والحذق في درجة واحدة عامَّة فإنها تختلف باختلاف حالات الرجال ودرجاتهم كسائر أشغال البشر. ولولا تأسيسها لمقاصد دينية لأتت بفوائد جمَّة وتمكن الذين ليسوا بنصارى من مناولة الافادات منها وما دامت أكثر المدارس في البلاد في أيدي الافرنج لا سبيل الى الاتيان بالاصلاح المقصود مهما جرى ما لم ينتبه مديروها أنفسهم إلى لزوم تربية التلاميذ تربيةً تجعلهم أصحاب مشرب واحد لأن مداخلات الحكومة لا تتناول التعليم الشفاهي ولا التربية هذا فضلاً عن صعوبات الوصول الى اجراء ذلك في الحالة الجارية وللاصلاح طريقتان احداهما مبادرةالمدارس من تلقاءِ نفسها الى جعل اساس تربية واحدة والثاني فتح الحكومة مدارس متقنة تجذب التلاميذ اليها والأول أسهل وبالنظر إلى أهمية التعليم في الأمم في تقرير جملة تاريخية متعلقة بهِ فائدة كبرى فنقول.

إن التعليم والتربية في القرون المتوغلة في القدم كانت في أيدي خدمة الدين دون غيرهم فإنهم قد سبقوا جميع الناس إلى انشاء المدارس وإلى الحكمة وإلى المناصب السياسية والقضائية وإلى صناعة الطب وعلم الفلك والهندسة. ولم تفصل المعارف عن الدين ولا بات التعليم مهنة مخصوصة إلا عند الأمم التي بلغت درجة قصوى من التقدم والمعارف. حتى أن الأمم المتمدنة والمتقدمة قد رأت مدارسها خاضعة بعض الخضوع أو كلهُ لعناية أو سيادة خدمة الدين لأن كل الأمم قد اجمعت على أن الدين من أهم مصالح الهيئة الاجتماعية.

وقد فاز الصينيون بالوصول إلى درجة عالية من التمدن والمعارف منذ زمان متوغل في القدم غير انه أقرب الينا مما يدَّعون. ومن أشهر حكمائهم كونفيشوس الذي وُلد سنة ٥٥١ قبل الميلاد وهو مرجع تمدنهم وآدابهم وليس واضعها ولذلك قد قال بوضوح بأنهُ لم يكتب

شيئاً لم يكن معروفاً ومقرراً في نظامات بلادهِ وعلومها. ولا تزال القواعد التي وضعها جارية عند الصينيين وكذلك القواعد التي وضعها منسيوس بعد كونفيشوس بنحو قرنين. فالتعليم عندهم يبتدي في العائلة فإن الصبيان فيها يبتدئون بتعلم الاعداد إلى أن يصيروا يعرفون أن يعدوا إلى عشرة آلاف وأن يحترموا والديهم وأجدادهم باحتفال مخصوص. وعندما يبلغون الخمس أو الست سنوات من العمر يرسلون إلى المدارس فعند دخولها يقوم التلميذ باحترام كونفيشوس قبل كل شيء ثم يقوم باحترام معلمهِ. وبعد أن يتعلم درساً واحداً بالنحو والصرف أو التاريخ أو الحكمة أو الرياضيات أو الفلك بتناول طعام الصباح. وبعد ذلك يصرف النهار في النسخ والدرس غيباً وتسميع جمل مختارة من كتب الفصاحة. وقبل الرجوع إلى البيت مساءً يسمع بعض التلاميذ بعض حوادث من التاريخ القديم فيفسرها المعلم. وبعضهم يجتمعون ويرتلون ترنيمة قديمة وأحياناً يرقصون في اثناءِ ترتيلها. ويخرجون من المدرسة بتقديم الاحترام لكونفيشوس ولمعلمهم وعند وصولهم إلى بيوتهم يحيون باعتبار الأرواح المحلية وأجدادهم ووالديهم وأقاربهم. أما أولاد الأمراءِ فيتعلمون علماً يزيد عن ذلك في مدارس عالية تحت مناظرة الحكومة وفي أكثر المدن الكبيرة مدرسة عالية وانجحها المدرسة الملكية في بكين عاصمة الصين ولا يدخل طالب مدرسة بكين المذكورة إلا بعد أن يفحص فحصاً مدققاً والذين يتممون دروسهم فيها ينالون الوظائف السياسية حال خروجهم منها. والمظنون أن الصين قد سبقت كل دول الدنيا خلا بروسيا في جعل التقدم في الوظائف نتيجة النجاح في العلم. أما تعليم البنات فيهمل عندهم غير أن بنات الأعيان يتعلمون القراءة والكتابة والترتيل ومنهن من يتعلم نظم الأشعار.

هذا وقد قال أكثر المؤرخين أن الهنود سبقوا كل الأمم القديمة في سبل المعارف في الشرق. على أن المعارف الهندية كانت في الغالب محصورة بخدمة الدين عندهم وهم البرهميون ولا تزال كذلك. ولا يسمح لهم الإله بتفسير كتب الفيداس وهي كتبهم الدينية للصنفين من

الأهالي التابعين لصنف خدمة الدين. أما الصنف الرابع وهو أهل الأشغال الجسدية فهو أكثر الأصناف عدداً غير أنهُ لا يسمح لهُ بالتعلم حتى أنهُ لا يسمح لأهلهِ باستماع قراءة الكتب المقدسة. وفي الحال تقام المدارس الابتدائية خارج المنازل أي في ظل الأشجار وابتدا التعليم اعتيادياً عندهم يكون بتعليم الكتابة فيجلس الصبيان عراة على الأرض ويكتبون على الرمل أو أوراق الأشجار جملاً أدبية منقولة عن كتابات القدماء ويتعلموها غيباً. أما كتب الفيداس وهي الدينية فتعلم وحدها في مدارس البرهميين أي خدمة الدين وهي تحتوي على علومهم الدينية العالية والرياضيات والفلك والحكمة ويجتهد الأساتيذ الهنود في تعليم تلاميذهم قواعد السلوك وفصاحة الحديث والحركات المتعلقة بهِ وأموراً كثيرة متعلقة باصطلاحات المعشر. ويهملون كل الاهمال تعليم النسا فإن نواميس ماتوا تنسب إليهن الحسد والخداع حتى أنهُ قد تقرر في عقولهم أنهُ عار عظيم على المرأة بأن تعرف القراءة فانحصر تعلم القراءة والغنا والرقص في نساء البلاط. وقد أنشأت الحكومة الانكليزية في الهند وكذلك الأهالي عدة مدارس هناك وانقسم أكثرها إلى دائرتين احداهما لتعليم اللغة الانكليزية مع متعلقاتها وعلومها والأخرى لتعليم اللغة الهندية والعربية والفارسية مع متعلقاتها.

أما المصريون القدماء فنبغوا في العلوم حتى أن اليونان نقلوا عنهم مبادي علومهم وحكمتهم. والاسرائيليون تعلموا منها المعارف التي مكنتهم من أن يمسحوا الأراضي ويقيسوها ويقسموها. وكانت العلوم والسلطان السياسي في الغالب في أيدي خدمة الدين وكانت أكثر الأراضي في أيديهم وانحصرت المعارف العمومية في صنف خدمة الدين وصنف الجنود وأخذت في أن تصير عمومية بعد دخول الدولة الفارسية واليونانية إلى بلادهم. وكان كثيرون من الأهالي يتعلمون الصنائع بدون أن يتعلموا الرياضيات والآداب وعلمُ الدين إلا ما قل منهم. وكان لخدمة الدين منهم درس سري وكانت أعظم مدارسهم في تيبة وممفس وهليوبلس. فما نقلهُ اليونان عنهم وما نقرأهُ في آثارهم يبين أنهم كانوا يعرفون الهندسة والفلك والقياسات والسبر في زمان

متوغل في القدم ومنذ أيام تالز كان أحكم اليونان يذهب إلى مصر لاكمال درسهِ. ويقال إن فيثاغورس تعلم هناك علوما كثيرة وإنهُ حفظ كل قوانين كهنتهم ليحملهم على أن يعلموهُ آراءهم وعلومهم ويقال أيضاً إن افلاطون كان من تلاميذهم وقد قال إنهُ لما سألهم سولون عن أمور قديمة رأى أنهُ لم يكن يعرف لا هو ولا أحد اليونان شيئاً عن الأزمان القديمة جداً وكانت بنات الكهنة يتعلمن العلوم غير أن العامة كانت تعلم أولادها حرفها وأعمالها إلا في النادر وبعد ذلك الزمان أمسى قسم من مصر ضمن دائرة التمدن اليوناني واشتهرت مدارس الاسكندرية وغيرها من مدارس مدن الأرياف كاشتهار تيبة وغيرها من المدن القديمة وكانت مكتبتا الاسكندرية من أوضح الأدلة على شأن المعارف في تلك الديار.

أما التعليم عند الفرس القدماء فكان من متعلقات المجوس عندهم وهم صنف من بلاد مادي وكانوا حكما المملكة الفارسية وقضاتها ومفسري أحلامها ومنجميها وأصحاب أعلى مناصبها. فسادوا على الفارسيين قروناً بقوة عقولهم الناتجة عن معارفهم وسلم اليهم أمر المحافظة على حكم زورواستار ونواميسهِ. ولم يكن عندهم نظام مخصوص لنشر المعارف بين الأمة على أنهم علموا العامة شيئاً قليلاً والمجوس العلوم والأمور الدينية وفنون الحرب والسياسة لابطال الحرب. ولم يكونوا يعتبرون ذنوب الأولاد خطايا إلا بعد ادراك سن ٨ سنوات وكانوا يعلمونهم الصلوة عند ذلك وكانت العلوم التي تعلم لغير المجوس قليلة جداً لا تستحق الذكر على أن التربية الأدبية كانت مصروفة في سبيل تعليم الصدق والعدل أما في التمرينات الجسدية فقاموا سائر الأمم الشرقية. فإن أساسها عندهم كان الجمع بين طعام قليل وتمرينات جسدية كثيرة. وقد قال المورخ هيرودوتوس المشهور أنهم اتعبوا أنفسهم في تعليم أولادهم من سن ٥ سنوات إلى العشرين ثلثة أمور دون غيرها وهي ركوب الخيل والرماية والصدق. وكانت الأمة بجملتها تنقسم إلى أربعة أقسام بحسب الأسنان وتجتمع في أوقات معينة في أربع قاعات أو ابنية بعيدة عن الأسواق. وكانوا يعلمون

الفتيان إلى سن ١٧ سنة العدل أو القيام بهِ والقيام بواجباتهم المتعلقة بمعبوداتهم وبلادهم ووالديهم وأقاربهم. وكانوا ينزلون في منازلهم وكانوا يتناولون طعامهم البسيط تحت مناظرة معلميهم ويتعلمون استعمال القوس والحراب ويحرضون على الاقتداء بالذين اشتهروا بالفضائل. وكانوا يصرفون لياليهم في القاعات العمومية من سن ١٧ إلى ٢٧ سنة لصيانة آدابهم ويتعلمون فنون الحرب ويتعودون النهوض باكراً من النوم واحتمال الحر والبرد وتعب المشي والركض والصيد. وفي ٢٥ سنة بعد سن ٢٧ كانوا يعدون من البالغين ويقومون بالقضاء رسمياً وحبياً وكانت أبواب المدارس مفتوحة لجميع الأمة غير أن تحصيل العلوم كان منحصراً في الموسرين لأن الفقرا لم يكونوا يقدرون أن يستغنوا عن الانتفاع بشغل أولادهم ولا أن يقوموا بدفع مصاريفهم.

أما نظام الامة العبرانية وتاسيس سياستها وحكمتها على الدين فاتيا بتثقيف عقلي لم يشاهد مثلهُ عند شعوب أخرى شرقية وتشاهد آثار ذلك في معارفها. ولم يذكر في التوراة غير مدارس الأنبيا غير أن الوالدين كانوا في الغالب يعلمون أولادهم ناموس موسى عليهِ السلام وتاريخ الأمة. وطاعة الأولاد لوالديهم من الأوامر الألهية التي أعيدت مرات كثيرة في التوراة وكانوا يعلمون البنات الترتيل وضرب الآلات الموسيقية والرقص في الاحتفالات الدينية. وقد نبغت فيهم شاعرات وعالمات. وبعد السبي انشا الحاخامية مدارس كان التلاميذ يرسلون إليها من سن ٥ إلى ٦. وكانوا يعلمونهم التوراة والتفسير والتقليدات غيباً وكان التعليم شفاهي بدون أن يكتب التلاميذ شيئاً حتى أن بعض كتبهم كانت تنتقل من معلم إلى تلميذ سنين قبل أن تكتب. ومن أشهر مدارس الحاخامية أو المعلمين مدرسة غمالائيل التي درس فيها بولس الرسول ومدارس طبريا واسكندرية وبابل والقدس. حتى انهُ في أكثر القرون المتوسطة كان من الاسرائيليين فلكيون وأطباء وشعراء وحكماء منتشرين في أسبانيا وايطاليا وفرنسا وفي مدن افريقية الشمالية وآسيا الغربية. وكانت أعظم مدارسهم نابغة في مصر وفاس والأندلس وغيرها.

وقد عرف من الكتب المدرسية اليونانية الكثيرة أن الصبيان اليونان كانوا يخرجون من دائرة عناية أمهاتهم عند ادراك سن الست سنوات فإنهن كن يعلمنهم في البيت مع البنات. وكانوا يأتونهم قبل ذلك السن بأراجيح وأسرة وتماثيل ومركبات وصور أبطال وصور مواقع دينية ليجعلوها أسباباً للهو وللافادة. وكانت أمهاتهم تمنعنهم عن البكا أو فعل ما لا يناسب بتخويفهم بالغيلان وبالقصاص بالضرب بالحذا أو بشيءٍ اخر. وكانت المراضع والخادمات يلهين الأولاد بأخبار عن أعمال معبوداتهم من الرتبة الأولى والثانية وقد كتب افلاطون وغيرهُ من الحكما بنوع مخصوص عن تأثيرات هذه الأخبار وأشاروا على الأهالي بأن لا يسمحوا للخادمات والمراضع بأن يقصصن غير أخبار صحيحة مفيدة. وعند بلوغ الصبيان سن الثماني سنوات كانوا يسلمون إلى معتنٍ حارس أو خادم يذهب معهم إلى المدرسة ويحفظهم على الدوام تحتً أنظارهِ وكانوا غالباً من العبيد غير أنهم انتخبوا من أحسنهم ومن العارفين باصول المعشر. أما المدارس فكانت تحت مناظرة الحكومة بدون أن تنال منها اسعافات مالية وكان دخل المعلمين من المرتب على التلاميذ وكان يبتدا بالتعليم باكراً في الصباح وكان ذا ثلثة فروع وهي أولاً القراءة والكتابة ومعهما الحساب. ثانياً الموسيقى ومعها الفصاحة والتصوير. ثالثاً التمرينات الجسدية. أما افلاطون فاشار بأن يعلم الحساب كأنهُ من أسباب اللهو وأن تغرس الأفكار الحسابية الابتدائية في ذهن الولد باستعمال التفاح وما أشبه وبعد أن يتعلم التلميذ القراءة كانوا يعلمونه شيئاً من دواوين الشعراء ويجعلونهُ يحفظ غيباً قصائد طويلة منتخبة وكان مقرراً عندهم أن منظومات اوميروس محتوية بالوصف والتمثيل كل ما من شانهِ تحريك الحمية الوطنية وغرس الفضائل. أما احب الالات الموسيقية عندهم فكان القيثار ولا سيما في أثينا. وكان تعليم ضربهِ من التعليم العام. وكذلك كانوا قد عولوا على الآلة التي تسمى الان بالفلوت غير أنهم أبطلوا استعمالها لأن ارسطاطاليس قال لهم إنها تغير هيئة الوجه بواسطة النفخ فيها. وكان الفتيان يداومون الحضور إلى المدارس إلى أن يدركوا سن ١٦ أو ١٨

سنة. وبعد ذلك كان الذين يرغبون في الانتظام في سلك العلما ينتظمون في تلمذة الفلاسفة وأهل البلاغة والحكما. وكانوا يكثرون من التمرينات الجسدية بعد ادراك السن المذكورة لتقوية اعضاء الجسد حال كون كثيرين من الحكما والعلما كانوا يجلسون في أماكن التمرينات المذكورة ويجتمع اليهم جمهور غفير ليسمع أحاديثهم وتعاليمهم وانذاراتهم أما البنات فلم يفزن بالحصول على أسباب التعليم العالي ولا على الابتداءي. فإن كل معارفهن كانت تصدر من أمهاتهن ومراضعهن وكن يمنعن عن مخالطة الرجال والتكلم معهم قبل الزواج. ولذلك لم تشتهر امرأة بالمعارف عندهم والنادر كالعدم. أما التعليم اليوناني فرقيت اسبابهُ في بادي الأمر بواسطة نظامات ليكركوس وسولون المتعلقة بهِ وبواسطة المدرسة التي أنشأها فيثاغوروس. ومركز التعليم في اسبارطة اختصاص الولد بالأمة وليس بوالديهِ وقد قرر ذلك في عقول الناس ليكاركوس الحكيم المذكور. وفي تقريراتهِ التي قبلها الاسبارطيون وعولوا عليها أن الصالح الأول إنما هو للأمة عموماً وكل صالح خاص يضحى لقيامهِ. ولذلك كان كل ولد اسبارتي خلا ولي عهد الملك ملزوماً بالخضوع لنظام تعليمي وعسكري صارم جداً على أنهمن كانوا يعلمونهم التمرينات الجسدية باتقان عظيم مفضلينها على التثقيف العقلي. فلم يعلموهم القراءة ولكنهم علموهم اتقان التكلم اتقاناً لا يزال يضرب بهِ المثل. وكانوا يعلمونهم الصدق والتجلد وضبط انفسهم وكان ذلك من نتائج التربية الأدبية عندهم أما النساء الأسبارطيات فتعلمن ما يكاد يكون كتعلم الرجال منهم حتى أن الجنسين كثيراً ما كانا يتناظران في التمرينات الجسدية في وقت واحد. وهكذا أصبحت الأمة الأسبارطية أمة باسلة مقتدرة على الحرب نشيطة بعيدة عن الحاسيات الناتجة عن اللطف خالية من معرفة الفنون المثقفة للعقول غير جامعة للمعارف والعلوم.

أما أثينا وما يليها من بلاد اليونان فكانت مملكة كإسبارطة فسلكت بحسب نصوص ناموس سولون فأصبحت مركزاً للمعارف والعلوم والفصاحة والتهذيب الموسس على قواعد الحرية. وكانوا يجعلون

التعليم كالدين من متعلقات النظام السياسي غير أن الدولة كانت تسلم تعليم الأولاد إلى والديهم واضعة بعض قواعد أهمها متعلقة بالأدبيات. ومنها أنهُ من واجبات كل أب أن يعلم ابنهُ السباحة وإلا فيقاص قصاصاً شديداً وكذلك إذا اهمل تعليمهُ القراءة وأن يعلمهُ عملاً لتحصيل معاشهِ وإذا أهمل ذلك لا يكون الابن ملزوماً بأن يسعف الأب في شيخوختهِ. وكانت العلوم العقلية والمعارف المثقفة من أهم ما كان يعلم في مملكة أثينا وكذلك التمرينات الجسدية مراعاة للجمال الطبيعي ولتقويتهِ الجسدية. أما الفنون المسماة عند الافرنج بالفنون الظريفة كالتصوير والنقش وغيرهما فاجمع كتاب اليونان ورجال السياسة وأصحاب الصنائع الجميلة والعامة على اعتبارها واستحسانها وترقية أسباب تقدمها ونجاحها. حتى أنهم صوروا على كل قطعة من نقودهم صورة جميلة لها معنى رمزي. والانية الخزفية كان يصور عليها أو ينقش فيها ما هو من أجمل الصور والنقوش ولو كانت من أدنى المصنوعات الخزفية وأرخصها. أما فيثاغوروس فسبق كل الحكما اليونان إلى انشاء مدرسة أو طائفة تثبت قروناً كثيرة بعد موتهِ. فإنهُ أقام بالتعليم في جنوبي ايطاليا بعد أن درس في مصر وسافر فيها ولم يدخل دائرة مدرستهِ إلا الذين كان يسر بهيئَتهم وكانوا يطيعون والديهم ويبتعدون عن الكبريا وشانهم الصمت للسمع. وفي بادي الأمر لم يدخل التلميذ إلى الصف الخارجي حيث كان يتعلم قسماً من تعاليم استاذه. وكان يبقى هناك ٨ سنوات وكان يعود نفسهُ في الخمس الأخيرة الصمت. وبعد ذلك كان يدخل الصف الداخلي فيتعلم كل العلوم ولا سيما الرياضيات فإن فيثاغوروس كان يعتبرها جداً. والظاهر أن أساس تعاليمهِ كان موافقة انتظام العوالم كلها والادراكات المتعلقة بالنظام والموسيقى. وكان يوصي تلاميذهِ باحترام النسا وبالملابس البسيطة والأمانة الخالية من كل خداع وحب الارا المصيبة والفضائل ومزج كل قواعد الصفات بحيث تذهب بصاحبها إلى غاية واحدة. أما سقراط وافلاطون وارسطاطاليس فاتوا بعد ذلك وقدموا الاراءَ اليونانية المتعلقة بالعلوم وجعلوا البحث في المواضيع من متعلقات حكمتهم وسياستهم.

أما الرومانيون فأخذوا أكثر قواعد تعليمهم من اليونان غير أنهم في بادي أمرهم جعلوا اعتباراً للتمرينات الجسدية ولتحريك حب الوطن والحمية الجنسية يفوق اعتبار اليونان لها. حتى أنهم كانوا يسمون معلم المدرسة معلم الألعاب وكان التعليم مستقلاً أي غير متعلق بشيء لا بالحكومة إلى أيام الامبراطورين وكانوا يقومون برسوم دينية كثيرة عند ولادة الطفل وبعد ولادتهِ وفي أثنائها. وكان يربي الولد في أيام الدولة الجمهورية تحت أنظار أمهِ ثم أبيهِ ثم رجل آخر أو عبد عالم. وبعد ادراك سن ١٥ كان الفتى الذي هو من أعيان الرومان يعتني بعد بلوغ ذلك السن سنة في التمرينات الجسدية التي تجعلهُ مستعداً للحروب. ثم كان يدخل جمعيات رجال السياسة ليتعلم فن السياسة. وبعد أن نفذ نظام التعليم اليوناني عند الرومان كانوا يفضلون وضع الولد تحت عناية رجل يوناني على وضعهِ تحت انظار رجل روماني وانشاوا مدارس عمومية كانوا يرسلون أولادهم إليها عند ادراك سن السبع سنوات وجاءَ ذلك بنفع عظيم. وفي زمان الامبراطورية الرومانية كان أولاد الاعيان يتعلمون العلوم اليونانية باجتهاد واتقان كالعلوم اللاتينية. أما اتمام العلم فكان بدرس متعلقات فصاحة الخطاب وكانت الحكومة كثيراً ما تدفع معاشات معلميها من خزينتها. وكان في أثينا مدرسةعالية فيها عشرة أساتيذ وكان كثيرون من الرومانيين الفتيان يذهبون إليها. وأنشا الملك قسطنطين مدرسة مشهورة في الاستانة العلية وجدد انشاءَها وتنظيماتها ثيودسيوس الأصغر. وفي زمان الامبراطورية الأخير كان البنات يعلمن بعناية والظاهر أنهُ منذ نهاية زمان الجمهورية شيدت مدارس مخصوصة للبنات وكان اباؤُهنَّ ينقطعون عن زيارتهنَّ وهنَّ فيها إلا في النادر. وانطونيوس بيوس الذي ملك من سنة ١٢٨ إلى ١٦١ بعد الميلاد سبق كل الملوك الرومان إلى انشاء مدرسة للأيتام.

هذا ولما أخذت العظمة الرومانية الأدبية والمادية والسياسية في أن تنحط أخذ العرب في أن يرتفعوا حتى بلغوا في زمان قصير عظمة تفتخر بها أعظم الأمم. فإنهُ فى القرن السابع للميلاد فتح العرب الذين

كانوا مشهورين بحب الاستقلال والحرية ويدفع هجمات الأعداء حال كونهم ساكنين في البلاد المنسوبة اليهم بلاد سورية وفارس ومصر وسائر الجهات الأفريقية الشمالية الغربية حتى بلغوا اسبانيا وفتحوها. اما معارفهم قبل الاسلام فكانت ضيقة الدائرة في كل شيء خلا الشعر فإن حميتهم وحماستهم وغزواتهم وكرمهم جعل لهُ خواصَّ امتازوا بها واي امتياز على أن ادابهم الفطرية كانت سابقة لكل اداب فاحبوا الصدق وحافظوا على العهود والأمانات واكرموا الضيف وأطعموا الفقير وبذلوا النفوس في سبيل صيانة ناموسهم والدفاع عن حريتهم واستقلالهم وجعلوا لادابهم سوقاً سنوية في عكاظ ولفحول شعرائهم امتيازاً وأي امتياز غير أن فتوحاتهم في بادي أمرها اضرت بالمعارف والعلوم ولم يمض عليهم إلا زمان قصير حتى رأوا أن في الكتابات اليونانية نفعاً عظيماً ولا سيما المتعلقة بالطب والرياضيات والطبيعيات فبذلوا الجهد والمال في سبيل ادخال علومهم إلى لغتهم واضافتها إلى ما كان عندهم فترجموا تأليفات ابقراط وجالينوس وبطليموس وارسطاطاليس وغيرها وأضافوا إليها تفسيرات وتوضيحات كثيرة. وبالجملة نقول إنهم لم يتركوا فناً من فنونهم حتى ترجموهُ وزادوا عليه ووضحوه وفي القرن العاشر للميلاد بات أهالي أوربا يجهرون في ظلام مدلهم من الجهالة والغباوة واخضعوا أنفسهم بجهلهم إلى خرافات اقلقت أفكارهم وسلبت راحتهم وجعلتهم يلقون عشرات ألوف من أبناء جنسهم وغيرهم في المهالك اتباعاً لنصوصها حال كون العرب كانوا يتمتعون بمنافع مدارس كثيرة متقدمة وعلوم جمة وعلماء كثيرين ولم يكن ذلك محصوراً في مكان دون مكان من مملكتهم المتسعة الممتدة الى جهات الأرض الأربع ولكنهُ أصبح منتشراً من بغداد إلى قرطبة في أسبانيا ومن حدود بوغاز القسطنطينية وصقلية وحدود فرنسا إلى رأس الرجا الصالح في نهاية القارة الأفريقية. وكان اعتناؤهم في أمور دينهم من أعظم الفضائل والمثابات حتى أن خلفاءهم وامراءهم كانوا يتسابقون إلى بناء الجوامع فكثرت في بلادهم جداً وبكثرتها كثرت المدارس

فإنهم جعلوا مدرسة متعلقة بكل جامع وزاوية. وأنشأوا سبع عشرة مدرسة عليا وهي من المدارس العامة التكميلية التي يجتمع التلاميذ إليها من كل قطر وأشهرها مدرسة قرطبة من بلاد الأندلس حتى أنهُ كانت ذات مكتبة فيها ستمائة ألف مجلد. ومن العلوم التي تعلموها واتقنوها ونبغوا فيها وألفوا فيها جبالاً من التأليف النحو والصرف والعروض والتاريخ والجغرافية والفلك والتنجيم والكيميا والرياضيات والطب حتى أنهم واضعوا الكيميا والجبر ومتقنوا الطب والفلك وفلاسفة النحو والصرف وأرباب اللغة والفصاحة والمعاني والبديع والمنطق حتى أن تأليفاتهم حفظت لأوربا علوم القدماء وأوصلتها إليها مع اضافاتهم المهمة واكتشافاتهم وآدابهم وعظاتهم وتمدنهم وصنائعهم فإن الأوربيين كانوا بالنسبة إليهم في تلك الأيام كأهالي برية بغداد والموصل أو جبال النصيرية بالنسبة إلى الأوربيين في الزمان الجاري. وكان من عادات الطلبة من أولاد الأعيان عندهم عند بلوغ سن العشرين أن يسافروا سفر افادة وعلم كما يسافر في هذه الأيام أولاد الأغنياء من الأوربيين وكانوا يأتون الأماكن المشهورة والعلماء المشهورين لاستماع خطبهم فإنهم كانوا أرباب الفصاحة والبيان فيقفون ويخطبون خطباً بليغة عمومية عملية. غير أنهُ عند انشاء المدارس العالية في أعظم المدن أخذ القوم في أن يكملوا علومهم فيها فكانوا يعلمون فيها الفقه والحكمة وغيرهما. أما الطبيعيات كلها فكانت لها مدارس مخصوصة ودرس الطب كان يجري في المستشفيات. وكان الأساتيذ والتلاميذ يسكنون في أبنية واحدة وكان في الغالب لكل مدرسة عالية عالم واحد من أشهر علماء الدنيا. أما المدارس الابتدائية التي جعلت مع المعابد فكانت ابتدائية وكانوا يعلمون فيها القراءة والكتابة ويجعلون الأولاد يتعلمون أشعاراً غيباً. أما في اسبانيا فارتفع العرب ونبغوا وسادوا وشادوا وحسنوا ومدنوا واكتشفوا وعملوا حتى خرجت أسبانيا من يدهم المملكة الأولى الأوربية بالفعل واستمرت في عظمتها إلى أن دهمها الانحطاط بإساة تصرفاتها. وفي أيام تقدم العرب فيها أصبحت سهولها وأوديتها وجوانب جبالها مغطاة بالقصور

والمنازل الجميلة الفاخرة المبنية بحسب الهندسة العربية الجميلة. وكانت العلوم والمعارف والفنون ذات تقدم عظيم في بلاط امرائهم الذين كانوا يهبون المدارس الابتدائية والعالية هبات وافرة ويجيزون العلماء جوائز كثيرة وكانت منافع ذلك تأتي العرب والافرنج والذكور والإناث بفوائد جمة. حتى أن أحد الباباوات تعلم في مدارسهم ثم سار إلى فرنسا وألمانيا وادخل اليهما الحساب والموسيقى والهندسة بعد أن كان أهاليها يجهلونها. وقد اشتهرت نساءٌ عربيات كثيرات بالفقه والشعر والحكمة والفصاحة والموسيقى. فتناول الأوربيون المعارف عنهم وقد صممنا على أن نقرر للتعليم في أوربا وغيرها بعد العرب جملة مخصوصة أو أكثر من جملة لأن المقام قد ضاق بنا في هذه الجملة.

تأثيرات المعارف في الحروب(*)

لاريب في أن تعميم المعارف بين البشر يزيل البغض الملقى بين الأمم ويوطد أسباب الاتحاد والاتفاق بينها. لان الله سبحانهُ وتعالى قد خلقها جميعاً من دم واحد وهي كلها من يد قدرتهِ وقد تقرر عندها أنها من أب واحد وأم واحدة ومع ذلك قد صرفت أكثر الزمان الماضي في الحروب والاختلافات والبغض والمطامع. فتاريخ العالم هو في الأكثر عبارة عن تفاصيل انشقاقات الأمم واختلافاتها ومناظرات الروساء والقواد وثورات الشعوب وانقلاب الممالك وخراب البلدان وهلاك الأنفس. وإذا قرانا أقدم التواريخ إلى تاريخ أيامنا نرى أن الحروب استمرت بدون انقطاع يستحق الذكر في كل قرن وبلاد وأمة. فلا تنتهي حروب حتى تصير المبادرة إلى التأهب لفتح حروب أخرى مع أنهُ موكد أنها مخربة للعمران ومهلكة للأنفس وسالبة للسعادة ومبددة الثروة فتسمي المدن الفاخرة الزاهرة خراباً ينعق فيها البوم والبلدان المتسعة الماهولة المتمدنة بلقعاً صفصفاً. والممالك القادرة في ضياع وضيق فضلاً عن ألوف ألوف الذين قد هلكوا فيها بتوحش وبربرية. ولا

(*) محلة الجنان ١٨٧٨، ص ٥٧ ـ ٦٢.

يخطىءُ من يخمن أنهُ قد هلك في ميادين الحروب ثمن الجنس البشري في كل قرن. أي إنهُ قد هلك من الرجال فيها أكثر من ٢٠ ألف مليون رجل وهذا أكثر من عشرين ضعف سكان العالم جميعهم في هذه الأيام فمن لا ينثني متحيراً صافقاً صفقة الخاسر المغبون نائماً نوم الثكلى إذ يرى أن أكثر من عشرين ضعفاً من عدد أهل العالم الحاليين قد باتوا في قبور دموية من جرى شرور الذين يفتحون الحروب غير العادلة ومطامعهم فإنهُ لا بد من متعدٍ في الحرب لأنهُ لو اكتفى كلٌّ بحقهِ لاستراح الناس وانقطعت الحروب. هذا والملوك والقواد المتعدون الذين خربوا وأهلكوا ويتموا ورملوا وبدلوا راحة الناس بشقائهم وعنائهم ورخائهم بعسرهم وطمأنينتهم بخوفهم وأزالوا الأعزا وأبكوا الفرحين وأفقروا الأغنياء وذبحوا الفقرا يتعظمون بشرورهم ويفتخرون ببربريتهم ويسعدون بشقاء الناس وعوضاً عن أن يعقبوا تعدياتهم بالندم والتوبة لماتوا وهم يعددون فتوحاتهم ويعدون انتصاراتهم.

* وقد ألقت تلك الحروب في قلوب الأمم حسداً وغيرة بل كرهاً وبغضاً فالروسي يبغض العثماني ويفرغ جهدهُ في سبيل الاضرار بهِ وتخريب عمرانهِ واصفاً أمتهِ وظلمهِ ومعاملته بكل قساوة وإهانة. والصيني يكره الأوربي ويبذل غاية الجهد في سبيل خدعهِ في المعاملات واحتقاره حال كونهِ يفتخر بامتيازته الموهومة إذ يتصور انهُ أفضل الناس وأعظمهم وأكثرهم تمدناً وأغزرهم معارف. وأهل الغرب من افريقيا يكرهون سودانها ويستعبدونهم ويخربون قراهم ويسلبون مقتنياتهم وملك دهومي يكاد لا ينقطع عن محاربة القبائل المجاورة لهُ ويزين جدران قصورهِ بجماجم أسراه وأهالي داخلية ملقا لا ينقطعون عن مقاتلة جيرانهم والبدو وهنود أمركا يضرمون نيران القتال على الدوام ويجعلون شن الغارات واغتنام الغنائم شانهم وديدنهم. وأهالي داخلية أوستراليا في حروب مستمرة. ولم ينحصر ذلك في الأمم البربرية ولا في التي لم يضي فيها نور التمدن كلهُ فإن الأمم التي تدَّعي بلوغ الدرجة القصوى من التمدن والرفعة لا تنفك عن المناظرة

والتحاسد والعدوان. فالإنكليز والفرنسويون الذين لا تفصل بلدانهم إلا ببوغاز ضيق تقاتلوا وتناوشوا وتباغضوا قروناً وأراقوا دماء ملايين وخربوا أعظم العمران وأحرقوا المدن مع أنهم فاقوا سائر الأمم بالاكتشافات والاختراعات والصنائع والتجارة ونبغوا في المعارف. ولم تخمد نيران فتنهم حتى انتشبت نيران الحروب بين انكلترا وروسيا وبينها وبين فرنسا وغيرها وبين فرنسا وألمانيا فترى أوربا موطن التمدن العصري تباهى العالم بالمعارف وجميع أسباب التقدم وانتظام الهيئة الاجتماعية ومع ذلك حروبها تكاد تكون غير منقطعة بل قد مدنت الحرب ولم تتمدن بقطعها. فالروس وأعوانهم يحاربون العثمانيين والمجر يكرهون الروس الذين قد وافقوا الألمان والنمساويين على سلب بولونيا والألمان يكرهون الفرنسويين والإنكليز الروس والنمساويون الألمان والهولانديون يشنون الغارة على الاتشينيين بل ترى هذه المناظرات والبغض والحسد والمطامع قد القت تلك القارة الأوربية المتمدنة في عناء دائم حاملة على عاتقها أثقالاً مهلكة إذ امست معسكراً بسلب الرجال من أحضان المعارف والزراعة والتجارة والصناعة وجعلهم على أهبة دايمة ليذبح بعضهم البعض الآخر ويدمر عمرانهم ويسلب راحتهم.

فمن من العارفين بحقائق الأمور الذين أنارت عقولهم مصابيح المعارف المكملة المنزهة عن التعصبات الجنسية والدينية الخالية من الأوهام يتأمل في هذه الأحوال يا ترى ولا يقول هل يعلق الأمل بزوال هذا البغض والكره وانقطاع تلك المناظرات وأسباب الحسد وبدلها باتحاد الأمم فتنجو الدنيا من أسباب التدمير والخراب وبسيادة السلم النافع المريح وهل ينبغي أن نجلس قاطعين الأمل من الفوز بإلقاءِ الاتحاد بين الأمم وإزالة الحروب لأنها قديمة العهد. الجواب انهُ لا ينبغي أن نقطع الأمل من ذلك حال كوننا نعلم أن القوات الأدبية قادرة على ازالتها بعد أن تصبح نافذة حق النفوذ في أمم العالم قاطبة فالجهل أبو الشر ومرضعة الكبريا والبخل والطمع وغيرها وهو ينبوع الحروب وأسبابها. فبعد هدم حصون الجهل وتشييد قصور المعارف

الصحيحة وتعميمها ونفوذ أضداد تلك الشرور وهي التواضع والاعتدال والجودة يصبح كل انسان يعلم أن البشر أخوة وكل حرب تضر بجميع المتحاربين وتسود ارادة الجهمور بحيث يصبح لا ينقاد إلى ارادة رجل أو رجال شأنهم الطمع ومطلوبهم استقامة أمور صوالحهم الخصوصية فتتزعزع أساسات الحروب ويصير وضع أساسات لصيانة السلم. كيف لا ومن يعرف الحقائق يتيقن أن انتفاعهُ يكون براحة جارهِ وجار جارهِ وتقدمهِ فيجني الفوائد من تجارتهِ ومحصولاتهِ وزراعتهِ وليس بقتلهِ ونهبهِ والشاهد التاريخ الذي أبان باجلى بيان أن أزمنة السلم كانت أكثر الأزمان تقدماً وقرون الحروب ظروف التاخر والغباوة والجهل.

والمعارف تلقي الاتحاد بين القلوب وتجعل أهلها كاعضاءٍ عائلة واحدة فإن الحروب تفتح على غير ارادتهم وهم يعلمون أن الاضرار بغيرهم أضرار بأنفسهم. وهي تمحو التعصبات العامة والادعاءات الفارغة وتهدم الحواجز التي شيدتها بين الأمم المطامع والحسد. حتى أنك ترى أن الحكماء فعلاً من كل الأمم لا ينقطعون عن المكاتبات الحبية والمباحثات العلمية في أثناءِ اشتغال أممهم بالحروب وأسباب الخراب. وفي الحروب الأخيرة الشديدة التي انتشبت بعنف بين فرنسا وانكلترا لم ينقطع علماء التاريخ والطبيعة والرياضات والفلك والكيميا وغيرهم عن الخاطبات الصداقية. وليس في مخابراتهم ما يدل على العدوان الذي كان جارياً بين الأمتين إلا عند ابرازهم الأسف من جرى المقاتلات العنيفة التي كانت تضر بصالح الأمتين بل كان علماءُ فرنسا في أثناء تلك الحروب يعينون جوائز للذين يكتبون أصح الكتابات العلمية المتعلقة بمواضيع مختلفة ويدعون الأمم الى الاشتراك بذلك حتى نفس الانكليز أعدائهم ونال السار ديفي جائزة منها.

فبالدين نعلم أن ربنا رب العالمين وانهُ من الواجب علينا أن نحب الاخرين كأنفسنا وأن جميع البشر هم خلق الله سبحانهُ وتعالى وقد جعل لهم جسداً واحداً وقوة عقلية واحدة واحتياجاتهم الحيوانية والعقلية واحدة وإنهم عرضةٌ لمصائب ومهيئون لعذابات

واحدة وجميعهم قادرون على ارتقاء سلم المعارف فهم يعيشون في عالم واحد ويتنفسون هواءً واحداً وقد تساوى انتفاعهم بالمطر والندى والسدى والمآكل والاقتدار على الاختراع والاكتشافات والتحسينات. وبعضهم ينتفع بالبعض الآخر بالمعاونة بالأعمال وبتبادل المحصولات وبالعلاقات التجارية والفوائد الصناعية براً وبحراً. فترى أمة تنفع العامل بالقطن وأخرى بالحرير وهلمَّ جراً. وبالجملة هم جميعاً خاضعون لارادة الله سبحانهُ تعالى وهو الذي خلق من دم واحد جميع الأمم القاطنة الأرض. فمن الواجب على البشر والحالة هذه أن يعلموا أن بعضهم مرتبط بالبعض الآخر برباطات مختلفة متينة لا ينبغي أن تقطع. فمن الواجب علينا أن نعتبر كل انسان قريباً لنا إن كان اسرائيلياً أو هندياً أو صينياً أو فارسياً أو زنجياً أو أوربياً فمن الواجب علينا أن نعاملهُ خير المعاملة ونقربهُ فإننا جميعاً من عائلة واحدة وهي العائلة البشرية إن سكنَّا مدينة واحدة أو بلداً واحداً أو كنا متفرقين في أقطار المسكونة وإن كنا من أبناء دين واحد أو من أصحاب أديان مختلفة، فهل ينبغي أن نكره الآخرين لأنهم يقطنون في بلد مفصولة عنا بنهر أو جبل أو بحر أو لأنهم يتكلمون غير لغتنا أو يذهبون في الدينيات غير مذهبنا أو لأننا نحن وهم خاضعون لملك مستبد ظالم قد طمحت عينهُ إلىّ ما لملكٍ آخر أو ألقيت العداوة بينهما بتأثيرات الحسد والغيرة. أولا ينبغي أن نهتم بكل ما ياول إلى راحة الآخرين في الدنيا ولا سيما بعد أن أصبحت كأنها بلد واحد قد ربط بعضهُ بالبعض الآخر بأسباب المواصلات وبالصوالح المادية والأدبية فما يضر بجهة يضر بالأخرى. أما نساق بهذا إلى الفرح بنجاحهم أو ما نتكدر إن تأخروا أو وقعوا تحت الظلم أو تراكمت عليهم المصائب وأنشبت فيهم مخالب الظلم. أو لا يطلب الينا أديباً أن نبذل كل الجهد في سبيل فرجهم وتخفيف بلاياهم. فالعقل البشري المنار بالمعارف يستخف بالذين يحصرون اهتماماتهم ببلد واحد وأمتهم دون غيرها ويلومهم إذا أخذوا يرقون أسباب صوالحها وإن أضرت بصوالح الآخرين. ولا ريب في أن تعميم المعارف الصحيحة يظهر للناس أن كل

ما من شأنهِ ترقية أسباب فوائد العائلة البشرية يعود بالنفع على كل أمة وبالتالي على كل فرد من أفرادها. وإن معاملة الأمم الأخرى بما ينشأ عن حب الذات والحرص على الصالح الخاص ومحاولة الأضرار بالآخرين قل ما تقصر عن سلب المنافع التي نطلب بلوغها بذلك وتعرضنا للمضار التي نحاول مجانبتها. وقس على ذلك بذل الجهد في سبيل النفع الافرادي مع قطع النظر عن الفوائد العمومية وكفانا شاهداً تأخر بلادنا التي طالما جعل أصحاب الغايات والمصالح الخصوصية والملل فيها توجه كل قواها إلى جهة المنافع غير العمومية فحفرنا بظلفنا على حتفنا وتضعضعت أحوالنا فبتنا في تأخر عظيم وفقر مدقع. وبات أكثر الذين يجمعون ثروة لا يتمتعون بها إلا برهة قصيرة والذين يطلبون التقدم بجدهم وَكدهم وأهليتهم غير قادرين على بلوغهِ. وما ذلك إلا من مخالفة النواميس التي قد وضعها ضابط العوالم والاستخفاف بوصاياهُ.

ولا ريب في أنهُ لو اجمع الناس على مراعاة هذه الأمور لزالت أسباب البغض الجارية بين الأمم وتبدلت بالاتحاد والاتفاق والتكاتف على الخير والتعاون على بلوغ الفوائد. ومن يا ترى يقدر أن يدرك المنافع الجمة التي تنشأ عن ذلك مع الانتظام في الأعمال والآراء والرتع في بحبوحة من الراحة والرفاهية كيف لا وقد زالت المخاوف الناشئة عن التذبذبات السياسية والمطامع الدولية والكره للأمم. أما نجني ثمرات من اتحاد الجنس البشري وإتفاقهِ لا يتيسر قطفها ما لم تفتح لكل الناس أبواب كل بحرٍ ونهر وبحيرة وكل خفضٍ ورفعٍ ومدينة وقرية ليدخلها كل من يشأ بدونَ أن يخاف سوءَ العواقبَ أو أنْ تدهمهُ أيدي العدوان وهو على غير استعداد فيقف على أحوالها وينتفع بمحصولاتها وتسهيلاتها وصنائعها ومعارفها ويتلذذ بجمالها. ولا ريب في أن ذلك ياول الى توسيع دائرة المعارف والفنون والى اتقان الجغرافية وعلوم أخرى لا حاجة الى ذكرها. أما الان فنرى الغريب في أكثر الدنيا عرضةً لصعوبات وأخطار ينبوعها كره بعض الأمم للبعض الاخر وتصرفات الحكومات المستبدة الظالمة. واذا انتفى ذلك يدخل

الانسان كل بلاد ويفحص زراعتها وتجارتها وصنائعها ومعارفها فينتفع باتعاب الاخرين كما ينتفعون هم أيضاً بأتعابهِ فيجني ذلك باتقان كل تجارة وصناعة وتعميم أمور كثيرة نافعة لا تزال محصورة في بعض البلدان لصعوبات الاقتداءِ بها أو لامتناع المحتاجين اليها عن تعليمها وكرههم لها مع أنها نافعة جداً ولكرههم الذين يجدونها عندهم. أما ياول ذلك التالف والتعاضد والاتحاد الى زرع ما نراهُ الان قفراً صفصفاً واصلاح اجام عظيمة والانتفاع بغابات متسعة وأنشا مدن ومدارس وأنشا أسباب مواصلات عصرية بين البلدان.

فنرى بعد ذلك أهالي البلدان البعيدة عنا نازلين في سواحلنا عابرين حدودنا ليس ليقاتلونا بسيوفهم وحرابهم ويدمروا عمراننا ويسلبوا أموالنا ويسبوا نساءَنا وأولادنا ولكن لينفعونا بأتمار السلم بالإتيان بمحصولاتهم ومصنوعاتهم ومعارفهم والاياب بما عندنا فيصبح النفع متبادلاً. ونرى بعد ذلك أهل كل بلد يختلطون بأهالي البلدان الأخرى فيتاجرون ويتعلمون ويصنعون مصنوعاتهم ويعملون خصائصهم الزراعية حتى تتقوى علاقات الأمم برباطات المعاهدة ويصبح العالم عائلة واحدة بعد انقسامهِ وانشقاقهِ وقلقهِ الدائِم الناشي عن عدوان من بيدهم زمام الأمور الذين يتصرفون بالرعايا تصرف المستعبد بالعبد ويسوقوهم إلى الخراب والويل بل إلى الهلاك والفناء كأنهم خراف معدة للذبح.

ويتم لنا بالاتصاليات المذكورة اتقان تواريخ الأمم والأحوال التي عاشوا فيها ولا سيما تاريخ الأمم التي لم تنتظم في حلقة التمدن فإن ما يعرف عنها في الحال هو قليل بالنسبة إلى ما تتيسر معرفتهُ بالفحص والبحث. مع أن الاتحاد يكشف عن الحقائق ويظهر الخفايا والخبايا فنستفيد بأخبارهم وأحوالهم ويزداد تاريخ العالم وضوحاً وتصريحاً بل ربما كان ذلك يكشف عن تاريخ الأزمان القديمة ويبين الأسباب التي حملت كل أمة على اختيار موطنها منذ البداية وحملها على قطع بلاد مجهولة وأنهر لا تعرف اسماؤُها وبحار متسعة لاختيار مسكنها في بلاد كانت مجهولة عندها وعوضاً عن أن يقابل بعض الأمم البعض الآخر

كأعداء مناظرين يقابلهم كأصدقاء ينتفع بهم.

* فماذا يا ترى يمنع اتمام ذلك في العالم بعد ظهور فوائدهِ ومنافعه أما نحن جميعاً أخوة من عائلة وأبونا واحد ألم يخلقنا الله سبحانهُ تعالى اما هو ربنا الا نسكن سياراً واحداً محاطين بهواءٍ واحد مستنيرين بشمس واحدة ألم يجعل أجسادنا ذات تركيب واحد واحتياجات واحدة اما هو صالح كل فرد من أفراد العائلة البشرية أن يتم هذا الاتفاق ويزول ذلك العدوان. هل تحول صعوبات دون نوال المرام لا سبيل إلى التغلب عليها هى نرى موانع طبيعية لا تنفتح أبوابها. الجواب لا لأن المعارف المستندة إلى القواعد الأدبية ونور العقل السالم من الشوائب التعصبية والخرافات المانعة قادرة بالتعميم على الاتيان بالنتيجة التي نرغب فيها. فإنهُ من الواجب علينا أن نكون مذيعي معارفنا وما ينفع عندنا وليس بالمتحزبين التأهبين. فعوضاً عن ارسال أسلحة الهلاك الحربية لاخضاع الأمم من الواجب على كل أمة أن تتخذ أسباب نشر لواء الصداقة والسلام في كل صقع ونّاد. وأن ترسل إلى كل البلدان الأجنبية ولا سيما غير المتمدنة أقواماً عارفين عقلا محمبين لخير الجنس البشري مرقين لأسباب رفاهيتهِ ومنافعهِ لا رجالاً تتأجج في احشائهم نيران عشق الذهب المقلق ليقتلوا ويخدعوا ويغشوا وينهبوا الناس كالذين أرسلتهم أسبانيا عندما فتحت مكسيكو وبيرو. كما أنهُ لا ينبغي أن تحمل الأمم المتقنة بالتمدن أسباب الأعمال أن تقتصر على ادخال ما يجعل الأقوام الآخرين يخسرون أموالهم بخسارة عاداتهم واقتباس عادات لا يقدرون أن يقوموا باعبائها لعدم تعلمهم الصنائع واتقانهم التجارة فيخرجون من عبودية التأخر ليدخلوا سجن تقدم لا اقتدار لهم على احتمالهِ. وبالجملة من الواجب عليها أن تنقطع عما جعلهُ رجال السياسة ديدنهم في الأزمان المتأخرة مما يأول إلى ضرر الآخرين لانتفاع أمتهم. وبدون ذلك لا يتقرر الاتحاد العام الذي ينبغي أن يبلغه العالم ولو بعد مئات سنين. فمن الواجب عليها أن تبدل حب الذات بحب الناس والكبريا بالانتضاع والبخل بالكرم والقساوة بالشفقة والحنو. فإن الحنو والملاطفة قد تخضعان الوحوش

الضارية فكيف لا تخضع الشر وإن كانوا متوحشين، فإنك قل ما تجد رجلاً لا تختلج في صدرهِ عناصر الحب. فإذا عول المتمدنون على انفاذ هذه القواعد الحسنة يبتدي زمان الاتحاد العام في برهة قصيرة. فيسر العالم إذ لا يجرد انسان سيفاً للاضرار ببشر.

* وبلادنا الشرقية في احتياج شديد إلى تعميم هذه الآراء فإننا في الغالب نستخف بما عند غيرنا من الأمم لأنهُ لهم ونكره الأجانب لأنهم أجانب ويسوقنا ذلك إلى كره ما عندهم مما يعود علينا بالنفع. فالمعارف التي أخذوها عنا وسعوها وأتقنوها أمست غريبة عندنا محتقرة عند أكثريتنا لأنها حفظت في أيديهم وأيادي الزمان تلعب بنا وتؤخرنا مع أنها من آثار أجدادنا وابنا لغتنا. فهذا يبعدنا عن التمدن الصحيح ويجعلنا ملزومين بأن نفتح أبوابنا قهراً لدخول جنود عاداتهم الفاتحة حال كونهم هم لا يعلموننا ما يسهل أسباب اقتباسها عنهم بل يفرغون الجهد في اكتساب الأموال منا. فينبغي أن نبادر إلى تعلم صنائعهم وزراعتهم وتجارتهم لئلا نضعف بهجماتهم إلى أن تلعب بنا أيدي سبي. فهذه القواعد عامة وبالتأمل فيها يقدر الانسان أن يدرك تفصيلاتها ويقيس عليها ما يراهُ أكثر الأيام في نفسهِ ووطنهِ فنسأل الله أن ينفعنا بها وأن يزيل الاستبداد والتعصبات المضرة من العالم ويجعل ابناءه إخوة يتنافسون بما فيهِ خير ونفع للجميع.

في الكتّاب

الكتاب(*)

من الكتَّاب من لا يلتفت في كتابتهِ إلى الحقيقة ولا يُراعي الصدق والأمانة بل يكتب ما يوافق غرضهُ وميلهُ وما يأتيهِ بنفعٍ مادي ومنهم من يتردد بين صالحهِ وغرضهِ ونفعهِ وبين الصدق والحقيقة ومنهم من لا يراعي في تقريراتهِ غير ما يبلغهُ مما يرجح صدقهُ وما يعتقدهُ فيسلك المسالك المستقيمة مراعياً قوانين بلادهِ ومقتضيات أحوال الأمة العمومية وهذا هو الكاتب الذي يحظى بأركان القوم وحبهم وإسعافهم لأنهُ يكون لهم مبلغاً صادقاً أميناً لا يراعي غير الحقيقة وما لا يقدر أن لا يراعيهُ والنجاح يكون خادماً لهُ لأن مباديهُ صحيحة وديدنهُ الأمانة أما الكاتب المملق الذي شأنهُ مراعاة النفع والغرض وغض الطرف عن الواقع حذراً من الخسران فهو كاتب يضر بغيرهِ وينفع نفسهُ بضرر القوم وخداع الأمة خداعاً ربما كان يفضي بكثيرين منها إلى الخسران والهلاك وكثيراً ما رأينا وسمعنا أن كاتباً أضل قوماً بضلالهِ وأن كتاباً خدعوا أمة وساقوها إلى ما اتاها بالويل والهوان والشواهد كثيرة منها الأكاذيب التي كانت تنشرها أكثر جرائد فرنسا قبل فتح الحرب الأخيرة وبعد فتحها ما حمل الأمة الفرنساوية على الهيجان والاضطراب بحيث رأى أولياءُ أمورها الذين ربما كانوا هم مصدر تلك الأكاذيب المنشورة إنهُ لا بد من فتح الحرب ارضاءً للأمة وكذلك لو نشرت الجرايد حقيقة الحال التي امست فيها فرنسا بعد سيدان لتمكنت حكومة المدافعة عن الوطن في أول الأمر من عقد الصلح بدون أن تحمل فرنسا ما حملت من الخسائر البلادية والمالية والدموية كما عقدهُ موسيو تييرس وجول فافر والعمدة عندما أخذت الجرائد في تقرير الواقع وإظهار سوءِ الحال والعواقب ولا ريب أن الخسائر لحقت بكتَّاب هذه الجرائد كما لحقت بغيرهم من الأهالي فنالوا بعض ما يستحقون من التأديب الذي

(*) مجلة الجنان ١٨٧١، ص ٨٢٥ ـ ٨٢٧

طالما أتى بهِ سوءُ التصرف والكذب وكثيراً ما سمعنا أن كاتباً أضل قوماً بتقرير أفكار سفسطية أو اعتقادات فاسدة أو غير ذلك من الأمور المضرة كما اضرت كتابات جوزف سمث الأمـركاني وتلاميذهِ فإنهُ ادعى النبوة وكتب كتابات كثيرة وأجاز لقومهِ أن يتزوجوا ما شاءُوا من النســا إلى غير ذلك مما أتى بضرر وخسران على كثيرين من أهالي أمـركا واسم طائفة هذا الرجل المورمون وسنذكرهم في ما يأتي إن شاءَ الله وإذا دققنا النظر في كثير من حوادث العالم وأسبابها ومصادرها نرى أن الكتّاب كثيراً ما هيجوا البشر إلى ما فيهِ شر وضرر بكتاباتهم الكاذبة والفاسدة كما أنهم هيجوهم إلى ما فيهِ صلاح وخير بالتقريرات الصحيحة والتاريخ هو أكبر شاهد وثورات فرنسا الحسنة والغير الحسنة هي مما يؤكد صحة ذلك وأعجب العجب كيف أن الكاتب الذي يخسر أركان الجمهور بكذبهِ ونفاقهِ ويرى آثار ذلك الخسران في نفس عملهِ لا يخجل أن يتظاهر بين القوم ويستمر في تقرير نفس ما خسَّرهُ أركان الأمة وحملها على أن تدعوهُ مملقاً وخادماً نفسهُ فقط في ما يجب أن يكون واسطة لخدمة الدولة والأمة خدمة صحيحة لأنهُ معلوم أنهُ إذا شرع الكاتب في مدح المأمورين بدون أن يسند مدحهُ إلى حقايق تستحق المدح يكون قد خدع الدولة وعوضاً عن أن ينفعها وينفع الأمة يضرهما ويضر نفسهُ فيثلم صيتهُ كما ثلم صيت كثيرين من كتّاب الجرائد في الولايات لأن الأهالي وجرائد الآستانة العلية وكثيرين من المأمورين يقولون إن الجرائد في الولايات إنما هي لتترنم بمدح الولاة والمأمورين وهذا عار وأي عار وعلى الخصوص في عصر كهذا العصر وما من فائدة في مدح جريدة شأنها المدح في كل حال لأنهُ ينكشف أمرها بعد أن تعول على ذلك بمدة قصيرة فيسمي مدحها للمأمورين سبباً لجلب لوم الأهالي وتكديرهم وعلى الخصوص عندما يرون أنهم يصرفون ما يجنونهُ بعرق جبينهم ليشتروا كذباً يضر صاحبهُ ويضرهم ويضر دولتهم وبئس ما اشتروا وعندي أن مدح جريدة لا تمدح إلا عندما يحدث ما يستحق المدح هو خير من مدح جريدة كاذبة ولو مدحت مرتين ولامت مرة وصمتت أخرى لأن مدحها

يكون مدحاً صحيحاً وقد تبين مما نراهُ من سياسة الدولة العلية في دار السعادة المتعلقة بالجرائد أنها قد تأكدت أن النفع يكون في اطلاق العنان للكتّاب ليظهروا أفكارهم ويقرروا اعتقادهم في الأمور السياسية العمومية والخصوصية وأن اجراء القانون حق الاجراءِ لا ينفع بل يضر وبناءً على ذلك نرى جرائد الآستانة المعتبرة التي يحق الأركان إلى كتّابها تقرر اعتقادها بكل وضوح وكثيراً ما رأينا الحكومة السنية تصغي إلى تقريراتها وتبادر إلى اجراء ما تشير إليهِ وهو معلوم أن دول أوربا المتحدة لا تجري ما تضادهُ كل الجرائد أو أكثرها وأن اجرتهُ لا يصادف رضى الجمهور فتلتزم أن تغيرهُ هذا إذا كان من الأمور المهمة والخلاصة أن واجبات الكتّاب في الدنيا هيَ ذات أهمية ونفع وضرر ونفعها وضررها متعلقان بكيفية تصرف محرريها وكنا نحب أن نقول إن كل الجرائد العربية هي ذات نفع على أن الحقيقة لا تسنح لنا بذلك وعلى الخصوص عندما نرى ما لا نحب أن نراهُ من التمليقات في زمان قد قال حضرة مولانا الأعظم وصدر وزرائهِ ما مآلهُ أن انشاءَ الجرائد هو لنفع الأمة وعلى الخصوص لأنهُ قد صار اجراءُ ما يحق للجرائد أن تمدحهُ من الاجراات التي تخفف أثقال المالية وترقي أسباب اجراء العدالة أما في سورية فلا نظن أنهُ يسوغ لنا أن نكتم شيئاً من الحقيقة التي فيها مدح لحضرة ملجأ الولاية الجليلة ولاكثر المأمورين ولا ريب أن نجاح الجرائد هو من الدلائل التي تدل على استقامتها وقبول الأهلين لها لأن الأهالي لا يحبون أن ينشطوا ما يرون أنهُ يأتيهم بالضرر ولا ينفع دولتهم لأنهُ أمر مقرر أن الكتابة لا تقدر أن تستر الحقائق مدة طويلة فالأوفق لخير الدولة أن لا تسمح للمملقين أن يتمكنوا من غاياتهم لأن التمليق يضر جداً الضعيف العقل الذي يصدقهُ ولا ينفع القوي العقل الذي لا يصدقهُ وما خلا من النفع كان فيهِ ضرر فالمأمول أن حضرة محرري الجرائد الغير المنتبهين إلى واجباتهم والغير العارفين بأهمية مركزهم ينتبهون إلى ما لا نشك أنهم يعرفونهُ أنهُ من واجباتهم الانتباه إليهِ هذا وأننا نسأل الله أن يوفقنا جميعاً إلى ما بهِ خير الدولة والأمة وهو حسبنا وإليهِ ننيب.

في الصناعة والاقتصاد

الصناعة(*)

إن من طالع أخبار الأمم السالفة وأمعن النظر في أسباب ارتقاء بعضهم إلى أعلى درجات التمدن والغنى والمجد والاقتدار يبان لهُ جلياً أن سبب ذلك إنما كان اتقان الصناعة الصادر عن اتقان العلوم. هاك مثلاً الفينيقيين الذين انصبُّوا كل الانصباب على ترقية أسباب الصناعة في بلادهم التي كانت ممتدَّة على سواحل بحر الروم من اطرابلس إلى صور. فإن أنهر محصولات البلاد المجاورة لها كانت تصبُّ فيها وهناك بواسطة الصناعة المتقنة تتغيَّر هيئاتها وحالاتها الأصلية فكانت المعادن الغير المنتظمة تتحوَّل إلى آلات منافع وحليّ زينة. والاقطان والأصواف وغيرها تصير أرجواناً وبوصاً ومنسوجات مختلفة الأنواع والألوان. والرمال زجاجاً جميلاً ملوَّناً. وأسنان الأفيال عاجاً. والحجارة والصخور قصوراً تدهش عيون ناظريها وقُلَعاً حصينةً تقيهم من عدوٍّ مفاجيء. والأخشاب سفناً محكمة البناء تطير بأجنحتها البيضاء على وجه الغمر مصادمةً الانواءِ والزوابع وحاملةً تلك المصنوعات وغيرها إلى شطوط البلدان الأجنبية لأجل ابدالها هناك بغيرها من المحصولات الغير المصنوعة فتأتي بها وبالأرباح إلى بلادها ثم تغيّر بالصناعة هيئَة تلك المحصولات ثم ترجع بها ثانيةً فتبيعها بأثمان غالية وهكذا لا تزال في حالة الذهاب والاياب. وذلك كما يفعل أهل أوربا بأهل الشرق في هذه الأيام فإنهم يأخذون الحرير والصوف والقطن والقوة والخرق والعظام وما أشبه بأثمان بخسة جداً ويدخلونها معاملهم المتقنة ويغيرون هيئَاتها ثم يأتوننا بالمنسوجات القطنية والحريرية والصوفية وغيرها تحت أسماءٍ مختلفة وأنواع شتى وما بعناهم اياهُ بقرش واحد يبيعوننا اياهُ بعشرين أو ثلاثين قرشاً سالبين منا تلك الأرباح ونافعين بها ملاَّحيهم ونسَّاجيهم وأصحاب

(*) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ٤٩ ـ ٥١.

المعامل وغيرهم من أهالي بلادهم. فكأنهُ قد فُرِض علينا القيام بمعاش أولئك الأقوامِ وتغريب مالنا عنا كان حرارة الشرق تؤذيهِ حال كوننا مفتقرين جداً إلى أشغال تقوم بمعاش كثيرين منا وعلى الخصوص الذين سلبتهم حذاقة الغربيين صنائعهم كنسَّاجي المنسوجات الحريرية المعروفة بالصرَّتي مثلاً فإنهُ منذ سنوات قليلة كان في دمشق الشام نحو أربعة آلاف معمل لنسجها وأربعة آلاف عائلة تعيش منها وأما الآن فيكاد عدد تلك المعامل لا يبلغ خمسمائة. وكذلك القول في حلب وحمص وحماه ودير القمر وغيرها من الأماكن التي اشتهرت بصنع تلك المنسوجات. فيا ترى ماذا حل بالسبعة أو الثمانية الآلاف التي كانت تشتغل بتلك الصناعة وتعيش منها هي وعيالها التي تبلغ ضعف هذا العدد. فلا شك أن أكثرهم قد وصلوا إلى حالة الفقر وسوء الحال. وقد حُجبت عن التجارة وكل أصناف الحرف المنافع التي كانت تنتج لها منهم بواسطة ما كانوا يجمعونهُ بكد أيديهم ويسدُّون بهِ احتياجاتهم. وكأن الشرق أعلى مركزاً من الغرب ولذلك يصبُّ أنهار أموالهِ فيهِ أو هو أغنى منهُ ولذلك ينعم عليهِ بالهبات في سبيل الله.

وكذا القول في صناعة الأحذية فكأن أرجل العرب قد صارت افرنجية ولهذا لا تستطيع أن تمشي من دون الالتجاء إلى حذاءٍ مختوم بخاتم أحد أساكفة الافرنج ليكون لها.جوازاً أي بسابورطاً فتدفع عنهُ ماية غرش منها ستون ثمن الحذاءِ وأربعون قيمة شرفهِ الافرنجي. ومع أنهُ يوجد كثيرون من أساكفة العرب يحسنون صناعتهم كالافرنج ويبيعون مصنوعاتهم بثمن أقل نرى أننا في الغالب نواثر تلك على هذه كان قوالب الأرجل في الأرحام صارت افرنجية أو ارتفاع الثمن من شأنهِ ترويج البضاعة. وقس على ذلك بقية الأمور. ومن لاحظ آلات الصناعة عندنا وأثاث بيوتنا وملابسنا فلا بد من أن يخامرهُ الخوف الممزوج بالعجب عندما يرى أنهُ كلهُ إلا ما ندر آتٍ الينا من البلدان الأجنبية. ولو ذكرنا تفاصيل التأخر الذي حصل للصناعة في بلادنا مع الأخطار التي وقعنا فيها من هذا القبيل لاحتجنا الى مجلدات. هذا على أننا نقول إن السبب في ذلك جميعهِ إنما هو نحن أنفسنا وذلك لأننا قبل

أن نحسن صناعتنا بحيث تصير كصناعة الافرنج في حسنها واتقانها اقتبسنا عوايدهم وأكثر ملابسهم والهتنا سراويلنا الضيقة واطار نسائنا المعروفة بالملكوف وأثاث بيوتنا الثمين وهلمَّ جراً عن عمل ما تقتضيهِ تلك العوائد. كأننا لا نعلم أن ذلك من شأنهِ أن يوقعنا في وهاد الفاقة ويلحق بنا الخراب والتأخر مع أنهُ باجتهادٍ قليل وحزم الرأي والاتفاق والتعاضد في العمل يمكننا أن ندرك المطلوب وذلك مع تمادي الزمان لأننا لا نقدر أن نصل إلى أوج التقدم في سنين قليلة أو أن نحاول قطع المراحل ونحن لا نحسن تثبيت القدم بل يلزم لذلك زمان طويل لأن أوربا نفسها لم تصل إلى ما وصلت اليهِ دفعةً واحدةً بل بالتتابع ومع تمادي الزمان إلَّا أنهُ يجب علينا أن نسرع في التقدم أكثر منها لأن عقولنا وقوانا الطبيعية ليست دون ما للافرنج من ذلك وليس علينا أن نتعب أنفسنا في ايجاد كل شيء بطريق الاختراع والاستنباط بل يمكننا أن نقتبس منهم أشياء كثيرة. فلو ابتدأنا من هذا اليوم بتنشيط صناعتنا واستعمال ما حسن منها وإن كان في نفسهِ غير مستوفي الاتقان وبعقد جمعيات تجارية لجلب آلات بعض المعامل الصناعية لكنا نعوض الأضرار وندفع عن أنفسنا تلك الخسارة الباهظة وننتفع بما يسلبنا اياه الافرنج الآن. ولقائلٍ أن يقول إن ذلك لا يجدينا نفعاً إن الافرنج يقدرون أن يرسلوا المنسوجات من بلادهم ويبيعونا اياها بأثمان دون التي يمكننا أن نبيع بها منسوجات بلادنا وذلك لأن فائدة المال عندهم أقلّ كثيراً مما هي عندنا. فنقول إن ذلك وهمٌ لأننا إذا قابلنا ذلك بمصاريف الانتقال والرسومات وتعدد الأشخاص المترابحين نرى أن ربحنا يكون أكثر جداً من ربحهم. وحسبنا انتفاع بلادنا وفعلتنا بالمال الذي ينتفع بهِ الافرنج. وكنا نود لو أمكننا أن نتوسع الآن في هذا البحث ولكن ضيق المقام يضطرُّنا إلى تركهِ لفرصة مستقبله. وفي ما ذُكِر كفاية لتنبيه الأفكار إلى هذا الأمر المهمّ الذي هو من أعظم أسباب الثروة والعمران.

المعدة(*)

هل يعيش حيوان معدتهُ في غيرهِ. وهل تنمو شجرة أصولها لا تغذّيها. إن لنا مقاييس طبيعية نقيس عليها الأمور العقلية والسياسية وغيرها ممَّا يتعلق بأمر المعاش والثروة والعمران. فإن لكل أمَّةٍ مرعىً وفماً ومريئاً ومعدةً وأقذاراً وجوارح وقوة. غير أن منها ما هو قائِمٌ بنفسهِ. وما يقوم بهِ منهُ هو من قبيل الافراز الضروري لقيام الحيوة. ومنها ما هو قائِمٌ بنفسهِ وبغيرهِ على نوع المبادلة. وشأن هذا تقوية الجسم لأنهُ يبعد عنهُ ما قد اكتفى منهُ ويأتي إلى نفسهِ بما يشتهي. ومنها ما هو قائِمٌ بغيرهِ. امَّا ما هو عندهُ فيكاد لا يكفي لسدّ احتياجات من يأتي لهُ بما ليس هو عندهُ. فيأخذ منهُ كل ما عندهُ ويتركهُ بدون نصيب ممَّا كان لهُ. مَثَل الأول الأمة الفرنساوية. ومَثَل الثاني الأمة الانكليزية. ومَثَل الثالث نحن العرب. لأن الأمة الفرنساوية لا تحتاج إلى غيرها فإن في زراعتها وصناعتها وتجارتها ما يكفيها ويفيض عنها ما تعطي لغيرها وتزيد بهِ ثروتها. أما الأمة الانكليزية فصناعتها وتجارتها تكفيانها وتكفيان غيرها. أما زراعتها فهي دون احتياجاتها ولذلك نراها تجدُّ في اتقان صناعتها وتجارتها أكثر من غيرها لتعوّض مع الربح ما تصرفهُ لمدّ احتياجاتها الزراعية. فأصبح شأنها أخذ محصولات غيرها بأثمان بخسة واعطا نتائِج صناعتها بأثمان غالية لأنها تضيف عليها كلفة عملها مع الربح. وهذا هو أساس نجاحها. أما الأمَّة العربية فهي خاوية خالية كالدنيا قبل أن رفَّت عليها روح خالقها. لأن صناعتها في عدم. وتجارتها في تأخُّرٍ ومحصولاتها تكاد لا تكفيها. فأصبح مَثَلها مَثَل فرسٍ يرعى في البلدان العربية ومعدتهُ مقسومة إلى أقسامٍ كثيرة. قسمٌ منها في فرنسا. وقسمٌ في انكلترا. وقسمٌ في المانيا. وقسمٌ في تركيا في أوربا. وإن استولت رومية على مناصبها الروحية النصرانية وأرزاقها الكنائسية يصبح لها قسمٌ أيضاً في رومية. وهذا الفرس يرعى بجدٍّ وكدّ. على أن مريءَ معدتهِ واسعٌ يحمل ما يرعاهُ إلى المعدة الموجودة في الأماكن المذكورة. وهذه المعدة سريعة الهضم. فلا يكاد

(*) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧.

يصل اليها الطعام حتى توزّع جيّدهُ على جوارحها وتجدَّ في طلب غيرهِ. فأصبح الفم مقصراً عن رعي ما يكفيها. ومن المستغرب أن هذا الفرس لا يزال حياً. ونظن أنهُ يغتذي بما تدفعهُ المعدة عنها لأنها كما قلنا صحيحة فلا تبقيهِ فيها. والبرهان أنهُ يكاد يصبح بلا جسم. فهو كالخيال لا تشعر بهِ إلا المخيلة. وإذا دام الحال على هذا المنوال تكنز في جسمهِ الأخلاط وتصعد إلى دماغهِ. فيفضي بهِ الأمر إلى أمراض الحميات والعياذ بالله. فإنها تسوقهُ إلى القبر. ولا ريب أننا قد أصبحنا الآن في حالة النزع. لأن احتياجاتنا هي احتياجات أممٍ وضعت قدمها على الدرجة الأولى من سلَّم النجاح. أما الأسباب التي تقوم بسدّ تلك الاحتياجات فهي دونها. فأصبحنا نصرف أكثر مما نجمع. ومصروفنا يذهب لنفع غيرنا. لأن معدتنا في غير احشائنا. فأين الطبيب الماهر الذي يجد لنا دواءً يشفي هذا المرض العضال. ويدفع عنا الأخطار التي طالما تهددتنا وقد حار فيها عقلنا. لأننا لا ندركها لكثرتها. وما أصدق ما قيل إن الذي ليس لهُ يؤخذ منهُ. ومن لهُ يزاد. وإذا استمرَّ الحال هكذا نصبح غير قادرين على اعطاء شيء فيضرُّ ذلك بالمعدة التي تغتذي منا. ولا سيما الدولة التي غناها إنما يكون بغنى رعاياها. ولا ريب أنها تنظر في مقتضيات الحال من هذا القبيل وتبادر لاعطاء العلاج المناسب وإلا تصبح في خسران. ولا نحب إلا أن نقول بأنهُ لو صار الالتفات اللازم لادارتها باجرائها بحسب أصولها لكنا نرى تلك الأمراض تأخذ بالزوال. والظاهر أن بعض المسلَّمين مهامَّها يتقاعدون عن اجراء ايجابها. وربما كان ذلك لأنهم قاصرون عن ادراك الوسائل التي تأتي بالمرغوب. أو لأنهم يحتاجون إلى فُرَصٍ تمكّنهم من الالتفات اليها. اما لتراكم الأشغال. وإما لعدم الترتيب. لأن من جعل نظاماً لأعمالهِ يقوم بحقها ويفيض عنهُ ما يمكّنهُ من الراحة اللازمة لقيام الجسم. ولا يمكننا أن نسلِّم بأن الدولة لا تحبُّ رفع الأسباب التي تمسُّ صوالح الرعايا قياماً بحق السياسة التي يرفضها روح العصر ويقاومها أهل الزمان. لأن الدولة تعرف أن قوتها إنما تكون بقوة تبعتها وغناهم. هذا ولا تقول إن انقسام الرعية لا يُسهّل على الراعي ادراتها. وعلى

الخصوص إذا كانت في حالة الفقر والعناء. ولكن لا نحبُّ أن نسلّم بأن الدولة تحاول ذلك. لأن من شأنهِ تقصير مدتها ولا سيَّما متى كان الزمان مقاوماً لهُ. فإذاً كل حكومةٍ تحاول أن تطرح شعبها في ساحة التأخُّر تكون كباحث عن حتفهِ بظلفهِ. ولذلك نقول إن الأسباب التي أوقفتنا في أواسط الدهور المظلمة ونحن في عصر النور ليس هي سياسة الحكومة الماضية فقط. بل التهامل في اجراء ما نؤكد أنها تحبُّ أن تجريه ممَّا يأول إلى ترقية أسباب التقدم والتمدن. لأن الوسائط لبلوغ المقصود هي دونَ اللازم. وعلى الخصوص في بلادٍ انقسمت أهاليها بتأثيرات السياسة القديمة. التي البراهين على زوالها موجودة ولكنها غير ظاهرة. وأصبح ديدنها الاشتغال بما يؤَخرها حال كونها تتضجر من تقاعد أولياء الأمور عن المبادرة الى استعمال الوسائل التي تأتيها بالنجاح كأَن أمر ذلك منوطٌ بالدولة فقط. مع أننا مؤَكدون أنهُ لا بدَّ من التكاتف في الأعمال. لأن الشعب لا يستطيع الاصلاح بدون مساعدة الحكومة وبالعكس والظاهر أن الفريقين متأَخران عن حقّ القيام بواجباتهما من هذا القبيل. إما لعدم الارادة وإما لاتكال كلٍ منهما على الآخر. وكثيراً ما سمعنا الشعب يقول إن سياسة الحكومة لا تسمح لها بتنشيطنا وتنجيحنا بل دأبها التهامل في ما يأول لترقية صوالحنا. والحكومة تقول إن الشعب هو في تأخر وغير اهلٍ للقيام بحق ما ارغب أن اسلّمهُ من المهامّ لتنجيحِه. لأن شأنهُ محبةُ الذات والتعصب والانشقاق والطمع. وذلك قد ألقى رحًى على هامة أسباب التقدم. وترك الأمة تخبط في الظلمة المدلهمَّة. ونظن أنهُ لو التقت الغايتان في مركزٍ متوسّط لانقطع النزاع وزال الويل. لأن كما أن البلاد هي متأخرة عن القيام بحقّ صوالحها. كذلك الحكومة لا تقدر في وقتٍ قريب مع وجود العناصر الضدية أن تدير عنان سياستها وتميل عن طريقها وتجد من الشعب السائد من يقوم لها بحق سياسةٍ لا يفهم أسرارها ولا يدرك أعماقها. وعلى الخصوص لأن فطرتهُ تحملهُ الى السبيل الذي تعوَّدهُ. وتكرّههُ بالصراط الموافق لروح العصر ومشرب الزمان. فيصبح مثلهُ مثل أعمى يحاول أن يعمل أعمال بصير. أو مثل

اعرج يمشي في ميادين الأصحاء. وهذا هو أكبر أسباب التأخر. لأنهُ لا بدَّ من وجود أيدٍ للقيام بحق العمل توجِّه كل قوتها إلى الغاية المطلوبة منها مائلة عن السبيل الذي تقود اليه الرشوة والتعصب ومحبة اللذات والطمع. ومتى حصلنا على المرغوب من هذا القبيل وتكاتفنا مع الحكومة وتأكدنا خلوص النية من جهتها وجهة بعضنا بعض يسهل علينا قطع الأسباب التي تذهب بمالنا إلى غير بلادنا. وهذه الأسباب معروفة لدى كل من امعن النظر في الحالة الحاضرة. وهي أولاً عدم انتظام ما يسهل عمل الحراثين من قبيل الامداد الماليّ وغيرهِ. فإن نصف محصولاتهِ تكاد لا تكفي عطل مال الدائن. وهذا العطل هو أكبر أسباب التأخر والفقر. فإن درجتهُ تفوق درجة الاعتدال. ونصف الباقي لا يكفي لسدّ مطاليب ملتزمي الأعشار. الذين فضلاً عن أنهم يسلبون منها أكثر من حقهم لا ينكفون عن اجراء ما يزيدهم فقراً وتعاسة على مرأى ومسمع المأمورين المحليين الذين لأسبابٍ لا يعارضونهُ. وهذه الحالة هي ممَّا تستفزُّ الدولة الى ايجاد الوسائطً الحالية والفعالة لمنع أسباب تلك الأضرار التي تسوق البلاد إلى وهدة الفاقة. أما ما يبقى لهُ من بعد سدّ تلك المصاريف فلا يكفي للقيام بمصروف الحيوانات الحرَّاثة وملبوسهِ. وهكذا تطوي عليهِ السنون والدَين يعلو عليهِ ويستغرق كل مالهُ من عقار وغيرهِ. والثاني الصناعة وحسبنا خسارةً بسبب تأخرها عندنا ما تنتفع بهِ أيدي العمال في الأقطار الغربية. فإنها تأخذ الحرير مثلاً بثمنٍ معلوم وتغيّر هيئَتهُ في بلادها وترجعهُ الينا منسوجاً وتبيعنا اياهُ بثمنٍ مضاعف أكثر من سبع مرات. مع أن أكلاف نقلها وارباح الذين يتاجرون بها تكاد تكون قدر ثمنها الأصلي. والثالث التجارة فإن منافع النقل وجلب البضائع المعروف بالكومسيون وغيرها تكاد تكون جميعها في أيدي الأجانب. والرابع الأموال التي تذهب للقيام بأود مركز الادارة. ولا ريب أننا اذا تركنا الطمع الشخصي والانشقاق ومدَّت لنا حكومتنا يد المساعدة نأخذ بالتقدم وتأخذ هذه الأضرار بالزوال وعلى الخصوص إذا تقلَّدنا الوظائف التي ينتفع بها غير أهل المكان فترجع الينا معدتنا الشاردة عنا وتمسي محصولاتنا

تغذي جسدنا فنسمن ونقوى وتكلّ عن هيض عظمنا تقلبات الزمان وطوارق الحدثان.

ينبوع الثروة(*)

المال أساس الأعمال وهو الذي نبكي فقدانهُ ونطلب ردهُ للحصول على ذلك التقدم الذي تمنيناهُ والاحتياج إليهِ مصدر تأخر الزراعة والصناعة والتجارة وبدونهِ تمسي قوة الأمة ضعفاً وعمرانها يبيت خراباً ولذلك كان من واجبات الأمم أن تسعى في طلبهِ وأن لا تنفك عنهُ بدون بلوغ المقصود ولبلوغ المـال سبيلان الزراعة والصناعة أما التجارة فليست إلا تغيير زمان المحصولات والمصنوعات أو مكانها بقصد الربح ولذلك كانت تحتاج إلى المال لتجري في مجاريها وتزيدهُ إذا كان قليلاً ولكنها تقصر عن الاتيان بهِ إذا لم تكن مستندة إلى الزراعة التي هي ينبوع المقتنيات وإلى الصناعة التي هي تغيير هيئة المحصولات بقصد الربح وبناءً على ذلك نقول إن البلاد التي ليس لها ينابيع من الزراعة والصناعة لا تقدر أن تتقدم وإن طال عليها الزمان وهي بدونها لا تقدر أن ترجع إليها من تلقاء نفسها وهذه الحالة هي التنا نحن الشرقيين فإننا قد امسينا بلا زراعة وبلا صناعة مدة طويلة خسرنا رأس مالنا وأمسينا في فقر لأن محصولاتنا ومصنوعاتنا الصادرة لا توازي وارداتنا وهكذا بات مصروفنا أكثر من دخلنا وأخذ ما عندنا في التأخر شيئاً فشيئاً حتى أمسينا على ما امسينا عليهِ فإذا نظرنا إلى قوانا الخصوصية نرى أنها لا تكفي لبلوغ المقصود. لأنه لا مال عندنا لننتفع من أراضينا ومحصولاتنا ولذلك كنا في احتياج إلى المال وهذا الاحتياج لا يسد إلا بالاستناد إلى بلاد تقدر أن تعطينا مالاً ننتفع بهِ بدون أن تحملنا أثقال ربحهِ بحيث لا نقدر أن نقوم بهِ وهذا لا يتم إلا بإقامة الأعمال العمومية لتشغيلنا وجلب المال إلى بلادنا ونفع أصحاب المال المجلوب ولا تقوم بحق هذه الأعمال في الظروف الحالية إلا الشركات وأثبتها وأقلها فايضاً الشركات الانكليزية وهذا هو الذي

(*) مجلة الجنان ١٨٧٢، ص ١٨١ ـ ١٨٢.

يحملنا على أن نترحب بالشركة التي اتت البلاد لتأتي بماء نهر الكلب إلى هذه المدينة وبتلك الشركات الكثيرة التي ربما كانت تشرع في حفر المعادن وقطع الأشجار وغير ذلك وكنا نحب أن نكون نحن قادرين أن نقوم بهذه الأعمال ولكن لما كان العار في كتمان الحقيقة والرياء كان لا بد من اظهارها فنقول إننا عاجزون عن القيام بها لأنهُ ليس لنا ما يلزم لذلك من المعارف ولا من المال وعندنا أن تبيان الحال بهذا الوضوح يحمل الرؤساءَ الروحيين والسياسيين على أن يترحبوا بالذين يأتوننا لقيام هذه الأعمال العمومية النافعة التي ارتفاع أسعار الفايض عندنا يؤخرنا عن القيام بها ولو كانت معارفنا كافية ويسهلوا لهم سبل الأعمال وأسباب النجاح وإن كانت هذه الأعمال تضر بمكان أو أكثر فأصحابها يلتزمون أن يدفعوا بدل الضرر ونحن نعتقد أنهم لا يرغبون في التعدي على حقوق أحد وإذا رأت الشركات الانكليزية بعد الابتداء في جلب الماء إلى بيروت أن العمل هين والنتيجة حسنة يبادرون الى اجراء أعمال أخرى أكثر أهمية وهذه تأتينا برأس مال لأنها تشغل أبناءَ البلاد بمالها فضلاً عما يصرفهُ عندنا الأجانب الذين يأتوننا لمناظرتها والربح يكون أقل من ربحنا في المائة تسعة غروش وأكثر لأن الانكليز يرتضون في أن يحصلوا على ربح في المائة ستة أو سبعة غروش حال كون ربح المال الذي نأخذهُ منهم يكون في المائة ١٥ غرشاً أو ٢٠ غرشاً أو أكثر وهكذا يكثر المال فنتمكن من اقتناء الأرزاق التي قد نشرنا شيئاً من متعلقات قوانينها في هذا الجزء وسننشر كل ما نقدر أن ننشرهُ بهذا الخصوص ليقف الأهالي على ما يمنع عنهم غوائل التزوير أو التقصير أو غيرهما وهذا من أكبر أسباب الأمنية المعاشية ونتعلم من صناعتهم وآلاتهم ما لا نقدر أن نتعلمهُ بدونهم وهذا هو سبيل التقدم الصحيح فإذا عرفنا كيف نسلكهُ نجمع بين التقدم الأدبي والمادي وإلاَّ فيبقى تقدمنا تقدماً أدبياً غير مستند إلى الماديات فيلتزم أن يستند الى الخداع والمكر والعياذ بالله وبناءً على ذلك لا بد من ازالة كل العوائق التي تحول دون هذه الشركات ودون مرغوباتها التي إنما هي الجمع بين صالحها وبين صالحنا وإذا قصرنا في ذلك لا نقدر أن

نلوم غير أنفسنا لأننا نكون قد أتيناها بالخسارة وحرمناها أسباب النجاح المادي ولا ريب أن الحكومة السنية ترى هذه الأمور وعلى الخصوص حكومة لبنان والرؤساء الروحيون فيهِ لأن فقر لبنان واستغراقهُ في الديون لا ينفكان عن تكدير القوم وتحميلهم الضيقات المقلقة إلَّا بادخال المال اليهِ ولا استناد الى المواسم بعد أن عرفنا معدل دخلها مدة عشر سنوات وعندنا أن مداخيل البلاد في العشر سنين القادمة ستكون كمداخيلها في العشر سنين الماضية هذا إذا بقيت زراعتها على ما هي عليهِ الآن وبناءً على ذلك نقول إن باب الفرج هو واحد وهو ادخال المال الأجنبي في الأعمال العمومية لقيام رأس مال لنفع البلاد وتخليص العباد من فقر ليس بعده إلَّا الخراب.

التوفير السياسي وتحسين أحوال الأمة(*)

للهيئة الاجتماعية قوانين كثيرة يقوم بها أكثر أعضائها بدون أن يعرفوها ويحيدون عنها بدون أن يعلموا أنهم حادوا عنها فكأنهم أولاد لا يدرون ماذا يفعلون لأنهم يتقلدون الذين يربون بنيهم بدون أن يقصدوا التقليد ويستعينون بالذين هم أكبرهم بدون أن يعلموا أنهم أعوان لهم فإن العادة هي المحرك الأول وأساسها التقليد والاختبار وكذلك أكثر الناس ينقادون إلى ميادين الأعمال بالتقليد ولا يجمعون من الاختبار ما يستحق أن يسمى معرفة ولو بلغوا الشيخوخة فترى التاجر يقوم بالتجارة بدون أن يعلم ما هي أي بدون أن يقدر أن يعرفها وكذلك الصانع والحاكم والزارع وهذه الحال هي حالة الجهل ويكثر الذين يبيتون فيها كلما قلت المعارف ويقلون بكثرتها. والهيئة الاجتماعية لا تكون في انتظام ولا في تقدم وسعادة ما لم يكثر عدد العارفين بحقائق أعمالهم وأمورهم وبأسباب تقدمهم وتأخرهم وفقرهم وغناهم أو ما لم تَسُد سطوتهم على الأكثرية الجاهلة فنبيت بمساعدة الظروف آلة بيدهم يديرونها دوراناً مفيداً لها فإنهُ ما لم يعرف الصانع خصائص المواد التي يصنعها وكيفياتها وموازينها وتركيبها ونسبتها إلى غيرها من كل

(*) مجلة الجنان ١٨٧٥، ص ٢٠١ ـ ٢٠٥.

الوجوه لا يقدر أن يتقن الصناعة كما أن الحاكم لا يحسن السياسة ما لم يعرف القوانين والتواريخ وغيرها وبناءً على ذلك نقول إن انتشار المعارف هو الأساس الأول لتقدم الهيئة الاجتماعية وهذه الهيئة هي اجتماع مخلوقات بشرية لأغراض موقتة أو دائمة وأسباب ذلك الاجتماع الاحتياجات والمخاوف فالإنسان مفتقر إلى التعاون والتعاضد للقيام بالأود ولدفع المخاطر وهو بخلاف الحيوانات التي تعيش بالانفراد فهذه هي الهيئة الاجتماعية فالعالم الانساني كلهُ هيئة اجتماعية واحدة يتعاون في ما يناسبهُ التعاون بهِ على أن اختلاف المراكز والصوالح قد قسم تلك الهيئة العظيمة وهي العائلة البشرية إلى أقسام كثيرة واسعفتهُ المطامعِ في ذلك ولا سيما مطامع الملوك حتى أنها كاد بعضها يبيت منقطعاً كل الانقطاع عن البعض الآخر. ومن المعلوم أن لهيئة بعض المخلوقات الغير العاقلة كالنمل وبعض الطيور وغيرها انتظاماً متكفلاً براحتها وسعادتها وهو من الغريزيات في تلك الحيوانات وليس من الاكتسابيات كما في الانسان ولذلك تهون عليها المحافظة عليها أكثر مما يهون على الانسان أن يحافظ على انتظام هيئتهِ الاجتماعية. وتختلفان في أمور أخرى ذات أهمية عظيمة فإن هيئة اجتماع تلك الحيوانات إنما يتم انتظامها بوسائط طبيعية أي غير مصطنعة فدفاعها وهجومها إنما يكون بلا أسلحة صناعية وحصادها بلا زرع واحتياجاتها محصورةٌ في الحصول على المأكولات بالسعي وباقامة الأماكن المناسبة للتوليد أو لخزن الزاد أو لكليهما حال كون احتياجات الانسان قد باتت بلا حد ولا سبيل إلى أكفاءِ مطلوباتها فإن راحتهُ إنما تكون بالحصول على ما تطلبهُ نفسهُ ونفسهُ لا تنفك عن الطلب فإن حصولها على شيءٍ مطلوب إنما يقودها إلى طلب شيء آخر أعظم منهُ وهكذا إلى ما شاءَ الله فإن عمر الانسان محدود على أن عمر الهيئة الاجتماعية غير محدود فتسعى وراءَ الانتظام بمساعدة الحكومة فإنها روحها وأسوار نظامها وراحتها واستبدادها وأعز المطلوب عندها اتمام أعظم الأعمال في أقصر الأوقات فإن ذلك إنما هو من أساسات النجاح والتقدم. ولما كانت مطامع الانسان وأمالهُ بدون حد كان لا بد

لهُ من طلب توسيع دائرتهِ من كل الوجوه فيجتهد في توسيع أملاكهِ ودورهِ وتكثير مالهِ وخدمتهِ ولما كان لا يقدر أن يلبس من المنسوج ما هو كبير الحجم كما يقدر أن يعيش في أعظم القصور ولو كان جسدهُ أصغر الأجساد كان لا بد لهُ من أن يخترع ما يقوم مقام ذلك فاخترع الحلى الثمينة ولبس الجواهر فبات يلبس في أنملهِ أو على رأسهِ جوهرة ثمنها ثمن أعظم القصور. وبالجملة نقول إن هيئة الانسان الاجتماعية لها احتياجات شتان بينها وبين هيئة الحيوان الاجتماعية هذا وربما كان لا يصح أن نسمي اجتماع الحيوان هيئة اجتماعية لأن انتظامها محصور في الغريزيات وربما كان تقييدها بالغريزية أو بغير ذلك مما يدل على الفرق العظيم بينها وبين هيئة البشر الاجتماعية أصوب من وضع اسم آخر مراعاة لاجتماعها للتعاون في تحصيل المعاش ودفع المخاطر. وهكذا قد ظهر أن احتياجات هيئة البشر الاجتماعية لا تحد ولا تحصى فمنها ما هو مجد باطل يضر بالهيئة وبصاحبهِ أكثر مما ينتفع بهِ ومنها ما هو نافع على أن ضررهُ لا يخرجهُ من دائرة الاحتياجات المذكورة فللحصول على هذه الاحتياجات الحقيقية والنافعة أو المصطلح عليها والمضرة أو التي لا تضر ولا تنفع لا بد ـن وسائط وَهذه الوسائط لا يتيسر الحصول عليها بالصدفة وإذا تيسر ـلك يكون من النوادر التي لا يعتد بها ولذلك نقول إنهُ لا بد من السعي للحصول على الوسائط المذكورة فهذا السعي هو صرف زمان وقوة لأنهُ كيف يسعى الانسان بدون أن يكون حاصلاً على قوة السعي وبدون الزمان اللازم ليقوم السعي فيهِ فالقوة والزمان هما الواسطة للحصول على ما يسد تلك الاحتياجات فإذاً هما قيمة كل شيء لأنهُ لو أمكن كل انسان أن يحصل على الخبز بدون سعي في كل مكان لكان الخبز بلا قيمة فقيمة الخبز قيمة زمان السعي للحصول عليهِ وقوتهِ لأنهُ إذا لزم للحصول على رغيف خبز قوة انسان واحد ساعة واحدة تكون قيمة ذلك الرغيف قدر ما يقوم باحتياجات ذلك الانسان ساعة واحدة مثلاً غرشاً على أنه إذا كان لا يتيسر الحصول على ذلك الرغيف إلا بقوة رجلين مصروفة ساعة فتكون قيمتهُ مثلاً غرشين وقس على ذلك لأنهُ لا بد من

صرف قوة وزمان للحصول على كل شيء وقد جعلوا النقود واسطة للتبادل تسهيلاً وجعلوا الورق واسطة لذلك أيضاً لزيادة التسهيل ومجانبة الأخطار وضمنوهُ قيمة المال بوجود اسم متعهد بهِ فقيمتهُ قيمة بعض ملك صاحب ذلك المال أو كلهِ والأساس الأول الأمنية وبناءً على ذلك نقول إن قيمة الذهب والفضة قد جعلت بدلًا لكل الأشياء ولو كانت الحجارة قليلة كالذهب لرفع أثقال نقلها لساغ استعمالها بدلًا عمومياً فإن ثمن الحجر المتوسطة في بيروت مثلًا نصف غرش فلو اصطلح على أن يكون هو البدل العام وكانت قيمة ما يكلف الحصول عليهِ من القوة والزمان قدر الحصول على رطل من الطحين أي قدر الفرنك الفرنساوي لجعل بدلًا عمومياً إذا كان غير قابل التغيير بالهواء كالحديد مثلًا الذي يأكلهُ الصداءُ والحاصل أن أنسب المعادن لذلك الذهب لأنهُ كثير الثمن قليل الثقل والفضة لأنهُ يمكن الناس من الحصول على مبلغ قليل لابتياع الأشياء الصغيرة التي لا غنى لهم عنها. فالألماس ثمين لأنهُ يروق للعين والانسان مطبوع على أن يحب النظر إلى بعض الأشياء فيستحسنها ويستقبح غيرها فمن ذلك ما هو نتيجة العادة والبشر ولهُ تعلق بالمناخ ومنهُ ما هو طبع غريزي فالانسان مفطور على استحسان منظر الفرس الكريم وعلى استقباح منظر الخنزير كما أنهُ مفطور على أن يحب أن يتنشق رائحة زهر الياسمين وعلى أن يكره رائحة الأشياء المنتنة والنادر كالعدم ولا سيما إذ إنه نتيجة عوارض تغير الطبع البشري الأصلي من هذا القبيل بتضعيف الأعصاب أو غير ذلك. قلنا إن الألماس ثمين لأنهُ قليل فلو كثر كالحجارة يصير ثمنهُ كثمنها. فانتظام الهيئة الاجتماعية يكون بواسطة تكثير القوة وتقصير الزمان بالمعارف وبالتالي بالآلات التي تمكن البشر من استخدام القوات الطبيعية وهي قوة الانسان والحيوان والماء والهواء والبخار والبارود والقوة الكهربائية والمغناطيسية فإننا بواسطة الدواليب وغيرها نقدر أن نستخدم قوة حصان وثور في عمل لا يقدر أن يقوم بهِ أربعة افراس أو أربعة ثيران وفي زمان قصير وكذلك قوة الانسان فانهُ يقدر أن ينهض بالآلة المصنوعة لرفع الأثقال وهي المعروفة

بالعفريت ما لا يقدر أن ينهضهُ عشرة رجال وربما مائة رجل وبالماء تكبس بقوة عشرات من الرجال حال كون الماء أقل من حمل رجل والهواءُ يدير حجارة المطاحن ويحمل المراكب بواسطة الشراعة فقوتهُ لا تحد والبخار ينقل بساعة بخدمة عشرة أو عشرين رجلاً قدر أكثر من عشرة آلاف جمل بيوم فأين ذلك من هذا والبرق يكتب في دقيقة ما تخطهُ في سورية في أمركا مع أنهُ يقتضي لذلك زمان طويل واحتمال المخاطر لغيرهِ وقس على ذلك فكلما كثرت المعارف في الهيئة الاجتماعية تكثر فيها هذه الأمور وهي عبارة عن ازدياد قوتها وقصر زمان انتظارها للحصول على تلك النتيجة فإذا كانت مركبة من مليون من الذين يعملون في زراعتها وصناعتها وتجارتها يكون فيها قوة أكثر من ألف مليون رجل مع أنهُ إذا كانت الهيئة الاجتماعية بدون المعارف وبالنتيجة بدون تلك الآلات لا يكون فيها غير قوة مليون رجل وأين المليون من الألف مليون وإذا كانت آلاتها ابتدائية أي لتسهيل تبليغ القوة الحيوانية أي الانسانية والحيوانية لمركز العمل كآلة الفلاحة عندنا وآلة الدرَّاس ودواليب النواعير القديمة وكور الحداد تكون قوة المليون من الفعلة قوة مليونين أو ثلثة فقط والفرق بين الثلثة ملايين والعشرة وبين الألف مليون عظيم جداً فلو فرضنا أن في سورية مليون نسمة وعندها من الآلات البخارية وغيرها ما يزيد قوتها ألف مرة فماذا تكون نتيجة ذلك وكم من بلاد قدر سورية فيها أكثر من ثلثين مليوناً وبواسطة ذلك تقدر أن تقوم بأودهم وتمكنهم من جمع الثروة وفي بلادنا سورية الجغرافية أقل من مليونين وهم في حالة الفقر والشقاء بسبب الضعف وأراضيهم من أخصب الأراضي ومحصولاتها من أحسن المحصولات ولكن أين الآلات التي يستعان بها لاخراج الذهب من الأرض باتقان زراعتها وحراثتها وصناعتها وأين المعارف لاتقان تجارتها. وهكذا قد ظهر أنهُ لا سبيل إلى انتظام الهيئة الاجتماعية بدون الحصول على نتائج التمدن ولا يسوغ أن نقول إن الهيئة الاجتماعية قد وصلت إلى أعلى درجات الانتظام ما دام في الدنيا غيرها اتقن منها. ولا نلام على التأخر لأننا لا نعرف شيئاً مما يأول فعلاً

إلى تقدمنا إلى جهة انتظام هيئتنا فإن نفس فن التوفير السياسي مجهول عندنا فكيف تتقن الزراعة وفلاحونا لا يعرفون شيئاً عن تربية المواشي ولا عن خاصيات الأراضي والمزروعات ولا عن الوسائط اللازمة لتقويتها أو لجعلها مناسبة لما هو أوفق وأنفع فإن ما يعلمونهُ إنما هو بدون معرفة الأسباب وأكثرها مغلوط ومختلف عليهِ. وكيف تتقن الصناعة وأهلها عندنا لا يعرفون الطبيعيات ولا الكيميا ولا الآلات ولا غير ذلك مما ياول إلى اتقان الصناعة في البلاد فلو أرادوا أن يحفروا معدناً لما عرفوا أن يحفروهُ ولا أن يكرروهُ. أما التجارة فهي للخسارة في هذه الأيام فإن أسعار المسواقات أرفع من أسعار أماكن البيع وكثيرون من تجارنا لا يعرفون ما هو تحديد عملهم ولا علم الجغرافية والحساب ولا الأصول التجارية ولا قوانين البلدان التي لهم فيها صوالح وعمل هذا مع قطع النظر عن انصبابهم جميعاً على عمل واحد كان الله حصر الأعمال في اصدار بعض المحصولات وجلب البعض الآخر منها مع أن ميدان الأعمال واسع فليس يحتاج إلَّا إلى نشاط وبحث قليل ومخاطرة أقل من المخاطرة بأشغال الحرير في هذه السنين. فهذه هي أمور أساسية وأساسها المعارف والمعارف نفسها في يد كثيرين من غير أهلها فترى الأقلام العمومية في يد قوم لا يعرفون أحوال السياسة ولا التواريخ ولا الجغرافية ولا أصول التربية ولا القوانين الدولية ولا فن التوفير السياسي أو بالأحرى فن إدارة التوفير ولا قوة الممالك ونسبة بعضها إلى البعض الآخر تاريخياً وجغرافياً ولا القواعد الحكمية فتنميق العبارات وترجمة الأخبار السياسية والجمل العلمية لا تفي بالمقصود فإن مراعاة حالة الأمة من جهة الدين ومن جهة الهيئة الاجتماعية وعلاقاتها الدولية ووضع مبادي عمومية واسعة تتبع الكاتب في كل حال ليستند إليها كيفما سار ومعرفة تلك الفنون معرفة مقترنة بمعرفتهِ احتياجات الأمة ليتمكن من تبليغ القوة إلى مراكز العمل بالنوع المناسب والموافق لأنهُ ما لم تكن بين قلم الكاتب وحاسيات الأمة علاقة مناسبة لظروفها في أمور ولو خالفتها في أمور لا يقدر أن يجد لنتاج قلمهِ قبولاً عندها يصلحها شيئاً فشيئاً

بالملاقاة والموادة والملاطفة وبالتحريض والتنكيت الناتج عن الحب والطالب الاصلاح لاستقامة المصلحة واستبداد الحال. وبدون ذلك لا تنتظم الهيئة الاجتماعية وعلى الخصوص إذا لم يكن السائسون قدوة حسنة للمسوس وكم من مرة قد بينا الفرق بين حالة حكامنا في هذه الأيام وحالتهم في الأيام الماضية وما ذلك إلا من اجتهادات الدولة العلية ومع ذلك لا نزال نرى بعض أعضاء بعض مجالسنا لا يعرفون القوانين التي يحكمون بها وبعض قضاتنا يجهلون من الشرعية المطهرة أكثر مما يعرفون وبعض حكامنا لا يعرفون التواريخ ولا كل النظامات ولا أصول السياسة ولا الحساب ولا جغرافية مملكتهم ولا مقاطعتهم حتى أن بعض المتوظفين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ولا نقطع الأمل من الوصول إلى المرغوب لأن الحكومة والأمة لا تزالان تتقدمان وابطاء التقدم نتيجة الضعف وهيئتنا الاجتماعية سائرة في الطريق وهل يقدر الانسان أن يضبط الأعمال وهو على سفر قدر ضبطها وهو مشغل بها دون السفر. فالأمة ترى سقطات حكامها وهي متقدمة بالمعارف إلى جهة الانتظام أكثر مما تراها وهي في حالة فتية لم ترَ غيرها ولا سمعت بها ولا سيما إذا دخل سلك الاستخدام السياسي رجال هم من موخرة ذلك الركب وليس من طليعة الأمة السائدة. وهذا يدخل خللاً وفساداً في العادات لأن انتقال الانسان من عوائد إلى عوائد يجعلهُ يخلط الغث منها بالسمين ويبدل الحسن بالقبيح ويقتبس بعض عادة جديدة وهو محافظ على بعض عادة قديمة عجز عن تركهِ مع البعض المتروك أو احبهُ فلم يقدر أن يريق كل دمهِ ليسوّد العادة الداخلة كاقتباس عادة تجليس النساء في مجالس الرجال قبل أن يتعلمن الكلام عن غير الخطبة والزواج والأثواب والأدهان فلا يلزم أن نخيب أملاً عندما نرى أننا بتنا في ذلك الاضطراب فإنهُ لا بد منهُ عند الانتقال غير أننا نخاف سوءَ عواقب الفقر لأن وسائط الثروة آخذة في الضعف وماليتنا آخذة في الأقلال لأن الحوادث الماضية قد حبست عنا ينبوع الثروة وهو توسيع دائرة أملاكنا في الأراضي المخصبة التي لا يعرف فلاحوها أن ينتفعوا بها بإصلاح زراعتهم

والعارفون بذلك لا يقدرون عليهِ بسبب ضعفهم المالي فلو كان ديدن الحكومة عندنا سنة ١٨٧٢ تنشيط أصحاب القدرة المالية في شمالي الولاية وشرقها وغربها وجنوبها وتحريضهم على اصلاح أحوال الزراعة وإنشاء المغروسات لما بتنا نرى كل قوتنا المالية مصروفة في سبيل واحد ضيق الدائرة لضيق دائرة الزراعة فنتجت المناظرة المضرة عن ذلك في أسواق التجارة وبات سعر سوق المسواق أرفع من سوق البيع لأنهُ من يا ترى يعرض نفسهُ لأتعاب اقامة الدعاوي وخسارة المال والزمان ما دام قادراً على أن يتجنبها ولا ريب في أن الحكومة الحالية تجتهد في ترجيع تلك الأمنية الضرورية لأن مساعدة الفلاح لا تكون في ابعاده عن ينابيع المالية ولكن في تقريبهِ منها لأنها تسهل لهُ الحصول على نتاج الأرض وتسوقهُ إلى الجد والكد والنشاط فيزيد دخلهُ وتتحسن حالتهُ إذا صادف معاملة حسنة أو غير حسنة وتركهُ وحدهُ بدون مسعف مالي خراب عليهِ والشواهد كثيرة لأنهُ في السهول كسلان جاهل يحرق الزبل عوضاً عن أن يضعهُ في أراضيهِ. ومن المعلوم أن ادارة التوفير لا تسلم بأمور كهذه لأنها تعلم أن نتائجها الخراب وهي التي تكاد تخربنا وأضر من ذلك السياسة التي تحافظ على الحالة الحاضرة خوفاً من أن تبيت نسبة بعض الطوائف إلى بعضها الآخر في المستقبل غير نسبتها الحاضرة من حيثية القوة المادية والأدبية لأن أبعاد أسباب القوة عن تلك المراكز الزراعية العظيمة يحجبها عنها نفسها فتضعف أهلها وأهالي الأماكن التي لا تقدر أن تحصل على الثروة بدون الاستناد إليها. فما دامت الأكثرية العددية لأهاليها لا خوف من وقوع الخلل في الميزانية العددية ولو فرضنا المحال ووقع الاخلال في ذلك وبات الداخلون أقوى من الأهالي الأصليين فما هي يا ترى الأضرار التي تنتج عن ذلك ومن الموكد عندنا أن سياسة والينا الأسبق حضرة صاحب الدولة راشد باشا وزير خارجيتنا السابق كانت خالية من هذه الأكدار لأنهُ كان يعلم أن الزراعة بلا المال كالطير بلا جناح وإن الجمع بينهما إنما يكون بتسهيل أسباب اجتماع صوالحهما ولو دامت تلك السياسة ست سنوات لربحت الدولة

العلية من زيادة المحصولات ثلثة أضعاف مداخيلها الحالية وخلصت البلاد من ضيق دائرة أعمالها مع اتساع أفكار أهاليها فلو عرف جميع الحكام الأولين التوفير السياسي لكانت اجراءاتهم موافقة لصوالح الولايات والمتصرفيات التي يحكمونها ورفعوا عن الأهالي أثقالاً لا تنحصر في نتائجها القريبة الظاهرة ولكنها تمتد إلى جميع الأعمال كالسم في العروق إلى أن تدرك القلب. ولا يخفى أن الاهتمام في البحث في هذه الأمور يحمل السياسة على المبادرة إلى مراعاة صوالحها وصوالح الأمة. أما الكلام عن أمور خصوصية في جملة معنونة بالتوفير السياسي لا يعد خروجاً من الموضوع لأنهُ مثال لايضاح نفع الفن ولو فرضناهُ خروجاً فالمقصود الافادة وليس مراعاة أصول ليست الكتابات العمومية مكلفة بمراعاتها كالكتب المدرسية.

جملة سياسية(*)

بوضع القواعد الصحيحة للادارة سياسية كانت أو مالية وبمراعاتها بحيث لا تبقى نائمة في بطون الأوراق تستقيم أمور الأمم وتستتب أحوالها وترفع شؤونها وترتفع قباب الفوز والراحة فوق رياض الأمن والرفاهية والتقدم والنجاح وتغرد طيور الحبور والسرور في أغصان توفيق الأعمال فتجني الأمم ثمار الثروة المستمرة النمو وتزدان بزهور الأدب وحلى المعارف وترفل في أثواب العز المجرورة أذيالها في ميادين المساواة وانتظام الأحوال وشتّان بين هذه الحال وحالات الأمم التي لا قواعد لسياستها ولا أسس لإدارتها المالية فتراها في تقلب ناشيء عن تقلب الادارة يسلب راحتها ويعربس أعمالها فلا تستقر على حال ولا تدرك لاجراءاتها أصولاً ولا لمداخيلها انتظاماً. فالسياسة ذات نواميس كالطبيعة فتضر وتنفع وتخفض وترفع. ومتاعب الشرق ومشاكلهُ وفقرهُ وعناؤُه وجهلهُ وضعفهُ ناشئة دون ريب عن التقصير في مراعاة النواميس الادارية. وقد اجمع الكتاب من أهل السياسة ووافقهم رجالها على أن الأمم كالناس لا تقدر أن تنمو غير نمو طبيعي

(*) افتتاحية ج ٢١، مجلة الجنان، ١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٨٠، ص ٦٤١ ـ ٦٤٣.

فالطفل لا يصير صبياً في سنة والصبيُّ لا يصير فتى في شهر والفتى لا يصبح رجلاً في أسبوع. وإذا راجعنا تواريخ الأمم التي جاءَت بمعجزات هذا القرن نرى أنها لم تدرك شأوها الحالي إلا في قرون عديدة ولولا أحوال مصر في هذه السنة لحكمنا دون ريب أن الشرق لا يقدر أن يدرك شأوها إلا في قرون فإنهُ ليس في الحال أقدر على التقدم مما كانت هي منذ ثلثة قرون. على أن مصر انتقلت من حال إلى حال في سنة وأصبحت قراطيسها المالية الممتازة في سعر قراطيس انكلترا وإدارتها في حالة لا يقدر من يتأمل فيها في الحال أن يعرف من المشاهدة أنها حالة بلاد كانت على ما كانت عليهِ مصر منذ سنة وسنتين. فتقدمها السريع مالياً وإدارياً وأدبياً مع تغير حالتها بالمشروعات النافعة كالطرق الحديدية والفرض والترع والأسلاك البرقية والبـرد وغير ذلك في عشر سنوات يدل على أن الحكم بان الأمم الشرقية لا تقدر أن تتقدم إلا كتقدم الأمم الأوربية خطا مبين. ولا بد من أن يكون ذلك ناشئاً عن أسباب جوهرية تمكن الطفل من أن يصير صبياً في وقت أقصر من الوقت الذي عينتهُ الطبيعية لذلك. ولا تكون أسباباً غير طبيعية. فالبحث عنها مهم جداً عند الشرقيين أجمع ليعلم أهالي مصر الأسباب التي نقلتهم بسرعة من حال إلى حال ويقف أهالي الشرق عليها ليقتدوا بها. ومن المحقق أنهُ قبل التأمل مع مراعاة الأصول التاريخية والسياسية يستصعب الانسان اكتشاف أسباب يوهم ظاهرها أنها خرقت ناموس الطبيعة وصيرت الطفل صبياً قبل الوقت اللازم لاستيفائهِ النمو الطبيعي. على أنها بسيطة جداً يسهل اكتشافها على الذين دأبهم درس الأمور السياسية. فمن المعلوم أن الأمة الشرقية خارجة من تمدن كان ينبوع التمدن الحالي وأن الطوارىء الخارجية أضعفتها وهي في شرخ شبابها فضعفت. وما هذهِ الطوارىء غير ظلم الحكام واستبدادهم وترك الطريقة الشوروية والابتلاء بالانقسام الذي أضعف القوى وجعل الملوك والأمراء يصرفون النظر عن المحافظة على ذلك التمدن وتقدمهِ ويعكفون على الاهتمام بالحروب والمناظرات وغير ذلك من العلات المتعددة التي لا

نخطىء إذا قلنا إن اساسها واحدٌ وهو الاستبداد أي الحكومة المطلقة. فتكون الأمم الشرقية قد باتت في تأخرها العظيم من جرى أسباب اضعفتها وهي في شرخ الشباب كما مرَّ فليست أمة خارجة من الخشونة يلزمها أن تعاني مشقات الولادة التمدنية ولا أمة نشأ عجزها عن شيخوخة فانحلت ولم يبقَ منها إلا الأمم وخلفتها أمم أخرى استولت عليها فاندمجت بها فأضاعت استقلالها الوجودي. والشاب الضعيف من أمراض مهما كانت شديدة إذا عالجهُ طبيب ماهر منانٍ متروٍ فشفى ترجع إليهِ القوة الصحية في برهة قصيرة. وفضلاً عن ذلك ليس على الأمم الشرقية في هذا الزمان أن تخترع أسباب التمدن وتكتشفها فإنها موجودة فما عليها إلا أن تنقلها عن أوربا. مع أن الأمم الأوربية التي صرفت قروناً قبل بلوغ ما بلغت من التمدن تناولت من الشرقيين أي من العرب أصلاً صغيراً جداً للتمدن العلمي والصناعي والزراعي والتجاري والإداري الذي بلغتهُ أوربا وأدركت شأوها الحالي بجد عظيم وكد مستمر وتجارب وخسائر وامتحانات عظمت فضلها واستغرقت زماناً طويلاً. وقد أصبحت مصر برهاناً جلياً يثبت صحة ما تقدم. فإن انقطاع حكومتها عن كل نفع شخصي إلى مراعاة خير القطر العام ووضعها قواعد سياسية ترى يد الجناب الخديوي محافظة عليها دون كلل ولا ملل ومبادرتها إلى اقتباس ما يحسن ويوافق الحال عن أوربا جعلت ذلك الشاب العاجز عن مرض يتقدم نحو الشفاء بسرعة عظيمة حيرت العقول في الشرق والغرب وارجعت أمل الأمم الشرقية بالتقدم بعد أن كاد ينقطع. وهذا الشاب المصري لا يلبث أن يفقه ويأخذ في أن يتقوى لأن كل عمل من أعمال الحضرة الخديوية ووزيرها الأول وسائر الوزراء يدل على أن الاصلاحات التي تمت بالمالية وفي قسم مهم من الحقوق وفي النافعة وغيرها أخذت في الامتداد السريع. ونرى أعين أهل الشرق قاطبة شاخصة في ذلك القطر بعجب وسرور وخفقان قلوبهم لا ينقطع خوفاً من أن تتغلب العادة على القطر فتذل اقدام رجال ادارتهِ فيعود إليهِ مرضهُ بعد أن فتر وكاد يدخل حالة النقاهة. غير أن طباع الملوك والأمراء وتعقلهم ضمانات تزيل كل خوف فإن الجناب

الخديوي توفيق يميل طبعاً إلى التمتع بالراحة الإدارية ليتفرغ للتحسينات والمرقيات وقد ذاق حلاوة ادارة بلاد أهاليها يحبون حاكمهم ويتقدمون بعنايتهِ وقد اختبر وزيرهُ الأول من كل وجه وذاق مجد الفوز بقصبات السبق في الميدان العظيم الأهمية الذي أصبح فيهِ ورأى أعين الناس شاخصة في قطره وأوربا تبسم سروراً باستتباب أحوالهِ وقد تم لهُ كل ذلك في سنة بخدمة وزير أول ووزراء نفذوا ارادتهُ وقاموا بصالح القطر قياماً أكسبهم من الثناء ما لا مزيد عليهِ. ولذلك أصبحنا على يقين أن مصر تستمرُّ قدوة للشرقيين مومّلين أن نهاية المشاكل التي نشأت عن الحرب تكون عندنا بداية الدخول في دورنا الجديد.

القسم الثالث

مختارات

في الوطنية والعروبة

نحن(*)

كيف لا نهتمُّ بمستقبلنا ونذم أو نمدح حاضرنا، ونحن هم الذين يهمهم ذلك، لأننا نجتني المنافع من أيـدي الزمان، ونحتمل ما يسوق إلينا من الأضرار. كيف لا نقول هذا لا يوافقنا وفي ذلك نجاح لنا. كيف لا نتمنى النجاح لزيد وعمرو وهند لأنهم يفعلون ما يأتي لنا بالسعادة والنجاح والتأخر لخالد وبكر ودعد لأن في أعمالهم ضراً لنا. من ذا الذي لا يقول يا حبذا لو كان لنا الأمر الفلاني، ويا ليت الرحمن يطرح ذلك الشر في دركات الهلاك، ويرفع هذا الخير إلى قمة النجاح. هذا وكلٌّ منا يعرف حق المعرفة أنهُ لا بد من أن يدخل الشرُّ إبرهُ في خلال الشهد. فإن كان لنا ملقط نلتقط بهِ تلك الأبر أمنّـا وكزها. وإن قصَّر الملقط عن القيام بحقّ العمل لأنهُ مفرَّض أو مكسورٌ أوصدىءٌ نحاول تصليحهُ فإن اصطلح فنعمًا وإلاّ فلا حول ولا، وهذا هو حال أهل الدنيا وعلى الخصوص من كان منهم مستأمناً على عمل غيرهِ، فإنهُ يلزم لكلٍّ منهم من يسهر عليهِ ليرى هل قام بحق واجباتهِ أو قصر فيها بالتهامل، أو التغافل، أو الخيانة. وكل مستخدم ليس لهُ من يناظر على عملهِ حق المناظرة يداخله الكسل أو الطمع أو غيرهما. لأن الانسان يميل طبعاً إلى الابتعاد عن سبيل واجباتهِ. فبناءً على ذلك يجب على من يرغب أن تكون اشغالهُ متقنة أن يلاحظها. وكذلك الأحكام. لأن المستخدمين يوقِعون الخلل في وظائفهم ما لم يكن المأمور الأول منتبهاً إلى ملاحظة

(*) مجلة الجنان ج ٤، شباط/فبراير ١٨٧٠، ص ٩٧، ٩٨.

أعمالهم. وعلى الخصوص لأن الضابطيّ مثلاً يقتدي بقائد المائة، وهذا بقائد الألف، وهذا بمن هو أعلى منهُ، وهكذا حتى ينتهي الأمر إلى المأمور الأول في المكان. لأن الإنسان يحذو حذوَ من هو متسلط عليهِ في كل ما يناسبهُ. وعلى الخصوص في ما يميل اليهِ الانسان طبعاً من الأمور الفاسدة. وإن كان شأن المتسلط الاستقامة يتجنب من هو دونهُ كل ما يجلب عليهِ اللوم. وذلك يأول إلى ضبط الأحكام وترويج أشغال الأنام. وإلّا فتصبح البلاد والعباد في خراب وخسران. لأن الشعب لا ينال راحة ما لم يكن الذين يتقاضى إليهم من ذوي الاستقامة لا ممن دأبهم فعل ما يسوق اليهم نفعاً خصوصياً. والذي يمنع الانسان عن ارتكاب المنكرات هو أحد ثلثة أمور، أو جميعها أو بعضها، وهي الدين والشئمة وخوف الحكّام. أما الأول فيكاد يكون في فقدان. والثاني إنما يكون بحسب العادة، والأخير يقوم بالسطوة والعدل والتدقيق. فإن أفلت البشر من هذا اللجم يحلُّ بالعالم الويل والهوان. ولا يخفى أن أهمها لنسبتنا العالمية هو الأخير لأنهُ أشد سطوة في هذا العصر. ولذلك أقلُّ تغاضٍ يضرُّ بالأعمال، وعلى الخصوص في الشرق. لأن أحوالهُ كانت في ارتباك وأحكامهُ في فساد. وليس المراد ان الحاضر قد محا كل تلك الآثار. لأن هذا إنما يكون بحسب حال الحكومات المحلية. فإن كل شأن مأموريها النشاط والانصاف تجري الأمور في مجاريها، وتملك الراحة والسعادة في قلوب العباد، وإلا فيعمهم الويل والخسران. ومن أكثر وأقبح وأضرّ عناصر الفساد الرشوة. لأنها أشدُّ الأشياء ميلاً بقلوب الحكام. ومع ذلك قد يمكن تقليل حدوثها، وربما منعها بالكلّية. والبرهان على ذلك قريب منّا. والدواءُ الشافي لذلك هو إجراءُ الشرائع والقوانين بدون مراعاة ولا تمييز. لأنهُ متى رأى زيد أن ارتكاب عمرو الرشوة قد أفضى بهِ إلى الويل والخسران، يمتنع عن قطع سبيلهِ حذراً من مصادفة ما صادفهُ، والخلاصة أن إجراءَ العدل في المكان يكاد يكون متعلقاً بالمأمور الأول. غير أن فطرة أهل المكان هي مما يقوّي أو يضعف ذلك المأمور. أما الشرقيون فيكادون يكونون مفطورين على ذلك. لأن رداءة الأحكام الماضية قد عودتهم ذلك، حتى

أنهم يكادون لا يعرفون أن يقيموا حجَّة أو يفصلوا نزاعاً من دون أن يرشوا أو يرتشوا والعياذ بالله. أما الآن فالحال هو على غير ما كان عليهِ قبلاً. وعلى الخصوص لأن أعين المعارف قد انفتحت، فأصبح ستر الرياء لا يقوم بحق الاستتار كما كان يقوم قبلاً. فأمسى ما يجري في مخادع السرّ منشوراً على سطوح الافتضاح. فبناءً على ذلك لا بدَّ من الميل عن سبيل الماضي في كل مكان لم يمنَّ على أهلهِ الزمانُ بمن يقودهم إلى السبيل الذي قد مهّدهُ حضرة مولانا السلطان. فيجري الحال على أحسن منوال، ونتخلص من خطر الوقوع في مهلكة الحكم الفاسد وتحت إمرة الذين يشترون الوظائف بالمال لا بالاستحقاق. ومن نظر إلى الماضي وقابلهُ بالحاضر ينثني متعجباً ويقول أَأولئِك نحن.

جملة سياسية(*)

لو صحت الأمور في سائر الأقطار الشرقية، كما صحت أمور الديار المصرية، لحق لنا بأن نفاخر الأوربيين الذين عندما كانوا يذوقون مضض الانتقال من حال إلى حال كما أمسينا نذوقه يبلون مثلنا ببلايا الحروب الخارجية والأهلية، وهي أردأ عواقب منها، لم يكونوا يقدرون أن يقطعوا في زمان قصير المراحل التي طوتها مصر في سبيل التقدم والانتظام بعد الاختلال، والاستغناء بعد الافلاس عقب احتمال خسائر الحروب وبلايا الثورات الأدبية والمضايقات السياسية. ولقد طالما هزأ الغرب بنا، واستخف بأهليتنا، وقال إن الشرق خالٍ من الرجال الذين يقدرون أن ينزهوا أنفسهم عن الأغراض الشخصية والمطامع المعيبة، ويوقفون أنفسهم في سبيل حب الوطن فيصرفون كل جهدهم في ترقية أسباب تقدمهِ واستتباب أحوالهِ واستقامة أمورهِ. فرجال مصر الذين ليسوا إلّا من جنسنا أو شرقيين مثلنا وقد ربطوا بالرباطات السياسية التي ربطتنا منذ نحو ألف وثلثمائة سنة بل في تواريخنا وتواريخهم ما يشف عن أكثر من ذلك قد رفعوا العار عنا ومكّنونا من أن نفاخر الذين كانوا يعيروننا في زمان كادت تبيت فيهِ أحوال الشرق في ضياع

(*) افتتاحية مجلة الجنان ج ٧، نيسان/ابريل ١٨٨٠، ص ١٩٣، ١٩٤.

بصدمات الأعداءِ، وانتشاب نيران الحروب الأهلية والأغلاط الإدارية والتوفيرية. ومن تتبع الأخبار المصرية منذ نحو سنة ودقق النظر فيها الآن بِخُلوٍّ الغرض ومراعاة الصعوبات التي لا يتم الانتظام بعد الاختلال، ولا يفاز بالراحة بعد التعب دون التغلب عليها. يرى أن مصر بلاد الغرائب بالأمور السياسية، كما هي بلاد المعجزات بالزراعة وسرعة التقدم فيها. ولم تعق إلى الآن عن إتمام جميع التدبيرات التي تؤول إلى استقامة أمورها المالية وإراحة أهل الزراعة وإرجاع الأمنية المالية التي تبث في البلاد روحاً تُنهض الأعمال من تأخر موقت طرأ عليها إلّا بالاختلاف الذي كان يقع بين الدول ويعود عليها بالضرر. لكن الظاهر أن الله سبحانهُ وتعالى لم يرضَ أن تذهب أتعاب الجناب الخديوي العالي ورجال حكومتهِ سدى، بعد أن افرغت العائلة الخديوية جعبة ثروتها في خزينة البلاد، وأصبح المعوَّل عليهِ عند توفيقها ورياضها وسائر رجال حكومتها الصالح العام وليس الصالح الخاص، والارتضا بما هو ممكن الحصول عليهِ وليس محاولة نوال المحال. فالحكمة وحب الوطن وسد الآذان عن تنديدات أصحاب الغايات أخرجت الخديوية المصرية من وهدة الخلل والافلاس والشقاق، ومن أن تكون ألعوبة في أيدي رجال سياسة ومالية لا يتأخرون عن استغنام سنوح الفرص للانتفاع من أغلاط الذين في أيديهم.أزمَّة الأمور، إذا رأوا أن أعمالهم ليست بذات قواعد ظاهرة، وأن غاياتهم ليست منحصرة فيما يؤول إلى خير البلاد الفعلي. فالإخلاص والحكمة وحب الوطن واستقامة التصرف ومراعاة خير الفلاح المسكين وأصول التوفير السياسي والارتضا بما يمكن الحصول عليهِ، خلّصت مصر ونجّتها من الأيدي التي استمرت تلعب بها سياسياً ومالياً لإضاعة ذلك القطر الجميل، وجعلت أهلهُ في نكد وإقلال. وراحة البلاد المصرية تهم جداً أهالي سورية، لأن كلًّا من البلدين مرتبط بالآخر بالرباطات الأدبية والتجارية والمالية، فتقدُّم مصر الأدبي يزيدنا تقدماً أدبياً، وازدياد ثروتها ورواج أسواقها المالية والتجارية يزيد ثروتنا ويفتح أبواباً لاشغال ألوف من السوريين من القاطنين فيها، والذين لهم في ربوعها

صوالح سبقوا اليها بضيق مجال بلادهم بسبب حالتها، وليس بسبب ضيق أراضيها، ولا عدم موافقة مركزها. ولولا معارضات ايطاليا الأخيرة لرأينا دَينها السائر في انتظام منذ بضعة أيام كما تنظمت سائر ديونها. على أن الله سبحانهُ وتعالى قد أنالها، فجارت سائر الدول، وأزالت مشاكلها، وتقرر أمر القرض الروتشيلدي. والمأمول أن ينتهي تنظيم الدَين السائر في أقلّ من شهرين بواسطة لجنة التصفية، وحينئذٍ تأخذ الحكومة المصرية العليّة الهمم الصحيحة القواعد في أن ترقّي البلاد أدبياً وزراعياً بنجاحٍ وسرعة كما رقّتها مالياً وإدارياً في مدة قصيرة. وأهمية الأعمال تظهر بنتائجها والإصابة بعواقبها، فلا يعبأ بالمنددين والمنكتين، الذين لا يرتضون ما لم يكن لهم فيهِ صالح خاص، فإن جميع الذين دققوا التأمل في أحوال مصر قد حكموا بأن حكومتها خطت خطوات مصيبة، وإنها نجّت الأمة من آفات ومصائب كافية لأن تضعضع أحوال أقوى الأمم. ومن أسباب صيانة مصر، إذا كانت الحكمة وحب الوطن أساس سياستها، غزارة ثروتها وسهولة الحصول عليها، ووقوعها في طريق أوربا المؤدية إلى الشرق الأقصى، فهي كباب عام لجميع أممها، فلا يوافقها إلّا أن يكون سالماً مرتباً نظيفاً خالياً من الاضطراب والخلل. فهي قطر لا غنى عن حيادتهِ، كما أنهُ لا يستغنى عن انتظامهِ، وقد توجهت الخواطر إليهِ واهتمت الألباب بهِ، وقد وفقهُ الله إلى ما وفقهُ إليهِ، فعليهِ أن لا يجحد النعمة وأن يلبث على ما شرع فيهِ. وأثمار مصر لا يطول زمان نضجها ففي أقلّ من عشر سنين نقول أهذه هي مصر سنة ١٨٧٩.

جملة سياسية(*)

لو شآت(١) فرنسا لخلصت الصين من الورطة الوخيمة التي أوقعتها فيها بالامتناع عن طلب غرامة لعجز خزينتها عن تأديتها ثم إنهُ لما خفضت المبلغ الذي طلبتهُ علمت أن الصين لا تقدر أن تقوم بدفع

(*) افتتاحية ج ١٧، مجلة الجنان١ ايلول/سبتمبر ١٨٨٤، ص ٥١٣، ٥١٤.

(١) يقصد لو شاءت.

الباقي لأنها وفيرة السكان قليلة المال، وهي أعظم الممالك عدداً وأضعفها قوة وأقدمها تاريخاً ومدنيّة، وأجهل الأمم المتمدنة للفنون الحربية العصرية وللتدريبات العسكرية. فألوف الأوربيين يهزمون كراتها، وجنودها لا يصبرون على نيران الأسلحة الحديثة، ولا يثبتون في نزال جيوش هذا الزمان. ولا نعجب من مبادرة الحكومة الفرنسوية الى استغنام سنوح الفرصة لاستئناف الحرب حين أبت الحكومة الصينية أن تدفع مبلغاً لو شآت[٢] أن تنفذهُ لما وجدتهُ في خزينتها، ولا قدرت على جمعهِ من رعاياها ولا تسنّى لها استقراضهُ من أوربا لأن الفرنسويين رأوا بعد أن لموا شعثهم، وجمعوا شتاتهم، واستقرت أحوالهم، إنهم من أقدر الشعوب الأوربية وأغزرها مالاً وأشدها حمية، ومع ذلك لأمم من درجة ثالثة مهاجر أوسع من مهاجرهم، وشأن الفرنسويين أنشأ[٣] المستعمرات وفتح البلاد، وفي أوائل القرن الحالي وأواخر الماضي، وقبل ذلك استولت على بلاد فسيحة الأرجاء في القارة الأمـركية والهند والمحيط والبحر المتوسط وغيرها وتسلطت على شعوب مختلفة، ولكنها لم تلبث أن أشغلت بأمورها الداخلية، وفتنها وثوراتها عن مهاجرها، وأضاعت من قوتها البحرية جزءًا خطيراً، فعجزت عن صيانتها من الإنكليز، فتبوأوها واحدة بعد واحدة، حتى قيل إن فرنسا تفتح البلاد وانكلترا تستولي عليها. وشأن الفرنسويين متى استراحوا من الهموم الخارجية الاشتغال بأمورهم الداخلية، فتلتزم حكومتهم أن تشغل خواطرهم على الدوام بأعمال حربية واستعمارية خارج تخومهم. وإذا تأملنا في أحوال أكثر الشعوب الأوربية، تتحقق أنهم يترقبون سنوح الفرص لإنشاء المهاجر وتوسيع أملاكهم لأنهم تكاثروا حتى ضاقت أراضيهم دونهم، فوجّهوا عنايتهم إلى الصناعة وأتقنوها وبلغوا بها شأواً جعلهم قادرين على استجلاب المواد من أقاصي الأرض، وردّها على سكانها مصنوعة، فنبغوا بالتجارة أيضاً ترويجاً للصناعة وتحصيلاً لما يحتاجون إليهِ من البلاد الأجنبية، بدلاً

---

(٢) يقصد لو شاءت.

(٣) يقصد انشاء

مما ينتفعون بإرسالهِ اليها. ولما قلّت عندهم أسباب المعاش والكسب بوفرتهم انتشروا في أبعد الأقطار، بعد أن تفرقوا في القريب منها طالبين الرزق والربح ببيع مصنوعاتهم ومستغلاتهم، وشراء الأشياء التي يحتاجون إليها. ولما كانت الأمم مفطورة على حب الاستقلال، وإن كانت في درجة دنيّة من التمدن أو في حالة بربرية، كان لا بد للدول الأوربية من أن تجعل أسلحتها سابقة لتجارتها ومصاحبة لها لاكراه تلك الأمم على فتح ثغورها لرجالها وصيانة مصالحهم من تعدّيات قبائل وشعوب يتعاظم بغضهم لهم بإنفاذهم قوة في ربوعهم يخشون عواقبها لتوهمهم أنها بسلب ثروتهم والإحجاف بحقوقهم. فالمقاومة التي يخال لهم أنها تبعد ذلك المكروه عنهم، وتصون مصالحهم واستقلالهم، تعود عليهم بالوبال والخسران. لأن الأوربيين عقدوا النوايا بما تقتضيهِ ضرورة الأحوال على الاتجار في البلاد الأجنبية، فإذا مُنعوا عن نوال المرام بموانع تلقيها حكوماتهم في سبيلهم، أو تعدّيات تسلب بها أمنية الأنفس المتجاورة، أو ظهر منهم ميل إلى دولة غير الدولة التي لرعاياها صوالح خطيرة عندهم، يبذلون قوة السلاح، وفي الغالب تسوءُ العواقب وتخسر الحكومة المحلّية استقلالها، أو جزءًا عظيماً منهُ. ولم تسبق روسيا الى فتح خانات أواسط آسيا إلّا لبُعد أهلها، بل حكوماتها على التجار الروسيين، ولسان حال أوربا يقول بأجلى بيان ضاقت القارة بأهلها، ولم يبق سبيل إلى الكسب وتحصيل المعاش فيها، فلا بد من الانتفاع في البلاد الأجنبية التي فيها أسباب الاستفادة برضى أهلها، وإن انفوا فعلى رغم الأنف وأوربا تسند احتياجها إلى التفرق والاتساع بالسلاح، وقوتها التي لا تضاهيها قوة في قارة آسيا وافريقية قادرة على التغلب على جيوش تزيد كثيراً عنها، وإذا رأت مصالحها مصونة وجارية في مجاريها، ولم تخش ميلاً إلى دولة أخرى لا تثير الحروب، على أن أكثر الشعوب في آسيا وإفريقيا تفعل ما يسوق الدول الأوربية الى الايقاع بها وتحصيل حقوق منها كانت راضية بنصفها أو الاستيلاء عليها، أو وضعها تحت حمايتها، أي تحت سلطتها. وتسر حكومة فرنسا بما تفعلهُ بعض أمم الشرق وغيرها لأنهُ يفتح لها أبواب

التداخل بالسلاح وإلهاء الفرنسويين هناك. ففي تونس ادّعت أن معاقبة عشائر الخمير حملتها على فعل ما فعلت. ويقال إن ما رأت الميل الحقيقي الموهوم في حكومة البلاد إلى ايطاليا، جعلها تقوم بما أبت أن تقوم بهِ في المؤتمر، وما ذلك إلّا لخوفها من اتحاد الحكومتين واتفاقهما على الاضرار بها. ولو لم تكثر فرنسا طلب الغرامة، أو الجزاء النقدي، لما تيسر لها الاستيلاء على أماكن خطيرة في الشرق تجعل لمصلحتها في ترعة السويس موقعاً عظيماً عندها، فلا تقول لها انكلترا بعد ذلك أن تمسك بأمور السويس سياسة عاطفة لا صالح. وأما المانيا فتسهل لفرنسا الاستعمار، لأن من شأنهِ تحويل عنايتها إليها فتلهو بمهاجرها عن ثأرها وضغائنها في أوربا، ويعظم فيها الميل إلى السلم، كما عظم في الهولانديين والانكليز، فيرتاح بال ألمانيا من جهتها، وتوجه عنايتها إلى ما تدعوها اليهِ صوالح اتحادها فعلى أهل المدارك من غير الأوربيين أن يحسبوا حساباً لهذه الأمور، ويجعلوا نهجهم مبعداً لما يكرهون مقرباً لما يوافقهم.

جملة سياسية(*)

لولا رجحان كفة التقدم الأدبي على كفّة التقدم المادي لبشرنا الحاضر بأسعد مستقبل في بلاد لها من القوات الطبيعية كل ما يتمنّاهُ الإنسان، ويا حبذا لو اكتفى الزمان بالمحافظة على المركز المادي الذي بلغناهُ منذ عشر سنوات، ومنحنا من الآداب ما نراهُ آخذاً في بذلهِ بسخاء في عصر هي الروح لجسدهِ. فمن الناس من يقول إنهُ بدون مساعدة الدولة لا يستقيم أمرنا، ومنهم من يقول إنهُ بدون الاتحاد لا تستبد لنا الحال. ومنهم من يقول غير ذلك، ونحن نقول كل ما قالوهُ وأكثر منهُ لأن مساعدات الدولة والاتحاد هي أساس بلوغ المأمول، كما أن القيام بالأعمال التجارية والمالية قياماً صحيح القواعد، هو من أساسها، فالدولة هي شمس الهيئة الاجتماعية، لأنها ينبوع الأمنية المكانية والزراعية والتجارية والمالية، والشمس مصدر

(*) افتتاحية ج ١٤، مجلة الجنان ١٥ تموز/يوليو ١٨٧٢، ص ٤٦٩ ـ ٤٧١.

الحيوة والنمو، فإن أرسلت من حرارتها ومن نورها ما يسد الاحتياج بحسب ظروف الحال، ينمو عالمها وإلّا فالفناءُ ثم السقوط. والاتحاد القوة فإنهُ مسهِّل لاقامة الشركات، وهي أفعل أسباب الترقي والنجاح. أما صحة أعمال التجارة والمالية فهي سبب نجاحهما، وتأخرهما ضعف للبلاد، فإن تقوية مصادر المال قوة للأمة وتقدم للبلاد. والمظنون أنهُ ما من أحد يجهل هذه الأمور لا من رجال السياسة ولا من الأمة، غير أن معرفة الشيء لا تكفي لأن العمل هو الروح، والمعرفة بدونهِ جثة بلا روح. ولا بد للعامل من ثلثة أمور أساسية، وهي معرفة العمل، والاقتدار عليهِ، والإدارة لإجرائهِ. وكان أهل الزمان الماضي يقولون بأن حكومتنا لا ترغب في تقدمنا، ولكنها تفرغ الجهد في سبيل إضعافنا لئلا نقوى، فتلقي بيننا الشقاق والبغض، وتحجب عنا وسائط التقدم، ولا تعتبرنا الاعتبار اللائق بنا، فإن اعتناءَها بأحقر الأجانب قدر اعتنائها بأعظم أعيان الأهالي، ومراعاتها لحقوقهم ليس لها حد ولا انتظام، فتدوس أرفع الرؤوس لترضي أدنى البشر، ولا تعتني بمدارسنا ولا تسهل سبل التجارة لنا ولا تقرر أمنية التملك إلى غير ذلك من التشكيّات التي لا تخفى عن قراء الجنان في الشرق. ولا نلوم سكان أطراف الممالك المحروسة إذا قالوا الآن إن هذا هو الكلام الذي كنا نقولهُ في الماضي. كما أننا لا ننكرهُ عليهم، حتى نفس الحكومة الحاضرة لا تقدر أن تنكرهُ، وربما كانت لا تحاول ذلك، فإذا نظرنا اليهِ بحسب الظواهر وبقيت بواطن السياسة محجوبة عنا، نقول إنها كانت بلية عظيمة، فإن أعظم السخطات مراعاة الحكومة صوالحها دون صوالح الرعية. وعند أهل السياسة هذا هو سبيل سقوط الدولة، فإن ضعف رعيتها ضعف لها. وربما كان المطالع يتعجب عند استماع التفاصيل المبينة لأسباب ذلك، لأننا قد سمعنا كثيرين يتحدثون بهِ على أنهم لم يكشفوا عن الباطن لاكتفائهم بالظاهر، أو لوجودهم في البحث فيهِ ما يكفي ليستغرق كل بحثهم، فلا يتيسر لهم الدخول إليهِ، مع أنهُ لو نظرنا إلى حالة البلدان الواقعة في أطراف بعض الولايات، وبحثنا عن سبب وقوعها في تلك الحال، لوجدناهُ بدون جدّ طويلٍ. إلّا نتذكر بأن نفوذ

الحكومة في الجبال وفي السهول البدوية كان بالاسم دون الفعل. أوَلم نتذكر بأن الأموال الأميرية كانت تفنى قبل الوصول إلى خزاينها، فما هو يا ترى سبب ذلك، أما هو عدم نفوذ أمر الراعي في الرعية. وماذا يسمى ذلك، ألا يسمونهُ عصياناً فإلقاءُ الشقاق في ظروف كتلك الظروف، هو من أفعل أسباب استبداد الحال من استغنام الفرص عند سنوحها لتضعيف المتمرد هو من أقوم وسائط استقامة السياسة، وربما كان المطالع يظن أن الدولة التي وجدت رعاياها على تلك الحال، والتزمت أن تعاملهم معاملة الأعداء لإخضاعهم إخضاعاً ا، لا تلام إذا عاملتهم بالصرامة وعدم الاركان في الحاضر خوفاً من رجوع المستقبل، مع أن ذلك هو مما لا تقتضيهِ الحال، لأن للأحوال الماضية مصدراً عظيماً وهو ظلم الحكام. وكفى البلاد محركاً إلى العصيان سياسة رجل كأحمد باشا الجزار وغيرهِ من أولئك القوم الظالمين الذين كانوا يعاملون الرعية معاملة لا يجوز أن يعامِل بها السادةُ العبيدَ. إذ إنه لا يخفى أن من المبادي السياسية المقررة أن راحة الرعية وسعادتها مصدر إخلاص النية للدولة التي تريحها وتسعدها. ولم نسمع ببرهان على صحة ذلك أقوى من تصرف أهالي الإلزاس واللورين عندما سُلخوا عن فرنسا إذ أنهم، ولئن كانوا من الألمان في الجنس واللغة، لم يقبلوا أن ينفصلوا عن دولة مكسورة لينضموا إلى دولة منصورة من جنسهم ولغتهم، والسبب حصولهم على السعادة بالسياسة الفرنساوية. فلو كانت الحكومات الماضية كالحكومة في هذه الأيام لما فضّل الأهالي احتمال أثقال الانقياد إلى أمراء ومشايخ لينجوا من ظلم يخافونهُ أكثر من ظلمهم، وانضمام كثيرين من نفس إسلام هذه البلاد إلى بونابارت الفرنساوي، وهو نابوليون الأول عندما فتح الجهة الجنوبية من الولاية السورية، وحاصر عكا، شاهدٌ بسوءِ عقبى ظلم الحكام، فإن النفس لا تقدر على احتمال التعدي والمظالم، إذ أنها عزيزة، ووقوعها في اليأس من هذا القبيل لا يقطع تنهداتها. ولو عرف كل حاكم أو عضو مجلس أو مأمور صغير قدر تأثير ظلمه في النفس العزيزة، بل البشرية، ونتائج رغبتهِ في تنفيذ غاية لغرض مالي

أو أدبي لشعر بحرارة نار الآخرة من النظر إلى عظم شرهِ وهو في قيد الحيوة. ومن المقرر أنهُ بزوال العلة يزول المعلول، وبامتداد المعارف ينقشع الجهل، فتتبع السياسة الطرق المستقيمة لقيام صوالحها. إذ إنها قد فازت بإخضاع الذين كانوا يخافون أن يخضعوا للحكام بتغييرهم ومنع سياستهم وبتدبيراتها المذكورة، فلما خلصوا من سلطان أصحاب الامتيازات ومن عبوديتهم، ولم يجدوا المظالم السياسية التي كانوا يسمعون بها، ويشعرون ببعضها في بعض الأحيان، استأمنوا وفرحوا، على أن الخروج من تلك الدائرة المحصورة المظلمة، وامتداد المعارف بالنقل والكتابة بينهم، وسّع دائرة معارفهم، وفتح أعينهم فأصبحوا يرون أصغر زلات الزمان الماضي قدر أكبرها، ولا سيما لأن الحالة التابعة لم تقدر أن تفني جميع تأثيرات الحالة السابقة، حتى أننا نسمع البعض يقولون إن نوايا الحكومة لم تتغير، مع أنهم يعلمون بأنهُ قد زالت الأسباب الماضية، وهذا خطأ، وعلى الخصوص بعد أن رائنا[1] الدولة مهتمة بتنجيح رعاياها مادياً وأدبياً حباً بصالحها، إذا لم نقل حباً بصالحها وصالحهم، وإذا رأينا تقصيراً في بعض الولايات أو المتصرفيات أو القايمقاميات لا يكون ذلك التقصير نتيجة السياسة العمومية المركزية ولكنه نتيجة إهمال مأمور وتقصيرهِ، لأنهُ لا ريب عندنا في أن حضرة مولانا الأعظم ووكلاء دولتهِ الفخام يتمنون تقدم الرعية، ويجتهدون في تسهيل سبلها، وهم آخذون في تعزيز التبعة المحروسة وإذا رأينا أن ذلك لا يخلو من النقص لا ينبغي أن نحكم بأنهُ نقص محض لأنه ما من عمل من أعمال الناس في جميع البلدان خال من الخلل والنقص. فإدارة الانسان لبيتهِ الصغير لا تخلو من الخلل والتقصير، فكيف إدارة ممالك واسعة مع الاهتمام بخارجية متعبة ومالية ضعيفة، ومع ذلك لا نقدر أن نحامي عن أعمال بعض المأمورين ولو حدنا عن الانصاف لإيجاد وسائط للمحاماة

---

(١) يقصد رأينا.

عنهم، فإن بعضهم يضرون بالرعايا وبالدولة لتنفيذ عنادهم أو لجهلهم أو غير ذلك، كسلب أمنية التملك، مثلاً، وعدم مراعاة القوانين والنظامات. فإن الأول يجعل قوات البلاد المالية تُحشد في دائرة ضيقة كاحتشادها في سورية للتجارة، ورفعها الأسعار في مكان المسواق عن أسعار أسواق البيع، مع أنهُ لو دامت السياسة الصحيحة التي أخذ حضرة صاحب الدولة راشد باشا في تنفيذها ورجع إليها حضرة صاحب الدولة والينا الحالي حالت باشا مرعية، لامتدت الزراعة وأي امتداد، وانتفعت الأمة والدولة. أما عدم مراعاة القوانين فهي عبارة عن طرح الجميع في قلق لأنه بدونها لا يُميِّز الحق من البُطل، ويكون كل انسان عرضةً للإهانة والخسائر وبئس الحال. والدواءُ للمخالفات المبادرة الى قصاص المخالف، فإن أكثر السياسات استقامة أصرمها في معاملة الذين يقومون بها، ولا سيما إذا داسوا القوانين وحاولوا تنفيذ سياسة غير موافقة لروح العصر، ولولا تقصير بعض المأمورين لرأينا الاهتمام في نشر المعارف، وهي الأساس الأول، وإنشاءِ الطرق وفتح المعادن وإقامة المشروعات النافعة واحداً في جميع الأماكن. فلو لم تكن الدولة العلية راغبة في تقدم لبنان تقدماً يناسبها، لما اهتم حضرة صاحب الدولة رستم باشا أشد الاهتمام بزيادة المدارس وتعميم المعارف في جبل لم يكن لسطوة الدولة نفوذاً تاماً فيهِ قبل سنة ١٨٦٠ ميلادية، ولما سمحت الحضرة الشاهانية بمائة ألف غرش من الخزينة العامرة لإتمام تمهيد طريق بعلبك. وبناءً على ذلك نقول إن الاصابة في أن تنسب جميع التقصيرات التي كنا نراها، أو التقصيرات التي ربما تحدث في الحال، أو الاستقبال، إلى المأمورين، وليس إلى روح اسياسة، فإنها تحب خيرنا، وكفاها محركاً إلى ذلك اتحاد صوالحها وصوالحنا وأي أمة يا ترى اصطلحت قدرنا في زمان قصير، لأن تاريخ ابتداء دخولنا في عائلة العالم المتمدن هو يوم معاهدة باريز بعد حرب القرم سنة ١٨٥٦. فمن يرى المسافة التي قطعناها في ١٧ سنة، مع ما لا يزال عندنا من الخلل، ولا يقول إن من قرأ تاريخ الشرقيين وسرعة نهوضهم وسقوطهم في القرون المتوسطة،

يحكم بأنهم قد أتمّوا دورة حلقتهم التاريخية، ورجعوا إلى المركز الذي خرجوا منهُ.

جملة سياسية(*)

يشير استبداد السياسة في الأمة اتفاق السايس والمسوس على المبادي السياسية العمومية، واختلافهما سبل الخراب والضعف، وسقوطهما جميعاً، أو سقوط أحدهما وفوز الآخر. والاتفاق الاغتصابي لا يدوم وإن طالت دولتهُ تظهر نتائجهُ المضرة بتأخر أحدهما أو تأخرهما جميعاً. أما العوارض الثانوية التي تطرأ على ذلك الاتفاق فتؤخر توطيد أركانهِ، وتؤجل حلول نتائجهِ، غير أنها لا تقدر أن تتغلب عليهِ. ولولا الاتفاق الذي نراهُ جارياً بين الراعي والرعية في بلادنا العثمانية في أكثر الأمور السياسية الأساسية، لما بقي لنا قدر بعوضة من الأمل الذي نسر بهِ لأنهُ سبيل راحتنا وسعادتنا فإن حضرة مولانا الأعظم ووكلاء دولتهِ العظام يحرّضون المأمورين على الدوام على مراعاة الشرائع والقوانين والنظامات، محافظة على راحة الرعايا العمومية وحقوقهم الاجمالية والافرادية، وذلك إنما هو كل مرغوبنا فإننا بدونهِ نبيت مسلوبي الراحة والحقوق والكرامة والتقدم والثروة، وبالجملة كلما هو عمدة الخاصية الإنسانية الافرادية والمتعلقة بالهيئة الاجتماعية. ولو كان جميع المأمورين الكبار والصغار ينقادون إلى واجباتهم من هذا القبيل، لما جعلنا ذلك موضوعاً للكلام، ولا رأينا والياً يخلف والياً ومتصرفاً متصرفاً وهلمَّ جراً لا بل كثرة التبديل تدل على كثرة وقوع ذلك، وسهر صاحب البلاد على رفاهية تبعتهِ وراحتها. وإذا راجعنا تاريخ نظاماتنا وقوانيننا نرى ما يكاد يبين لنا أن الحكومة المركزية كادت تبيت في حيرة من جرى[1] الصعوبات التي صادفتها في قلع تلك المغايرات المنابذة للرضى العالي لتعديها على الحقوق التي يفضل الإنسان الكريم أن يموت قبل أن يخسرها. وما الفائدة من

(*) افتتاحية ج ١٠، مجلة الجنان ١٥ آيار/مايو ١٨٧٣، ص ٣٢٥، ٣٢٦.

(١) يقصد جرّاء.

كتب الشرائع والقوانين إذا كانت لا تكون دستوراً للعمل. وما هي يا ترى منفعتها إذا كانت لا تكون كمجن للقوم ليدفعوا بهِ تعديات الظلم الناشي عن أغراض بعض المأمورين وغاياتهم، وعن تعدي بعضهم على حقوق البعض الآخر. وما من شيء أقبح من تعدي المقام لدفع التعدي، ومن مأمور يخالف القوانين وواجباتهُ المحافظة عليها. ومن منا لا يسرّ عندما يرى مأموراً كبيراً كان أم صغيراً يسلك مسلك العدل والانصاف بتنفيذ القوانين ومراعاة النظامات في الأمور المهمة والغير المهمة. ومن المعلوم أن القيام بذلك حق القيام لا يتم إلّا بأن يكون في فطرة الإنسان ميل إلى الحق وحب للانصاف والعدل. على أن ما نعهدهُ من شر الانسان الغالب بواسطة جيش الصوالح يحملنا على أن نتمنى أن يكون ذلك عمومياً بالخوف من عقاب التعدي. ومن يا ترى لا يفرح لفرحنا عندما يرى الحضرة الشاهانية تسهر لتعمم ما نحسب تعميمهُ فائدة تجري الراحة العمومية منها، ولمّا كان ذلك الواقع كان لا بد من أن ننتظر الحصول على تلك القوانين والنظامات عربية العبارة بترجمتها في الاستانة العلية أو بصدور الإذن بطبع الترجمة الموجودة عندنا في طرابلس شام بعد مراجعتها لحصولها على ما يجعلها دستوراً قانونياً كالأصل. ومن المعلوم أن فخر الحاكم في معرفة القوانين ومراعاتها وليس في أن يبين لبسطاء القوم أنه غير مقيد بما يمنعهُ عن تنفيذ مرغوبهِ وغايتهِ، ولولا تقيد الانسان بأصول قررتها قوتهُ العاقلة وقبلتها، أو قبلتها بالاعتقاد بأنها تقريرات القوة الخالقة والحافظة والمهلكة، لكان كالحيوان الذي يفعل ما يخطر لهُ ببال أن يفعلهُ انقياداً إلى دواعي الميل الغريزي فيمسي لا يراعي حقوق الدين ولا الناموس ولا السياسة ولا الهيئة الاجتماعية لعدم وجود شيء من ذلك عندهُ وتسليمهِ نفسهُ لهوى النفس، ومن يا ترى أفضل الحاكم الذي يقول لرعاياهُ أن ضربين مهمَّين من الواجبات لا أقدر أن أهملهما وهما معرفة القوانين والنظامات والمحافظة عليها، أو الذي يقول لسان حاله لهم إنني افعل ما أريد ومن لا يعلم أن فضل الانسان قدر فعلهِ وأن فعل الرجل الذي يلتزم أن يتعلم القوانين وأن يحافظ عليها هو فضل، وأنهُ لا

فعل ولا فضل للذي لا يتعلم شيئاً ولا يحافظ على شيء. ومن يا ترى يعرف الانسان وينتظر منهُ شيئاً كاملاً، على أن الرمد أحسن من العمى، ومن يقابل الحاضر بالماضي في الشرق وفي الغرب يرى أن الإنسان تقدم في معرفة الحقوق تقدماً كثيراً ولذلكن ألتزم كثيرون من المؤتمنين على المحافظة عليها أن يراعوها مع قطع النظر عن الظروف إذا كانت افرادية ومراعاتها إذا كانت عمومية، ولذلك لا نرى أحداً من الذين يعرفون السياسة يشير بإقامة الملكية في أميركا لتعميم الراحة مثلاً، ولا بالجمهورية في الشرق، ولا بتقييد الجرائد في انكلترا، ولا بإطلاق العنان لها في فرنسا حال كونهِ لا بد من تحصيل الدين القانوني من زيد إذا كان في الشرق أو في الغرب. وهذه الحقوق الإفرادية هي التي تحافظ المجالس عليها. بالاستناد إلى القوانين، وليس بحسب الإرادة والاستحسان، فإن المجالس بلا نظامها وقانونها حيطان وموائد، وهذه المجالس هي في يد الرعية فإن أعضاءها بالانتخاب يدخلونها، فحسن حالها يتوقف على انتخابهم، ولولا ضيق المقام لما أخرّنا الكلام عن هذه الأمور إلى فرصة أخرى ونصف إدراك المرغوب مراعاة الأمة حقوقها بالاتحاد، وهذا النصف يجر إليهِ النصف الآخر وهو واجبات الحكام الذين قد رأينا في هذه الأيام كثيرين منهم يراعون القوانين ويحبون العدل والذين لا يحبونهُ لا ينالون الكرامة الحقيقية، ولو نالوا أكثر منها على مرأى منهم، فإن صيت الظالم كالليل الحالك وصيت العادل أبيض كالثلج.

الدول(*)

من المقرر أن الدول تشخَّص بحالتها إنساناً إذ إنه لا بد لكل دولة دبت وشبت من أن تشيخ، والتاريخ يقرر أموراً كثيرة بهذا الشأن، ويرينا أمماً كثيرة حصلت على ثروة عظيمة، واستولت على سطوة وافرة، وامتدت أملاكها إلى كلّ الأقطار، فلم تلبث أن حطمتها يد الزمان ولم تبقِ لها أثراً. وهكذا يتضح أن تمدن الأمم وامتداد سطوتها

(*) مجلة الجنان ١٨٧٣، ص ٢٢٧، ٢٢٨.

وأملاكها يزيدها غنىً وثروة. ونتيجة ذلك إنما تكون حب التنعم والتعود على الكسل والإهمال وعدم مداركة الأمور والعجب والكبرياء وعاقبة ذلك السقوط والشاهد ما جرى لأكثر الأمم الشرقية التي استولت في القرون القديمة على ثروة وسطوة عظيمتين، واستحصلت كل التمدن المعروف وقتئذٍ، فكانت بعد أن تحنك جنودها وتعودهم خوض المعارك واقتحام المصاعب، وتظفر بمرغوبها تأخذ ملوكها وحكامها في أن تكون قدوة ردية لرعاياها بتقاعدها والتغاضي عن مداركة مقتضيات الحال والمستقبل، وحسبك برهاناً ما حدث بين الاسكندر المكدوني ودارا ملك الفرس الذي كان قد كاد يستولي على كل العالم المعروف حينئذٍ، فآل بهِ الأمر إلى السقوط والانحطاط ومع أن الإسكندر كان خاضعاً لهُ بعض الخضوع، وكانت مملكتهُ كجزء من المملكة الفارسية، وكانت جنودهُ قليلة جدّاً بالنسبة إلى جنود دارا، تمكن من الفوز بالغلبة، ومن الدخول إلى داخلية مملكتهِ والاستيلاء عليها. وهذه هي نتيجة النشاط وعاقبة التهامل، وليس ذلك بأعجب مما حدث قبل المسيح بثمانمائة وثمان وثمانين سنة بساردانا بولوس آخر ملوك آثور الذي داهمتهُ جيوش الأعداء الماديين فلم يرَ بدّاً من إضـرام النار في قصرهِ فاحترق هو ونساؤهُ اللواتي كان يلاعبهنَّ ويشتغلَ بمغازلتهنَّ عن سد احتياجات مملكتهِ. وكثيراً ما قاد التغفل وقلة الحكمة والدراية إلى أمور فظيعة كهذه، وفي تواريخ القرون القديمة الشرقية حوادث كثيرة نظيرها. ولا يخفى أن أموراً كهذه لا يخلو منها عصر ولا زمان إذ إن الإنسان إنسان مهما تقلبت الدهور، فإن تواريخ القرون المتوسطة مشحونة بمثل ذلك، حتى أن نفس عصرنا الحاضر الذي بزغت فيهِ شموس الآداب والعلوم قد أرانا حوادث كهذه. ومن المقرر أن الكلام عن أحوال الدول والأمم والشعوب ونظاماتها وتقلباتها وتصرفاتها لطويل جدّاً، غير أن كيفية سقوط الدول ونموها وهبوطها وارتقائها تختلف باختلاف كيفية تصرفها. فإن تصرفت بحكمة وتداركت الأمور في أوقاتها واستهدفت لحلول الحوادث والكوارث ظفرت بالمرغوب، وإلاّ فلا. وإذ كان ثبوتها في مركزها محالاً كان طول مدة إقامتها فيهِ يتوقف على طول مدة

استقامة رجالها الذين سلَّمت إليهم أمرها وقلدتهم رياستها، فإن كانوا عصبة واحدة عاملين على حب الوطن والاتحاد نفعوا بلادهم، وأية منفعة. وإن جعلوا الانشقاق مبدأهم وسلموا أنفسهم للأغراض والأهواء النفسانية سقطوا هم وإياها، وأي سقوط، ولا غرو ان العظمة الحقيقية لا تنحصر في الغزو والبطش والفتك وقتل الأنفس وسفك الدماء وامتداد الأملاك إلى ما أشبه. إذ إن الاشتغال بمثل هذه الأمور يلهي عن استحصال ما يكون بهِ التقدم الحقيقي والارتقاءُ في معراج الآداب والتهذيب وانتظام الهيئة الاجتماعية، التي إنما تنتظم وتتحسن حالتها بحالة السلم لا بحالة القلاقل والاضطرابات التي تزعزع أركان النجاح، وتهدم أساسات المحبة الأخوية التي عليها يتوقف نجاح العالم. غير أن الحصول على المرغوب أمر مستبعد ما دامت السياسة الحاضرة على ما هي عليهِ الآن. لأن حب الإنتقام جعل بعضها توجه كل أفكارها إليهِ، وحملها على أن تحب أن تبذل كل ما في وسعها، وتهلك عدداً كثيراً من رجالها في سبيل الحصول على مرغوبها، وأن تنتظر فرصة لذلك فإن لم تتمكن منهُ في الوقت الحاضر تتربص إلى أن تسمح لها الفرصة بقهر عدوها وشفاء غليلها والطمع يحمل دولًا أخرى على أن لا تكتفي بدايـرتها، وتستصغرها مهما استكبرها الغير. وتستحقرها مهما استعظمها مجاوروها، وإن لم يكن ذلك اعتقادها، فتجتهد أن تظهر للناس أنها تعتقدهُ، وإن خلت من كل ذلك تجعل لطمعها أعذاراً وأسباباً بها تحاول ما يمكنها من أن تقنع الناس أنها ليست على شيء من ذلك. ولكن الحقيقة لا تختفي فإن الزمان يكشف المكنونات ويهتك ستار الأسرار. ولو سلمنا بتعللات كل إنسان وبنفي الذنوب عن نفسهِ لكان كل إنسان بريئاً، وذلك خطأ فاحش. والمرءُ الذي يخفي الحقيقة خوفاً من لوم اللائمين وتنكيت المنكتين ليس ممن يستحقون أن يُدعوا أحراراً. وعلى كل حال لا يخلو أحد من أغلاط وهفوات، إلّا أن ذنب الغبي الجاهل ليس شيئاً بالنسبة إلى ذنب العالم الحكيم. وما يرتكبهُ الذين لم يحصلوا على تربية حسنة ووسائط مناسبة ليس شيئاً بالنسبة إلى ما يرتكبه الذين منذ نعومة أظفارهم يكونون قد وضعوا تحت عناية أناس

ذوي خبرة وحكمة ودراية وسياسة حسنة. وهفوة من يكون قد اشتهر بين الناس وارتفع مقامهُ بينهم تؤثر تأثيراً رديّاً جدّاً، لأنه ربما كانت غلطة ملك أو قائد جيش أو رئيس طائفة سبباً لإلحاق ضرر جسيم بكل الذين تولج قيادتهم. ولا ريب أنهُ كلما تبصَّر الإنسان قل تعجبهُ من الأمور الجارية والحوادث الطارئة، لأن الإنسان الرزين العاقل يعلم أن هذه هي حالة الإنسان، فعندما يرتقي زيد ينحط عمرو، ولولا ذلك لبقي الإنسان على حالة واحدة وانتفت حالة التقلب، وذلك مما لا يقدر أن يتصورهُ إنسان إذ إن دوران العالم بجملتهِ يتوقف على التقلب والتغيير اللذين كانا دأبهُ منذ ابتدائِـه، أفلم ترَ أن المصريين القدماء الذين كانوا ينبوع التمدن والعلوم في الأجيال القديمة قد انحطوا وهبطوا لما مرَّ من الأسباب، وبعد ذلك أخذوا بهمة أناس ذوي حذق وخبرة في الرجوع إلى ما كانوا عليهِ واليونانيين الذين اشتهرت فلسفتهم في أربعة أقطار العالم، لم يزالوا ينحطون في دركات الهبوط إلى أن صارت مملكتهم من الممالك الثانوية بعد أن كانت أول أمّة. والرومانيين والذين أخذوا فلسفة اليونانيين وحكمة المصريين، لم يزالوا يهبطون في أحدور الظلام، إلى أن دعيت بلادهم بالبلاد الدنيئة، ولم تزل على ما هي عليهِ إلى أن تلاشت. والفينيقيين الذين كانوا مركز الإختراعات، باتوا بلا أثر. والدول الأوربوية التي كانت منذ مدة ليست بطويلة غائصة في لجج الجهل، قد أصبحت مصباح العالم، وقس على ذلك ما شئت. ولا يخفى أن من التقلب والتغيير ما يكون سريعاً وبالعكس. وكل ذلك يرجع إلى المبـادي التي تقدم ذكرها. وأحسن ما جاءَ بهِ التاريخ من هذا القبيل، سقوط مملكة الإسكندر التي تبددت وانقسمت بمدة وجيزة، ولم ينشأ ذلك إلاَّ عن سرعة نهوضها وعدم حصولها على وقت تتمكن بهِ من الثبوت على أس متين. ولقد طالما كان السقوط السريع نتيجة النهوض السريع، فإن ذلك من المبـادي التي تكاد لا تخطىءُ فإن الاسكندر اتصل بمدة وجيزة من مكدونيا إلى أقاصي الشرق، وبمدة وجيزة أيضاً، سقطت كل بلادهِ. ولو منَّ الباري على رأس تلك البلاد العظيمة بعمر أطول، لربما كان تمكن من تثبيتها أكثر مما ثبتت،

وفي ذلك كلام طويل عريض لا نتعرض لذكرهِ، غير أننا نكتفي بأن نقول إن التغفل آفة كل شيءٍ والتيقظ مصدر النجاح فهو أولى.

جملة سياسية(*)

لكل إنسان مآرب واحتياجات تختلف باختلاف الزمان والمكان، وكذلك الأمم والدول. فمآربنا في الشرق واحتياجاتنا هي غير مآرب أكثر أهل الغرب واحتياجاتهم. فالأمة التي تسعى وراءها بالجد والكد تتمكن من نوالها كلها، أو بعضها، ولو عاندها الزمان وأتعبتها الأحوال. والثبات هو سبيل الوصول إلى المرغوب. ومتى عرفت ذلك وشعرت باحتياجاتها، وعرفت مآربها النافعة معرفة واضحة، وطلبتها باجتهاد، يقال إنها لا تلبث أن تدرك المقصود وإن لم تعرفها بسبب جهلها حقيقة حالها، أو لم تطلبها بسبب انشقاقها أو ضعفها يكون مرور الزمان عليها للتأخر والضعف، فتتقهقر إلى الوراء، وتصادف فشلاً وفقراً وذلاً. ونعجب من الشرقيين الذين قد تمكنوا بواسطة المعارف التي جمعوها بالمطالعة والاختبار من أن يعرفوا احتياجات غيرهم ومآربهم حال كونهم لا يعرفون ما هم في احتياج اليهِ. لأنهم قد اتفقوا على الشقاق واتحدوا على أن يجعلوا صوالحهم متفرقة. فكل قوم منهم يعد مصلحة غيرهِ كساد مصلحتهِ، وتقدمهُ تأخراً لهُ. ويا حبذا لو تداخلت سياستهم في ذلك، وعلمتهم بحسن القدوة والإرشاد أنهم جميعاً ذوو صوالح واحدة، وأن تقدمهم إنما يكون باتحادهم واتفاقهم وتكاتفهم، بحيث يصبحون بالفعل أهل وطن واحد يغارون عليه ويبذلون ما عزَّ وهان في سبيل خدمتهِ، فيجتمعون رأياً واحداً وقلباً واحداً حول راية دولتهم بالعز والسعادة، وهذا هو من نوايا الحضرة الشاهانية الخيرية، ومن مقاصدها الجليلة، وعدم بلوغها في كل وقت الينا، وعدم ثبوتها عندنا إذا بلغتنا، هما نتيجة سوء إدارة الذين يأتون ديارنا قابضين على زمام أمورنا، فنرى كثيرين منهم يسوسون البلاد بدون ثبات على كل حال، وبدون أن يعولوا على سياسة واحدة عمومية، وترى كثيرين منهم

(*) افتتاحية ج ٦، مجلة الجنان ١٥ آذار/مارس ١٨٧٣، ص ١٨١ ـ ١٨٣.

يخبطون في وسط بحار الأشغال خبط عشواء، فلا يعرفون واجباتهم، وإن عرفوها لا يعرفون كيف يجب أن يقوموا بها وإن كانوا من الذين يعرفون ذينك الأمرين يضيعون أكثر أوقاتهم في محاولة الخروج من ارتباكات عدم الترتيب. فإن خرجوا منها مرة يكون خروجهم ليدخلوا فيها من جهة أخرى. وكم من مرة سمعوا صاحب البلاد وسلطانها الأعظم يحرضهم على تعزيز الذين وضعهم الله أمانة في يدهِ البيضاء. ومع ذلك نرى كثيرين منهم يعاملونهم بالاحتقار، ولا يهتمون بصوالحهم كأنها صوالح لهم مع أنهم يعززون الأجانب وينفذون غاياتهم تعزيزاً غير منحصر في كرامة الضيف. وهذا وحدهُ كافٍ ليطرح بيننا الشقاق، فترى القوم يتزاحمون طالبين الحصول على عضد أجنبي كان بهِ خلاص النفوس. وهكذا بات أكابر القوم مختلفي المآرب والمشارب والأميال، لأنهم هم وحدهم الذين يقدرون أن يمهدوا لأنفسهم سبل الوصول إلى تلك المراتب التي لا تليق بهم. فإن كتّابهم ومستخدميهم هم في مراكز أعلى. فإن أمسى أكابر القوم على ذلك فعلى مَ تبيت العامة، فكيف ندرك المنى وبعضنا يقول إنني للدولة الفلانية والبعض الآخر إنني لغيرها، ومن يا ترى لا يعلم أنهم يخجلون من ذلك، ولكن خوفهم من تغيير الأحوال يجعلهم يفضّلون حمل خجلهم على تعريض أنفسهم لما علّمهم الاختبار الماضي أن يتجنبوهُ، وما أحسن ما قالهُ أحد حمايا الأجانب لحضرة صاحب العسادة كامل باشا متصرفنا ومدير السياسة الأجنبية في ولاية سورية وهو: لو عرفت بأن سعادتكم تتولون إدارة الأمور السياسية هنا إلى ما شاء الله، لما ارتضيت بأن أجعل صوالحي غير صوالح أمتي، لأنني أعلم بأن صوالح الجميع سيان عندكم. وهذا برهان ما قلناهُ من أن الحالة التي لا توافقنا ليست نتيجة سياسة عمومية للدولة، ولكنها نتيجة سوء تصرف مأمور، ربما كا خلفهُ مثلهُ أو أحسن منهُ، فيصلح الحال إصلاحاً موافقاً لإرادة ولي النعم الأعظم، ولسياسة رجال دولتهِ العظام. وبرهان ذلك أحوال الاستانة العلية، فإن المصالح الأجنبية فيها والأهلية هي واحدة من جريها، ولا نتمنى لأنفسنا غير ذلك، وليس المقصود التشكي من

حالتنا الجارية في أيام دولة حالت باشا الأفخم والي ولاية سورية. لأنهُ من واجباتنا أن نثني عليها، ولئن كان زمانها قصيراً وانتظاراتنا طويلة عريضة، ولكنهُ القيام بخدمة الدولة والأمة بالأمانة والاستقامة والوضوح، إظهاراً للواقع. ولأننا قد عرفنا أن الدولة قد عرفت احتياجات الأمة، وكذلك الأمة قد ابتدأت تعرف احتياجاتها ومآربها، وقد صممت بأيام صدارة فخامة أسعد باشا على إجراء ما يوصلها إلى المقصود، ولذلك من واجبات كل المأمورين في سورية، وفي كل الممالك المحروسة الشاهانية، أن يتجنبوا الاستخفاف بحقوق الرعايا وأن يعاملوهم بالاكرام والملاطفة، لأن جرائد الاستانة العلية قد بينت أن مصدر كل التغييرات الجارية في الوزارة هو اهتمام حضرة مولانا الأعظم في ترقية أسباب رفاهية تبعتهِ المحروسة وسعادتها. فإن كانت الحضرة الشاهانية مهتمة بذلك ذلك الاهتمام، فكيف لا نهتم بهِ نحن، ولماذا لا نتحد عندما يعاندنا الزمان في أيام مأمور شأنه إجراءُ ما يخالف كل المخالفة إرادة المرحمة السلطانية، ونجعل ديدننا نهاراً وليلاً التشكي إلى أولياء أمورهِ، إلى أن نصلحهُ أو نتخلص منهِ. ولا ريب في أن سعدنا قد ساق إلينا بالعز والإقبال حضرة والينا الحالي، فإنهُ ذو اختبار تام. فإن وفقهُ الله لتوفيقنا وأرانا في أيامهِ الحقوق العمومية والخصوصيةالمهمة، والغير المهمة، مرعية وجارية في مجراي العدل والانصاف والتاني والتدقيق، تكون هذه السنة ابتداء دخولنا في السبيل الذي تنشرح فيه صدورنا باستقامة أحوالنا السياسية، وترتع في جنات السعادة والرخاء. فإن المزروعات في إقبال، وبالصناعة تتقدم تقدماً جامعاً بين الإبطاء والثبات. وكذلك المعارف، وأهون السياسة ضبط المستخدمين ،فإن سلطة الرئيس تفعل فيهم مع أن المشاكل لا تخضع لذلك، ولا بد من أن تجري في مجاريها فإن دقّق النظر وعاملهم بالصرامة تستقيم الحال في البلاد التي حالها غير مستقيمة. ومن المعلوم أن تلك الأصول السياسية الأساسية هي واسعة الدائرة وكثيرة الفروع، فلا يتيسر استيفاءُ حق الكلام عنها في جملة واحدة، وعلى الخصوص إذا كان للسياسة

الأجنبية حق الدخل فيها، ولولا أهمية نهاية الخلاف الذي كان واقعاً بين إنكلترا وروسيا وحوادث إسبانيا وتأثيراتها في أوروبا، لتركناها لنقرر ما هو أقرب إلينا منها. ومن يا ترى لا يبتسم عندما يرى لسان حال الأمة الانكليزية يبيّن أنها تكاد لا تصدق أن روسيا قد أجابت طلبها وخلّصتها من هموم مضادتها المقلقة. ففي جملها السياسية ما يدل على أنها كالرجل الذي ينظر تارة إلى ما فوقهُ، بعد أن يقع من مكان ارتفاعهِ مائة ذراع، وطوراً إلى نفسهِ وهو متحير، ويقول في نفسهِ عندما يراها سالمة: كيف وصلت إلى هنا سالماً .ثم يصفق بيديه ويسير راكضاً ليخبر زوجتهُ وأولادهُ وأقاربهُ ومعارفهُ بغريب ما صادفهُ، فإن الانكليز لم يعتقدوا في أول الأمر بأنهم سيتمكنون من صرف ذلك المشكل بسهولة، أما الآن فجرائدها وهي لسان حالها مشتغلة بالفرح بفض المشكل، وبعد أن تقوم بحق ذلك تأخذ تخمن ماذا حمل امبراطور روسيا على ذلك التساهل. والتخمين السياسي هو نصف السياسة، وعلى الخصوص إذا كان مستنداً إلى تجارب تاريخية، ولذلك لا نلام إذا قلنا بالتخمين، أو بالتأكيد. إن خَدَمَةَ الدين في إسبانيا لا يرتضون بالجمهورية لأنها لا تراعيهم، وإن الملكية البربونية أوفق لهم، فأنهم لم يرتضوا بجمهورية في أوروبا في هذا القرن وأواخر الماضي. ولا يعنينا سبب عدم ارتضائهم لأنهم هم يرشقون بسهام اللوم أهل الجمهوريات، وهؤلاء يردّون سهامهم عليهم، ولو لم تتعرض **جريدة البشير**(*) للكلام عن ذلك تعرضاً مرتباً يحملنا على الثناء عليها والسرور بكيفية اعتراضاتها لاكتفينا بما قد قررناهُ في الجملة السياسية الماضية عند الكلام عن أسبانيا وخدمة الدين في أوربا فإن أحوالهم في أكثرها هي غير أحوال الرؤساء الروحيين عندنا، ولذلك جعلنا الكلام محصوراً فيهم بانحصاره في ذلك المقام. ولا يخفى أننا لم نقل أن الجمهورية قد تقررت في إسبانيا تقريراً نهائياً، وحسبنا برهاناً الكلام عن مضادة خَدَمَةِ الدين لها، واجتهادهم في بدل

(*) البشير، مجلة اسبوعية انشأها الآباء اليسوعيون في بيروت في ٣ أيلول/سبتمبر ١٨٧٠. توقفت نهائياً عن الصدور سنة ١٩٤٧.

الجمهورية الفرنساوية بملكية بوربونية. وبرهان الجمل السياسية التي تكتفي بتقرير المبادىء العمومية الحوادث الجارية أو التقريرات التاريخية. وبناءً على ذلك نقول أن برهان عدم ارتضاءِ خَدَمَةِ الدين في إسبانيا بالجمهورية الأخبار البرقية عن الثورات الكارلوسية والتواريخ شواهد مضادتهم للجمهوريات في أوربـا. وكيف لا نقول أن مبادىء الجمهوريات لا توافقهم حال كونهم يضادونها. فلو وافقتهم لما قاوموها. أما جمهورية أمـركا فهي أكثر موافقة لهم من الجمهوريات التي أقيمت في أوربـا لأن سياستها غير مفتقرة إلى ما تفتقر إليه سياسة جمهوريات أوروبا فهــم لا يضادونها وهي لا تضادهم. وليس المقصود من الكلام الماضي أنهم يحاربون هيئة حكومة دون هيئة أخرى، فإنهم لم يحاربوا جمهورية فينيقيا القديمة، ولكنهم يضادون الحكومة التي لا توافقهم. فمضادتهم للجمهوريات في العصر الحديث برهان لعدم موافقتها ولاصابة كلامنا الذي هو من قبيل تقرير الواقع وليس فيهِ طعن في أحد ولا محاربة لأحد. فلو قلنا إن تسليم الانكليز بفتح البحر الأسود دليل خوفهم من روسيا، هل نجني ذنباً حال كون ذلك هو الواقع. ومن المعلوم أنهُ من واجبات المطالع أن يقرأ الكلام المكتوب ويفهمهُ بحسب معناهُ وليس بحسب التصور.

التوفير والسياسة(*)

إن الدول كأفراد الرجال، وما ترتاح إلى الحصول عليه يرتاح إلى إدراكهِ كلّ منا. وكذلك ما يضر أحد الفريقين يضر الآخر، وما ينفعهُ ينفعهُ لأنهُ معلوم أن الرجل الذي يهمل واجباتهِ ولا ينتبه حق الانتباه إلى إدارة أشغالهِ وترتيبها وتنظيمها، يمسي في ارتباك. فلا يعرف رأس أعمالهِ من ذيلها، فيطرأ عليها الضرر ويخامرها الخلل، وبالنتيجة تتأخر عن التقدم فيعيىٰ عن حفظ مركزهِ، وهذا هو الهبوط إلى الخراب. وكذلك إذا فتح باباً للصرف أوسع من باب الدخل، وهو عيان لا يقدر أن يرد أمرهُ الجموح. ولا يخفى أن هذا التشبيه يسهّل لكل إنسان، إن كان

(*) افتتاحية ج ٢٣، مجلة الجنان ١ كانون الأول/ديسمبر ١٨٧١، ص ٧٨٩ ـ ٧٩٠.

حكيماً أو غير حكيم، أن يفهم هذه الأمور السياسية الأولية ويميز بين حسنها وقبيحها. ويمكنهُ من أن يرى أن السياسة الصحيحة هي التي انهماكها إنما هو في الجمع بين صالح الأمة والدولة التي لم تكن لتسود على الأمة فقط، ولكنها إنما كانت مسودة لنتمكن من خدمة الأمة التي أقامتها سيّدة. وهذا هو من الأمور التي لا يفهمها كثيرون من أهل الشرق، لأنهم يظنون، وفي سورية كانوا يظنون، أن حاكم الإنسان هو كربهِ، وعليه المثل الدارج حاكمك ربك. ومن عرف من الأمة حقوقهُ، ولاحظ أحوال السياسة وقاسها على أحوال الإنسان الخصوصية، يسهل عليهِ الوقوف على حقيقـة الحال، ويميز حسنها من قبيحها أكثر مما يقدر أن يميزها نفس الذي في يدهِ زمام الأمور. ولذلك كانت الجرائد من أكبر أسباب النجاح والإصلاح، فإنها تنبه السياسة إلى ما ربما كانت غير منتبهة إليهِ، وتردع الظالم خوفاً من إشهار ظلمهِ وعدوانهِ وثلم صيتهِ، إن لم نقل من جلب المسؤولية عليهِ، لأن الحاذق ولو كان طماعاً ظالماً يخاف ثلم الصيت، ويحب انتشار طيب الثناء، للتمتع بسعادة المجد ولستر حقيقة أمرهِ، للتمكن من تنفيذ المآرب بسهولة، بدون أن تحول دونهُ ودون المرام مجانبة الناس له خوفاً من مطامعهِ، ودفعاً لظلمهِ. وبناءً على ذلك نقول إن العادل المنصف والعاقل العنيف ينشط الجرائد ويسعفها، والظالم الطامع الفاسد يضادها ويقاومها. والذي يحملنا على أن نعتقد أن الدولة راغبة حق الرغبة في الإصلاح، ما نراهُ من تنشيطها للجرائد وغضّها النظر عن بعض هفواتها والانتباه إلى ما تقولهُ. إذ إنها تعرف أنها عبارة عن جرائد تقرر آراء الأمة وتحامي عن حقوقها. ولما كانت هذه هي واجبات الجرائد في هذا الزمان. كانت الجرائد التي تتجنب تقرير الحقائق والآراء الصحيحة خوفاً من سوء العواقب وإغاظة أولياء الأمور هي من الجرائد التي تخسر اعتبار الأمة وتجلب على نفسها احتقار الحكومة وبئس الحال. ومما يحملنا على الانهماك في الأمور الداخلية في هذا الزمان أكثر من الأمور الخارجية هو أهميتها نظراً لظروف الأحوال، لأن أحسن أوقات إجراء الإصلاح هو الزمان الذي تتغير فيه الدول والوزراء، لأن

الإنسان مفطور على الاجتهاد في عملهِ والكدّ فيه في أول انهماكهِ فيه، فإذا صادف نجاحاً ينقاد بهِ إلى مداومة الرغبة والاجتهاد، فيستقيم الأمر. وهذا هو مما حملنا على تقرير ما قررنا في ما سبق بخصوص وزارتنا الجديدة التي قد أجرت في الدولة أموراً لم تكن الوزارة القديمة تجريها مراعاة لما لا يجب أن يكون موضوعاً للمراعاة، هذا وهو معلوم أننا لا نعرف شيئاً معرفة مخصوصة تمكننا من أن نقرر ما يثلم صيت تلك الوزارة بناءً على معلومياتنا الخصوصية، غير أننا نعلم أن أحوالنا لم تكن مستقيمة، ولا تزال غير مستقيمة، لأن زمان الإصلاح لا يزال قصيراً، ولكننا ننتظر بفروغ صبر نتائج الإجـراات[1] الخيرية الصادرة عن نوايا حضرة مولانا الأعظم وصدر وزرائهِ المفخم والوكلاء الذين وعدوا بلسان الأقلام باتمام الإصلاح وتنظيم الحال، وقد خصّوا المالية بالاعتناء لأنها الملك ركن يستقيم به أمر البلاد، ويحميها من الفشل. وقد أتت مساعيهم في هذا السبيل بنتائج لم يصدر عنها ضرر، ولا نعلم إذا كان الإجراء التام يبين لنا من عدم الموافقة ما لا نقدر أن نراه قبله، لأنهُ معلوم أن الغاء المتصرفيات من مراكز الولايات هو من الأمور التي قد سر بها الجمهور وقابلها بالحظ. ومع أننا قد اشتركنا مع القوم في إظهار ما أظهروهُ من هذا القبيل، لا نزال نتردد عن تقرير هذه المحظوظية في ما ربما كانت الماجريات[2] تلزمنا أن نقرر فيهِ ما يضادها، ليس لأن ضم الأمور الحسابية في مراكز الولايات إلى قلم واحد بإلغاء أقلام متصرفياتها وهو مما يجلب الضرر، ولكن لأن اجتماع كل الأعمال في مجلس واحد أو مجلسين لهما رئيس واحد، وهو الوالي، ربمّا كان يأتي بتعطيل يضرّ بالأعمال، وهو الوالي، ربما كان يأتي بتعطيل يضرّ بالأعمال، ويوقع الوالي ومجلسيهِ في الارتباك، هذا إذا كانت المهام كثيرة كما في سورية وحلب، مثلاً، وفضلاً عن ذلك هذا الأمر يسلب من أهالي اللواء التابع للولاية حقوقاً ربما كانت نافعة لهم، حتى أن أهالي مدينة مركز الولاية يبيتون متعلقين بمجلس واحد فقط،

---

(١) يقصد الإجراءات.

(٢) يقصد، المجريات.

ليس بعدهُ غير الاستئناف إلى الآستانة العليــة مع أن لأهالي بقية الألوية ثلثة مجالس قبل مجلس الاستئناف العالي، فضلاً عن مجالس شيوخ القرى ومختاريها والمدبرين، وهي مجلس القايمقامية والمتصرفية والولاية، ومع هذا لا نقول إن هذا الترتيب لا يوافق إلاَّ بعد أن يجري امتحانهُ بالعمل، لأنهُ ربما كان مجلس واحد فوقهُ مجلس العاصمة أكثر استقامة من غيرهِ، وينصف حالاً بدون أن يكلف المتداعين إلى رفع الدعاوي واحتمال أثقال صرف الزمان سدى، لأنهُ كثيراً ما سمعنــا أن بعض أعضاء المجالس تتفق على أن يعضدوا أعضاء المجالس التي هي دونهم، وهذا ينبوع فساد بيّن لا يرضي حضرة مولانا السلطان، والله أعلم بالحقيقة. ومن الأمور الإصلاحية تبديل بعض مأموري الدولة وعزل بعضهم، غير أنهُ لا يسوغ أن نسمي كل تبديل وكل عزل إصلاحاً، لأنه ربما كان بعضها مضرًّا، وهذا هو من الأمور التي لا بد لنا من أن نلاحظ الماضي والمستقبل قبل أن نحكم بها حكماً قاطعاً، لأنهُ ما الفائددة من نقل المأمور المشهور بالفساد من مأمورية يعرف واجباتها إلى مأمورية ربما كان يجهل أمرها. وما الفائدة من عزل الفاسد وإقامة رجلٍ مثلهِ إن لم نقل دونهُ. وعندي أنهُ أولى بالدولة أن تبقي الفاسد خائفاً من نتائج فسادهِ من أن تبدلهُ بفساد محا الزمان آثار ظلمهِ وعدوانهِ. وليس المقصود أن الوزارة الحالية آخذة في إقامة مأمورين ليس بهم الأهلية واللياقة للقيام بحق مأمورياتهم. لأن المسموع أن أكثرهم هم من الذين طالما تمنت الأمةو أن يكون لها مثلهم، ولكن لا تقدر الجرائد التي لها أهمية، بحسب حالة البلاد المنتشرة فيها أن تضرب صفحاً عن تنبه أولياء الأمور إلى ما ربما كان تراكم الأشغال أو كثرة الوسائط ينسيهم إياها في زمان كان شأنهُ رفع قوم بخفض قوم آخرين. ولذلك كان الولاة الذين تنصّبوا مجدداً في ظروف صعبة، وعلى الخصوص إذا كانوا من الحاذقين الذين لم يتعودوا سياسة الولايات، ولكنهم أتوا رأساً من مناصب أخرى، لأنهم ربما حرموا أنفسهم نفع المأمورين القدماء ونتائج اختبارهم، قبل أن يتمكنوا من الحصول على مأمورين يسدون مسدهم كما يجب. وقد

بلغنا أن الدولة ستلغي الضابطين وتستعيض بالجنود الاحتياطية الذين يقومون مقام الضابطين بالنوبة. ولما كنا نجهل تفاصيل ذلك حتى حقيقته، كان لا بد من مجانبة الكلام عن ذلك المجهول، غير أننا نقول الآن أنهُ ربما كان في ذلك فائدة. ولكن المرجح أنهُ يكون مصدراً لارتباك الحكومات المحلية، وتكديراً للراحة بنوع يزيد ضررهُ عن النفع المالي الذي ينشأُ عن التوفير الناجم عنهُ، حتى أننا عندما ندقق النظر في هذا الأمر، ونرى صعوبة إدخال كثيرين من أصحاب الأشغال والثروة في سلك الحراس الذين يقومون مقام الضابطين بالنوبة، نقول إن ما بلغنا هو كذب أو وهم لهُ مصدر آخر، هذا مع قطع النظر عن الفقراء الذين إذا خدموا خدمة الضابطين لا يكتفون بمداخيلهم. وحاصل الكلام أن الوزارة الجديدة قد وفرت على خزينتنا نحو ثلثة عشر مليون ونصف من الفرنكات في كل سنة. وقد رفعت أسعار القونصوليد[٣] وأرجعت الأمنية التي كانت تكاد تفقد بعض الرجوع، إن لم نقل كلهُ، ولا سيما بعد أن رأى العالم أن حضرة مولانا السلطان الأعظم قد قطع من مداخيلهِ الخصوصية مبالغ وافرة وضمها إلى خزينة الأمة ليتمكن من دفع ما كان مزمعاً أن يطرأ عليها من الفشل لو دامت الحال على ما كانت عليهِ وإن حضرة الصدر الأعظم قد قطع من معاشهِ ومعاش كل المأمورين خمسة غروش من كل مائة، خلا التوفيرات الكثيرة التي قد وفرتها الدولة في هذه المدة المتأخرة، ولا ريب أنها ستتمكن من توفير ضعف المبلغ الذي وفرتهُ بعد زمان ليس بطويل، غير أننا نرغب في أن نرى توفيراً في أمور أخرى ظاهرها تبذير وباطنها توفير، وذلك إنما يتم بتخفيف الرسومات في الداخلية، أو بإلغائها وبإبدال العشر بما يقوم مقامهُ من المال المربوط والظاهر أن حضرة مولانا الأعظم ووكلاء دولته الفخام لا ينفكون عن الكد والجد في سبيل خير الأمة ونجاح الدولة، إلاَّ بعد أن يتمموا كل ذلك ويشرعوا في إيفاء الديون المتراكمة على الخزينة بواسطة إخراج المعادن

---

(٣) يقصد

الكثيرة وتسهيل وسائط النقل بنوع يُمكّنها من نقل المحاصيل المعدنية والأخشاب التي تقدر أن تقطعها من أحراشها الكثيرة. هذا وهم منهمكون بإنشاء الطرق والمكاتب وتنشيط الزراعة والصناعة وإسعافهما إسعافاً مادياً، وتقرير النظامات التي تمكّن البلاد من أن يكون لها نظام واحد مدنيٌّ ومأمورون يخافون من الميل عن الصراط المستقيم. وعند ذلك نرتع في جنان السعادة والثروة وإن لم يطل الله حبل الحيوة إلى أن نرى ما طالما تمنينا أن نراهُ يرتع أولادنا عنا في ما لم نتمكن نحن من الرتوع فيه.

العناية الشاهانية(*)

ما كل ما ترتفع مراتب الإنسان تكثر معارفهُ في الماجريات الخصوصية التي قل ما تتجرأ أن تسلك السبل التي نصل بها إليهِ إما لضعف الذين تطرأ عليهم وإما لجهلهم وخوفهم مما يجب أن يستأنسوا بهِ ويلتجئوا إليه، حتى أنهُ قلما تبلغ مسامع أهل العلى الأمور التي هي مصدر سلب حقوق الضعيف لجمع الثروة في خزاين الذين يؤتمنون على أن يحافظوا على تلك الحقوق، لأن السالب يتجنب سلب حقوق يعرف أن سلبها يأتيهِ بمسؤولية مكدرة، ولذلك كان صاحب المراتب العالية جاهلاً لأكثر تلك الأمور، ظاناً أنها إنما تسير في مجاريها بحسب رضاهُ العالي، والمقصود أنهُ قل ما يتمكن ملك أمّة من الوقوف على الحوادث التي نظراً لتعلقها بالأفراد دون الجمهور لا تصادف حظًّا عند أهل السياسة يأتيها بالعناية التي تصادفها المهام العمومية، أو العلاقات الدولية، وعلى الخصوص في بلاد تمكن الذلّ والضعف وفتور الهمم من أهاليها تمكناً يحملهم على تفضيل احتمال الظلم على احتمال عناء التشكي والمصاريف التي تلحق بالمتشكين. على أنهُ لمّا كانت هذه الأمور الخصوصية مما يصبح من المهام العمومية، بواسطة تكرار الوقوع، كانت مما تقتضي التفات صاحب البلاد التفاتاً مخصوصاً، ولذلك لمّا رأى حضرة مولانا السلطان الأعظم أن إشعارات شاهانيتهِ

(*) افتتاحية ج ٢١، مجلة الجنان ١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٧١، ص ٧١٧ ـ ١١٩.

العادلة لا ترى نواياهُ الخيرية في الاستانة العلية وفي الولايات إجراء تلك النوايا بنوع واضح وقطعي يتكفل بالإتيان بمرغوباتهِ التي تأتي الأهلين بالسعادة التامة، بواسطة نشر النظامات وإجرائها، رأى أنهُ لا بد من اتخاذ الوسائل الفعالة التي من شأنها الإتيان بالمرغوب. ولا يخفى أن وقوف حضرة مولانا الأعظم على ما حملهُ على تحرير ما حررهُ، وبعث بهِ إلى حضرة الصدر الأعظم، ونشرناهُ في الجزء التاسع عشر من الجنان، وعلى كتابة الفرمانات العالية وإرسالها إلى الولاة، كالذي نشرناهُ في عدد ١٣٥ من الجنة هو مما ينفع العدالة ، وأي نفع، لأنهُ يعرّف القابضين على زمام الأمور أن عينيهِ العليتين ناظرتان إلى أمور كانوا يظنون أنهما لا تنظران إليها. وكنا نحب أن تمكننا ظروف الأحوال من المحاماة عن الذين أمَّنهم على ما أمَّنهُ عليه المولى عز وجل، وجعلهُ وديعة محترمة في يديهِ على أن الظروف تحملنا على رغم أنفنا على ان نقول أن حضرة مولانا الأعظم قد قال ما كان يقولهُ كلٌّ منا، وما طالما كان موضوعاً للتشكي، وعلى الخصوص في الأماكن التي قام فيها الذهب مقام الإنصاف. ولذلك كان لا بد لنا من أن نردد صدى ذلك الصوت العالي ترديداً يحملنا على النشاط في طلب الحقوق التي منحنا إياها، ويحمل أولئك المؤتمنين على التيقظ ومجانبة ما كان كثيرون منهم لا يتجنبونهُ. والمظنون أن الذي بلغ المسامع الشاهانية من هذا القبيل لم يكن إلاّ بعض ما عرفناهُ، وأحببنا أن نبلغها إياهُ لأنهُ ما من أحد يقدر أن يعرف كل ما يحدث من هذا القبيل، ولا نصفهُ حتى ولا ربعهُ. لأنهُ إن كنا نحن المقيمين بعيداً عن دار السعادة بين الأهلين قياماً لا يقدر أن يقومهُ من تعلو بهِ الرتب لا نعرف ربع ما يحدث في الداخلية والقرى، حتى في نفس المدن التي نقطنها. فكم من حكم صدر عما يغيظ عظمتهُ صدوره عنهُ أجرتهُ يد القوة، ومحت بعد إجرائهِ آثارهُ. وكم من إنسان لا تمكنهُ وسائطهُ المالية من الخروج من قريتهِ التزم أن يرتضي بما لو كان لهُ ما يحب أن يكون لهُ من المال لما ارتضى بهِ، ولو حفر على حتفهِ بظلفهِ. وقد قال حضرة مولانا الأعظم في فرمانهِ العالي المشار إليه. وإذا وقع تكاسل وتسامح بهذا الباب،

فاعلم أن ذلك مما يوجب عليك المسئولية الوخيمة، ولا يخفى ما في هذه العبارة من النفع والقوة، لأنهُ إذا ارتفع عن الإنسان كل ما يخاف منهُ أو بعضهُ يتطوح بحسب فساد الفطرة إلى ما يضر ضرراً كثيراً. وقد عرفت العناية الشاهانية أن من أفعل أسباب ترقية العدل وضع الحكام، وكل الذين يستلمون زمام المحاكم الشرعية والنظامية، تحت ثقل مسئولية يخافون أن يمسوا حاملين أثقالها، وهذا ينبّه الولاة والمتصرفين والقايمقامين والمديرين إلى ما يبان من مفاد تلك الكتابات العلية أن بعضهم كان غير منتبه إليه، لأنهُ كم من تشكٍّ صار غض الطرف عنهُ لأسباب لا يجهلها الأهلون، وأكبر برهان ما حدث في ولاية البشناق من العصيان، ليس على أوامر حضرة مولانا الأعظم، ولكن على طاعة الوالي الذي كان مؤتمناً على راحة الأهالي ورفاهيتهم. ولمّا بلغنا أن الوزارة السابقة أبقتهُ في ولايتهِ مع قطع النظر عن توسلات الأهالي وعصيانهم خوفاً من أن يكون عزلهُ إجابة لطلبهم أسبقية تشجع غيرهم على السلوك في مسلكهم، تعجبنا كل العجب فإننا كنا منتظرين صدور الأمر بالتحقيق، ولذلك كاد القلم يخط ما الزمتنا ظروف الحال أن نمنعهُ عن خطهِ. والظاهر أنهُ قد بلغ حضرة مولانا الأعظم ما طالما كان موضوعاً لعنايتهِ الشاهانية، فأمر بتبديل ذلك الوالي. وحاصل الكلام أن الحال الآن هي على غير ما كانت عليهِ سابقاً.

ولذلك كان لا بد للمستلمين زمام الأمور من أن يغيّروا سلوكهم إذا كانوا من الذين كانوا يسلكون مسلكاً منابذاً للإرادة الشاهانية، ومخالفاً للعدل والأنصاف، كما أنهُ كان لا بد لنا من أن نسلك بالنسبة إليهم مسلكاً يختلف عن مسلكنا الأول، وعلى الخصوص بعد أن رأينا أن البعض من الذين كانوا في المراتب العالية في الآستانة قد أمسوا في ذل وهوان مصدرهُ الميل عن صراط الاستقامة. ولو حلمنا بما نراهُ الآن في اليقظة، لأستغربنا أحلامنا لعدم صدورها عما يخال بفكرنا، أو عما ننتظر حدوثهُ ولا ريب في أنهُ يصعب علينا في أول الأمر أن نسلك مسلكاً يوافق الحال، على أن أملنا أنهُ لا يكون صعباً على المأمورين أن يسلكوا مسلكاً يوافق الإرادة الشاهانية، وإن استصعب بعضهم ذلك

فلا نستصعب نحن أن نشكوهم إلى من قد فتح لنا أذني حلمهِ، وشرع في النظر في ما يتعلق برفاهيتنا وسعادتنا بنفسهِ، ولا سيما في عصر نشّطت فيه الدولة العلية الجرائد التي لا تتمنع عن تقرير ما يجب تقريرهُ مما تراهُ مطابقاً للواقع، ولو احتملت من جرى ذلك أثقالاً مالية وغير مالية يصعب عليها أن تحملها، ولا ريب أن مسيرها في هذا السبيل يرضي العادل المستقيم، ويغيظ الظالم الخائن الذي لا يهم رضاهُ وغيظهُ أحداً من الذين أنار أفكارهم شمس روح هذا العصر، لأنهُ إن ظلم اليوم يسقط في الغد، ويقتصر عن إطالة حبال عدوانهِ. ومن المعلوم أن أحوال البلاد الآن هي مما لا بد من مراعاتها حق المراعاة، لأنها في حالة النمو الأدبي وهي في ضعف مادي، فإن أساءت السياسة التصرف ودامت الحال على هذا المنوال، يزداد ضعف الماديات فتسقط الأدبيات لأنها لا تقدر أن تحفظ مركزها وحدها، وكذلك إذا حاربت الأدبيات ومانعت تقدمها ونشطت الماديـات وأصبح تقدمنا تقدماً خارجياً في الأدبيات، وصحيحاً في الماديات، وملكت أيدينا الثروة وأسباب التنعم، نبيت في أسوأ الحالات. لأنهُ ما من أمّة أشر من الأمة التي تملك المال ولا تملك الأدب. فإن المال بلا لجام الأدب يطرح العقل في جنون، ويوسع دائرة الشر والفساد والعياذ بالله. وإذا نظرنا إلى ماضينا القريب لا نقدر أن نضبط أنفسنا عن أن نتشكى ونقول إننا لم ننل ما كان يجب أن ننالهُ من الأمرين، وهذا هو الذي حمل حضرة مولانا الأعظم على إصدار ما أصدرهُ من الأوامر الشاهانية التي أشرنا إليها فيما مضى. أمّا الآن فالماضي قد مضى وأملنا أننا لا نتذكرهُ، إلاَّ عندما نستخدمه لنقيس ما قطعنا من سبل التقدم والنجاح. لأن أملنا وطيد بأن مولانا الأعظم ووكلاء دولتهِ الفخام لا يتأخرون عن تفضيل صوالح الأمة على المآرب السياسية التي يجلّ شأنهم عن استخدامها في ما لا يوافقنا. ولولا الخوف مما يتبع شدة الأمل من الكدر إذا صرمت حبالهُ وخاب المسعى لبشّرنا الأمة بزوال كل المكدرات ونوال كل المرغوب.

وزارتنا الجديدة(*)

إن الإنسان مفطور على أن يؤمل بالحصول في المستقبل على ما لم يهبهُ إياهُ الماضي، وعلى الخصوص إذا حدث ما يقوي أملهُ من تغيير في الأحوال التي كانت تحول دونهُ ودون المراد، إما من جرى التقصير، وإما من جرى اختلاف المقاصد والمآرب. ومع أننا كنا نشعر في الماضي بالاحتياج إلى أمور كثيرة لم تمكننا من نوالها سياسة حضرة المرحوم عالي باشا، لا نقدر أن نتهمهُ أو نتهم الوزارة التي كانت في أيامهِ بما ربما كانت ظواهر الأحوال تحملنا على إيهامهم بهِ، لأننا كنا نعرف أن محبتهُ لجمع زمام أكثر الإدارة في يدهِ، إذا لم نقل كلها، حمّلتهُ أثقالاً لا يقدر أن يقوم بها حق القيام ثلثة أو أربعة رجال من أعقل رجال العالم وأدراهم. لأننا إذا قسنا عالي باشا في الصدارة على غيرهِ من الوزراء الأولين في ممالك أخرى، لا نعدل في القياس، لأن المهام المتعلقة بالصدارة العظمى، وحدها، هي أكثر جدّاً وأهم من المهام المتعلقة بالوزارات الأولية في باقي الممالك، هذا إذا كانت مجردة عن وزارة الخارجية، فكيف إذا كانتا مجتمعتين، ولا نعلم إذا كانت صفات حضرة عالي باشا المخصوصة جمعت في يده في وقت واحد بعد وفاة حضرة المرحوم فؤاد باشا كل سياسة السلطنة السنية الداخلية والخارجية ،أو ظنهُ بأنهُ ما من أحد من رجال الدولة العظام قادر على القيام بحق تلك المهام قياماً يتكفل بسد مقتضياتها، وكيف ما كانت الحال، لا يسمح لنا اختبارنا الماضي والحاضر أن نمدح ما نعرف أنهُ كان يؤخر مسير الأعمال تأخراً لا ينفع البلاد، إذا لم نقل إنهُ كان يضر بها، وفضلاً عن ذلك كانت الأمور المهمة تحمل عالي باشا على الخروج من مركز مأموريتهِ للنظر فيها، كما حملتهُ حوادث كريت على الذهاب إليها. وإذا نظرنا إلى تلك السياسة نظراً عمومياً نستحسنها ونعجب كل العجب من اقتدار ذلك الذي كان يدير بدرايتهِ دولابها. على أنهُ يسوغ أن نقول إننا نحب أن يكون لنا، الآن، أكثر مما كان لنا في الماضي، وعلى الخصوص بعد أن أصبحت المأموريات في

(*) افتتاحية ج ٢٠، مجلة الجنان ١٥ تشرين الأول/اكتوبر ١٨٧١، ص ٦٨١ ـ ٦٨٣.

أيدي رجال عظام عندهم من الدراية والحذق والنشاط كل ما يلزم أن يكون عندهم، ولذلك كانت واجباتهم أكثر أهمية وصعوبة، بعد أن كانت الوزارة الأولى قائمة بما فيه بعض رضى البلاد في ظروف أصعب جدّاً من الظروف الحالية، لأنهُ منذ تبوأ تخت السلطنة السنية حضرة مولانا الأعظم السلطان عبد عزيز خان إلى يومنا هذا، تمكن من إزالة أكثر أسباب الفتن التي طالما كدرت راحة الوزارة الأولى، وحمّلتها من أثقال المسئولية ما كان يضعف قوتها في الإجـراات الإصلاحية. ومع ذلك قررت نظامات وقوانين كثيرة في بطون القرطاس، يحملنا نشاط الوزارة الحالية على الأمل بتقريرها في حيّز الاجراء. وإذا قلنا إن حضرة مولانا الأعظم قد وضع الأساس للوزارة الحالية، ولذلك كان أسهل عليها أن تشيد الجدران مما لو كانت ملتزمة أن تنهمك في وضع الأساس، كما كانت منهمكة الوزارة الماضية، نقول ما يطابق الحقيقة وما ذلك إلّا من انتصار طالع سعد الأمة، بعد أن صرف مدة طويلة في الجهاد الذي أقامهُ الزمان بينهُ وبين جيوش القرون الماضية، وإذا جاء الزمان بما يهدم قصور أملنا في هذه المرة ننثني باليأس، ونجلس في مجالس الذل نندب سوء حظنا. وإذا قصرت السياسة الحالية عن إعطائنا كل ما نتمنى أن يكون لنا، نعتصم بالصبر الجميل وننتظر الحصول على المرغوب بواسطة المسير في مركبات القرون الماضية، وليس في مركبات البخار التي امتاز بها وبغيرها هذا القرن عن غيرهِ من القرون، على أن الحظوى بالمرغوب هي أقرب من خيبة الأمل، كيف لا وعبد العزيز هو سلطاننا الأعظم الذي ينظر بعينهِ الثاقبة إلى مقتضيات أحوالنا، وحضرة محمود باشا هو الصدر الأعظم الذي يعرف أن الأمة قد كبرت بالمعارف، ولذلك كانت انتظاراتها كبيرة وأن أول شيء نرغب فيهِ هو الاتحاد الداخلي، والتخلص من كل ما طالما كدر العلاقات الكائنة بين خديوية مصر المعظمة وبين الباب العالي، فإننا إذا صرفنا قوتنا الأدبية والمادية في انهماكات مقلقة داخلية، فبماذا نصد المطامع الخارجية فإن اتحادنا هو مصدر قوتنا، ولذلك كان من مصلحتنا إغماض الطرف عما ربما كان يحدث من الأمور الثانوية التي

من شأن فرط الاهتمام بها جلب ضرر أكثر كثيراً من النفع كما أن إزالة الأسباب التي تكدر الأمة، ولا تنفع السياسة، هي ما يحملها على أن تحسن النوايا لجهة السياسة وتضحي كل ما تقدر أن تضحيهُ لتسعفها وتحميها بما عزَّ عندما تمس الحاجة. ومن الأمور التي نظن أنها تكون موضوعاً لالتفات الدولة الخصوصي، بعد أن تقلد إدارة المهام حضرة محمود باشا والوزراء الكرام حالة الضابطة في البلاد، لأنها وإن كانت قائمة بالواجبات المفروضة عليها لا تزال تحتاج إلى إصلاح من جهة ماليتها في أول الأمر، وعند إتمام هذا الإصلاح يحتاج الأمر إلى إصلاح أفراد المنتظمين في سلكها، وهذان الأمران متوقف أحدهما على الآخر. لأنهُ بإصلاح أحوال المالية، أي بواسطة تقليل العدد وزيادة المعاشات، تتمكن الحكومة من استخدام رجال ذوي دراية ومعرفة وهمَّة، فيقوم الواحد منهم مقام ثلثة من الجاهلين، ولذلك يستحق أن تكون لهُ أجرة ثلثة منهم. وهذا الأمر هو من الأمور الأولية في نظام الداخلية وانتظامهُ يرضي الأهلين جداً، وكذلك قد بلغنا من كثيرين أنهُ وإن تكن حالة مجالس تمييز الحقوق هي على وفاق النظام وأعمالها هي جارية في كل المتصرفيات، ومثلها مجالس الدعاوي في القضاوات يظنون أن حالة الأعضاء بالنظر إلى المالية هي غير منتظمة انتظاماً يوافق حالتهم، لأنهم ملزومون أن يصرفوا كل وقت الأعمال في استماع الدعاوي، بدون الحصول على ما يكفي لسد بعض احتياجاتهم المعاشيّة بالنظر إلى الرتبة التي لهم بين الأهلين، ولذلك نظن أن حضرة الصدر الأعظم يفعل ما من شأنهِ إصلاح هذه الحال إمّا بتقليل عدد الأعضاء الدائمين، أو بقطع كل المعاشات خلا معاش القاضي ورجلين آخرين ينتخبهم بأكثرية الاصوات كل أهل المكان. وكان قد بلغنا أن حضرة عالي باشا كان شارعاً في الاهتمام في ذلك، على أن تراكم الأشغال كان يعيقهُ، أحياناً، عن النظر إلى أمور داخلية كهذه، لا أهمية خارجية لها، والمرجح أن اهتمامات الصدارة العظمى في الداخلية تكون بقدر احتياجاتها. ومن الأمور التي انتظرنا تقريرها ربط الأموال العشرية بحسب معدل السنوات الخمس الماضية، على أن الظاهر أنها

لا تزال تنتظر وقوع أنظار حضرة محمود باشا عليها. أما القوانين العمومية التي كانت قد صارت المباشرة في الآستانة العلية بتقريرها وترجمتها إلى اللغة العربية، وهي جميع الآراء المعول عليها من الشرع الشريف، فلم نرَ منها غير الجزء الأول وهو في البيوع، وربما كان قد انتشر منها أكثر من جزء واحد والمأمول أنها هي أو غيرها ممن يقطع أسباب الإرتباكات التي تصدر عن تعدد الآراء في الأحكام وعدم وجود الاتفاق اللازم بين بعض القوانين والشرع الشريف تكون من الأمور التي تحوز سرعة التفات الوزارة الجديدة، وكل هذه الأمور ليست هي إلاَّ ما يقتضيهِ الزمان، بالنظر إلى ما جد فيهِ من كيفية الأشغال والعلاقات الممتدة بين الأمم. وقد سرنا ما طالعناهُ من الأوامر الشاهانية الصادرة من المابين الهمايوني وهذه تكذّب ما طالما أشاعتهُ بعض الجرائد الأوربيـة من أن مولانا الأعظم لا يهتم بنفسهِ في ما ياول[1] إلى ترقية أسباب سعادة تبعتهِ السنية ورفاهيتها، وما ترجمناهُ عن الليفانت هرلد وقررناهُ في وجه آخر من هذا الجزء من الجنان، يبين أن كل التغييرات المهمة التي حدثت في الآستانة العلية هي بأمر عظمتهِ العالي، وبناءً على ذلك نؤكد للأمة أن مستقبلنا هو حسن جداً، وأن ما نحتاج إليه مما لا يضر بنا سننالهُ وأن مولانا الأعظم سيأمر بنشر كل ما تقرر من القوانين وجمع من الشرع الشريف بلغات تبعتهِ السنية وعلى الخصوص في اللغة العربية في كتب يصير بيعها في كل المدن، لأن وقوف الأهالي على ما لهم من الحقوق، وما لحكومتهم منها يحملهم على مجانبة التعدي على ما لا يحق لهم أن يتعدوا عليه. كما أنهُ يمنع من ربما كان يحاول التعدي على حقوقهم عن أن ينال مرغوبهُ ولا ريب في أن الوزارة الجديدة لا تسلك مسلك الطمع، ولكنها تنزل مرتبات المأمورين العظام في الآستانة العلية وفي الولايات، لأن المظنون أن ثلثي المعاشات الحالية، إذا لم نقل نصفها تكفي للقيام باحتياجات المأمورين. وحاصل الكلام أن المرجح عندنا أن إجـراآت وزارتنا الجديدة ستأتيها ليس فقط بمدحنا،

---

(١) يقصد يؤول.

ولكن بمديح العالم المتمدن. وإذا حال الزمان دوننا ودون المرام، ولم نقدر أن ننشر أفكارنا نصمت صمتاً لسان حالهِ يتكلم عنا، ولكن هل يطرأ علينا ذلك وسلطاننا عبد العزيز خان.

قوتنا(*)

الحكم في متعلقات الجماهير كالحكم في متعلقات الأفراد، وبالعكس، فإن القوة تغلب الضعف، والضعف يأتي بالفاقة، والذل يأتي باللين، والخوف والاجتماع وبالنتيجة، والزمان بالصبوة والفتوة والشبوبية والكهولة والشيخوخة والموت. ومصادر العز والمجد بالقوة والنشاط، وينابيع الثروة والغنى الكد والجد والاجتهاد. ومجاري السعادة القناعة، والقناعة هي المحرّضة على حفظ المركز، وهذا هو نفس التقدم والنجاح. ومن يعيا عن حفظ مركزه يتأخر ويمسي في هوان، وما النجاح في جر الذيول والرفل في أثواب الفخر والتعظم، لأنهُ ربما كانت تجر هذه الأذيال بجرها مصيبة فوق مصيبة، وويلاً فوق ويل، فلا يشعر بها صاحبها إلاّ بعد أن تجذبهُ أثقالها إلى أحدور التأخر والفشل، وكذلك الأمم فإنها تنجح إذا سلكت سبيلاً صحيحاً خالياً من التظاهر بأكثر من الحقيقة، لأنها ربما كانت تقصد أن تخدع غيرها فتخدع نفسها، والنتيجة السقوط والعياذ بالله. وحارس الإنسان هو القوة، فإنها هي الدولاب التي تدور عليهِ الكرة الأرضية، أو هي القرن الراكزة عليه المراكز الثقيلة، وهي كل شيء، وبدونها لا يقوم شيءٌ، فإن مشينا فبالقوة وإن أكلنا أو ركبنا أو نمنا أو تعلمنا أو غنينا أو قاتلنا أو وعظنا أو جنينا، أو غير ذلك، فالقوة هي روح الخلائق، وهي حافظة النظام الكوني والجمهوري والحائلي والإفرادي، ومصدرها الخالق، وهي تحفظ كل ما يُرَى وما لا يُرَى، وهو سبحانهُ وتعالى حافظها، فإن وقع خلل في نظام الكون تندك عوالمهُ، إذا لم تأتِ قوة أخرى لتسد مسدها، فتتلاطم الشموس والأقمار والسيارات والثوابت بعضها ببعض، ويمسي الفضاءُ في عدم نظام، ربما كان يجعلهُ لهيباً مشبوباً أو جليداً مزججاً، وبالنتيجة

(*) افتتاحيه ج ١٤، مجلة الجنان ١٥ تموز/يوليو ١٨٧١، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٧.

تهلك الخلائق الكثيرة ويفنى عالم المعارف وعالم النبات وعالم الحيوان البري والبحري والمنظور والغير المنظور، وتبيت هذه العوالم التي لا تُعَدُّ ولا تحصى طائرة بلا نظام في ساحة الفضاء المتطاول. فالواحدة تنزل إلى فوق، والأخرى تطلع إلى تحت، والواحدة تغيب في الشرق، والأخرى تطلع في الغرب. لأنهُ لا فوق ولا تحت ولا شرق ولا غرب ولا شمال ولا جنوب، ولا شيءٌ غير ارتباك ومصائب وخربات وفناءٍ وانهدام وسقوط ودمدمة دحرجة الصخور الكبيرة، وانقلاب الجبال الشامخة، واندفاع المياه المتدفقة وصواعق القوات الطبيعية الملتطم بعضها ببعض، وغير ذلك مما يصعب وصفهُ. وفي تصورات أهل المعرفة غنى عن التطويل. فهذا هو نتيجة الضعف الذي يأتي بعد النظام في الكون عموماً، ولا يخفى أن مفعول الفاعل في البعض يكون كمفعولهِ في الكلّ، فإن وقع ضعف في عالم واحد من الكائنات يختلّ نظامها، أيضاً، ويخامرها الخراب، وكذلك إذا ضعفت قوة عالم من عوالم هذا الكون كعالم النبات مثلاً، فإنهُ إن ضعفت عناصر الحوامض الكربونية وقويت عليها عناصر الأوكسوجين يخرب نظام ذلك العالم ويفنى. ولما كان الإنسان يحسب نفسهُ أهم مخلوق من مخلوقات هذا الكون المعروف بالأرض، كان لا بد لهُ في كل حال من التعمق في معرفة مصادر قوتهِ وأسباب حفظهِ ميزانيتها، وبالنتيجة لا بد لكل أمة وعائلة وفرد من ذلك، لأنهُ قد تبين أن القوة هي سبب كل مسبَّب، فإنهُ على وجودها وعدمها وانتظامها وعدمهِ يتوقف نجاح الأمم والعيال والأفراد وتقدمهم وسعادتهم ورفاهيتهم. وأهم حافظ لقوة الأمة هو الدولة، ولقوة العائلة الوالدون، ولقوة الفرد نفسه، وانتظام حالة الأفراد والعيال يتوقف أكثر التوقف على انتظام قوة الدولة ونظامها. وقد علَّمنا الاختبار أن ضعف قوة الأمم إما يكون ظاهراً وإما غير ظاهر على أنهُ إن تصادمت القوة مع قوة أخرى تبين حقيقة الحال. ولذلك لا يسوغ أن تكتفي الأمة، بالنظر إلى ظواهر أمورها للحكم على حقيقة أحوالها لأنه إذا نظرنا مثلاً إلى كيسين فيهما دراهم وحكمنا أن أكبرهما ذو قيمة أكثر من أصغرهما،

وعند فتحهما رأينا أن نقود الكبير نحاسية، ونقود الصغير ذهبية، ترى أننا حكمنا بغير الصواب والخلاصة أن معرفة حقيقة قوة الأمة بدون اختبار هي صعبة جداً، أما قوتنا فقد عرفنا أنها الآن أقوى من الماضي برًا وبحراً، وعلى الخصوص بعد أن رأينا فعلها في عصيان كريت وبني عسير وجبل الأسود، وغيرها، كالعصيان الذي أثارتهُ عربان البادية، وكذلك إذا نظرنا إلى ظواهر قواتنا البرية، نرى أنها في تقدم كثير، لأن أسلحتها أنظم من الأسلحة الماضية، وكذلك مأكولاتها وملبوساتها ونظام دخولها في سلك العسكرية وخروجها منهُ والاجتهاد في تمرينها وضبطها وغير ذلك. وإذا نظرنا إلى قوتنا البحرية، نرى أنها تكاد تكون من القوات الأولية، وهذا مما يحملنا على الحكم بالتقدم وتقوية القوة، على أنه لا يمكّننا من الحكم بأنها بلغت الغاية أو الدرجة اللازمة، وعلى الخصوص متى بحثنا في قوة الأمة التي هي مصدر القوة البرية والبحرية لأنهُ ما دامت الأمة في غفلة ومعرفتها في نقصان، لا يمكن القوة المحامية والمحافِظة على النظام أن تكون بالغة الدرجة اللازمة، ولا سيما إذا قابلناها بالأمم التي تعاصرها، وكذلك ما دامت الأسباب التي تنمي في صدر الأمة محبة الوطن والناموس ضعيفة لا تبلغ القوة الغاية، وإذا توهمنا أن العصبية الدينية تقوم مقامها في عصرٍ تكاثر فيهِ مقاوموها ومضادوها نركب الغلط المبين، وتكون النتيجةُ الفشل، والشواهد كثيرة، وكذلك إذا سمحت الأمة بتمكن المشارب الأجنبية المختلفة الكيفيات منها وتأثيرها فيها يشتد ضعف القوة، وليس المقصود التعصب ضد الإصلاحات والمنافع والاكتشافات الأجنبية ومقاومتها واحتقارها لمجرد كونها أجنبية، لأن هذا غلط وجهل ليس دونهُ جهل، وعلى الخصوص بعد أن رأينا ما رأيناهُ من اعتناء سلفائنا في جمع معارف اليونان وترجمتها، وجمع غيرها من معارف الأعاجم وإذا حولنا نظرنا عن العلوم المخصوصة بنا من معرفة قواعد لغتنا وبيانها وأصول شرائعها وقوانينها، نركب نفس الغلط الذي نركبهُ إذا قطعنا النظر عن معارف الأجانب واكتشافاتهم، لأننا لا نقدر أن نتمكن من تعميم قوة المعرفة إلاّ بواسطة لغة الأهلين على أننا لا نظن أن

قِصر عمر الإنسان وكثرة العلوم تسنح لنا بأن نغوص في بحار معارفنا النحوية والصرفية والبيانية غوصاً يمكّننا من الوصول إلى قاعها ولذلك كان من اللازم أن نجني منها ما يحمينا من غلط الكلام والكتابة والقراءة، ثم ننصبَّ على تحصيل المعارف التي تثقف العقل وتوسع دائرتهُ، وتمكن الإنسان من القيام بحق واجباته قياماً يختلف عن قيام الحيوان بها، فإن تقلد السيف للدفاع عن ذماره يتنكب معهُ رمح الادراك وحسن الإدارة، وإن أولج المحراث في الأرض يعرف مفاعيل ذلك وخواص الأرض ووسائط تقدمها وأسبابها، وكذلك إذا استخدم آلات الصناعة لتغيير هيئات المعادن والمحصولات، وهذه المعرفة تمكّنهُ من التفنن والاختراع والتوفير، وهذا هو من أكبر أسباب نجاح الإفرنج وتقدمهم في الصناعة والاختراعات، ولذلك نقول انه ما لم نبنِ في أنفسنا قصور معرفتنا، ونعضدها بأعمدة لغتنا، ونُدخل إليها غادات معارف الأجانب، لا ننال المقصود من تقوية ضعفنا، وعلى الخصوص بعد أن عرفنا بمقابلة جغرافيتنا وحسابنا وطبيعياتنا وتاريخنا وغيرها بجغرافيتهم وحسابهم وطبيعياتهم وتاريخهم وغيرها. إن مرور الأزمان قد مكّنهم من اكتشاف أمور كثيرة لم يسمح لنا قِصر الزمان أن نكتشفها، وأكبر شاهد فن سلك الأبحر، وما دامت هذه المعارف لا تمكن رجال الأمة من معرفة قدر نفسهم وواجباتهم، لأنهم لا يعرفونها تكوّن قوة آدابنا نفس الضعف، لأنهُ ما دام الجهل يعلمنا أن الحذق في الكذب، وأنهُ لا عار على الكذاب والمرتشي والمتعصب وأن ذلك لا ينقص من مقامهِ واعتبارهِ، فمن أين يُؤَمَّل انتظام سياستنا وتجارتنا وصناعتنا وغيرها والشواهد كثيرة منها التقصير بالقيام بحق الوعد، وكثيراً ما نلوم أعظم رجال سياستنا على ذلك، ونطعن فيهم، ويحق لنا أن نلومهم لأنهُ ماذا يفيدنا يا ترى إذا أرضونا بالوعد وأغضبونا بنكثهِ على أنهُ من واجباتنا أن لا نرميهم بسهام اللوم بدون أن نتأكد بأنهم قد وعدونا وعداً صريحاً، لأنه كثيراً ما يعدوننا بإفراغ الجهد في تتميم مرغوباتنا، فلا يتمكنون من ذلك فنشجبهم وهذا خطأ لا يليق بنا ارتكابهُ، وحاصل الكلام أن قوة الأمة هي متوقفة على ترتيبها وقوة الدولة على

قوة الأمة. ومن نتائج المعرفة وتعلم المبادىء الصحيحة العدل والانصاف والتيقظ في إدارة المهام، وهذه هي ينبوع الثروة وثروة الأمة هي ثروة الدولة، فإن كان لا بد أن يكون للدولة ما هو لغيرها من اللواتـي أممهنَّ في قوة ونظام تلتزم أن تجمع أموالاً من أمتها بقدر الأموال التي تجمعها تلك الدول من أممها، ومن أين لها ذلك وقوة أمتها الضعف، والنظام في خلل، فالنتيجة إنما تكون فقر الأمة، وبالنتيجة فقر الدولة. وإذا نظرنا إلى ظواهر قوتنا المالية نرى أنها في ضعف لا مزيد عليه، حتى أننا نخشى عليها من الفناء. على أنهُ في حقيقة الأمر عندنا من القوة المالية ما ليس عند غيرنا، هذا بالنظر إلى معادننا واتساع أراضينا، ولكن ماذا يفيدنا ذلك، إذا لم تأتِنا قوة المعرفة بقوة إدارية وتنظيمية تمكّننا من الانتفاع من هذه القوة. هذا، ومع أن المقام ضيق ولا يسمح لنا بإطالة التفصيل والبحث عن دقائق الأمور الكثيرة التي يهمنا البحث فيها، قد قررنا من المبادىء العمومية ما هو كافٍ ليمكن اللبيب من الوقوف على حقيقة قوتنا، ومن معرفة الوسائط التي من شأنها سدّ الخلل الذي ربما كان مخامراً بعض أعضائنا. وقد رفعنا بذلك عنا المسؤولية التي تلحق بكل عضو من أعضاء الأمة، وحملناها لسياستنا ولابناء وطننا، وعلى الخصوص الذين قد مزجوا المبادىء الصحيحة بالمبادىء الفاسدة، وتبعوا هوى أنفسهم وأغراضهم واحتقروا معارفهم ولغتهـم، أو معارف الأجانب ولغاتهم، فنسأل اللهَ أن ينبههم إلى واجباتهم، ويسعفنا وإياهم في نوال المرغوب، وهو خير مسئول وأكرم باذل لما هو مطلوب وغير مطلوب.

سياسة الأمس والآن والغد(*)

كيف لا نهتم في أمورنا السياسية وهي روح جسدنا وجنة سعادتنا وجحيم رزايانا. وكيف لا ننظر بعين الشوق والانتظار إلى مشرقها، وهي شمس الحيوة وكوكب الصبح وعنصر الحرارة. وكيف لا ننظر إلى مغربها لنرى الآثار التي تتركها، بعد أن تكون قد داست بقدمها سبيل

(*) افتتاحية ج ٢٣، مجلة الجنان كانون الاول/ديسمبر ١٨٧٠، ص ٧٠٥ ـ ٧٠٨.

الزمان ووصلت إلى حيث تقاد بِعنان الدهر إلى مشرق يتبلج منهُ نور يوم مستقبلنا. وكيف لا نجلس مستدفئين بحرارتها وهي في رابعة النهار ترسل أشعتها لتقتل جيوش دول عناصر التعدي والفساد والأكدار، وتشيد حصون الأمنية والراحة السعادة. فالسياسة للأمة روح كل ما هو لها ومرضهُ وموتهُ. لأنها معدن الحيوة السعيدة إن سلكت سبيل الإصلاح. وضعف الحق والعدل والسعادة والراحة والنجاح إن ترددت بين العدل والظلم. وموت الوجود إن ماتت. وهي للشعوب في الأرض أعمّ من الدين وأفعل منهُ، وحسام حكمها أقطع من حسامهِ. فإن الدين هو جنة الاقتناع والإيمان وقوتهُ قوة الضمير. أما السياسية فهي جنات الإحساس والوجود، وقوتها قوة الدفع والزجر والقطع. فاختلاف الأديان وضعف سطوتها لا يخلّان في هذا العالم بنظام الهيئة الاجتماعية. أما اختلاف السياسة وضعف سطوتها فهما خراب العمران وفناءُ الوجود وتعب الراحة وفقد الثروة وإكدار الصفاء وتعاسة السعادة. ولذلك نرى البشر يهتمون بأمورهم السياسية أكثر مما يهتمون بأمورهم الدينية. ويجتهدون أن يضيفوا قواهم الدينية إلى قواتهم المدنية لتقوية أركان سياستهم ورفع قدرها وشأنها. ولكن لا يخفى أن قطع العلاقات التي ربما تمتد بين السياسة والدين هو أولى من توطيدها في عصر أضحى الدين فيه على الغالب خاضعا للتقلبات السياسية واكتشافات العلوم وروح الأعصر، ولمّا كان الدين من أجناد الأزمان التي تترك في السبيل الذي طوتهُ آثاراً تفعل في الحال والاستقبال. كان لا بد من الكلام عن ماضيها لفهم حاضرها ومستقبلها لأنها دائرة تبتدي في الدوران من حيث تنتهي وتنتهي حيث تبتدي. ولذلك قد عزمنا على الكلام في سياسة الأمس قبل الكلام في سياسة اليوم والغد. أما المقصود من السياسة فهو الإدارة التي قامت بحق إدارة مهامها الداخلية والخارجية في حالة السلام وفي حالة الحرب أما سياستنا في الأمس فكانت بئس السياسة لأنها لم تأتنا إلّا بما كان يزيدنا توغلاً في ظلمات الجهل. وكان عنان قيادتنا الغرض. وسعادتنا وتعاستنا إدارة حكامنا. وحسبنا برهاناً سياسة أحمد باشا الجزار في

سورية، وسياسة الانقسام في لبنان، وسياسة المماليك في مصر وغيرهم في غيرها. فإننا كنا كمقتنيات حكامنا وكانت الشريعة والقوانين أجناداً لتنفيذ غاياتهم وبناء أساسات صوالحهم وأغراضهم. وكدنا نكون بلا معرفة فإن رجالنا لم يتقنوا الشرائع والقوانين، ولذلك كانت معرفتها محصورة في جهل الحكام وأميالهم. وكان التفاتها في وقت السلام ألى إخضاع الأهالي لسطوة الحاكم المطلقة، وإلى جمع الأموال لملء خزائنه وتشييد قصورهِ وصروحهِ. وكانت تهتم في زمان الحرب في جمع الرجال والأسلحة لكبح عصيان حرَّكتهُ عناصر الظلم، وقامت بحقهِ جيوش العدل والإنصاف والحرية. أو لإخضاع أهل غرض غير غرضها حملتهم صوالحهم، نظراً لتشتيت شمل الصوالح، على الانضمام إلى عصبة حزب غير حزب مهاجمها. وكان كل حاكم يجتهد في تعزيز حكمهِ وتنكيس حزب أخيهِ أو ابن عمهِ أو غيرهِ من الحكام، أو من الذين سلبت أيدي الزمان السياسة من أيديهم وجلسوا يترصدون حلول الزمان الذي يرجع بهم إلى ما كانوا عليهِ. ولا يزال لهذه السياسة يد في السياسة الحاضرة في بعض الأماكن. وكانت سياسة الأمس كأنها في غفلة عن تنشيط العلوم وترقية أسباب المعرفة التي هي أساس القوة والثروة. وكانت تصبّ كل قوتها إلى جهة واحدة، وهي تقوية العصبة الدينية وجمع الأموال لسدّ مطامع الحكام. فكانت أساساتها فاسدة لا تستطيع مصادمة أنواء الزمان ورزاياهُ. ولذلك سقطت واندكت أسوارها. لأن التمسك بالعصبة الدينية في بلاد مختلفة الأديان هو الضعف بالانقسام ونتيجتهُ الخراب. وهذا هو أساس الحروب الأهلية الكثيرة التي كانت رعودها تدمدم في سماء سياسة الأمس. وعلى الخصوص لأن اعتصاب السياسة، إنما كان مع الدين الغالب. ففي الجبل، مثلاً، كان اعتصابها مع الطائفة المارونية، وفي حلب مثلاً مع الاسلام، وربما في غيرهما مع غير هاتين الطائفتين كالدروز في حوران والنصيرية في جبال النصيرية، وغيرهم، مع أن السياسة الصحيحة تلتفت إلى الضعيف لتنشيطهِ وليس لتعزيزهِ بإذلال غيرهِ، وكانت بدون ترتيب في ما يتعلق بأخذ الأموال، فإنها كانت تلقي

ضريبة على زيد اليوم وعلى عمرو غداً حال كونها كانت لا تكلف خالداً شيئاً من ذلك. وهذا هو ينبوع التذمر والاضطراب. والخلاصة أن سياسة الماضي كانت عدماً ورزءاً ووبالاً لأنها كانت خالية من الإنصاف تفضل صالح الدولة على صالح الأمة وكذلك الرشوة ممتدة في كل عروقها من الرأس حتى القدم، وكانت قوتها في ظلم بعض رعاياها وفي تقوية العناصر الدينية وفي الجهل. وكانت نتائجها ذلّ الرعية بالنسبة إلى الدولة، وذل بعض الرعايا بالنسبة إلى بعضهم الأقوى. وكانت الحرية في الملابس والأعمال مفقودة، فإن جهال أهل العصبة كانوا يظلمون الذين ليسوا من عصبتهم، ومطامع الحكام كانت تحمل الأهالي على إخفاء الثروة، وبالنتيجة إلى تصغير دائرة العمل والتظاهر بالفقر وشأن ذلك حجب النجاح الأدبي والمادي عن الأمة وبالتالي يأتيها ويأتي الدولة بالضعف. فبناء على ذلك نحمد الله الذي أبعدنا عن زمان تلك السياسة وأتى بنا إلى سياسة الآن التي، وإن لم تكن كاملة لا بدَّ من أن تكون أحسن من سياسة الأمس.

وأما سياسة الآن، فهي السياسة التي تحيط بنا من كل جهة وهي إمــا أن تأتي الأمة بما من شأنهِ ترقية أسباب تقدمها ونجاحها، وإما أن تأتيها بما يأول إلى تأخيرها وضعفها. ولكن لما كانت السياسة مقسومة إلى ثلثة أقسام، قسم منها يتعلق بالأمة دون الدولة، وقسم يتعلق بالدولة فقط، وقسم يتعلق بالأمة والدولة معاً، كان لا بد لنا في الكلام عن هذه السياسة من البحث عن أسباب وينابيع النجاح والتأخر. لأنهُ لو قلنا مثلاً ان نجاح الأمة في التجارة أو تأخرها فيها هو من نتائج حسن السياسة أو قبحها، ولم نأتِ على ذلك ببرهان، لقيل اننا نحاول أن نمدح السياسة أو نذمها، لغرض لا يليق الانقياد إليه في تقرير ما يصبح في أيدي الخاصة والعامة مدعياً الإستقامة .وخلو الغرض. وكذلك إذا مدحنا السياسة في ما تستحق الأمة أن تمدح بهِ، أو بالعكس. فبناء على ذلك نقول ان أساس تقدم الأمة أو تأخرها هو السياسة. لأنه مع أن الأمة في الأمس هي نفس أمة الآن، نرى أنها سلكت الآن سبيلاً لم يمكنها الأمس من السلوك فيهِ، ولذلك كان حالها

واحداً من زمان تيمورلنك إلى زمان دخول الدولة المصرية إليها، وذلك مدة أكثر من أربعة قرون والمرجح أنها كانت تتأخر في الزمان المذكور، عوضاً عن أن تتقدم. وما ذلك إلّا لأن السياسة كانت تمنع تقدمها، لأن أساس السياسة في تلك المدة كان الإرادة والعصبة. ولما أتى العصر الحاضر بما محا سواد الأعصر القديمة تبلج نور صبح التقدم في الأمة، وأخذنا في المسير شيئاً فشيئاً إلى أن وصلنا إلى ما وصلنا إليهِ من درجات سلم النجاح الحقيقي. وما من أحد يقدر أن يقول ان تقدمنا كان بطيئاً أو همتنا فاترة، لأنهُ مع أن السياسة كانت تطرح في سبيلنا عثرة الانشقاق لقيام الصالح، وكنا نعثر بها، كان تقدمنا أكثر من سريع. أما الآن فلا نقدر أن نقول ان في بواطن السياسة ما كان فيها حينئذٍ من ترقية أسباب الاختلاف لقيام السلطة، لأننا نعرف أن السياسة قد عَرفت بالاختبار أن نتيجة ذلك إنما هو ضعفها. على أن آثار تلك السياسة قد أمست في سياستنا، وأصبحنا نقود أعمالنا بعنانها، فقام من عرينها الغرض والانشقاق والعصبة الدينية، ودخلت هذه العناصر الفاسدة معنا إلى قلب السياسة، وأصبح لها قدر وشأن في كل دوائرها التي إنما تقوم بالأشخاص الذين تنتخبهم السياسة من الأمة، أو تدخلهم الأمة في السياسة. ولا ريب أن السياسة تحب أن تتخلص من تلك الأكدار، غير أنها لا تستخدم الوسائل القاطعة للحصول على المرغوب، ولكنها تترك الأمر يجري في مجراهُ الطبيعي. ولما كان طبع الإنسان الفساد، كان لا بد من تمكن عناصرالفساد من إمساك زمام إدارة المهام بالتراخي عن محو آثار سياسة الأمس من جنات الحال. وهذا هو مصدر الظلم، ولا ريب أن السياسة الحالية هي شديدة المحبة للعدلِ والإنصاف، ولكن الظاهر أنهُ لا ينبت المرغوب في حقولها إلّا بعد أن تُقرنَ الإرادة بالعمل. لأنهِ إن كان زيد يكره الرشوة ولا يتدنس بها، ولكنهُ لا ينتبه إلى قطع ما يحمل عمراً مرؤوسهُ على الغوص في لجة بحرها حال كونهِ يعرف حق المعرفة أنهُ شديد الميل إليها، وهي من الدنيا حبيبتهُ ومهجة فؤادهِ، فماذا يفيد كرههُ لها. وعلى الخصوص لأنهُ يلتزم أن يصرف أكثر أوقاتهِ في استماع تشكيات

الذين أوصلهم سوء الحظ إلى بالوعة عمرو، الذي بواسطة خداعهِ ومكرهِ لا ينفك عن ترجيع أكثر الأمور إليه، تقوية لسطوتهِ وتمهيداً لمسير أقدام محبوبتهِ الفتانة، وهذا داء عضال، ووباءٌ سريع السريان وشديد العدوى. أما قطعهُ فممكن، وسيف نقمتهِ نوعان أحدهما إمتناع الرئيس عن الارتشاء من المرؤوس، والثـاني قصاص المرتشي بحسب مفاد النظامات والقوانين. والظاهر أن أكثر أسباب التشكي هي من الآثار التي أبقتها فينا أيادي السياسة القديمة، لأنها أقطع للعدل من سيف الغرض، والعصبة الدينية، لأن الذي يرتشي هو عبد الذهب الوضاح الذي يحملهُ على البعد عن وجه ربهِ الكريم، الذي يمقت المرتشين. فبناء على ذلك نقول إن الأمل أن سياسة الغد تأتي بجيش أفتك من جيش الآن، بحيث يقدر أن يدك بقايا جيوش سياسة الأمس الفاسدة. ومن مضار سياسة الأمس التي لا تزال آثارها بيننا هو وجود وظائف لطلابها، وليس طلاب للوظائف. أي أن الذهب أو الاختصاص يوهلان الإنسان للوظائف. هذا غير اختصاص النحو. لأن المقصود منهُ الاختصاص السياسي، وهو أن لكل متوظف أذناباً، أي أنه يتعلق بذيل زيد الكاتب خال أو عم أو إبن عم أو خال إبن عم جدة الأم، أو أكثر من نسيبين أو ثلثة يطلبون إليهِ أن يجد لهم وظائف. ولذلك، ربما كنا نرى مديراً لا يعرف القراءة أو عضو مجلس لا يعرف الشريعة والنظامات. وفضلاً عن ذلك ربما رأينا المتوظفين لا يهتمون حق الاهتمام في القيام بحق أعمال وظائفهم، لأنهم يستندون في ذلك إلى سطوة أصدقائهم وأقاربهم وليس إلى أهليتهم ومعرفتهم. ومنهم من يستند إلى حزبهِ وأهل عصبة أجدادهِ، وهذا لا يحدث إلّا في المحلات التي حكامها من أهاليها، وضرر هذا شديد جدّاً، فإنهُ هلاك العدالة، لأنهُ من الضرورة أن يراعي الحاكم خاطر أهل حزبهِ من مكانهِ والمدافعة عنهم ولو كانوا مذنبين. فالأوفق أن لا يقام في أماكن كهذه أحد رؤساء الأحزاب، بل أن يقام في بيروت مثلاً رجل من غير أهلها تضعيفاً لهذه التحزبات المضرة. لا نقول إن ذلك إنما هو شأن سياسة الآن، ولكن نقول إن سياسة الأمس قد تركت في بعض الظروف هذه الآثار الفاسدة بيننا.

وهو معلوم أن تنصيب الذين ليس بهم الأهلية في الوظائف، يجعل الأعمال والأحكام تسير على قدم الشطط والارتباك. ومن ذلك ومن الرشوة والغرض ينتج التناقض في الأوامر، والخلل في الاستنطاقات، وللضابط والحسابات إلى غير ذلك. ولهذا نرى أن الانثناء عن المسير في سبيل آثار الأمس هو أنفع لنا وللسياسة من المسير فيهِ. وكذلك لا تخلو نسبة المجالس بعضها إلى بعض من الارتباك، لأنهُ ربما دخلت دعوى واحدة مجلسين. ولكن لما كنا متأكدين أن حضرة مولانا السلطان الأعظم ووكلا دولتهِ الفخام لا يفترون ليلاً ونهاراً عن تقرير القوانين التي من شأنها قطع أسباب ذلك الخلل، وكانت هذه القوانين في معامل الأفكار الآن كان أملنا وطيداً بأن الغد لا يكدر بهذه الآثار.

وحاصل الكلام أن السياسة معمل عظيم آلاتهُ الشرائع والقوانين المدنية والعسكرية، والأيادي التي تدير آلات هذا المعمل هي المتوظفون، وروح هذه الأيادي هو اليد البخارية التي تدير الدولاب الأصلي، الذي تدور بدورانهِ الآلات الثانوية. وهذا الروح هو نوايا السياسة ومقاصدها. ومجاري الأحوال في سياسة الآن تبرهن لنا أن نوايا سياستنا ومقاصدها هي خيرية للأمة. فإن قصرت إحدى الأيادي الثانوية عن القيام بحق عملها لا توقع خللاً في عمل المعمل، بل في بعضها فقط، ولا نقدر إلّا أن نقول إن روح المعمل الأصلية، إن لم تقذف اليد المقصرة اليوم تقذفها غداً. فيسير المعمل جميعهُ على وفاق نجاح الأمة علمياً وزراعياً وصناعياً وتجارياً. والحكم على العموم والأفراد لا يعتد بها. فنسأل الله أن يوفق سياستنا ويوفقنا، لأننا روح واحد في جسدين، ولا سعادة لنا إلّا بصدق الطوية والمحبة والاجتهاد في سبيل الإصلاح. والله هو الذي يهدي الجميع إلى سبيل جنات الصواب والحق.

أما سياسة الغد فأملنا يقودنا إلى القول بأنها ستصل إلى درجة الكمال. والشواهد كثيرة أعظمها مسيرنا في سبيل التقدم شيئاً فشيئاً، فإن لم تسر بنا نسير نحن بها. لأننا لا نحاول أن نفرز أنفسنا عن السياسة، ما دامت أبوابها مفتوحة لدخولنا إلى معملها فبموت عناصر

الفساد التي ورثناها من سياسة الأمس تحيا سياسة الغد، وموتها متعلق بنا. ولذلك نطلب إلى الله أن يسعفنا في السراء والضراء، على أن نتمكن من دك جيوش الفساد. وعند ذلك نقول ولا حرج علينا اننا قد أدركنا سهى النجاح، وقبضنا على عنان التمدن والسعادة والفلاح.

الآن(*)

الله اكبر. لقد زلت بنا القدم. وصفق نسر السعد بجناحيهِ وطار وطار. وما ممكننا خصر غصن غواني الأمل من الضم والهصر. ولا ثغور مبتسمات عذارى النجاح من اجتناء شهد الثغور. ولا ورد وجنات بنات الرجاء من قطف محمر ورد الخدود. ولا أريج نكهات ظبى جنات السرور من استنكاهِ نكهة طيب حسان الحور. وقامت بنات الدهر على قدم الجبار تسير بنا إلى حدائق ثمارُ أشجارها الويل والهوان. وأفلت منا الزمان زمام ركب ركوب متون الراحة والفلاح. فأمسينا في غير ما أصبحنا فيهِ نتمرغ في أسافل حفر التأخر والخسران. ولما طال علينا زمان الخطوب رقدنا على فراش شوك القتاد. وتوسدنا من الخوف والهم وسادات ناعماتها كأصم الجلمود. ورفعنا أيدي خضبتها دماءُ الرزايا بخضاب دماء العباد. ونادينا طيور السعود أن تأتي ربوعاً تنعق فيها غربان البين والويلات. فأسمعتنا تغريداً بعيداً دونهُ دمدمة رعود مدافع الموت والخراب، وغطيط جان جيوش الشر والويلات، ودخان نيران توحش إنسان قرن التمدن والعلوم. وعجاج أقدام حرب قامت على قدم وساق. وقتام عجلات مركبات مسيرها في سبيل خراب العمران. وهجوم ألوف في أيديها أنامل فناء الرجال. وأنين فريسة الحسد والطمع. وخرير أنهار دماء ضحية ضحَّتها مواضي أسياف القتال المخيف. ونَوح عذارى المحبة اللواتي ثكلن أحبتهن قبل اجتناء ثمار الحب والغرام. وعويل والدين سلبت منهم أيادي ملائكة الموت الأحمر بنين كلفتهم تربيتهم بذل دماء القلوب. وصوت وقوع حوافر سوابق النزال في كبد أرض ارتعدت منها الفرائص خوف هجوم جيوش الخطوب،

(*) افتتاحية ج ٢٠، مجلة الجنان تشرين الأول/اكتوبر ١٨٧٠، ص ٦٠٩ ـ ٦١٥.

وصليل أسياف ترد القلوب وتصدر عنها مضرجة بخضاب دماء العباد، ونعيب غربان البين في كل صقع وناد. وندب نوادب خسران الذهب الوضاح. فطلبنا الفرار، ولكن لا مفر. وأردنا الذهاب فسدَّت علينا الدنيا الغرور مذاهب الفرار. فأقمنا في تلك الربوع المقفرة نندب سوء حظنا ونترصد اهتزاز سبيل البروق، لعلها تأتينا بما يحملنا على أجنحة الهرب والخلاص، ويسير بنا إلى جنات أفق أنجم السعد والتوفيق. ويبشرنا بزوال خيال مارد المصائب. ولكن أين ذلك منا فإنهُ كل ما ارتفعت بنا آمالنا إلى سماء السعود، تحدرنا حوادث الشرور إلى أسافل حفر النحوس. ولولا التفآؤل بالخير لرمانا الزمان في لجة محيط اليأس. وقد اعتصمنا بالصبر الجميل حتى غدا الصبر من قتلى أسلحة القتال. فبتنا نندب فقدان الراحة والسعادة. ونبكي موت الصبر. فهل من مجير، وهل من نصير.

لنا الحاضر فإلينا عن الماضي والمستقبل. ودوننا التبصر في ما نحن عليهِ مستندين إلى الحوادث الماضية التي لها أيادٍ في الحاضر، لندرك أس سعادتنا، أو أساس سوء حظنا. لأنهُ إذا أُصيب الإنسان بسهم بدون أن يعرف مصدرهُ، لا يقدر أن يتجنبهُ، أو أن يقطع أسباب رشقهِ. أما الماضي الذي قد مضى هو وآثارهُ ونتائجهُ، فلا حاجة لنا بهِ في هذا المقام، تاركين ما نقدر أن نجتنيهُ من فوائد اختبارات التاريخ إلى مطالعتهِ، فأين نحن من الدنيا الآن، وفي أي أفق من آفاقها قد أقامتنا بنات الدهور. وما هي الحالة التي نحن عليها عملياً وأدبياً وتجارياً وزراعياً وصناعياً وسياسياً وغيرها. أنحن في حالة مرضية وفي أفق سعيد وفي مركز حسن، أم نحن في غير ذلك. معرفة الإنسان حقيقة نفسهِ هي من أصعب الأمور وأقلها إصابة. ولذلك نرى الإنسان على الغالبِ يجهل حالتهُ ويجهل أنهُ يجهلها. فلا يقف على بعض حقيقتها إلاَّ بعد أن تنبههُ إلى معرفتها عوامل المصائب. فإنهُ غالباً يتوهم أنهُ في سعد حال كونهِ في شقاء، وسبب ذلك هو شدة الأمل الذي يقيم لهُ قصوراً وهميـة في أفق السعود. وقد تكلمنا طويلاً في الأمل في ما مضى من الجنان، ولذلك لا لزوم للاعادة. وهذا هو الذي يجعل

الإنسان يرى مصدر مصائبهِ في غيرهِ قبل أن يراها في نفسهِ، وإن رآها في نفسه يظن أن غيرهُ قد وضعها هناك، فأصبح الإنسان في ظلمة مدلهمة من الجهل تحجب عنهُ حقائق الأمور، وتحملهُ على شكوى البعاد حال كون شكواهُ إنما هي الصدود. ولكنهُ لا يحب أن يفهم أن حبيبهُ يصدُّ عنهُ لأن ذلك لا يناسبهُ فيتوهم الصدَّ بعداً. ويأخذ في استعمال الوسائط التي من شأنها أن تدكَّ جيوش البعاد. فيصرف الزمان سدى. وحينما يشعر بسهم الحقيقة ينثني مويساً ويشتم هذا ويلعن ذاك، لأنهُ يحب أن ينسب سبب الصدّ إلى نميمة زيد وهند، عوضاً عن أن يبحث في نفسهِ ليرى فيهِ نقصاً حمل الحبيب على الصدّ، ولذلك أصبحت معرفة الإنسان نفسهُ من الأسرار التي يقصر عن إدراك كنهها. وهذا هو الذي يحملنا على نظر عيوب وتقصيرات غيرنا، ويُغمض طرفنا عن النظر إلى نقص أنفسنا. فأصبحنا نذم الجهل والنميمة والبخل والكنود والبغض والشر والفساد وغيرها، ونحن أجهل الجهلاء، وأشد البشر نميمة، وأبخل البخلاء وأكثرهم كنوداً وأبغضهم وأشرهم وأفسدهم. فاعجب من فساد يذم الفساد. ومن الناس من يعرف شيئاً من عيوبهِ بواسطة نصح الناصحين أو جودة العقل، ومع ذلك يذم من كان كذلك ظناً منهُ أن الناس لا يعرفون أن فيهِ نقصاً. والشاهد أننا لا نرى من قد تحققنا منهُ أنهُ كاذب يدَّعي على مسمعنا كره الكذب. مع أنهُ إذا اجتمع بمن لا يعرف حقيقة أمرهِ يأخذ في ذمّ الكذب ومدح الصادقين. وهكذا يذم الإنسان نفسهُ. ومن الناس من يريح ضميرهُ بوجـود أعذار يتوهم أنها تسوّغ لهُ ركوب المحرمات والمكروهات حال كونهِ لا يتكرم على غيرهِ بالأعذار نفسها. ومن الناس من يتأكد سقوطهُ في حفر الخسران،في التجارة مثلاً. ومع ذلك تشيد لهُ الآمال ما يحملهُ على الوهم بأنهُ على أحسن حال. ومن الحكام من يرتكب الرشوة والغرض وهو يظن أنهُ أعدل البشر وإنهُ يقدر أن يوهم الناس أنهُ عفيف عادل. مع أنهُ أمر مقرر أن الإنسان يقف على حقيقة أكثر أعمال غيرهِ، إن لم نقل كلها. وهذا جهل أيضاً لأن العاقل الذكي يعرف حق المعرفة أن في نتائج أعمالهِ ما يدل على حقيقتها. وعلى الخصوص في زمان

ارتفع فيهِ برقع الجهل عن أعين العباد، وانقطعت حبال شدة الانقياد. وإذا خدع الانسان الفاسد البشرَ مدة لا بد من ظهور خداعهِ، لأن حبل الكذب قصير. وميدان جواد الفساد غير فسيح. أما نحن السوريين فقد غصنا في بحار هذه الأوهام والتخيلات غوصاً ليس دونهُ غوص. فأصبح كلٌّ منا كائنهُ مجرد من أثواب الفضيلة والاستقامة. واطَّلع كل منا على نقص غيرهِ وعيوبهِ. فأمسينا فاقدين الخجل. لأن فسادنا قد جعل الفساد عادة. كما أن جهل المتوحشين من البشر قد جعل عدم الاستتار عادة لا عيب فيها. وبات الزارع والصانع لا يستحي بالغش، والتاجر يفتخر بالخداع، والحاكم يتناول مفتاح الظلم الذي هو الرشوة على رؤوس الأشهاد. واكتفى الجميع بستار عدم الإقرار، ومنا من لا يستحي بهِ. وغدا الحذق عندنا في الفساد والنباهة في الغش والخداع. لا نقول إن هذا هو من خصوصياتنا نحن السوريين، ولكن لما كنا من الأمم الآخذة في ارتقاء سلم المعرفة والتمدن، كان لا بد لنا من محاربة جنود هذه العناصر لئلا تجعلها العادة فطرة. فهذا هو جهلنا الذي قد خامر صفاتنا وطرح فضيلة حسن الصيت في حفر العدم والفناء. وإن لم ننتبه لقطع أصول هذا الفساد بالتربية الحسنة يأول بنا الأمر إلى الويل والهوان. وأساس هذا أجمع هو الضعف، فإن الضعيف يلتجي إلى جيوش المكر والخداع. وكلما كانت الأمة ضعيفة، تمكنت منها هذه العيوب. ولكن لما كان أكثر زمان الضعف قد بات في خبر كان، كان لا بد لنا من محو آثارهِ واستئصال أصولهِ. وفي ما يأتي بيان للحاذق بأجلى بيان الكيفية التي من شأنها قطع أسباب هذه الشرور التي لا تنجح أمة تمكنت منها.

أما العلم عندنا، فهو في سوء حال. لأننا قد التهينا بالعرض عن الجوهر. لأن انصبابنا هو على أمرين أحدهما ما يمكننا من قراءة لغتنا ولغة أو لغات أجنبية والثاني ما يفتح لنا باباً لميدان التجارة. أما الأول فهو مما لا بد منهُ لأنهُ من باب تعلم التكلم. لأن الطفل لا يحسن أن يتكلم مع الذين هم على قرب منهُ. ومتى كبر يتعلم ذلك. ولكنهُ لا يقدر أن يتكلم مع الذين هم على بعد منهُ فإن تعلم القراءة والكتابة يقدر أن

يكلم البعيد أيضاً من أبناء لغتهِ. وإن تعلم قراءة وكتابة لغة أجنبية يقدر أن يكلم الذين هم على قرب منهُ أو على بعد من أبناء غير لغتهِ. ومن شأن ذلك توسيع دائرة كلامهِ، بدون أن يوسع دائرة عقلهِ ويغرس فيهِ من المبادي ما يجعلهُ يكره الشـر والفساد وعدم الاستقامة. وكذلك تعلم فنّ التجارة مثلاً، هو كما يتعلم الحداد أن يغير هيئَة الحديد. وهذا لا يوسع دائرة عقلهِ إلّا في الأمور المتعلقة بالتجارة. وهذا هو شأننا. فلا نطلب العلم إلّا لقيام الأود. ولا ريب أن السعي في قيام الأود هو من أهم واجبات الإنسان. على أنهُ لما كان لا بدَّ للانسان في السعي لقيام أودهِ من مبادي يؤسس عليها أعمالهُ، ولما كان حسن وصحة هذه المبادي من نتائج المعرفة، كان لا بد لهُ من سلوك سبيل يصل بهِ إلى النتيجة المرغوبة. ولما كان اختيار هذا السبيل مبنياً على أساس حكم العقل والعادة، كان لا بد من تعلم ما يصحح الحكم ويصلح العادة. فتعلم ما يوسع دائرة التكلم لا يأتي بذلك. ولهذا أصبحنا في ما أصبحنا فيهِ. وعلى الخصوص الإناث منا. فإنهُ مع أنهن أساس التربية قد أهملنا حسن تربيتهن، وكم من أم تقول لا اعلّم ابنتي غير القراءة والكتابة وأعمال الخياطة، لأنني لا أقصد أن أجعلها تاجرة ولا كاتبة ولا خطيبة. وماذا يا ترى يعرف التاجر والكاتب والخطيب (خلا القليل) منا. فهذا هو أساس الغلط والتأخر. لأن الإبنة التي تسمع ذلك من والدتها يقع منها موقعاً حسناً. وتقول في نفسها ما لي وللعلم أعرف القراءة والكتابة وهذا كافٍ. والظاهر من كلام والدتي أنها إنما تريد أن تعلمني ما يؤهلني للزواج ويأتيني بزوج غني جميل وماذا يأتيني بهِ يا ترى أليس اللطف والحسن. فينغرس هذا الوهم في فكرها ويصبح شأنها عبادة المرآة والتيه والقصف والتحسين إن لم نقل التحفيف والتزجيج، فهل تقدر ابنة كهذه أن تقوم بحق التربية ومقتضيات العيشة العائلية، لا لعمري. فإن سبيلها سبيل الجهل والغواية، وشأنها شأن التغفل. وعندي أنهُ خير للشاب أن يبقى بلا امرأة من أن يقتني امرأة كهذه. وطلبي إلى الشبان الذين قد ادركوا شيئاً من المعرفة الصحيحة من أبناء وطني، هو أن لا يلتفتوا إلى من كانت كذلك. فيعلمون الآباء

والأمهات أن يحسنوا القيام بحق تربية بناتهم وأولادهم. لئلا يطرحوهم في ساحة مرارة العيش. وربَّ قائل يقول وما هي المعرفة الحقيقية يا ترى أليست تعلم الصرف والنحو والحساب والكتابة في لغتنا ولغة أجنبية. وهذا مما لا نغفل عنهُ وقد زدنا على ذلك لبناتنا علم ضرب أوتار آلة البيانو (آلة موسيقى) فماذا نعلمهنَّ أكثر من ذلك. فهذا هو الجهل بعينهِ، وقد سبق الكلام عن فوائد هذه العلوم. أما البيانو للابنة الجاهلة فهو باب الخلاعة والغنج والعياذ بالله. أما المعرفة الصحيحة فهي التي تمكن الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور ونتائجها ومعرفة نسبة الإنسان إلى عوالم نفس الأرض والإنسان والحيوان والنبات. أي أن يقف الإنسان على حقيقة نفسهِ وحقيقة غيرهِ من موجودات العالم. وهذا إنما يتم بتعلم الحكمة العقلية والعملية وبتعلم التاريخ مع أسباب حوادثهِ ونتائجها وتعلم الجغرافيا وغيرهما مما يثقف العقل. وإذا لم يتمكن الإنسان من التعمق في معرفة هذا جميعهِ فعليهِ بدرس مباديهِ. والمثال الحسن هو أكبر علم، فإن الولد هو كالببغاء يفعل كل ما يرى غيرهُ يفعلهُ من مليح وقبيح. وهو معلوم أن المدارس لا تعتني بتعليم ذلك ما لم تجد طلبة. وأملنا أن أهل هذا القرن ينتبهون إلى هذه الأمور ويعلمون الصغار ما يجعلنا نترصد الوصول إلى زمان يكون دستورنا فيهِ المبادئ الصحيحة فندرك المرغوب.

أما الأدب، أعني التهذيب فهو على حافة السقوط إلى حفرة الفناء. لأن تقليد التمدن قد أفسد الحقائق وجعل السواد بياضاً فأصبحنا لا تجنب فعل ما قد شجبتهُ العادة ولا الاقتصار عن ذكر ما لا يجب ذكرهُ. حتى أننا لا نستحي بالسفاهة، إذا كنا في اجتماع الذكور أو في اجتماع الجنسين. وقد خامر حديثنا مما لا يطيقهُ الذوق السليم. أما الشتائم واللعنات والحلف فهو مما يعلو صداهُ في آفاق البيوت. وكذلك النميمة أما الإفرنج فالظاهر أنهم أيضاً على غير هدى من هذا القبيل، فإنهم يصفُّون عن البعوضة ويبلعون الجمل. وهو عيب عندهم الخروج بدون ملابس الأنامل (الكفوف) حال كونهِ لا عيب في تجريد أسفل العنق وأعلى الأكتاف والنهود. فحذار حذار من هذه الأمور ودوننا

التسربل بأثواب الأدب والتهذيب فإن لابسها هو موضوع مدح الرفيع والوضيع.

أما التجارة عندنا فتكاد تقوم بسلب أموال بلادنا. لأنها قد سلكت سبيلاً معوجاً واستندت إلى تغيير زمان ومكان المحصولات بدون أن تلتفت إلى تغيير هيئتها. وهو معلوم أن تغيير هيئات المحصولات هو من خصوصيات الصناعة. ولكنها فرع من التجارة أو بالأحرى اصطلاح التجارة قد جعلها غصناً لهُ. فإن التاجر كثيراً ما يعتني في تغيير هيئة المحصول بالصناعة ثم بتغيير زمانهِ ومكانهِ. ومن شأن ذلك ترقية أسباب ثروة الزراعة والصناعة والتجارة. لأن الذين يستخدمون المال لشراء المحصولات هم التجار ولذلك أمر تنشيط الصناعة هو منوط بهم. وأعجب من هذا أنهُ حال كونهِ سبباً لجلب المال نراهم في غفلة عنهُ. فبعضهم يقول إننا لا نقدر أن نسابق أوربا في ذلك، لأن قيمة ربح المال عندهم هي دون قيمتها عندنا. فكأنهم يغفلون عن مصاريف النقل صدوراً وووروداً وعن قيمة الرسومات الأميرية، ورسومات الوكلاء والتعطيل الذي يحدث بسبب النقل. وقد ضاقت جداً دائرة التجارة فى بلادنا، لأن تجارة الغرب تكاد تسلب كل أموالنا، ومع ذلك لا نرى انتباهاً إلى تجارة تغيير هيئة المحصولات بالصناعة. وبعضهم يقول إننا لا نباشر ذلك، لأن الدولة العلية لا تسعفنا وهذا هو الخطأ بعينهِ. لأنهُ معلوم أن الدولة لا تعطي التجار مالاً لكي يباشروا أعمالاً كهذه، ولكنها تنشطهم، ومتى شرعوا في العمل وأتوا بما يلزم تقدم لهم من التسهيلات ما يقتضي. وهذه التسهيلات كثيرة لا حاجة إلى تعدادها. ومن يرغب الوقوف عليها يقدر أن يعرض الأمر لحضرة راشد باشا والينا المعظم الذي قد تأكدنا أنهُ يرغب اجراء المساعدات في أمور كهذه. وتجارتنا الآن تكاد تكون بلا نقود. وهذا هو الذي يرينا كل برهة ما نراهُ من الخسران في سلك التجار.

وتأثير السياسة في تجارتنا هو أكثر من تأثيرها في تجارة غيرنا من الأمم، لأن استنادنا في البيع والشراء والنقود هو على غيرنا. فلا استناد لنا على أنفسنا. ولو كانت تجارتنا في حالة حسنة لما ضرت بنا

مسئلة غيرنا كما تضرُّ بنا الآن. لأنهُ لو كانت نقودنا لنا وتغيير هيئة المحصولات في بلادنا، لما وقعنا في ضرر عظيم من جرى سياسة غير بلادنا. لا نقول إنهُ يمكن رفع كل الضرر. لأنهُ لما كانت الدنيا في هذا القرن مرتبطة برباط واحد كأنها جسم واحد وذلك بقرب المواصلات وسهولة المداخلات كان لا بد من تأثر كل ذلك الجسم عندما يُصاب أحد أعضائهِ بداهية. مثلاً حرب فرنسا وبروسيا. فإنهُ قد وقف حركة التجارة في الدنيا وقلل الأمنية. أما وقوف حركة تجارة بلادنا وقلة الأمنية فيها تفوقان وقوف حركة غيرها وقلة أمنيتها. ولماذا. لأنهُ لا نقود لنا واستنادنا في النقود هو على أوربا، وفي محصول الحرير على فرنسا فلما اضطربت سياسة فرنسا توقف بيع محصولنا وتوقف بيع محصولنا قلل الامدادات المالية فأصبحنا مديونين لأهل غير بلادنا، فقلت الأمنية ووقفت تجارة الحرير. فامتدت قلت الأمنية إلى غير تجارة الحرير لأن التجارة هي جسم واحد. فأمسينا في ضيق من جرى قلة النقود لا غير، ومن عندهُ ما يكفيهِ من النقود لا خوف عليهِ فإذاً هو ذو أمنية ولم تؤثر فيهِ سياسة أوربا كما أثرت في غيرهِ من الذين نقودهم لغيرهم. فبناءً على ذلك نقول إن ضيقنا ليس هو من مجرد اضطراب سياسة فرنسا، ولكنهُ من سوء تجارتنا. لأنها بلا أساس. لأن أساس التجارة هو النقود. والتجارة التي لا نقود لها هي بلا أساس. فلا تقدر أن تصادم أنواء الزمان وزوابع الدهور. وكذلك لو كان في طاقتنا نسج حريرنا في بلادنا لارتفع عنا أكثر من نصف هذا الخطب. لأنهُ يمكنا من بيع ما يلزم للبلاد في نفسها، واكتساب مداخيل تغيير الهيئة وإرسال ما يفيض إلى غير بلدان، أخصها أمركا، فإنها تأخذ نحو نصف منسوجات فرنسا الحريرية. فنبيعهُ حال كون فرنسا لا تقدر أن ترسل شيئاً، لأن معاملها غير عاملة بسبب اضطراب السياسة. هذا فضلاً عن اكتساب المدة التي تصرف في نسج هذا المحصول. لأنهُ ربما تروق السياسة قبل الفراغ من نسج ثمنهِ. وفي ما ذكر غنى عن الإسهاب. والنتيجة هي أنهُ للوصول إلى ميناء أمينة تلتجي إليها تجارتنا لا بد من بنائها على أساس صحيح والمباشرة بقيام ما يقتضي من

المعامل ووسائط النقل التي هي في أيدي الأجانب. فلماذا لا نعقد شركة بالاشتراك مع غير بلاد من مملكتنا إذا كنا غير قادرين على القيام بحق ذلك لتسيير سفن تنقل محصولاتنا عوضاً عن أن يسلب الأجانب مالنا.

أما زراعتنا، فهي كما لا يخفى في عدم. وأسباب تأخرها هو ذل وفقر الفلاح. أما ذل الفلاح فقد اعتنت الدولة العلية برفعهِ. ولكننا نخشى أن يتجبَّر ويصبح يطلب أكثر من حقهِ. لأنهُ من الجهل على جانب عظيم. وعزُّ الجاهل يحملهُ على تجاوز حدود حقهِ. لأنهُ لا يعرفها ومتى اعتز يتوهم أن الجميع يهابونهُ. فتقودهُ الشنشنة البشرية إلى ميادين الطمع، فيغار فيها ويكبو بهِ جوادهُ فيسقط ويكسر رأسهُ. فإذاً لا بد من رفع برقع الجهل عن عينيهِ، بحيث يقدر أن يرى سبيلهُ ويسير بدون أن تعثر بهِ القدم أما فقرهُ فلهُ آفتان وهما الدَين والعشر. أما الدين فلأنهُ يدفع فائضاً للداين يفوق المنفعة التي يجتنيها من دينهِ. فيقتضي أن يقام لهُ دائرة يقدر أن يأخذ منها الإمدادات المالية بفائض عادل. ولكن لما كان أصحاب الأموال هم الذين ينتفعون من ضرر الفلاح الناتج من كثرة الفائض كان أمر قيام محل كهذا مما لا يتم إلّا باعتناء الحكومة التي هي أمُّ الفلاح. ولذلك أصبحنا نترصد إتمام هذا الأمر المهم النافع. فإن تمنع أهل بلادنا عن مساعدة هذا المشروع الجليل فأوربا لا تتأخر عن القيام بحقهِ لأنها تقدر أن تنتفع منهُ أكثر مما تقدر أن تنتفع في بلادها. لا نقول إننا نحب أن نطيل أيدي مداخلات أوربا، ولكن الضرورة أحوجتنا إلى ذلك. وهو ممكن أن يقام بحق ذلك بنوع لا يأتي بالمداخلة حال كونهِ يأتي بالمرغوب. أما العشر فهو سبب فقر الفلاح، نظراً لمطامع العشار، وفي حكمة الدولة العلية ما يزيل بعض هذا الضر إذا لم نقل جميعهُ. وحينئذٍ يقوى الفلاح فتكثر المحصولات التي هي أساس غنى الأمة.

أما صناعتنا فهي عدم، وفي مراجعة ما سبق في الجنان بهذا الخصوص تحت عنوان الصناعة وفي ما ذكرناهُ في الكلام عن التجارة غنىً عن التطويل.

أما سياستنا، فماذا نقول (المقصود هو غير سياسة الدولة المالكة) يا ترى. إن لسان الحال يغني عن الكلام. ومع ذلك لا بد من الملاحظة. لأن أساس إنشاء الجنان هو لإظهار حقائق الأمور وحقيقة حالتنا نحن. فأعجب من نفسي لأنني كلما حاولت إمساك طرفٍ من هذا الموضوع للابتداءِ بهِ تزاحمهُ أطراف وتوقعني في ارتباك فأمسيت أخشى الغلبة والعياذ بالله. فأوفق أن أسأل نفسي ما هي السياسة. جواب. السياســة... السياسة... هي البوليتكة الشرقية أي المكر والكذب. حــاشا. فما هي السياسة. اللهمَّ ألهمنا الصواب. السياســة... السياســة... هي... هي.... لا أعلم ماذا ألعلها قيام الصالح. لا. ماذا نقول إذاً. ما هي السياسة. لقد أصبت اسمعوا السياسة هي حُسن إدارة مهام العباد لقيام صالح الجمهور بالانصاف والعدل. سؤال. كيف يتم ذلك. جواب. إن ذلك يتم... يتم بقيام أصحاب السطوة والنسب وغيرهم من الذين يستندون إلى مساعدة أصحاب السطوة في مراتب السياسة. حاشا. فكيف يتم ذلك. هذا الصواب لقد أدركتهُ. إن ذلك إنما يتم بقيام أصحاب المعرفة الشرعية والقانونية والأدبية والصيت الحسن والعدل في مراتب السياسة. سؤال. من هم الذين نقلدهم غالباً هذه المراتب. جواب. هم الذين يطلبونها بإسعاف أصحاب السطوة، وكثيرون منهم لا يعرفون القراءَة والكتابة (حاشا أصحاب الفضل والمعرفة والعدل والأهمية). سؤال. ولماذا لا نقلد غيرهم هذه الوظائف. جواب. لأنهُ لا يوجد بيننا كثيرون من الذين بهم الأهلية لذلك. سؤال لماذا هم قليلون في بلادنا. جواب. لأن دولتنا لا تفتح لنا المدارس. لا لا. لماذا هم قليلون. لأن... ماذا أقول لأن... لأننا على جانب من الإهمال والكسل. هذا هو الصواب. ولا نعلم كيف يسوغ لبعضنا أن يرشق دولتنا بهذا السهم الظالم. ولا نعلم السبب الذي حملهم على ذلك. لأنهُ معلوم أن الدولة ليست بمكلفة أن تقوم بحق فتح المدارس وتعليم العموم. ومع ذلك قد فتحت مدارس كثيرة في الآستانة العليــة وفي جميع مراكز الولايات، وفي بعض مراكز المتصرفيات وفي غيرها. ولكننا نحن لا نتغرب فلا نذهب إلى الآستانة للانتظام في سلك تلامذة

مدارس الحربية وغيرها. أما الأمم التي هي في قمة جبل المعرفة والتمدن فهي الأمم التي اعتنت بذلك بنفسها. هاك مثلًا انكلترا فإن مدارسها هي للشعب ولا أصل للحكومة فيها. وكذلك أمـركا. أما فرنسا فقد اعتنت دولتها بفتح المدارس ولكنها تطلب إلى التلاميذ أن يقوموا بأودها. وإذا قلنا إن انكلترا وأمـركا وغيرهما قادرة على ذلك نقول إنـها عندما شرعت في هذا الأمر لم تكن على ما هي عليها الآن، ولكنها كانت كما نحن الآن. وهو معلوم أن من واجبات الدول أن تنشط المدارس وتلتفت إليها كل الالتفات، ولكنها غير مكلفة أن تنشيها. ومن تبصر في هذا الأمر يرى أنهُ صواب. فبناءً على ذلك نقول إنهُ لا رجال سياسة عندنا، فإذاً لا سياسة حسنة في بلادنا. وما لم يكن عندنا رجال بهم الأهلية لذلك لا تقدر الدولة أن تقيم من الحجارة رجالًا للسياسة. ومع ذلك نرى أن السياسة في بلادنا آخذة في التقدم شيئاً فشيئاً. أما أساس سياسة العموم أي الذين هم في غير المراتب فهو التعصب والغرض. وهؤلاء هم الذين ننتخب منهم أرباب السياسة الذين هم من غير رجال الدولة المالكة. لا أقول هذا على سبيل تحقير أنفسنا لأنهُ معلوم أننا مسرعون في صعود سلم الصواب. ولكن قياماً بحق إظهار ما نحن عليهِ الآن قد ذكرنا ما ذكرنا. تاركين استيفاء هذا الموضوعات المهمة، وعلى الخصوص موضوع السياسة لفرصة أخرى. فهذا آننا يا أولي الألباب وهذا ما نضمنهُ وهذا ما نحن عليهِ حقاً، وهذا هو الذي يجب أن نهتم بإصلاحه فيتم الإصلاح. ونتمكن من الكلام عن آننا بعد مدة قصيرة بذكر ما يدل على أننا قد تقدمنا في سبل العلم والأدب والتجارة والزراعة والصناعة والسياسة، وأن أفق الآن في ذلك الآوان هو أفق أسعد الآفاق.

الحكام(*)

لما كان لا بد لكل قوم انفردوا منذ الابتداء في رفع أو خفض من هيئة اجتماعية، وكان لا بد لتلك الهيئة الاجتماعية من صوالح

(*) افتتاحية ج ١٦، مجلة الجنان آب/اغسطس ١٨٧٠، ص ٤٨١ ـ ٤٨٣.

خصوصية وعمومية بنسبتها بعضها إلى بعض، وبنسبة كل فرد من أفرادها إلى غيرهِ من الأفراد وإليها جميعها، وبنسبتها جميعها إلى غيرها، بحسب زمان الصلح أو الحرب، للمهاجمة أو المدافعة أو لكليهما في وقتٍ واحد، وكان إخلال فرد من أفراد تلك الهيئَة أو أكثر من فرد من أفرادها بأصولها مما يكدر تلك النسبة، وبالنتيجة يسلب راحة أعضائها، كان لا بد لها ممن يحافظ على أصول تلك الهيئَة ويسوس مهامَّها في زمان الصلح والحرب، ويسعى في ترقية أسباب كل ما من شأنهِ أن يأول إلى توطيد أركان النجاح والراحة، ويأتيها بالثروة والقوة المادية والأدبية. ولما كان في أول الأمر، أي عندما أخذت أمة الدنيا في الافتراق بعضها عن بعض، واجتماع البعض منها في الأماكن التي كانت تترصد فيها قيام الأود بحسبما أرتاتهُ كلها أو أكثريتها عدد المجتمعين قليلاً وكان محصوراً على الغالب في الذين ربطتهم العلاقات النسبية برباطات الوداد والحب، كان أمر ادارة هيئَتهم الاجتماعية منوطاً بكبيرهم سناً. فكان يقوم برياسة أعمالهم الدينية والسياسية والأبوية. على أن هذا الترتيب الطبيعي لم يدم زماناً طويلاً، لأن الطمع البشري وفساد شنشنة الإنسان، كان يحمل بعض تلك الهيئَات على طلب التغلب على غيرها من اللواتي كنَّ دونها قوة، وهكذا أخذت الهيئَات الغالبة بالاتساع ملكاً وقوة وغنىً. فنتج من ذلك الحكومة الملكية المطلقة التي نقلت سلطة كبير القوم إلى ولدهِ، وإن كان أصغر من غيرهِ سناً وأقل منهم حكمة. فأصبحت السلطة الأبوية ملكية، ومع تمادي الأيام أصبح الملك مالكاً مطلقاً بالسلطة السياسية والدينية معاً، وأصبحت أكثر هيئَات العالم الاجتماعية مقسومة بحسب أعمال وحرف أهاليها. وهذه هي الهيئَة المعروفة بالهيئَة الاصنافية. اما الصنف الأول منها فكان الصنف القائم بالخدمة الدينية، لأنهُ ثبت لنفسهِ التقدم بما كان يدعيهِ لنفسهِ من السلطة التي تقدر أن تذهب بأنفس القوم إلى ثواب أو عقاب أبديين، وطالما حاول أن يجمع في قبضة يدهِ عنان السياسة الزمنية، وكثيراً ما نجح في ذلك وثبت قدمهُ في كل ما يأول إلى ترقية أسباب سطوتهِ. حتى أن ذلك طرح البشر في ساحة الجهل

والغباوة والخوف الشديد من مفاعيل قوات غير محسوسة كالجان والسحر وغيرهما. وفي مطالعة تواريخ المصريين والصينيين والهنود غنى عن الإسهاب. أما الصنف الثاني فكان صنف العسكرية وكثيراً ما كان هذا الصنف يرتقي بنفسهِ إلى درجة الصنف الأول بواسطة احتياج الأمة اليهِ في زمان المدافعة عن البلاد. ولكن لما ارتقى التمدن بالعالم إلى درجة تفوق جداً الدرجة التي ارتقى بهِ إليها في الأزمنة القديمة، كشف بدر التمدن ستار الظلام وبرهن للدنيا بأن فصل الصنف السياسي عن الصنف الديني من شأنهِ أن يرقّي أسباب راحة وتقدم وثروة العالم، وأخذ في محاولة الحصول على ذلك حيثما كانت القوة السياسية قادرة على تثبيت قدميها بدون الافتقار إلى مساعدة العنصر الديني. وبعد زمان ليس بيسير نالت السياسة في أكثر المحلات المتمدنة مآربها، وصاح بلبل النجاح على أغصان أشجار جنات التمدن مبشراً العالم بقدوم عصر جديد، يلتفت فيهِ كل إنسان إلى واجباتهِ بدون التعرض إلى ما لا يعنيهِ من أعمال غيرهِ. ولما كان العصر الذي فيه بلغت السياسة سهى قوتها هو عصرنا هذا، وكان القائمون بتلك السياسة هم الحكام الذين عليهم تتوقف راحتنا وسعادتنا ونجاحنا وقوتنا، كان لا بد لنا من تقرير ما يوضح لنا ما يجب أن يكونوا عليهِ لنتمكن من معرفة الذين يقومون بواجباتهم حق القيام، على قدر ما تمكنهم من ذلك الفطرة البشرية المقيدة بسلاسل العقل الصحيح والمبادي الحقيقية. ووضع فاصل عادل بينهم وبين الحكام الذين ديدنهم الشرود عن الصراط المستقيم، وسلك السبل التي تحب أن تسلكها مطامعهم الشريرة وأغراضهم الخبيثة وأميالهم المفسودة. وذلك بحسبما يقتضيهِ روح العصر الحاضر بدون إيقاع الخلل بالأصول الدينية الأولية فنقول.

إن حكام كل قوم هم الذين يستلمون إدارة مهامهِ الخصوصية والعمومية لدى وقوع مشاكل أو اقتضاء الحال. وهم إما روح الأمة وملح العالم وباب العدالة وقصر الانصاف وحصن المدافعة وخزينة الثروة ونهر التمدن وافق الراحة وجسم الحلم. وأما عزرائيل الأمة

وفساد العالم وباب الظلم وسجن الإنصاف ومركز الضعف ولصوص الثروة وسم التمدن وجحيم الراحة وجسم الغضب. وربما اجتمعت هذه أجمع في شخص واحد أو اجتمع بعضها فيهِ، والخلاصة أنهُ لا بد من أن يتحلى جيد كل حاكم بتلك الصفات الحسنة، أو أن يتلطخ بهذه السجايا القبيحة. أما الحاكم الحسن فيقتضي أن يتحلى بالأمور الآتية، وهي حسن الطوية والمعرفة التي تقتضيها وظيفتهُ ومحل مأموريتهِ والعدل والانتباه والنشاط والغيرة والأمانة وعدم التعصب والحذق ومحبة الدولة والعفة وتجنب الإفراط بشرب المسكرات، وربما التمنع عنها جميعها، والقناعة بما هو عليهِ مع طلب الارتقاء اللازم، وعدم الحسد، والمحافظة على قوانين دولتهِ، وعدم مراعاة الخواطر، بدون أن يغفل عن القيام بحق مقتضيات ظروف الأحوال والصرامة، والنظر في كل ما يسلم أمرهُ للذين هم دونهُ من المتوظفين، وملاحقة أوامرهِ والسهر على الذين يجرونها، وترتيب أوقاتهِ والصبر وغير ذلك. لأنهُ إذا كانت طويتهُ غير حسنة يسقط في حفر سوء الظن، ويصبح سبباً يتعب نفسهُ وغيرهُ بدون اقتضاء، فتتكدر كأس السياسة وراحة العباد. وإن كان جاهلاً أي لا يعرف أصول دولتهِ وقوانين مأموريتهِ، يصبح يخبط خبط عشواء في بحر السياسة. فيطرح الذين هم في دائرة حكومتهِ في ساحة الظلم المبني على أسس الغلط الناتج عن الجهل. ولذلك نرى أن من أعظم أسباب انتظام السياسة وأفعلها، عدم قبول الذين ليس بهم الأهلية في سلك الحكام. لأنهُ كم من مرة أسمعنا هذا الجهل صرخات المتظلمين. وإن كان لا يوجد في الشعب من يقدرون أن يقوموا بحق ذلك. فالشعب يقدم للحكومة التي تؤكد لرعاياها بأنها بعد سنتين من تاريخ تأكيدها لا تدخل في خدمتها من لا يعرف اللغة اللازمة وقوانين الدولة. وإن كان ظالماً تهدم أركان السياسة والعياذ بالله وإن كان متغفلاً تصبح السياسة عرضة لغايات وأغراض الذين هم دونهُ من أصحاب الإدارة وغيرهم، وعلى الخصوص لأنهم لا يتأخرون البتة عن المسير في ذلك السبيل في أول لحظة يتأكدون فيها أن رئيسهم هو على جانب عظيم من التغفل. فتندك حصون

السياسة ويعم الويل الرعايا، وتصبح صوالح الدولة وأموالها غنيمة للسالبين. وإن كان متكاملًا يصبح الغد ظرفاً لأعمال أمسهِ حال كون الغد من أشغالهِ ما يكفيهِ فتتراكم الأشغال وتزدحم أقدامها، فيسقط أكثرها عن جسر العدالة، وما يبقى منها يمسي في تأخر يحمل من يوم إلى يوم، ثم من أسبوع إلى أسبوع، وهكذا إلى ما شاءَ الله. وإن كان من الذين لا غيرة لهم على المحافظة على صوالح الدولة وراحة الأهلين، يمسي سفراً[1] على شمال أرقام السياسة سيان في حكمها فقدهُ ووجودهُ. وإن كان غير متوشح بوشاح الأمانة يبيت للسياسة لصٌّ في حضنها يسرقها. ولا حاجة إلى بيان النتيجة. وإن كان متعصباً تصبح السياسة تنوح فقدان العدالة، لأن العدالة إنما تقوم بعدم ميل مستلم زمامها إلى جهة من الجهات، لأن الحكم لا يكون بالغرض بل بالمساواة، مع قطع النظر عن الدين والجنسية. وإن كان غير حاذق يمسي فريسة للحاذقين من ذوي المطامع، وعلى الخصوص إذا كانوا من نفس الحكومة. فضلًا عن الارتباكات التي تتولد من جهلهِ وتأتي الدولة والشعب بالويل والهوان. وإن كان لا يحب دولتهُ يكون خائناً، وجزاءُ الخائن في هذا العصر هو القتل. والأضرار التي تنتج من ذلك لا تحتاج إلى بيان. وإن كان غير عفيف يلتهي بشهواتهِ عن واجباتهِ فتجرح مخالب الخلل قلب السياسة. وإن كان سكيراً يكون مجنوناً، ومن يا ترى يسلم زمام الأمور للمجانين. وإن كان ذا طمع يصرف زمانهُ في تمهيد السبل لأرجل مطامعهِ، ويلتهي بذلك عن تمهيد سبل السياسة فتعثر قدمها. وإن كان حاسداً لا يقدر أن يتفرغ للنظر في واجباتهِ، لأنهُ ينهمك في تنكيس محسوديهِ وتنفيذ مآربه. وإن كان لا يحافظ هو نفسهُ على قوانين دولتهِ لا يقدر أن يجبر الغير على المحافظة عليها، فتصبح قوانين السياسة حبراً على ورق لا تضر ولا تنفع. وإن كان يراعي الخواطر تصبح العدالة في كفة ميزان الذين ينفعهُ مراعاة خواطرهم. فتمسي الكفة الأخرى فارغة ومعلقة بحبال الظلم. وإن كان

---

(١) يقصد صفراً.

غير صارم يستخف الأهلون بالأحكام والقوانين، فتفسد السياسة وتموت الراحة وإن كان لا ينظر في أعمال الذين هم دونهُ تصبح السياسة فريسة لهم فتفقد الراحة. وهذا هو من أهم واجبات الحكام. وفي فراسة المطالع غنى عن التطويل. وإن تكاسل عن ملاحقة أوامرها لا يجد من يجريها فتقف حركة السياسة. وإن كانت أوقاتهُ غير مرتبة لا يجد فرصة للقيام بحق مهام السياسة. وهذا هو آفة العدل. وإن كان غير صبور تسير السياسة على قدم الضجر فتسقط في مهلكة الظلم. وإن كان لا يحب وطنهُ لا يفعل ما يأتيهِ بالسعادة والنجاح، يمسي الأهلون في ضنك. والخلاصة أن ذلك جميعهُ يجب أن يكون من صفات كل الحكام، من كبير وصغير، إذا كان من دوائر القلم أو الحساب أو الأجراء أو المجالس أو غيرها.

ولا ريب أن كل حكومة حازت من المأمورين أشخاصاً متسربلين بتلك الصفات ترضي رعاياها وغيرها من الدول. لأن هفواتها تكون قليلة جداً بالنظر إلى حسناتها. ولذلك لا بد من أننا نفرغ الجهد في ترقية الأسباب التي من شأنها أن تؤهلنا أن ننظم في سلك أمثال هؤلاء. فتجد حكومتنا منا رجالاً يعملون في معامل السياسة أعمالاً حسنة مبنية على أساسات صحيحة. وأمل إصلاح أحوالنا متعلق بذلك. فكيف لا ننتبه إليهِ وكيف لا ننهض طالبين من دولتنا أن تمد لنا يد الاسعاف، لنجني ثماراً طالما صبونا إلى جنائها. ويا حبذا يوم فيهِ يبشرنا بلبل النجاح بدوران دواليب حالتنا، وبلوغنا أفقاً لا تكدرنا فيهِ تقصيرات المقصرين من الحكام، ولا ظلم الذين يكرهون العدالة التي تضر بالذين أبهم التعدي على حقوق العباد وتكدير كأس الأهالي والبلاد.

جملة سياسية(*)

كدنا نتوهم أن السياسة أصبحت في أيدي البرق في عصر أدهشت عقول الناس سرعتها، فإنها أمست سريعة التقلب، فترى الحلفاء اليوم متناظرين في غده والمتحاربين في الأمس متحالفين اليوم، وكأن ستار

(*) افتتاحية ج ٤، مجلة الجّنان ١٥ شباط/فبراير ١٨٨٠، ص ٩٧، ٩٨.

الغمام بات منسدلاً فوق أعين الأمم فلا تميز بين الغث والسمين، ولا تراعي مصالحها ولا مستقبلها فأكثرها في تهور يقضي بالعجب العجاب في زمان سطعت في أفقهِ شموس المعارف والعلوم، وسادت دول الاختراعات والفنون، وأصبح المطلوب البعيد قريباً، والمكروه القريب بعيداً فاستوى الإنسان على عرش تغلبهِ على العناصر معززاً مفتخراً على أنهُ عاجز عن التغلب على غباوة مجده، وشر ميلهِ، وعروق استبداده، فقطع حبالهُ في جهة، فاتصلت لهُ حبال في جهات. فأين اتحاد ألمانيا وروسيا القديم العهد الكثير الحوادث، وأين عدوان ألمانيا والنمسا الغزير البلايا الوافر الخسائر، وأين عدوان الفرنسويين والروسيين الحديث والقديم. فالسياسة في هذه السنة قد محت فقط معارك أوستراليتز وسادوفا وبطرسبرج القرم وغيرها، وأنست الدول ماضيها بل حجبتهُ عنها بستار الصوالح الكثيف، وانخرط العالم الأوروبي في سلك دور جديد مبدأه يدل على عقباه فأثنى الناس بتعجب ودهشة قائلين لقد أصاب من قال إن دوام الحال من المحال. وقد شغلتنا هذه الأحوال عن أمورنا الداخلية وألهتنا عن نكباتنا الوطنية، وحجبت عنا غوائل قد تعجب الناس من بقاء الحياة بعد أن فعلت سهامها فينا، فإنها أضاعت ثروتنا، وبددت شملنا، وفتحت أبواباً لأصابع الغايات، وأمسى الفاعل في ربوعنا القوة وليس العدل، فاستوى الاقتدار على عرش الحق، وصار الحكم للسيف وليس للشرع والقانون، وأمسينا في ارتباك من المهاجرين والمطالبين والمشاغبين والدائنين، بل من الاحتياج إلى ما نبذلهُ في سبيل إطعام العساكر والضابطة، ودفع معاشات المأمورين والقواد. فهذه هي الحالة التي ينبغي أن يراعيها المنصف العادل عند البحث عن أعمالنا وأحوالنا الجارية، بل من المفروض عليهِ أن يراعي أسباب المؤامرات التي سمعنا تكراراً بظهور آثار لها في الآستانة. وبعد مراعاة هذه الأحوال والحاجات محالفينا ومضايقاتهم، وميل أعدائنا يبرز حكماً عادلاً، فيرى هل يمكن أن يستقيم أمر للإصلاح، وإن كتبت أوصافهُ وسنت قوانينه ووضعت نظاماته. وقد شاركتنا مصر في ذلك أجمع، فإنها وقعت في عسر مالي طالما بحثنا عن أسبابهِ،

وأرسلت جيشاً إلى ميدان القتال ومستها أيدي الأجانب، ووقع فيها مشروع بعد مشروع إلى أن فصل خديويها بعد مضايقات أجنبية وداخلية تضيق عنها ذرعاً أيدي حكمة أفلاطون، وتعجز عن التخلص منها التدبيرات البسماركية. فهي بعض جسمنا الكبير، على أنها قد نالت الآن من الراحة نصيباً بأدلة كثيرة منها ارتفاع أسعار قراطيسها المالية، واستتباب أحوالها الداخلية وإبطال رسوم وإن كان مجموعها ليس بكثير، غير أنها كانت من أثقل الرسوم، ومن يبحث عن أحوال مصر ليحكم بإصابة ما جرى، أو بعدمها، ينبغي أن يراعي الحال، أي أن يعلم أن النفوذ فيها إنما هو للقوة وليس للعدل والحق، وأن دول أوربا صممت على إنفاذ أمور فيها، فالإسراع إلى قبولها يدفع مضار المطل[1] المضر والتطويل الذي لا يجدي نفعاً، وفوز الجناب الخديوي المعظم ووزارتهُ الحكيمة بتخفيض الشروط التي كانت قد اقترحتها فرنسا وانكلترا على جناب والده أوعب القلوب سروراً، ودل على أن أوربا ليست بقاصدة أن تزيد تسلطها على مصر، لكنها تتساهل مع الحكومة التي تحق الأركان إلى قيامها بتعهداتها. فمصر قطر واقعة فيهِ طريق الشرق الأقصى العامة، وهي لجميع الدول، فلا يسمح لأحداها أن تستولي عليها، ما لم يتم ذلك في أثر حرب عظيمة يشتبك فيها جميع الدول العظيمة، بحيث تمسي غير قادرة على أن تحمي صوالحها في البحر المتوسط وفي تلك الطريق، فيخشى عليها وقتئذٍ من انكلترا. غير أنهُ ما من شيء في الحال يدل على ذلك، واشتراك فرنسا وانكلترا في المداخلة بمصادقة سائر الدول دليل جلي على ما تقدم. فيخطيء سياسياً كل من يتوهم أن سياسة مجاراة الدول الأجنبية تأتي بالبلاء، وأن إرضاءها، ما دامت صوالحها المالية فيها وافرة، ببعض مأمورين تستأمن بهم على أموالها وتساق إلى تخفيض فائضهِ هو طريق استيلائهم على البلاد. ومن خبر السياسة يحكم دون مراء بأن هذه أوهام، والإصابة في قولنا إن تلك المداخلة تمنع أسباب الاستبداد، إذ

---

(١) يقصد المماطلة.

خيل لأحد أن يستبد، فإنها تصون الفلاح وسائر الأهالي من مطالب غير مقررة، وتحفظ لأصحاب الدين مبلغاً معلوماً، ولإدارة الحكومة ما هو كافٍ لها، فتتخلص البلاد من رسوم جديدة، وترتفع يد الحاكم عن الفلاح المسكين، فيصير عارفاً بالمبلغ المطلوب منهُ سنوياً فيؤَديهِ عن طيب خاطر، ويستقل بعد ذلك في بيتهِ وعملهِ أميراً نافذ الأمر في ما هو لهُ. وهذه الآمال، مع غيرها مما يضيق الزمان دون ذكره، تجعلنا لا نتردد عن الثناء على الجناب الخديوي، ونعلق الأمل بثباتهِ على عزمهِ، فلا تدخل أذنيهِ تمويهات أصحاب الأغراض ولا يطمع إلّا في نفوذ وزرائهِ، ويسر بعلو شأنهم وتوفيقهم، ويخطىء من يظن أنهُ يقدر أن يحرك في صدرٍ رحب كصدره ونفس كريمة كنفسهِ، وحب شديد كحبهِ لوطنهِ، حسداً أو رغبة في أن يقبض بيده على صغائر الأمور يكون لهُ شركاً في الإدارة. فسياسة هذا الزمان لا تقوم بذلك، ولا تثبت أركان ملكٍ ذي استبداد. ومداخلات الأجانب ثقل مع تمادي الأيام، إذا نهجت الحكومة منهج الإصابة ورأت أوربا أنها تقوم بتعهداتها والواجب عليها بأمانة وضبط. ومن المفروض علينا أن نثني كل الثناء على رئيس الوزراء صاحب العطوفة رياض باشا لأنهُ أدار البلاد بحسب ما تقتضيهِ أحوال ذكرنا بعضها ورفاقهُ يستحقون، أيضاً، كل الثناء ولا لزوم للمدح الشخصي، إذا كانت ألسنة الوقائع عند الذين يدركون السياسة هي المادحة.

جملة سياسية(*)

أقوم السياسة أنسبها لحالة المسوس، وأحوال الأمم لا تثبت على حال، فما يناسبها اليوم لا يناسبها في الغد، فالإصابة في مراعاة ظروفها استبداد أمرها وهذه هي أسرار السياسة، فمن لا يفهمها لا يقدر أن يقوم بها، وإن مكنهُ الزمان من الثبوت مدة لا تسلم عقباهُ لضعف مبدأهُ، فتنزل بهِ القوم وهو يجهر في فيافي الإدارة، فيجلب الويل والهوان على نفسهِ وعلى كثيرين من الذين سيقوا بأعنة إدارتهِ

(*) افتتاحية ج ١٨، مجلة الجنان ١٥ أيلول/سبتمبر ١٨٧٣، ص ٦١٣ ـ ٦١٥.

الناقصة وإجراآتِه الفاسدة. ولو انحصر ذلك في أصحاب المناصب الأولى لضاقت دوائر الخطأ، وقلت نتائجها، ولكنهُ متعلق بالرفيع منهم والوضيع، بالوزير وبشيخ القرية والضابطي وعضو المجلس وأعظم الكتاب وأحقرهم، فإن السياسة دائرة أصغر حلقاتها متعلق بأكبرها، فإن ابتداء الأمور في أصغر الدوائر، ونفوذ الأحكام العالية فيها، ويا حبذا لو سبل الزمان ستارهُ على نقايص أهل النقص من أرباب الإدارة، ليسلم الذين يخجلون من وقوع التقصير في إدارة أمة هم منها، من العار الذي يلحق بالكل من جرى فساد البعض، أو بالبعض من جرى فساد الأكثرية وكم من فرنساوي، مثلاً، أو الماني أو إيطالياني أو أمركاني وغيرهم يضطرب خجلاً وكدراً عندما يرى في بلاده من الفساد ما لا ينحصر في أهلهِ، بل يمتد في عين الرأي العام إلى الأمة بجملتها، والعكس بالعكس، وربما اجتمع الضدان في أمة واحدة، فترى الفرنساوي خجلاً عند ذكر ارتكابات قومهِ وأغراضهم وانشقاقاتهم وطيشهم، ومفتخراً عند ذكر شهامتهم وكرامة أخلاقهم وشجاعتهم. وحكمنا في ذلك حكمهم، فإن قلنا ان مجالسنا في الولاية الفلانية أو المتصرفية الفلانية أو القايمقامية الفلانية مستقيمة الأحوال، منظمة الأمور، مبتعدة عن كلما يشين، تلوح على وجوهنا لوائح السرور والافتخار. وإذا قيل إنها سالكة سبلاً معوجة يصبغ الحياءُ وجوهنا، وكذلك عند تعداد فضائل حكامنا ونقائصهم، ولا ينحصر ذلك في أرباب السياسة، فإن الأمة تفتخر بحسن حالة زراعتها ونشاط فلاحيها وحذقهم، وبإتقان صناعتها، وانتشار معارفها، واتساع تجارتها، وصدق تجارها وأمانتهم وقيامهم بعهودهم ووعودهم، وبغيرة كتابها وخطبائها وحذقهم، حتى أنها ترفع شأنهم إذا حطتهم يد السياسة لمحاماتهم عن الأمة محاماة عمومية أو خصوصية مبنية على مضادة السياسة المركزية العمومية، أو مضادة تعديات سياسة محلية عمومية أو خصوصية وتقيم لهم ذكراً مكرماً إذا هلكوا في ذلك السبيل، أو نفوا أو سجنوا أو افتقروا. وبالجملة نقول ان الأمة عائلة فعار عضو منها، يلحق بكل أعضائها، ولا سيما إذا وقع العار على سياستها، فإنها

للأمة كالأب للعائلة فسقوط شأنهِ يحط شأنها كلها وارتفاع أمرهِ يرفعها، وكم من مرة يخفق فؤادنا تشوقاً عندما نسمع الإنكليزي يقول إننا فتحنا الهند بتجارتنا، واخترعنا الآلة الفلانية، واكتشفنا واستنبطنا وحفرنا المعادن، وغير ذلك مما يعد فضيلة حال كونهِ مولوداً في بلاد أجنبية. ولم يسعف قومهُ في شيء من ذلك، ولكن نسبتهُ إليهم تمكنهُ من الافتخار بهم. ويهون علينا أن نعرف حالتهُ وهو يعدد أعمالهُ من حالتنا عند ذكر فضل سلفائنا، مع أن بيننا وبينهم زماناً طويلاً، والذي لا يقدر أن يفتخر بحاضرهِ لا يحق له أن يفتخر بماضيهِ، لأن عدم اقتدارهِ على حفظ مركزهِ عار عظيم عليهِ. وكما أن الأمة المستقيمة الأحوال والمستبدة السياسة تخاف من السقوط، يقتضي أن الأمة المضعضعة الأحوال والفاسدة السياسة تؤمل بالنهوض، ولو رأت بأعين الاختبار أن بينها وبين اصطلاح الأمور بوناً عظيماً، فإن حبال السياسة في العالم ممتدة على الدوام، فعند وصول يد مناسبة اليها تشد فترتفع.فبطرس الأكبر الروسي هو الذي شد حبال سياسة روسيا، ونابوليون الأول هو الذي دفع عن فرنسا هجمات الأجانب المتعدين، وكم من قيصر روماني لمَّ شعث الامبراطورية العظيمة بعد هبوطها درجات كثيرة، ومن أعظم الاصلاحات وأهمها وقوع الذين يتعدون القوانين بالأحكام تحت طائلة القصاص إن كانوا من الحكومة الإجرائية أو المجلسية أو المكتوبية أو المالية، ومن المعلوم أنهُ كلما كثر طلب الذهب رشوة، أو اشتد التعصب الديني جهلاً، يكثر وقوع الخلل في القوانين. ولو تمكنّا من تدقيق البحث في أسباب ذلك في العالم لرأينا ذينك الحجرين في أساس أكثر الفساد، فقطعهُ إنما يكون بالتأسيس على غيرهما، أي بالتأسيس على العدل والقانون، وهذان الأساسان هما اللذان طال حنين أكثر العالم إليهما في القرون الماضية والجارية، ولا يتيسر التأسيس بهما إلّا بتقدم الجامعين بين الكفاءة من المال والغيرة والحمية إلى خدمة وطنهم مدة لحماية أنفسهم وصوالح أقوامهم ودولتهم. وأكثر السياسات استقامة أكثرها حصولاً على الجامعين بين الأمور المذكورة والمعارف المناسبة لحالة الأمة، فهم

لا يقبلون بالرشوة ولا يحطون شأنهم في أعين القوم لتنفيذ تعصب منافٍ لروح العصر ولمقتضيات الزمان، ولا يرتضون بأن يحملوا أنفسهم لوم العالم المتمدن، فيجعلون الإنصاف والقانون أساس أعمالهم فالذين ينزلون عن مجالس الراحة ويبدلون الحرية بالتقيد في خدمة لا يفتقرون إلى مرتبها ولا إلى مجدها نصف سنة أو سنة أو سنتين، هم أولو الفضل والغيرة، والمجد لهم، وعلى الخصوص إذا ضبطوا أعمالهم ضبط أهل التمدن من جهة الأوقات والتصرفات، وأي جريدة يا ترى لا تبسم سروراً عند ذكر أسمائهم لنشر فضلهم، ومن يقول انني لست في احتياج إلى المجد يخطىء، ولا سيما إذا كان ساعياً في سبيل طلب ازدياد المال، لأنه يعد الكفاة للمجد. فالمجد الأدبي يغني عن زيادتهِ، ولكنه لا يغني عما يكفي مركز صاحبهِ منهُ، ولا نعلم إذا كان تقدم الذين من واجباتهم القيام بذلك عندنا هو كافٍ ليجعلهم يغيرون عاداتهم ويتقدمون إلى هذه الأمور. ولا يتيسر لنا الوقوف على الحقيقة إلاَّ بالتجارب، وعندنا أن الاتحاد هنا ضعيف جدّاً، فمن أصعب الأمور إبرام أمر مفتقر إلى اتحاد قوم، فإن المناظرة أفعل ن التعقل الإداري، والصوالح الخصوصية تغلب الصوالح العمومية، ؛ بل الخوف من أن تمس الصوالح الخصوصية، إذا جرت، مفضل لى الصوالح العمومية، مع أنها في الواقع خصوصية لاشتمالها على خصوصيات كثيرة صيرتها عامة، وهذه أمور جارية في محلات كثيرة، فحيثما ترى لأهل الوظائف رعية مخلة بالأصول السياسية تيقن أن الاتحاد ضعف. وهذا مما لا يناسب الحكومات المركزية لأنها تخاف تطوح أرباب الوظائف بحسب مقدرتهم ومراتبهم فيفسدون المقاصد السياسية. فالمتصرفية لا ترتضي أن ترى ذلك في القائمقامية، ولا الولاية في المتصرفيات، ولا العاصمة في الولايات، وإن ارتضت بذلك إحداها تحيد عن الصواب، وإذا كان ذلك شأننا لا يليق بنا بعد أن أدركنا ما أدركناهُ، وجعلنا الشرق يعتبرنا مركزاً لآدابهِ، لوذلك لم نرَ بدًّا من محو ما ربما كان باقياً عندنا من آثار ذلك، ومن اقتباس ما يوافق مركزنا ويرفع شأننا، فإن عارضنا حاكم أو مأمور أو مجلس نتحد في

التشكي فنصادف إصغاء، ونتخلص مما لا يناسبنا، فإن الحكومة المركزية السنية تحب أن تري عندنا من القوة الأدبية ما يساعدها على ضبط مأموريها، فإنهم إنما أرسلوا ومتعوا بالمعاش والمركز ليخدموا الأهالي، ولاستجلاب الدعوات القلبية للحضرة الشاهانية. ومن أفعل الأسباب المسعفة للحكومات المركزية في ذلك نشر قوانينها ونظاماتها كلها في لغات الأهالي، وعلى الخصوص اللغة العربية، فإنها مجن الحق والانصاف، وجهلها مسهل للرشوة والتعصب والتغرض، فيعرف كل ذي حق حقهُ. أما الآن فهو مجهول عند الأكثر، بل عند الجميع، والنادر لا يعتد بهِ، وطالما دخل المدعي أو المدعى عليهِ في الدعوى بدون أن يتمكن من الحصول على ورقة في أكثر الأحيان، فإن أكثر التبليغات شفاهية، وكذا التعيينات والطلب، مع أننا نظن أن القانون يأمر بغير ذلك، وليس المقصود جري ذلك في مكان دون آخر، فإنهُ ربما كان يجري في أكثرها، أو في أقلها والله أعلم. وبنـاء على ذلك نتمنى الحصول على ترجمة كل القانون، وعندنا أن الوزارة التي في صدرها حضرة صاحب الفخامة محمد رشدي باشا، وفي العدلية حضرة صاحب الأبهة مدحت باشا، وفي الشورى حضرة صاحب الأبهة يوسف كامل باشا، وفي الخارجية حضرة صاحب الدولة راشد باشا والينا الأسبق الذي يعرف احتياجاتنا كما يعرفها حضرة الصدر الأعظم الذي سبقهُ في ولايتنا، لا تتأخر عن نشرالقوانين كلها في اللغة العربية، وأن تكون الترجمة بسيطة واضحة، فإن الفصاحة والبلاغة في الوضوح والبساطة، فنتوسل إليهم أن يأمروا بالاهتمام بذلك لاكتساب دعواتنا وتنفيذ النوايا الخيرية السلطانية المتعلقة بترقية أسباب رفاهية الرعايا وسعادتهم، وبتقصير باع المنابذات والمغايرات التي لا يقدر الإنسان أن يحسب لنفسهِ وطناً يستحق بذل دمهِ دونهُ. ما لم تبت هذه الأمور حيثما ترغب الإرادة السنية الملوكية في أن تبيت فيه.

النظامات الأساسية(*)

عند نشر النظامات الأساسية والتكلم عنها في الجنان والجنة، وعدنا بنشر جمل تفسيرية متتابعة بشأنها إجابة لطلب بعض المشتركين، فنقول.

تنقسم الحكومات في الدنيا إلى قسمين كبيرين وهما المطلقة والمقيدة، أو الاستبدادية والنظامية. فالمطلقة تكون غير مقيدة أو مقيدة في أمور حقوقية ومستبدة في سائر الأمور، والملك فيها نافذ الأمر في كل شيء بدون مراعاة نظام ولا قانون، ووزراؤهُ وسائر المأمورين مقيدون بأمرهِ فقط، ورعية الحكومة المطلقة هي للقيام بالدولة وتعزيزها وصيانة صوالحها. ولا تصان الحقوق فيها ولا توجه المأموريات إلى أصحاب الأهلية فتكثر المغايرات، وتمسي الأمة في تأخر أدبي ومادي يحرمها أسباب الراحة.

أما الحكومة المقيدة فهي التي تكون لها نظامات وقوانين مقيدة للرعايا والمأمورين، فتكون خادمة صوالح الأمة ومحامية عن الوطن والحقوق ومرقية لأسباب المنافع العمومية الأدبية والمادية.

أما حكومتنا العثمانية، فكانت مطلقة قبل وضع النظامات الأساسية، وكان الوكلاء ينفـذون ما يشاؤون إنفاذهُ في الرعية وفي المأمورين بصدور إرادة سنية، فكان ما يؤمر به اليوم يبطل في غدهِ، ثم يعاد إليه. وهكذا كان للمأمور الأول في المكان أمر نافذ في الرعية وفي مجالس الحكومة. والتنظيمات الخيرية جعلت حدّاً لذلك غير أنهُ لم يكن كافياً ولا أصبح مرعي الإجراء في كل مكان فنشأت عن ذلك الأحوال التي جاءتنا بتأخر عظيم، حتى رأى قسم عظيم من رجال الدولة الذين يسمون بتركيا الفتية مع غيرهم الذين ليسوا منهم أنهُ لا بد من سن نظامات لتغيير تلك الأحوال بتقييد المأمورين وجعل ضابط للإدارة والسياسة والمالية، ليصير التوصل إليه بالمشاورة والمفاوضة والمحافظة عليه، بحيث يتقرر إركان الرعية إلى الحكومة، وتكون الغاية استقامة أمور

(*) مجلة الجنان ١٨٧٧، ص ٨٦ ـ ٩٠.

البلاد لنفعها وليس لنفع الحاكمين بما يأول إلى ضرر المحكومين، فهذه هي بالاختصار الحالة التي كنا عليها، والحالة التي يرام نقلنا إليها بوضع النظامات الأساسية المذكورة.

ولا يخفى أنهُ لا يرى لها أثر ظاهر في الأمة في مدة قصيرة. ومن المقرر عند الجميع أن الثورة في شمالي السلطنة كانت ذات دائرة ضيقة، ومشاكلها سهلة جدّاً بالنسبة إلى المشاكل التي وقعنا فيها، وأن روسيا كانت مرتضية في بادىء الأمر بأقل الأمور، ولكن وقوع التعديات البلغارية قوى عزم الذين ضادونا في إنكلترا لما رأوا فينا من الإهمال والتأخر الماضي. فالذين استخدموا مساعدات حكومتهم لنا للطعن فيها والتنديد ففازوا بإبعاد الإنكليز، بل بإبعاد أكثر أوربا عنا، قاطعة الأمل من تقدمنا وزوال تعصباتنا، ليس لأنهم لا يرون ذلك في أمم أخرى، ولكن لأننا تعهدنا بإجراء ما نتهم بعدم أجرائهِ، مع أننا جعلناه مكافأة لمساعدات حربية أو وسيلة لنوالها، فالتزمت الحكومة الإنكليزية على رغم أنفها أن تجاري رعاياها والرأي العام في إنكلترا فانحازت إلى ضدنا وعضدتهُ وأمست في مقدمة الذين يطلبون إنفاذ ما يصعب علينا إنفاذهُ. فيكون رأي أهالي أوربا عموماً وإنكلترا خصوصاً قد ساقنا إلى هذه الحال، وحملنا من الخسائر ما يترتب على تجهيز مئات ألوف من الجنود في بلاد متسعة أسباب النقل فيها كما ترى. وأشد لوم اللائمين من الأصدقاء والأعداء ناشىءٌ عن تقصيرنا في إجراء النظامات والقوانين والعهود التي طالما جعلناها وسيلة للحصول على إسعاف أوربا بالجنود والمال، لتكون ضمانة تضمن لها بلوغنا درجة عالية من التمدن والتقدم، لنتقوى ونعظم ونستغني، فإن هذه هي مطالب الدول الأوروبية خلا دولة واحدة. فإنها تروم تقويتنا لحفظ مركزنا ودفع أضرار العدو عنا باتحادنا وإنفاذ العدل فينا ونبذ انشقاقاتنا وتعصباتنا، لأن من أعظم أسباب ضعفنا وتأخرنا إنقسامنا على أنفسنا. ولذلك المأمول هذه المرة أن لا تكون نظاماتنا وقوانيننا حبراً على ورق، أو أن تنفذ عندما يوافق الحاكم أو المجلس إنفاذها، ويقطع النظر عنها عندما لا يوافقهما ذلك. وقد قال حضرة مدحت باشا

صاحب الفضل الأول في هذا الباب أن ماضينا قد أضر بحالنا وحالنا سيبقى ماضياً فيضر بمستقبلنا. فلا بد من أحد أمرين مهمين من الواجب أن يغرسهما كل عثماني في عقله، ليكونا دستوراً لعملهِ، فأولهما أنهُ إذا عدنا إلى الماضي وأهملنا إجراء هذه النظامات وما يسن لاكمالها، وجعلنا ديدننا قطع النظر عن الرشوة والتعصب، وعادت حكومتنا إلى الاستبداد والتقلب، تبيت بعد سنين ليست بطويلة في مصاعب ومشاكل اردأ من المصاعب التي بتنا فيها. وثانيهما أن أعظم خسائرنا ومشاكلنا الجارية ناشئة عن مضادة الرأي العام في أوربا لنا. فإذا لم نصلح انفسنا ونضاد مغايرات أصحاب المطامع من المأمورين وأعضاء المجالس نخسر رأي أوربا العام عند حلول المصاعب الإستقبالية، فلا نجد مسعفاً في أوربا مع أننا في احتياج إلى الحلفاء لأن أعداءنا أقوياء وكثيرون. ولم نظهر ما قد أظهرناهُ إلا إظهاراً لضرورة إجراء النظامات والقوانين ومعاقبة كل من يتعداها.

وربما كان كثيرون لا يعلمون ما هو المقصود من النظامات الأساسية، ولا سبب وصفها بالأساسية دون غيرها. ولا يستغرب ذلك في بلاد لم نرَ من النظام في دائرة الإجراء غير ما هو دون الطفيف. فالنظام هو القانون الذي تنتظم بهِ حالة الدولة والأمة والدوائر، فترى للمجالس مثلاً نظاماً يتضمن كيفية تشكيلها وخصائصها وعدد أعضائها وقانوناً وهو الذي يحكم بموجبه، فهو في بابه كالشرائع في بابها. فبالقانون يحكم بقصاص الجاني بالسجن أو الجزا النقدي أو القتل. وبالنظام تتبين واجبات المجالس والأقلام والدوائر والرسومات وغير ذلك. ولا بد من أن يكون منقسماً إلى أساسي وفرعي. فالأساسي يبين الحقوق العامة والواجبات المتعلقة بالأهالي والحكومة عمومياً، والفرعي هو المتعلق بمجلس أو دائرة أو نظارة أو غير ذلك. والأساسي يكون أساساً للفرعي، أي أنهُ قاعدة الفرع ولا يمكن أن يسن في الفرعي ما يناقض قواعد الأساسي. مثلاً ذكر في المادة الثانية أنهُ ليس للاستانة امتيازات وحقوق ليست لسائر مدن السلطنة. فلا يسوغ أن يسن نظام فرعي فيهِ امتياز لها. وهكذا في جميع الأمور.

ولم يكن للدولة العثمانية نظامات أساسية قبل الآن معلومة عند الرعايا لأنها كانت حكومة مطلقة، والنظامات الخيرية كانت فرعية لا تتضمن منح الرعايا حقوقاً عامة ولا تمكينهم من إنشاء مجلس عام للمناظرة على أعمال الحكومة كمجلس المبعوثين ولا غير ذلك من الحقوق العامة والإفرادية كحقوق التعليم والحرية الشخصية وغير ذلك مما لا يغير إلّا برضى الأمة، فإن أمراً سامياً، بل أمر وال أو متصرف كان كافياً لتوقيف أهم الدعاوي في المجالس، ولإجراء أشد القصاص، ولإخراب أمتن البيوت أو اغنا أفقر الناس. فالنظام الأساسي يمكن كل عثماني من معرفة حقوقهِ وواجباتهِ العمومية، ويكون مؤسساً على المساواة والحرية وعلى تقييد المأمورين والمجالس والقا المسئولية عليهم جميعاً. أما تاريخ نظاماتنا الأساسية فهو ٢٢ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٧٦، وهو زمان اضطراب ومشاكل ومصاعب في السلطنة السنية، فظن الناس أنهُ قرر في هذه الأحوال لتخفيف المشاكل، بل قد قال قوم ان حكومتنا قد قررتهُ لتبين لأوربا أنهُ لا لزوم لإجراء الإصلاحات التي طلبتها، فإنها قد منحت العثمانيين جميعاً حقوقاً تكاد تكون أعظم من الحقوق التي طلبت منحها لأهالي الولايات الثلث الشمالية، وأنه لما كان هذا هو المقصود منها،يصير إهمال إجراءها عند انتهاء الإحتياج إليها بالتخلص من المشاكل التي نحن في صددها ورجوع الأوربيين عن مداخلتهم التي قد تجاوزوا بها حدود الاعتدال، فالظاهر هو غير الباطن. ومن المعلوم أن للأحوال الجارية دخلاً عظيماً في وضعها الآن بسرعة لا مزيد عليها، والمقصود منها إرضاء الأوربيين والعثمانيين غير أنه لو كان واضعها والقايم بأعبائها هو غير حضرة مدحت باشا حال كونهِ لم يخطر لهُ ذلك ببال قبل الآن، لملنا إلى موافقة أولئك المنددين. والواقع أن المشاكل الحالية هي التي سهلت لحضرة مدحت باشا وحزبه المعروف بتركيا الفتية التغلب على الموانع والمضادات التي طالما أخرت نقل الحكومة من أصول استبدادية إلى أصول مقيدة. ولذلك نقول ان الحضرة الشاهانية والصدر الأعظم وبعض الوكلاء والمأمورين قد استغنموا

سنوح الفرصة لإنفاذ آرائهم التي يتوقف عليها استقامة أمور السلطنة حال كونها قديمة العهد عندهم وفازوا بسوق المضادين إلى الموافقة بقوة المخاطر ومطالب الدول الأوربيـة وهم عالمون بأن ما يقررونهُ لا يكون سبباً لأرضائها، ولكنهُ يخلص الأمة من الحكومة المطلقة التي قد أخربتها[1] وضعضعت ماليتها ومالية حكومتها وجعلت صالح المأمورين وغاياتهم المعول على إنفاذه والعدل نسياً منسياً ينوح ويبكي عند آثار ضربات الظلم وما من مجير ولا نصير.

فحضرة مدحت باشا بالاستناد إلى إرادة مولانا السلطان المعظم هو واضع ذلك النظام الأساسي. وقد أخرج من القوة إلى الفعل ما طالما رغب في إخراجه غير أن مضادات المرحوم السلطان عبد العزيز ومحبي الإستبداد من رجال الدولة كانت تغل يديه، بل تجعلهُ مأموراً في مكان بعيد عن عاصمة السلطنة، ولا تمدحهُ فإن أعمالهُ وقواعدهُ هي التي تمدحهُ. ولا ريب في أن الأمة مديونة له، بل دين للدولة، إذا فصلناهما، أعظم لأنها كانت سائرة في سبيل يودي إلى الخراب، وأعداؤها الأجنبيون يحاولون الإضرار بها وليس برعاياها. فما سنهُ من النظام يقويها وينفعنا جدّاً إذا جرى حق الجري وتخلص من الآفة المحلية التي طالما تركت النظامات والقوانين خدمة للرشوة في أماكن كثيرة ولا يلزم أن نصف ما صرنا إليه من جرى ذلك، فإن آثارنا تدل علينا، فماذا يا ترى يقلل عدد الأهالي ويسلب الملك من الفلاح، ويكثر الأمراض التي تنشأ عن الفقر، ويحمل أصحاب الأغراس على قطعها، ويجعل الصناعة في اضمحلال، ويجعل الفائض غير معتدل، أما هو تضعضع أحوال العدل واستقامة أمور الظلم فهذه الأمور كلها مع أمور كثيرة غيرها قد ذقناها بنفس ذائقة الموت ولا نزال نذوقها وقد رأينا لأنفسنا هذا الباب للفرج، فكيف لا نفرح بهِ ونبعد عنا ما يعذبنا، خوفاً من أن يتعسر اجراؤهُ فمدح مدحت باشا في هذه الظروف واجب، وكذلك مدح جميع الذين أسعفوهُ، فإن رأينا تقصيراً في الإجراء نبادر

---

(١) يقصد خرّبتها.

إلى إظهاره منذرين الذين يدوسون صوالح حكومتهم وأبناء وطنهم بأرجلهم لنفع أنفسهم نفع اللصوص بأن الزمان بيننا وبينهم ولا بد من أن يظلم الدهر ظالم أولاده.

ولا يخفى أن الإنسان لا يوافقه لبس أثواب الصيف في الشتاء وبالعكس، والنظامات الأساسية التي يفهم منها تقييد الحكومة بإرادة الرعية بعد تقييدهما جميعاً بالنظامات والقوانين، لا تكون موافقة لجميع الأمم في كل الظروف. لأنهُ لا تستقيم أمور الحكومة المقيدة، ما لم تكن الأمة قد بلغت درجة كافية من التقدم الأدبي يؤهلها لأن تسوس نفسها، فكل ما تعممت المعارف فيها تزداد أهليتها لأن تدير أحوالها بإرادتها. وإذا منحت ذلك قبل أن تصير أهلاً له يبيت النظام صفراً والأمة ومجلسها أضحوكةً. وفي الشرق نخاف أمرين وهما تعود الأهالي الإنقياد الأعمى للحكام وتعود الحكام الاستبداد. فإن اجتماع ذلك في الحاكم والمحكوم يضر كثيراً بالنظامات الأساسية. ولو تمكن حضرة مدحت باشا من أن يسوس السلطنة وهو في الصدارة العظمى ثلث سنوات قبل منحها تلك النظامات الأساسية، ليهيأها لها ويخبرها بمقصودهِ وينشر اللغة التركية بين أممها لئلا يلتزم الأهالي بأن يبعثوا الذين يتشكون منهم لينوبوا عنهم من جرى الافتقار إلى اللغة التركية ويمنع المأمورين عن الإستبداد، ويحرض الأهالي على التشكي عندما ينفذ فيهم حكم مطلق، لكان النفع أعظم من الإلتزام بأن نقوم بتلك النظامات مدة قبل تعود ما يمهد السبل لها. فالأول أفضل من الثاني، والثاني أفضل من العدم. وإذا انتخب لكل ولاية وال عارف بأحوال النظام وأصولهِ بعيد عن التعصب والارتكاب شأنهُ اللين والتأني والتروي، يقدر، بدون ريب، أن يسهل الطريق لجري النظامات. ونظن انهُ لا يعسر على الصدر الأعظم مع التنزه عن حب نفع زيد دون عمرو أن يجد نحو ٣٠ رجلاً متحلين بتلك الصفات مع حب الوطن ومراعاة خير الدولة. وعلى كل حال لا ينبغي أن ننتظر عظيم أمر من نواب السنين الأربع الأولى، ولا سيما إذا انتخبتهم مجالس الإدارة من المعروفين عندها. فالأوفق أن نتهيأ للإنتخاب الثاني، وأن لا نحزن

ونتأسف إذا لم نرَ من الانتخاب الأول جزءاً صغيراً مما ننتظر. فالبداية صعبة والأحوال غير مساعدة. وعندنا أنهُ فرض على كل رجل أن يتعلم اللغة التركية إذا كان ذا ميل سياسي أو مركز أبوي يؤهلهُ مع استعداده الطبيعي إلى الانتظام في سلك المأموريات. لأن الأوفق للذين ليسوا بأتراك أن يقولوا أننا نعرف ما يكفي من التركية، ومع ذلك لا نصيب لنا في الأحكام من أن يقال لهم أن عدم معرفتكم لها يمنعكم عنْ تقلدها. ويا حبذا إذا رأينا لمعرفة اللغة المحلية المحل الأول عند المأمورين المحليين، والتركية الثاني، فإن استخدام من يقوم بالمخابرات مع المركز الرئيسي من أهل اللغة التركية مع معرفة المأمور شيء منها أقل ضرر من معرفتها، وأن يكون المعول على الترجمة في كل ما يتعلق بصوالح الرعايا.

فهذا ما أردنا نشرهُ في هذا الجزء عن النظامات الأساسية، وفي الأجـزا القادمة نبحث عنها إن شاء الله بنداً فبنداً، مفسرين وموضحين، لأن أهمية هذه النظامات بفهم الأمة روحها والمقصود منها، لأن إجراءها متوقفٌ في الأكثر عليها.

جملة سياسية(*)

للأمم أزمان ظاهرة الأهمية، فتكون بداءة سعادة ورفاهية أو بداءة ظهور قطع الأمـل من التقدم والنجاح، وقد أصبحنا في زمان منها، فسيكون لنا استقبال يليق بمركزنا وتاريخنا وكثرتنا وجنسياتنا، أو نخبط برهة خبط عشواء، بعد أن نجهر في فيافي أحوال جديدة، لنعود إلى ما كنا عليه، بل إلى ما هو أردأ منهُ، ولا نعدل إذا تكلمنا كلام الأجانب عن أحوالنا الماضية بعد أن نكون عالمين علة تأخرنا وفقرنا وضعفنا الأدبي والمادي، ورفعنا أثقال اللوم عن عواتقنا لنلقيها على عواتق الآخرين، وقلنا اننا صفر يساري فلا يحسب لنا حساب في المؤخرات ولا في المحسنات، فما نحن إلا آلة، بل آلات (فإننا تعددنا بفقدان عناصر الإتحاد) تديرها الحكومة بمأموريها للنفع والصلاح، أو

(*) افتتاحية ج ٢٣، مجلة الجنان ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٨٧٥، ص ٧٩٣ ـ ٧٩٥.

للضرر والطلاح، وبذلك نكون قد حدنا من محجة الصواب، وقطعنا النظر عما يتعلق بنا لنلقي اللوم على الآخرين، وبالتالي لنجلس في مجالس التعاون والكسل، منتظرين الاصلاح باجتهادات الإدارة، بدون أن نقوم بما يجب أن نقوم بهِ حال كون الامم لا تجبر على الإصلاح كما تكره على الطاعة، ولا تتصل المحسنات إلى من لا يقبلها. وبتدقيق النظر في الفرمان العالي الشأن المطبوع في هذا الجزء وإرسال رسل الأبصار بالحكم العقلي المبني على ظروف الزمان والمكان إلى النظامات والقوانين التي تبنى عليه، نرى أن الجهة الإدارية قد قررت خطّاً ما هو كافٍ للوصول إلى صراط مستقيم يتم لنا الفوز بقطعهِ بالحمية والغيرة والصداقة والاستقامة، إذا جعلنا في خبر كان أسباب شقاقنا الناتجة عن مناظرات شخصية، أو اختلافات مذهبية، أو غايات طمعية. ولا نجعل كلامنا متعلقاً بما هو بعيد عنا مجانبة للتطويل، وفي ما هو قريب ما يغني عن ذلك البعيد ومن المقرر أن أهم أشغالنا متعلقة بالمجالس، فإذا قطع النظر عن المغايرات التي ذكرت في ذلك الفرمان العالي، تكون مجالسنا أهم دوائر الحكومة في بلادنا، وقد وضعت لها فيهِ أصول عادلة جداً، وتأتي بالمقصود، إذا مكننا شقاقنا وغاياتنا من أن ننتفع منها، فإنهُ ماذا يا ترى تتمناهُ الأمم أكثر من أن يكون الأهالي منتخبي الذين يفصلون دعاويهم ويديرون مهامهم، بدون أن يكون المأمور الأول الإجراءي، ولا لأعوانهِ حق المداخلة في شيء لإنفاذ غاية، وفي يدنا بواسطة المنح الشاهانية، جعل ذلك ينبوع خير ونفع أو مصدر شر وضرر، فإن أهم السياسة، بل أكثرها أصبح في يد الذين يختار الأهالي أن يجعلوها في يدهم، وقد تحولت سياستنا من نظامها الماضي إلى نظام لا نراهُ إلا في البلدان المقيدة السطوة. فكما أن كلًّا منا مخير في اختيار من ينوب عنهُ في دعوى أو في عمل، كذلك قد أصبحنا جميعاً مخيرين في اختيار الذين ينوبون عنا في تحصيل الحق، لان القاضي او المجلس في نظام الهيئة الإجتماعية هو وكيل صاحب الحق في تحصيل حقهِ بدفع الظلم، فلا تنفذ سلطة القوي ولا يداس حق الضعيف لأن وكيلهما واحد. وعندنا أن إجراء إصلاح المجالس

وإتيانه بالمرغوب لا يتعلق بالحكومة، ولكنه متعلق بالأهالي. فإن الحكومة قد أقامت بما يتعلق بها منهُ، وهو منح حق الانتخاب العام، وعلى الأهالي أن يقوموا بتلك المنحة قياماً موافقاً لصوالحهم بواسطة انتخاب رجال بهم الأهلية الصحيحة ليس من جهة الثروة فقط، ولكن من جهة التعقل، وصحة القواعد، والابتعاد عن التعصب،فإن المحافظة على التعصبات الدينية آفة كل تقدم. فمن صوالح أهل كل مذهب أن يقتربوا من المذهب الآخر. أما ترى أن الملكيين والجمهوريين قد اتحدوا في فرنسا على انتخاب أعضاء مجلس الشيوخ عندهم، وبعضهم أبعد عن البعض الآخر من أبعد المذاهب عندنا من جهة الصوالح، وعند الأكثرية منا، بل قد أجمع عقلاؤنا على أن من مصلحتنا أن نكون من شمالي الطونة إلى أواسط بلاد العرب أمة عثمانية واحدة، لنا مركز عزيز شهير كالآستانة، فإن قوتنا لا تكون إلا بالاتحاد. أما الفرنساويون فقد اختلفوا على أمور أساسية يتوقف عليها قلب دول وقيام دول أخرى، ومن الواجب أيضاً، أن نبعد عن العضوية وغيرها كل الذين اشتهروا بالتعصب، لأن عواطفهم وأميالهم تعود بضرر على صوالح الأمة، لأن شدة التعصب تأتي بما يقابلها والنتيجة تصادم وسائط النفع عوضاً عن أن تسير متكاتفة، وبعد هذه النظامات الانتخابية يكون للجرائد أعظم دخل في السياسة، لأن ما هو معتبر منها يدير أمور الانتخابات إدارة موافقة لكل صالح إذا سلم من الخطأ والزلل، ويكون لأهل النفوذ من الرؤساء الروحيين والأعيان سطوة عظيمة في الانتخابات، وذلك كما في سائر البلدان وأعظم المسئولية تقع على عواتقهم، فإن جريان العدل في المجالس التي تكون مهمة جدّاً بعد تنظيمها على المنوال المذكور في ذلك الفرمان السلطاني العالي، يتوقف في الأكثر عليهم إن تداخلوا جهاراً أو سرّاً، وسيرتفع شأن المجالس في أعين الناس عندما يرون أنها مؤلفة من أعيان الأهالي، وذلك بالانتخاب العام. وإن لم يجرِ ذلك على حقهِ ينحط شأنها فإن الذي تحكم[١] أكثرية بأهليتهِ وعدالتهِ يحق لهُ أن يفتخر وأن يظهر افتخارهُ

(١) هكذا في الأصل ولعلها (يحكم).

بالاتضاع والاجتهاد وبتبيين إصابة الرأي العام الذي انتخبهُ بسلوكهِ وتصرفاتهِ، فباكتساب المدح العام والأركان، تفتح لهُ أبواب الرياسات والمأموريات. ولا يعدل المنتخب إذ استعفى، لا بل يخجل من ذلك، فلا بد من أن يخدم مدة، ومن حظ الأهالي أن حضرة صاحب الفخامة الصدر الأعظم، وحضرة صاحب الدولة راشد باشا ناظر الخارجية، وحضرة صاحب الدولة جودت باشا ناظر العدلية، وأكثر الوكلاء العظام قد تقلدوا إدارة ولايات سنين، ويعرفون الإصلاحات المجلسية اللازمة أكثر مما يعرفها أحذق الأهالي، وما طالعناهُ من الأوامر الإصلاحية المجلسية في ذلك الفرمان العالي يدل على صفاء النية والتصميم على القيام بالإصلاحات اللازمة، وعندنا أن إصلاح المجالس أصبح بيدنا، وضيق المقام لا يسمح بالكلام عن كل الإصلاحات المذكورة في تلك المنحة الشاهانية. ولذلك قد اكتفينا بهذا القدر عن المجالس، وسنرجع إلى الكلام عنها في فرصة أخرى، ونتكلم عن الأمور الأخرى الإصلاحية إن شاء الله تعالى.

جملة سياسية(*)

لم يفت زمان أجرام الإصلاحات التي قد صدر الوعد بالقيام بها من ينبوع الإحسانات الشاهانية. فإن البلاد لا تزال تقدر على أن تخرج نفسها من الضيق الذي وقعت فيهِ بواسطة حصولها على المساعدات التي قد استنتجنا من الإرادة الشاهانية التي صدرت بهذا الخصوص، ونشرنا ترجمتها في الجنة، بأنها تكون أساساً لتلك الإصلاحات الكثيرة الفائدة، ومنها مخابرة أهل الإختبار من الأهالي ووكلائهم، للوقوف على احتياجات البلاد والوسائط الموصلة إلى الإصلاح ولا يخفى أن الجرائد في العالم المتمدن لا تقدر أن تفوز بالشهرة والتقدم والقبول عند الناس، ما لم يروا أن محرريها قادرون على إدراك دقائق السياسة وحقائق الأمور والتمييز بين الغث والسمين من الإجراآت والنظامات وتوضيح مبهمات الإدارة والقيام

(*) افتتاحية ج ١٧، مجلة الجنان تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٧٥، ص ٥٧٧ ـ ٥٧٩.

بالاستنتاجات السياسية، بحيث تهيي لهم الوقائع وتبسط الأفكار وتقرر الآراء، فيدركون الأمور بدون أن يتعبوا أنفسهم بالبحث والتدقيق. فالجرائد التي تقدر أن تقوم بذلك حق القيام تكتسب الشهرة ويعلو شأنها وتصير من أركان السياسة عند الأهالي وعند الحكومة حتى أنها تبيت تدعوها عضدها وسندها، وقد سمعنا البرنس[1] بسمارك يدعو الجرائد المحبة للحكومة معاضدة الإمبراطورية، وسندها. ولما كان هذا هو الواقع كان لا بد من أن يكون لها المحل الأول في بيان ما ينفع لإجرائهِ، وما يضر لمجانبتهِ، ولا سيما عند الشروع في إصلاحات مالية وإدارية، من شأنها إذا أُتقنت وأنفذت حق الإنفاذ، نقل الأمة من حال إلى حال، ولذلك يحق للأمة أن تنتظر من جرائدها حمل أثقال البحث بالتدقيق في الأحوال الجارية. قاطعة النظر عن الإختلافات الدينية والأغراض الجنسية. ومما يسر أننا لا نرى جرائد عثمانية في الزمان الجاري ذات لغة عربيـة أو تركية، إلا وسياستها المحافظة على هذه الهيئة الجليلة بانضمام الجنسيات القديمة الساكنة ضمن الحدود أمة واحدة عثمانية شرقية غايتها تخفيف الأثقال المالية عن الدولة والبلاد، وترقية أسباب ازدياد الثروة بتحسين حالة الفلاح وصيانة حقوقهِ المالية والمدنية، وغير ذلك مما سيأتي ذكرهُ. وقد قررنا بعض هذه القواعد في جمل سياسة صدرت في جنان سنة ١٨٧٤ تبين أن الطوائف التي تؤلف منها الممالك المحروسة الشاهانية ليس من مصلحتها إلا أن تكون دولة واحدة كبيرة لها عاصمة كالآستانة العلية مشهورة، وحقوق تقررت برضى دول أوربـا بالتبقي على ما هي عليه، فإن القوة بالاتحاد، وبالانشقاق والتفرق تداس الأمم بأرجل أهل المطامع، وتضيع حقوقها بتعديات الأقوياء، وتهان رعيتها بتصرفات الأجانب، وأعمال نفس رجال حكومتها إرضاءً لخواطر أجنبية، وملاحظة لصوالح سياسية عمومية. ولذلك لا تكون إشارات الجرائد العثمانية العربية والتركية وأكثر الأجنبية، إلا للصالح العام بحسب قوة إدراك محرريها السياسي، ومعارفهم النظامية والصناعية والتوفيريـة.

(١) الأمير.

ولا ريب في أن أساس تلك الإشارات يكون ذا ثلثة أركان، وهي الثروة والنظام والإجراء. ولا يغفل العارف عن القوة براً وبحراً للمحافظة على الراحة العمومية، وعلى الخصوص لمنع الذين لهم جواذب جنسية في الشمال، خصوصاً عن طلب الانضمام إلى الذين لهم استقلال تام، أو غير تام من أبناء جنسهم عن تكدير الراحة، وكذلك بعض قبائل البادية المقيمة عند حدود العمران، وأهالي بعض الأماكن الصعبة المسالك والبعيدة عن المراكز الإدارية. غير أن القوة الموجودة في الحال، والتي يتم تنظيمها في زمان قصير كافية من جهة الرجال، ومهمة من جهة البوارج. ولكن لا يتم لها الأمر إلا بالتمتع بقوة مالية. ولولا ذلك لجعلنا الأركان الأساسية أربعة، بإضافة القوة المادية إلى الثلثة التي قد ذكرناها، ولكل من هذه الأركان فروع وفروع فروع، فلا يستوفى الكلام عنها في جملة أو جملتين ولذلك لا ندخل الآن في البحث عن كلٍ منها، فاننا قد جعلنا هذه الجملة تمهيدية لذكر القواعد العامة المتعلقة بذلك، وفي جمل أخرى نتكلم بالتفصيل حيناً بعد حين بحسب الظروف وسنوح الفرص. ومن المعلوم أنهُ عند إدراك الأمة درجة معلومة من التمدن، تدرك أيضاً مركزاً ذا احتياجات لا تشعر بالافتقار إليها قبل إدراكه. فقبل اتساع ميدان التجارة في داخلية البلدان وخارجيتها، وتقرير الأمنية بإبطال نظام الأحكام العدواني الذي كان جاريا في أوربا في القرون المتوسطة، لم يكن احتياج إلى الطرق الحديدية، ولا كان سبيل لقيامها، وكذلك نحن في هذا العصر لا بد لنا من أن ينقطع النظر عن أمور جارية، أو كانت جارية، ونشعر بما يناسب الحال بالفعل، ويرضي الأفكار، ويأتي بالتقدم الحقيقي، وليس بالتأخر، ويثقف العقول ويروضها، بما يرقي أسباب الزراعة والتجارة بتقرير المساواة في كل الحقوق وفي كل الواجبات، ولا سيما بين الفقير والغني، والصعلوك والقوي. ولا نفوز بالمرغوب، ولا تستتبد لنا حال، ولا يقوم لنا شأن، ولا نملأ خزائن، إلا بقطع النظر عما فات، ومحاولة استئصال ما ربما كان لا يزال باقياً من آثار التعصب الأعمى، والأغراض القديمة سياسية كانت أم دينية، والبحث في الحال عن التقصيرات والاحتياجات

وأسباب الجهل ومواضيع الإصلاح والوسائط التي نقدر على استخدامها ثم الشروع في الإجراء بالضبط والهمة. وإذا سرنا في هذا السبيل ندرك الغاية المطلوبة، ولو تخلل أعمالنا بعض النقص ولكن إذا اكتفينا بالترقيع وبالكتابة دون الإجراء، وبالكلام بدون فعل، لا يمضي طويل زمان حتى يبيت عمراننا خراباً، فإن آفات الزمان لا تنفك عنا. غير أنهُ لا يزال لنا رمق، ولذلك قد قلنا إن ما فزنا بهِ من المراحم السلطانية لم يكن بعد فوات الفرصة، وبلادنا فلاحية أكثر مما هي تجارية، وليست بصناعية. وقد خربت قرى كثيرة في الزمان الماضي. وما أحسنت الحضرة الشاهانية بالإشارة إليه من وجوب الإصلاح العام، يدل على افتقار البلاد العام إليهِ، وعلى احتياجها إلى المبادرة إليهِ. أما أفكارنا من جهة توقيف نصف دفع فائض دين الدولة العلية ونصف استحقاقاته مدة خمس سنوات، مع دفع فائض النصف الذي توقف دفعهُ خمسة في المائة، فقد قررناها في الجنة بالتطويل، ونكتفي الآن بالقول أنهُ لولا ذلك، لما علقنا أملاً بإمكانية إجراء إصلاح ولا بإمكانية التخلص من الأثقال المالية بعد زمان، كما قد تخلصنا منها في الحال. لأنهُ بطول الزمان يعظم الخطاب ويتسع الخرق على الراقع.

وعندنا أن أصعب شيء إنما هو وجود عدد كافٍ من الرجال للقيام بالإصلاح والافتقار إلى المال والمعارف. وخصب الأراضي والصناعة والتجارة أقل ضرراً من الافتقار إلى الرجال، ومع ذلك نود أن نجعل لأمل الفوز بالإصلاح دائرة واسعة خالية من الأكدار والصعوبات، فعلى الله المتكل فهو حسبنا ونعم الوكيل.

واجبات الحكومات(*)

ما من شيء أصعب على الأمم التي لم تنر عقولها بمصابيح المعارف من معرفة حقيقة واجبات الحكومات التي تسوسها إذا كانت مقيدة أو مطلقة، ولذلك كنا نسمع الناس منذ سنين ليست بكثيرة يقولون في بعض البلاد الشرقية ان حاكمك ربك، ظانين أنهم عبيد

(*) مجلة الجنان ١٨٧٥، ص ٥١٣ ـ ٥١٦.

للذين قد وضع الله السلطان السياسي في أيديهم، كما أنهم عبيد الله سبحانهُ وتعالى. غير أنهُ لما أخذ الناس فيها في مطالعة الكتابات الصادرة من مركز السياسة العام عرفوا بها أن مولى البلاد لا يسلم إدارة البلدان إلى الحكام ليتصرفوا فيها كما يشاؤون، ولكنهم إنما تقلدوا زمام الأمور بالإرادة العالية ليمنعوا تعدي بعض الناس عن البعض الآخر، ويرقوا أسباب رفاهيتهم وسعادتهم ونجاحهم مادياً وأدبياً. وسيزداد ذلك وضوحاً بازدياد أنوار المعارف بين الناس بحيث يصبح المسوس يعلم ما هو مطلوب منهُ بالنظر إلى حاكمهِ وابن وطنهِ والغريب المقيم في ديارهِ. وكانت أوربا منذ زمان ليس بمتوغل في القدم تجهل ذلك، حتى بات الضعيف فريسة القوي، والحاكم السلطة المطلقة النافذة في المحكوم حال كون الأمة العربية كانت زاهية زاهرة في رياض العدل والانصاف بخضوع المتسلِط والمتسلَط عليهِ لسلطان الشريعة الغراء، فآمنت الناس بنصوصها واستأمنوا هم بالاستناد إليها ففازوا بالعلوم والمعارف، وارتفعوا في سلالم الآداب والتهذيب، وفتحوا المدن والحصون وتاجروا في مشارق الدنيا ومغاربها وشمالها وجنوبها وصنعوا أفخر المصنوعات وأتقنها، وجمعوا كنوزاً من الثروة وسادوا على أمم كثيرة مقررين لأنفسهم السيادة الأدبية والمادية الناتجة عن السبق في المعارف والعدل، وانتظام الهيئة الاجتماعية كالسيادة التي سادتها أوربا بنفس ذلك السبق في هذا الزمان. ولذلك نقول التقدم يتم للأمة بأن تقوم بما هو مطلوب منها، وبأن تقوم حكومتها أيضاً بواجباتها في إدارة أمورها.

ومن الأمور التي قد كثرت الآراء فيها عند أصحاب المعارف السياسية وأهل المناصب الإدارية في هذا الزمان حدود واجبات الحكومات، وهي تلك الواجبات التي أظهرنا أهميتها العظيمة.. وكان الخلاف في الآراء في زمان سابق واقعاً بخصوص كيفية تنظيم الحكومات وإنشائها، والقواعد والقوانين التي يلزم أن تكون أساساً لانفاذ سلطانها. أما الآن فقد وقع في تحديد الأمور التي ينبغي أن ينفذ ذلك السلطان فيها. ومن المنتظر أن تزداد أهمية الخلاف المذكور.

بواسطة الميل إلى تغيير الحكومات والنظامات والقوانين لتحسين أحوال الأمم. ومن أهل الإصلاح الذين شأنهم إبرام الأمور بدون تأن واعتصام بالصبر الجميل من يظن أن التسلط على الحكومة أسهل من التسلط على عقول الناس وأميالهم وأقرب منهُ، حتى أنهم يجعلون لسلطان الحكومات حدوداً خارجة عن الحدود الصحيحة. وقد تعود الجنس البشري أن يرى الحكام يتداخلون في أمور كثيرة لا تأتي الأمم بالفوائد والمنافع أو في أمور يتوهمونها مما ينفع خطاءً وجهلاً، وأن يروا كثيرين من محبي التقدم الصحيح، منقادين بجهل القواعد الصحيحة إلى طلب غصب الناس بالقوانين للحصول على أمور لا تأتي بفائدة ما لم تقرر بالرأي العام والمفاوضة، حتى أنه قد نمت فيه أي في الجنس البشري روح المضادة لمداخلات الحكومات، والميل إلى حصر أعمالها في أضيق الحدود. وهذه نتيجة ردية ناتجة عن أعمال فاسدة سلبت أركان الناس إلى الحكام. وتختلف مشارب الأمم وأميالها وحالاتها باختلاف تاريخ تقدمها ونجاحها ففي أواسط أوربا يوسعون ميدان أعمال الحكومات وفي إنكلترا يضيقونهُ.

وللحكومات واجبتان فالأولى لا تفصل عن الحكومة فلا تكون الحكومة حكومة ما لم تقم بها. والثانية هي التي قد تقررت عليها بالعرف أو بدون وقوع معارضة، وهي غير الأمور التي قد اعترض على قيام الحكومات بها. فالأولى الواجبات الضرورية أو اللازمة والثانية الاختيارية. على أنه لا يحق لحكومة أن تمتنع عن القيام بالثانية أو أن تقوم بها بحسب رغبتها وظروفها لأنها ملازمة لها وتسميتها بالاختيارية إنما هو اصطلاح يميزها عن الضرورية ليظهر بأن القيام بها ليس بأمر ضروري لا تقوم الهيئة الاجتماعية بدونهِ.

وأكثر الناس لا يعلمون كل الواجبات الضرورية المفروضة على الحكومات، وهي أكثر مما يظهر قبل البحث. وكم من مرة قلنا إن الحكومة للأمة كالشمس للدنيا لها دخل في كل شيء، فإن الحيوة تقوم بعنصر الحرارة. ولا يمكن حصرها كل الحصر بحيث تبيت ضمن حدود واحدة، والذين يحاولون ذلك يحاولون محالاً. ومن الناس من يقول أنهُ

من واجبات الحكومات أن تصون الناس من الاغتصاب والتزوير، وأن تحصر واجباتها في ذلك، بحيث تكون الأمم حرة في أعمالها كلها، خلا الأمرين المذكورين. وأنهُ ما دامت أعمال الإنسان لا تأتي بتعد ولا خداع يضران بالآخرين بأنفسهم وبأملاكهم، لا ينبغي أن تهتم الحكومات والنظامات به. على أنهُ ماذا يجعل الناس يطلبون صيانة حكومتهم وهي قوتهم المجتمعة في مركز معلوم لمنع وقوع التعدي والتزوير، وينقطعون عن طلب حمايتها لمنع حلول أضرار أخرى. وإذا سلمنا بأنهُ لا ينبغي أن تفعل الحكومات غير ما يتعسر على الناس أن يفعلوهُ، ينبغي أن نسلم بأنهُ ربما كان يطلب إليهم بأن يصونوا انفسهم من القوة بحذقهم وشجاعتهم، أو أن يطلبوا الصيانة من الآخرين، أو يشتروها منهم، وهذا جار في الأماكن التي ليس لسطوة حكومة امتداد فيها، فلا تقدر أن تصون الأهالي. ولكل إنسان اقتدار على صيانة نفسهِ من التزوير بما عندهُ من الحذق. ولا يلزم أن نطيل الكلام عن القواعد العامة، فإن ظهور الواقع إنما يكون بتقرير الحوادث والوقائع والأمثلة.

ومن المعلوم أن قوانين الإرث هي لصيانة حق، بل نحسبها من أسباب منع قوة تعدٍ أو تزوير. وهي ما لا تستغني عنهُ الهيئة الاجتماعية. ومن الناس من يقول إن واجبات الحكومة محصورة في انفاذ وصية المتوفي. وهذا مما يعترض عليه. مع أن الأكثر يموتون بدون وصية. فمن المفروض على الحكومة بأن تحكم بواسطة الشرائع أو القوانين بحق الإرث. وإذا كان الوريث قاصراً ألا تعين من يدبر الإرث، وكثيراً ما يعين لذلك قوم من مأموريها. ولا تنحصر إدارة الحكومة للأملاك في ذلك، ولكنها تمتد إلى ظروف أخرى صيانة لصوالح عامة أو خصوصية. ومن ذلك حجز أملاك واقع النزاع عليها وغير ذلك. ولم يقل أحد بأن الحكومة تتعدى حدودها بواسطة القيام بذلك.

وواجبات الحكومات المتعلقة بالأملاك ليست بواجبات سهلة خلافاً للذين يتوهمون بأنها محصورة في صيانة ما يختص بالناس مما

حصلوا عليهِ بالعدل. فإن في الدنيا أملاكاً لا تأتي بثمرة منها نفس الأرض وغاباتها ومياهها والثروة الكثيرة الموجودة في بطن الأرض وفوق سطحها. فهذا إرث للجنس البشري ولا بد من وضع قوانين للتمتع بهِ والهيئة الاجتماعية المنتظمة المتمدنة تفتقر إلى ذلك كل الافتقار.

ومن المقرر أنه من واجبات الحكام بأن تمنع التعدي والتزوير وما من معترض على ذلك، غير أن القيام بالتعهدات لا يتعلق بهِ. فإن عدم القيام بها ليس هو من التزوير فإنهُ ربما كان المتعهد بشيء مصمماً على القيام بهِ، وكذلك إذا تمنع الإنسان عن القيام بهِ عمداً بدون أن يزور أو سهواً أو إهمالاً. فمن واجبات الحكومات أن تنفذ ذلك. ومن الذين يعترضون على توسيع واجبات الحكومات من يقول ان إجبار المتعهدين على القيام بتعهداتهم ليس من باب تنظيم أمور الناس بحسب رغبة الحكومة، ولكنهُ إنفاذ إرادتهم التي قرروها بتعهداتهم. فإذا سلمنا بصحة هذا الإعتراض، نجيب بأن الحكومات لا تحصر إجراآتها في مجرد إنفاذ تعهدات معقودة، ولكنها تحكم بالتعهدات التي يلزم أن تنفذ. لأنهُ لا يكتفي بأن يعقد الإنسان تعهداً بدون أن يخدع أو يجبر على عقده. فإن من التعهدات ما لا يوافق عقدها المصالح العمومية، وإذا قطعنا النظر عن إمكانية عقد تعهدات مخالفة للشرائع والقوانين نرى أن الشرائع والقوانين لا تسلم بعقد بعض البيوع لأسباب متعلقة بصالح المتعهد بالبيع أو بصالح السياسة العامة. ومن ذلك بيع الحر عند الجميع. وبيع الإنسان نفسهُ عن الأكثرية. فإن الشرائع والقوانين لا تسلم بهِ. وأكثر قوانين الأمم لا تسلم بعقد تعهدات للقيام بالفجور أو بعقد تعهدات مخالفة للشرائع والقوانين الموضوعة للزواج. وإذا سلمنا بأنهُ من المفروض على الشرائع والقوانين منع نفوذ بعض تعهدات مراعاة لأسباب مهمة، ينبغي أن نسلم بأن ذلك ربما كان يمس كل التعهدات. فهل ينبغي أن تنفذ القوانين شرطاً معقوداً بين مخدوم وخادمهِ مع وجود غبن في الأجرة من جهة قلتها أو في كثرة ساعات الشغل المعينة. وهكذا يظهر

أن فصل كل خـلاف ناتج عن تعهدات معقودة من متعلقات الشرائع والقوانين. وللقيام بمنع قوة التعدي والتزوير يستخدم ضابطون وجنود وقضاة أو مجالس جنايات للحقوق المدنية، مجالس كمجالس التجارة والبلدية وغيرها. فإن قصاص المتعدي قسم من أعمـال الإدارة العدلية. وفصل الخلاف الحقوقي قسم آخر منها. ومن المعلوم أنهُ كثيراً ما يقع خلاف بين الناس بدون أن يكون أحد المختلفين عارفاً بخطايه[1] فكـل منهما يتوهم أنهُ المحق بواسطة جهل الشرائع والقوانين أو خلاف متعلق بحوادث أو وقائع يتوقف ثبوت الحق على إثباتها شرعياً أو قانونياً. ولا يكون ذلك من الأمور المتعلقة بالحكومة ضرورياً، فإنهُ يمكن فصل الخلاف بتحكيم محكم، يتعهدون بالخضوع لحكمهِ، ويجري ذلك حيث لا توجد المحاكم أو حيث لا يركن إلى المحاكم الموجودة أو يتجنب الناس مصاريفها ومطلها(*) أو قوانينها الغير العادلة المتعلقة بالشهادات. غير أنهُ قد نقرر عمومياً بأنهُ من المصلحة العمومية إنشاء محاكم ومجالس لفصل تلك الدعاوي. وإذا كانت نقائصها تحمل الناس على التقاضي إلى ما يقوم مقامها، لاتكون إمكانية التقاضي إليها أهم أسباب نفوذ ما يقوم مقامها.

ولا تحصر الحكومة إجراءاتها في فصل الدعاوي الواقعة ولكنها تتخذ الاحتياطات اللازمة لمنع وقوع دعاوٍ. فإن قوانين أكثر البلدان قد تقررت حكماً بأمور كثيرة تجري الأمور بموجبهِ لمنع وقوع خلاف. ومن هذا القبيل صور الحجيج والتعهدات، فإنها تكتب بحيث لا يقع خلاف على تفسيرها، وتقوم بحفظ براهين أمور متعلقة بنتائج قانونية بحفظ القيود وقيد الولادات والوفيات وعقد الزواج والوصايا والأحكام. ولم يعترض بأن ذلك خارج عن حدودها.

وإذا فرضنا أننا سلمنا بتوسيع القاعدة المتعلقة بترك الناس ليصونوا مصالحهم وأنهُ لا ينبغي أن تتداخل الحكومة إلّا لصيانتهم من مداخلات الآخرين، لا يصح ذلك إلا عندما يكون الناس قادرين على

---

(١) المقصود خطاه.

(*) يقصد مماطلتها.

القيام بمصالحهم. فيخرج من القاعدة القاصر والمجنون. فمن واجبات القوانين صيانة مصالح القصر والمجانين والمعتوهين. وفي الغالب لا تقوم بذلك بمأموريها ولكنها تعين أقارب أومعارف للقيام بهِ. غير أن واجباتها لا تنتهي بتعيين الوصي، فإنهُ لا يسوغ أن تسلم صالح إنسان لانسان آخر بدون أن تكون مراقبة لهُ بحيث يكون الوصي مسئولًا بعملهِ.

وقد استملت الحكومات في العالم بإرادة الأمم أعمالًا كثيرة ما من شيء يسوغ لها استلامها إلا الراحة العامة التي تنتج عن وجودها في تسليمها ومن ذلك ضرب المصكوكات وقد جعلتهُ من خصوصيتها أي من الأعمال المحصورة فيها وما ذلك إلا لرفع أثقال الوزن عن الناس. ومع ذلك لم يعترض أحد على هذا العمل حتى نفس الذين يحبون أن يضيقوا أعمال الحكومات كل التضييق، وكذلك وضع أوزان ومكيلات مخصوصة وتبليط الأزقة والشوارع وتنظيفها وتنويرها، ويجري ذلك رأساً أو بواسطة البلديات. وأنشى الموانى والفرض والمنارات وتخطيط البلدان لرسم رسوم مضبوطة، وبناء حواجز للبحار والأنهار وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي لم يعترض عليها. وهذا كان ليبين أن واجبات الحكومات لا يمكن تعريفها بجملة واحدة مانعة عامة.

ومن الأمور المفيدة التي يجب أن يقف الجمهور عليها ما يأتي، وهي النتائج التوفيرية المفيدة التي تنتج عن قيام الحكومات بواجباتها الضرورية والمقررة، وإظهار بعض مداخلات الحكومات بما يسمى بالواجبات الإختبارية، وهي مما قد جرى ولا يزال يجري بسبب قواعد وهمية. وفي الواجبات الإختيارية، التي تصيب الحكومات بالقيام بها هذا مع قطع النظر عن القواعد الوهمية، بحيث يكون المعول عليه من القواعد الصحيحة التي هي أساس القوانين التي تنظم بها أعمال البشر. ومن المعلوم أن هذه موضوعات متسعة مهمة لا تستوفي جملة واحدة، ولذلك نكتفي بهذا القدر الآن، تاركين البحث في تلك الأمور إلى سنوح فرص أخرى.

جملة سياسية(*)

مهما أصلح الناس لنا لا يقدرون أن يصلحوا قدر ما نقدر نحن أن نصلح لأنفسنا، ولا سيما بعد أن أصبح في يدنا من السلطان السياسي ما قد أصبح بواسطة نظاماتنا وقوانيننا، فإن أحسنا التصرف بذلك، وإن كان قليلاً نبرهن للعالم بأننا أهل لاستلام الكثير، وإلا فذلك القليل كثير علينا. وهذه قواعد سياسية يعلمها صحيح المعارف والحكم، ويجهلها الذين لا يدركون الأمور وأدلة أحوالنا أعمالنا الماضية والحاضرة، وهي معلومة عندنا وعند الأجانب الذين يرقبون أمورنا. وما من خطا أعظم من خطا معرفة الحقائق الجارية مع جهل أسبابها وعللها. ومن الفطرة أن يلقي الإنسان على عاتق غيره لوماً من الواجب أن يلقى على عاتقهِ. ولذلك نرى أكثرية الأهالي توجه سهام اللوم إلى السياسة العامة، بدون أن تجعل لنفسها حصة ومن المفروض على ذمة كتاب الأمم أن يظهروا لها الحقائق، ليس بحسب أغراضهم وأمالهم، ولكن بحسب الحق والإصابة. ومن الخطأ المبين سلوك سبل التدليس والمداهنة مراعاة لميل الناس الذين يحبون أن تظهر لهم عيوب الآخرين، وأن تكتم عيوبهم، ولا سيما إذا كانوا متوهمين أن تلك العيوب هي عيوب سياستهم. ومن العجب العجاب أن الانسان يرتضي بأن يبيت مخدوعاً ولا يحب أن يمسي ملوماً، ولو كان ذلك اللوم مفيداً لهُ ومن المقرر عندنا جميعاً أن الأحكام المجلسية في نظام الإدارة عندنا هي الأساس الأول للأعمال، وإنهُ باستقامة أحوال مجلس المكان تستقيم أحوالهُ ولا يثبت فيهِ ظلم حاكم أو تغرضهُ مهما كان شديد الميل إلى الظلم والتغرض. وإن ثبت فيهِ نقص، يكون قليلاً جداً، فإن الغلبة تكون للكمال. وانتخاب هذه المجالس منوط بالرؤساء بحسب أهمية الطوائف والرؤساء رؤساؤُنا، وما نعهدهُ منهم مراعاتهم لصوالحنا ومصالحنا إن كانوا من الإسلام أو غيرهم، فعضويات المجالس متعلقة بهم وفي البلديات والتجارة بالأهالي، وهكذا نرى أن

(*) افتتاحية ج ٢١، مجلة الجنان ١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٨٤، ص ٧٢١ ـ ٧٢٣.

إنشاء المجالس متعلق بنا نحن الأهالي بالانتخاب، ولا تكون العضويات دائمة، ولكنها دورية، فإن غلط البعض في انتخاب يصلح الغلط في زمان قصير، ولم يصر الاكتفاء بمنح هذه الحقوق، إن كانت كثيرة أو قليلة، مهمة أو غير مهمة، وعندنا إن أهميتها ظاهرة، ودائرتها واسعة، فإنهُ تقرر في نظام هذه المجالس بأن للرؤساء الروحيين مجالس ممتازة فيها، ولذلك نرى في بعض الأماكن أعضاء منهم دون البعض الآخر. وقد حررنا جملة سياسية بهذا الشأن في السنة الثانية من سني الجنان، ولا نحب أن نعود إلى ذلك، فإن جعلنا شأننا في الانتخابات، إن كانت صادرة منا أو من رؤسائنا ونحن واحد مراعاة الصوالح الافرادية والأغراض الخصوصية، بحيث تمسي مجالسنا ظرفاً لتعيش البعض بعد أن ضاقت بهم ميادين المعاش، أو لإنفاذ أغراض البعض في مناظريهم من أبناء وطنهم، لا يستبد أمرنا ولا تستقيم أحوالنا العمومية ولا الخصوصية، ولا يسوغ أن نلوم سياستنا العامة على ما نراهُ من التقصير في تلك الدوائر، لأننا نحن نكون قد أتينا بهِ، ومن الواجب أن نحمل اللوم، وأن نجعل أتعابنا الناتجة عن ذلك وسائط قاطعة نتعلم بها مجانبة ما قد اختبرناهُ مما لا يوافقنا. ومن المؤكد أن المجلس النشيط الذي يراعي حقوقهُ في الأعمال، ولو بات معزولاً ولا يجري ما يجعلهُ يخاف أن يصر على اجراء ما فيهِ خير لئلا يطالب بما قد حاد فيهِ عن الصراط المستقيم، يمتع أهالي مكانهِ بالسعادة والرفاهية، ويجعل الحقوق نافذة ويصبح غير مجبور بمراعاة الخواطر. فالحصول على رجال شأنهم ذلك الشأن منوط بنا، وأحب الأمور عند دولتنا العلية أن ترى الأحوال جارية في مجاريها لتقرير راحة العباد وراحتها هي بالتخلص من الأتعاب المتواصلة التي تنتج عن تقصيرات الذين يقبضون على أزمّة السلطان المجلسي حال كونهم ليسوا بأهل لذلك. ومن المقرر في عقول أهل الذكاء أن ذلك الإصلاح في الأماكن المحتاجة إليهِ هو تبديل حال موجبة للتشكي بما يعود على أهاليها بالخير والراحة. على أن قطع النظر عن الصعوبات التي تحول دون بلوغ المرغوب لا يكون سليم العاقبة، فإن الشقاق الجاري بين الأهالي

في أماكن ليست بقليلة، مانع لذلك. فالغايات هي المرعية الإجراء عندنا، فنفضل أن نضع في مجلس عضواً لا يليق بهِ، على أن نمكن أحد الذين هم من مناظرينا من الانتظام في سلك عضويتهِ. ومن الإنصاف أن نقول إننا كثيراً ما نرى اجراءات في الأماكن الصغيرة موجبة لخوف المناظر من مناظرهِ غير أنهُ لما كانت الأعمال المجلسية غير متعلقة بواحد بل ببضعة أعضاء كان إنفاذ الغايات محصوراً في الغالب في المجالس التي ليس فيها أعضاءٌ من ذوي الأهلية فيبيت النفوذ في يد أحذقهم، ويمسي الآخرون اسماً بلا جسم. ومن المحقق أن نوايا حضرة صاحب الأبهة والدولة أسعد باشا مشير المعسكر الخامس ووالي ولايتنا الجليلة الأفخم متعلقة بإصلاح هذه الأحوال، غير أنهُ لتقرير الأمنية العمومية في الولاية بعد أن أمست على ما قد أمست عليهِ بتقصيرات ماضية ناتجة عن أسباب متعددة معلومة عند اربابها المحل الأول، ولذلك قد ارتضى بأن يحمل بنفسهِ أتعاب الذهاب إلى مركز الإجراء في ابتداء فصل الشتاء بأمل تقرير الأحوال في زمان قصير والرجوع إلى الاصلاحات التي قد قال إنهُ مصمم على القيام بها. وكل من يعرف ما يجري الآن، يعرف الصعوبات التي لا بد من أن يصادفها غير أن هممهُ علية ونشاطهُ عظيم، ومع ذلك لا بد من أن نقوم نحن بما هو متعلق بنا، لئلا نبقى في أماكن كثيرة على ما كنا عليه، فيكون بقاؤنا معاكسة لجري الاصلاح. ومن أهم الأمور أن نقلع عن المداخلات الخصوصية إجابة لطلب جانٍ أو متعدٍ، لأن ذلك مقصر بالعدل وبالراحة العمومية، ولا يخفى أننا قد ذكرنا أموراً متعلقة بالأمور المذكورة في هذه الجملة، غير أنهُ لا بد من الإعادة مع تغيير قوالب المعاني ليتم التأثير في عقول المطالعين فما أهون المطالعة، ولكن ما أصعب الإجراء، ومع ذلك قد ذقنا من عواقب تقصيراتنا ما هو أصعب من تلك الصعوبة وهذا يسهل علينا ذلك الصعب وإذا لم نتمكن من القيام بالمرغوب دفعة واحدة فمن الاصابة أن نقوم بهِ شيئاً فشيئاً، وبذلك إتمام السعادة والفوز بالمرغوب، وبدون ذلك نسير إلى التأخر في الأطراف وفي الداخلية إلى أن نقع في آفات قد سبقتنا إليها

البلدان التي لم تنتبه إلى اصلاح نفسها فراحتنا في يدنا من هذا القبيل، ومتى تم الحصول على بعضها يتم الحصول عليها كلها. ومتى تم الحصول على ذلك الكل تفتح أبواب الإصلاحات الأخرى ويتم لنا السعد ولا تكون الزراعة آخر أغراضنا، فإنها أساس تقدمنا وينبوع ثروتنا، وبالأمنية التامة تفتح أبواب واسعة للدخول إلى الأراضي المخصبة المتسعة التي لا تزال مقفولة والمأمول أن الاستقبال لا يصادف تكديرات الماضي بسبب الفساد الذي طرأ على حقوق التملك ومنع ألوف أكياس عن أن تسير إلى الداخلية لتزرع أسباب الثروة وتصون الفلاح من مطامع لا تؤثر فيهِ لولا جهلهُ وضعفهُ وتجعل الألف من دخل الخزينة العامرة ألفين، بل أربعة آلاف، فالإدارة الحكمية هي التي تنهج منهجاً يأتي بتلك النتائج. ومن يا ترى من أكابر رجال العالم لا يريد، بل يتمنى أن يكون مصدر تغيير حالة قوم أسكنهم الله أشهر بلاد وأخصبها، فيكتسب الثناءَ الجميل والفضل العميم ولا سيما إذا رأى أعيان الأهالي يكتسبون اعتبارهُ بمساعدتهِ في الحصول على ذلك المرغوب، فيفتح لنا أبواباً نراها ولا نقدر أن ندخلها مع أنه قد حان الزمان اللازم لذلك، وعلى كل حال التوفيق بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل.

جملة سياسية(*)

ما لم يكن للملك ثلثة أركان لا يكون ثابت الدعائم وهي القوة الإدارية والقوة العسكرية والقوة المالية أو رجال ورجال ورجال، فإن تدابيرهم هي التي تمد رباطات الحب والصداقة بين السائس والمسوس، وتحافظ على الصلات الموافقة بين الدولة والدول الأجنبية وتقصيراتهم وتعدياتهم وأغراضهم هي التي تجعل تذمرات الأمم تنمو في حقول البلدان فتنبتُ شوكاً بين سنابل القمح فتضعفها، بل تتركها يابسة إذا طال زمانها ولم تفز بالإصلاحات الموطدة لأركان الصداقة وحب الدولة صيانة لصالح عام إنما يصان باجتماع الرعية حول راية

(*) افتتاحية ج ١٦، مجلة الجنان ١٥ آب/اغسطس ١٨٧٤، ص ٥٤١ ـ ٥٤٣.

الراعي، ولو قادتهم إلى خوض بحار المنايا في سبيل الدفاع عن استقلال وذمار، فهذه هي نتائج القوة الإدارية وينبوعها الذين يقومون بها وهم رجال الأمة وبدونها تتضعضع أحوال الأمم في زمان جعل الله بهِ مصالح الرعية في المحل الأول أو جعلها تدعي بأن لها المكان الأهم لأن الدول لراحة الأهالي فهي العلة، وتلك المعلول. أما القوة العسكرية فهي من الأركان الأولى في الملك، غير أنها نتيجة الركنين الآخرين وهما القوة الإدارية والقوة المالية ولولا أهمية العدد لسقطت كل السقوط من سلك تلك الأركان، لأن القوة الإدارية لا تغفل عن تشييد القوة العسكرية إذا كانت ذات حذق وأمانة جاعلة كل شيء بعد المهام العامة ولا تقام العسكرية ما لم تكن مستندة إلى المالية، فإنها حياتها الطبيعية ووسائط هجومها ودفاعها وما الفائدة من الإدارة والمال إذا لم يكن في البلاد رجال شأنهم بذل أنفسهم في سبيل خدمة مصلحتهم العامة كما يبذل الأصيل جهدهُ لقيام صالحهِ، وليس كما يبذلهُ الوكيل المستأْجر والقوة المالية هي مصدر للقوة العسكرية، وهي روح الاصلاحات العمومية ورفع أثقال مالية مضرة عن عاتق الفلاح والصانع والتاجر فتنمو أسباب الثروة ويكثر المال إلى أن تصير الأمة قادرة على حمل أثقل الأحمال المالية بدون أن تشعر بثقلها لأنهُ باجتماع الثروة الكثيرة يصير وضعها على ما لا يضر بأركان الثروة الثلثة وهي قوة الايجاد وقوة تغيير الهيئة وقوة تغيير الزمان والمكان أو أحدهما دون الآخر. فالإنكليز يحملون أثقالاً مالية كثيرة يعجب الإنسان عندما يراهم يقومون بدفعها، وهم يتقدمون في درجات النجاح والثروة فيجمعون هم وتجمع حكومتهم الملايين حال كون أكثر دول العالم تخسرها، ولولا حكمة رجال سياستها وكتابها الذين بينوا لها أسباب الثروة ورفعوا الأثقال عن حياتها لما فازت ذلك الفوز وغلب جيش الربح فيها جيش الخسائر، وأي غلبة. ولم تكتفِ تلك السياسة برفع الأثقال عن تلك الأركان الثلثة، ولكنها أفرغت جهدها في كل زمان ومكان في سبيل توسيع مبادي التجارة لتمكن الأعمال النامية من مصادفة رواج في الخارج يناسب درجة نموها في الداخل، فجاء ذلك بما قد جاء بهِ وهو

معجزات العصر التاسع عشر في البر والبحر وفي الداخل والخارج، وبناء على ذلك نصيب إذا قلنا إن الرجال هم ينبوع أركان الملك، وهم سبب خرابهِ السريع أو البطيء. فرجال الدولة البوربونية هم الذين قلبوا دولتهم في فرنسا وفي إسبانيا، فإنهم ظلموا واجتهدوا في جمع المال واغتنام اللذات بظلم الأمة وبالتثقيل على أسباب ثروتها حال كونها كانت قد أصبحت عارفة بحقوقها وقادرة على أن تميز بين الإصابة والخطأ من السياسة، فأهاجت تلك الثورة الدموية في فرنسا للتخلص من رجال الدولة البوربونية وإقامة ما يقوم مقامهم قبل الاستعداد الكافي الأدبي والمادي، فجرى ما قد جرى وحدث ذلك في إسبانيا في قرن تابع لقرن الثورة الفرنساوية، على أن ضعف الدولة حجب دماءَ العباد في أول الأمر، ثم أتى الانشقاق والتحزب بما لا تزال إسبانيا تئن من ويلاتهِ وهوانهِ، فتلك آفات جلبها رجال الدولة بسوء سياستهم فنهضت الأمة من تلقاء نفسها بعد أن أشغل كتابها أنفسهم بمصالحها أكثر من قرن، وقلبت ظالميها الذين استخدموا الأمة لمآربهم ومنافعهم ومجدهم ومجد أصدقائهم ومنافعهم ومآربهم. فهذه نتائج سوء سياسة صادفت عقابها في داخليتها بدون اتحاد قوة خارجية، وليست غوائل هذا أقل من سوء عواقب تلك، وأوضح الشواهد أقربها إلينا، فإن ظلم أحمد باشا الملقب بالجزار حمل كثيرين من نفس الإسلام على أن ينضموا إلى الفرنساويين عندما أتوا هذه البلاد وحاربوها، فحسن الإدارة لتوسيع دائرة كل تقدم مادي وأدبي ولإجراء العدل والإنصاف هي أعظم ضمانة لراحة بال الدولة إذا كانت من الأمة أو أجنبية عنها، إذا لم نقل لصيانتها من الانقلاب، لأن الظلم والفقر والذل تضيق صدور الرجال وتجعلهم يقطعون نظرهم عن سوء العواقب. وأردأ أنواع الظلم بعد أن تعرف الأمم حقوقها إنفاذ الأحكام المطلقة، ودوس القوانين التي هي ضمانة صيانة الأعراض والنفوس والأموال. والقانون المكتوب حال كونهِ بدون إجراء أشد تضييقاً على الأهالي من عدم وجود قوانين، فإنهم يعلمون أنهُ من الواجب أن يكون تصرفهم مرضياً لحاكم وليس موافقاً لقانون ويتصرفون تصرفاً موافقاً

للقوانين، وكل هذه القواعد السياسية هي ذات أهمية عظيمة لجميع الدول في كل الأزمان والأماكن، وهي مناسبة في هذا الدهر لأعظم دول العالم وأصغرها. وهي مدار الاصلاحات التي قد شرع فيها حضرة إمبراطور النمسا المصلح الحاذق، وقد جعلها حضرة امبراطور روسيا نصب عينيهِ منذ حرر الفلاحين، وقد أقام بمشروعات نافعة تذهب بالبلاد إلى النتائج الصحيحة، والسياسة التي تليق بأمة عظيمة. ولئن كانت في الحاضر لا تزال الأمة في درجات لها سياسة مخصوصة بها، والمال ركن عظيم، والرجال تأتي بهِ بالزراعة والصناعة والتجارة وأساسها كلها المعارف، فإن إتقانها بها، وبدونها تتأخر إلى أن تصير تأتي بما يقصر عن القيام بأود الزارع نفسهِ بدون أن يفيض شيءٌ عنهُ. وكما أن الثروة لا تأتي إلا بالرجال العارفين الحاذقين، كذلك الرجال لا يقدرون أن يأتوا بها ما لم تمتعهم الإدارة بالأمنية وبالتسهيلات اللازمة رافعة عنهم كل ثقل مضر، وجاعلة ينابيع مداخيل خزينتها ما لا يضر بالثروة العمومية فالإدارة المستقيمة الأحوال هي الأساس الأول، فإنها هي مبدأ المال والعسكرية عند وجود الرجال، ولذلك لا ينظر رجال السياسة أو رجال إدارة التوفير إلى أمة متأخرة أدبياً ومالياً ما لم يلقوا اللوم على عاتق رجال إدارتها في زمان سابق مضى، ولم يمضِ تأثيرهُ أو في زمان حال لا يزال هو وتأثيراتهُ والعياذ بالله. وما من آذان أشد صمماً عن اللوم واستماع النصائح من آذان رجال الإدارة لأنهُ طالما حالت دون مقاصدهم الخيرية ظروف ليس لهم من الاقتدار الإداري والخوف السياسي ما هو كافٍ ليتغلب عليها. وكم من أمة تمرغت في التأخر حتى بلغت سن اليأس، بدون أن تقدر أن تتقدم تقدماً صحيحاً فأتاها الدهر برجل ذي اقتدار سياسي فأنعشها وأرجع إليها من القوة ما بهتت عندما رأتهُ آذان اليأس، كان قد قطع كل حبال أملها، ولا نرى دولة مستبدة الأحوال ما لم تكن هذه القواعد قواعدها، ولا عبرة بما يتبع النصر العظيم من النفوذ والتوفيق إذا كانت السياسة خالية من هذه الأركان والشاهد إنهُ إذا انتصرت ألمانيا انتصاراً آخر على فرنسا كالانتصار الماضي، ولم ترضِ أمتها تحملها

على الاتحاد مع فرنسا لمضادتها، فعظمتها تكون قصيرة الدولة، ما لم تعرض عوارض على نفس الأمة فتجعل قواعدها فاسدة كقواعد دولتها، وهذه تزيد تلك بالقوة العسكرية فيتأخر زمان حصدها لما زرعت من السياسة الفاسدة. وفساد رجال الإدارة يفسد العسكرية ايضاً، حتى ان أعظم جيوش العالم امست ضعيفة بسوء إدارة قوادها، وهي جيوش فرنسا، فإن خلل قوادها وتنصيراتهم ادخل فيها الارتباك، وقصر باعها عن القيام بالأعمال التي كانت تقوم بها في أيام الجمهورية والامبراطورية الأولى. فروح بونابرت المبني على الاستقامة وحب النظام والعدل جعل الجيش الفرنساوي افتك جيوش أوربا واحسنها نظاماً، حتى ان ملوك الأرض كانت ترتجف عند ذكر اسمها، وروح الامبراطورية الثالثة الفاسد لمراعاتهِ العرض من الامور خسرها ذلك الشأن بواسطة تمكين جيوش المانيا من أن تسبقها، فهذه أركان استبداد أحوال الدول والأمم، وإذا ضاقت دائرتها نرى انها اركان استقامة أمور الأفراد، ولذلك لا بد من مراعاتها، ومن لا يراعيها لا يحصد خيراً إلا في ظروف غير اعتيادية لا يعتد بها.

جملة سياسية(*)

من الناس من يظن أن الامم لا تعجز عن إدراك درجات كمال السياسة، ولو كانت في طفولية الآداب والمعارف، إذا كانت حكومتها مستقيمة الأحوال صافية النوايا وشديدة العزم في الاجراء، وفي إنفاذ أحكام العدل والإنصاف، بعيدة عن مراعاة الخواطر والاغراض، وعناصر الرشوة والفساد، وعاملة على جعل القوانين والنظام محوراً لكل حكم وإجراء، واساساً لكل عمل وتدبير، ولم يخطئوا في ظنهم، فإن كل حكومة شأنها ذلك الشأن لا تعجز عن أن تجعل استبداد سياستها بالعدل والانصاف سعادة رعاياها وسلم تقدمهم وتمدنهم، على انهُ لا سبيل إلى ذلك ما لم تكن الحكومة كلها من الملك إلى أصغر الضابطين من أمة قد فازت بذلك الكمال، وسادت بالسيف المادي أو

(*) افتتاحية ج ١٣، مجلة الجنان ١ تموز/يوليو ١٨٧٤، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٥.

الأدبي على الأمة التي تسوسها، فتمكنت من أن تقبض على جميع أزمّة السياسة والإحكام بالتدبير أو بالقوة الغالبة، فلا يكون أدرك كمال السياسة للأمة التي لا تزال في طفولية الآداب والمعارف، ولكنها تكون لأمة قد منحها الله بركات المعرفة وقوة الانتصار للحق والعدل، وهذه قاعدة يسهل على كل أمة أن تدركها، فتعرف هل من الممكن أن تتمتع بسياسة مستقيمة وإحكام منصفة حال كون عنان الإدارة وزمام الحكم في يديها أو في يدها ويد أمة أخرى ضُمت إليها برباطات الدين والعادات والجيرة واتفاق الصوالح، أو بإحداها بعد فتح أو بعد اتحاد، فامستا في ظرف واحدة أو متقاربة من جهة الأدبيات والماديات والصوالح. ومن المعلوم أن بلوغ درجة الكمال في شيء في العالم ضرب من المحال، غير أنهُ شتان بين الذين قربهم من الكمال أقرب من قربهم إلى النقصان التام، والذين بعدهم عن ذلك النقصان أقصر من بعدهم عن الكمال. فالتفاوت أساس الحكم في ذلك. ومن المؤكد أن جميع الأمم باتت تعلم أنها محتاجة إلى الإصلاح فترى بعضها في شاغل من جهة نظاماتها الأساسية، وبعضها من جهة قوانينها، وبعضها من جهة ماليتها. وقطع أسباب الفساد من السائس والمسوس بقوانين جديدة يظهر لزومها عند ظهور الفساد الناشىء عن الاحتياج إليها، وما نحن غير أمة من أمم العالم، ويا حبذا لو كان يسوغ لنا أن نفاخر كل أمم أوربا عوضاً عن أن نحتمل أثقال مفاخرة بعضها لنا وسلواننا في أننا لم نجلب ما نحن عليهِ من النقص والتأخر على أنفسنا، بل قد جلبتهُ علينا هجمات خارجية لم تقدر الدولة الرومانية مع عظمتها واتساعها أن تثبت في نزال مثلها، على أن ذلك السلوان لا يغير الواقع، ولئن كان يرفع بعض العار وبعد معرفة تلك الحقائق لا بد من أحد أمرين وهما إما تعليق الأمل بإصلاح حالنا، وإما قطع حبالهِ التي إنما هي سعادة البشر، فمن أعقل الناس من يقول إنهُ لا أملَ بهِ، ومنهم من يقول لا بل أمل نوالهِ وطيد، غير أنهُ كالياس بالنظر إلى أهل هذا الزمان، فإن فاز بالحصول عليهِ أولادهم أو حَفَدتهم يكونون قد أدركوا ما لا يظن كثيرون بأنهم سيفوزون بهِ. ومن المعلوم أن أصحاب الأمل

الوطيد أقرب من الصواب من الذين قد قطعوا أملهم والعياذ بالله فإن قطع الأمل من نجاح عام يتمتع الجميع بهِ يجعل الإنسان يعول على مراعاة صالح طفيف مختص بهِ، ولو داس أعظم صالح عام، فمرور أعظم أمم أوربا استقامة في ما أصبحنا نمر بهِ، ونوالها ما قد نالت بعد قطعهِ برهان وجوب توطيد الأمل المذكور والاعتصام بالصبر الجميل، فإن بُعد النوال أقرب من المنتظر من قربهِ، على أنهُ لا يليق بنا ما دمنا أمة عالمة بنقصها أن لا نتمتع بلذة ترقية أسباب الإصلاح، ولو بما هو قدر البعوضة بالنسبة إلى الفيل. فإن لذة العاقل إنما تكون بقيامهِ بواجباتهِ المناسبة لعقلهِ بأمل نوال المآرب. وبالنظر إلى هذه الحقائق لا نرى بداً من البحث في أشد الأمور احتياجاً إلى الإصلاح، بعد أن انشأت لنا حكومتنا نظامات كثيرة هي ينبوع كل التقدم والنجاح، فإنها لم تحصر مداخلتها في ما يتعلق كل التعلق بالحكومة، ولكنها وضعت نظاماً لمجالس المعارف والبلدية والإعانة والزراعة والنافعة والتحسينات والصناعة وغيرها، كما وضعت نظاماً لمجالس تمييز الحقوق وإدارة الأحكام، وهكذا قد رأينا أن مركزنا السياسي لم يخف من اقتحام جميع تلك الأمور بكتابة نظامات لها حال كونهِ منذ برهة قصيرة كان لا يهتم بشيء منها، ولو تيسر جري كلما قرر كتابة، لكان الإصلاح عظيماً غير أن نفس الحكومة تعلم أن ما لم يجرِ حق الإجراء منهُ هو أكثر مما قد أُجري، وهذا موجب للأسف على أنهُ لو كانت الحال على غير ذلك لكانت على غير المنتظر بالنظر إلى ظروف الأمة. فتقصيرات الإدارة السياسة والأدبية وغيرهما عندنا ناتجة عن تقصيرات المجالس التي قد انشأتها حكومتنا لخيرنا ولرفاهيتنا وسعادتنا. فإن كل شيء متعلق بها. فبعضها يستحق المكافأة وبعضها شرّ العقاب، فعلة الفساد فساد الأعضاء. ومع أنهُ من المعلوم أن بعضهم يستحقون بالفعل الثناء والمكافأة، منهم من يستحق الأغلال والسجون وخسارة مركزهم الأدبي واعتبارهم، ومن يا ترى قد مكنهم من الوصول إلى مراكز العضوية وهم على تلك الحال أليس رؤساؤنا وأعياننا حتى أنهم كثيراً ما يضادون الحكام لتثبيت أعضاء يستحقون

العقاب، فكل الأعمال في أيدي المجالس، وكل التقصير من التي تقصر منها. وإذا اتحدت معها الضابطة يتم نحس العباد، وعوضاً عن استجلاب الدعوات الخيرية تكثر التذمرات والتشكيات. ولا يلزم أن نطيل الكلام في وصف الحالة الموجبة للأسف، فإن تبيين وسائط اصلاح ذلك أهم فنقول إنهُ ما دام يسمح للأعضاء أن يثبتوا في مراكزهم العضوية أكثر من المدة القانونية وهي سنتين بتجديد الانتخاب، أو باهمال إقامة انتخاب، لا تستقيم الحال. وكذلك إذا جعل المنتخبون غايتهم إقامة أعضاء ينقادون إليهم. ومن أوفق الأمور أن يكون الانتخاب محصوراً في الذين يدفعون مبلغاً محدوداً من الأموال الأميرية عن عقارات، وأن ينفذ النظام المقرر وهو أن لا ينتظم في العضوية من أفلس إفلاساً قانونياً أو غير قانوني، أي أن إفلاسهُ لم يدخل المجلس بل صرف بالمساواة، ولا من حكم عليهِ بقصاص لجناية ومن أعظم أسباب التأسف والخلل عدم مراعاة ما هو مقرر في النظام، فترى في بعض المجالس مفلسين، حتى أنهُ قد قيل أنهُ قد انتظم في عضوية بعضها من حكم عليهِ بجناية، ولا نسلم بصحة ما يقال، من أنهُ ما لم ترفع الحكومة شأن المجالس لا يدخلها أهل الاعتبار، فإن رفع شأنها إنما يكون بالأعضاء، وأعمال الحاكم مقيدة بها، فإذا كانت كلها ذات أعضاء منّ أهل اللياقة تعضد مجالس المتصرفيات مجالس القضاوات، ومجالس الولايات مجالس المتصرفيات، فيجري العدل. وعند ذلك يصير الأعضاء يحسبون المداخلة في الدعاوي بتكلم أصحابها أو غيرهم معهم على انفراد خارج المجلس أو داخلهُ إهانة لهم. والجاري الآن في أكثر الأماكن هو مضاد لذلك حتى أنهُ قد قال رئيس مجلس لنا أنهُ من جرى كثرة المداخلات في دعوى من جهة كل من الخصمين قد عزمت على المطاولة في الدعوى، ولم يتأخر عن الدوس على حق لمراعاة الذين تراعى خواطرهم. ومن جرى المداخلات والفساد لا يرسل عـرضحال ضد أفسد المأمورين أو الأعضاء، ما لم يرسل ضدهُ عـرضحال ، حتى أن كثيرين من الذين يمضون الواحد يمضون الآخر. وقد نتج من هذه التقريرات أنهُ لا بد من تعميم المعارف

بين العامة تعميماً ينشطها، ويرفع الخوف الشديد الغير المرتب من الحكام من قلوبها. والثاني نشر النظامات والقوانين ومبادرة الأهالي إلى التشكي من التعدي عليها بالاتحاد والاتفاق، فنصف اللوم يجب أن يلحق برؤسائنا وأعياننا من جميع الطوائف، بل أكثر من نصفهِ، وقد وقعت بعض دول العالم العظيمة المتمدنة جداً في نفس ما نحن فيهِ من جرى فساد الانتخاب، حتى دخل الفساد حيث لم يكن يخطر لنا ببال أنهُ يدخلهُ، وهي الأمة الأمركانية، فإن أهل السطوة والنفوذ ينتخبون لمجالس الولايات ولنفس المجلس العالي بنفوذ كلماتهم في الأهالي أعضاء شأنهم تنفيذ غاياتهم وصوالحهم بدون مراعاة العدل والانصاف غير أننا لا نخاف على أمة عظيمة كالأمة الأمركانية فإنها لا تعيق إصلاحها لذلك بعد معرفتهِ، أما نحن فنعرف آفتنا ونتذمر من غيرها.

جملة سياسية(*)

للسياسة نوافذ يرى أهلها منها في الحال فجر الاستقبال ما لم يعمِ قتام الجهل أعينهم أو تظلم أيادي الظلم حالهم، فيسار بهم وهم على غير هدى في سالك الحاضر فيفتحون أعينهم ليروا حالهم وفجر مستقبلهم بنتائج أعمال الذين يسوسونهم، ولكن اضطراب الأعمال وعدم انتظام تلك النتائج يسدل ستاراً أسود بينهم وبين الغاية، فيرجعون بخفي حنين وما من شيء يشغل أفكار الشرقيين أكثر من الاهتمام بمستقبلهم لأنهم أولو نشاط وإقدام، فيخافون مرور الزمان عليهم بدون أن يفوزوا بالتقدم، بل يخافون فقدان مركزهم الحالي فتراهم في شاغل دائم فيضعون همومهم السياسية على عاتقهم العملي، فيبيت لها تأثير في أقوالهم وأعمالهم. ولعل الزمان الماضي هو ينبوع هذه الحال وأسبق معارفهم المكتسبة بالاختبار أو بملاحظة أحوال الآخرين هي مصدر ذلك التأثير. وعلى كل حال لا نلومهم، ولا يحق للذين في أيديهم زمام السياسة أن يلوموهم إذا ظهر فيهم من

(*) افتتاحية ج ١١، مجلة الجنان ١ حزيران/يونيو ١٨٧٤، ص ٣٦١، ٣٦٢.

القلق ما يظهر في قوم يرون الضعف ويعلمون وجوب المداواة، ولكنهم لا يعلمون علة الداء ولذلك لا يقدرون أن يعرفوا أوصاف دوائهِ، ولو رأوا من ثبات السياسة العمومية في أوربا كلها، والخصوصية في بلادهم، ما يكشف لهم عن مستقبل واضح يبشرهم بخير قريب أو يكون واسطة لتشآمهم بشرٍّ لا يزال مخفياً، لجعلوا اجراآتهم الحالية تسير في سبل موافقة للتمتع بذلك الخير، أو لاحتمال ذلك الشر. فكما أن الفرنساوي أمسى لا يعرف مستقبلهُ من جهة سياستهِ، كذلك الشرقي، غير أننا بعيدون عن الأسباب التي يخافونها وما رأيناهُ في البلاد الفرنساوية من تغيير الحكومات والوزارات منذ قلب الامبراطورية قد رأيناهُ، بل رأينا أكثر منهُ في وزارتنا على أن أساسنا الملكي الأول متين ولا يمس، فشأننا شأن الانكليز في ذلك، فإننا متفقون على المبدأ الأصلي، فإن جاء بالتغييرات عندما تأتي بالنفع أو عندما لا تأتي بهِ، لا نخاف وقوع ما يسلب الراحة العمومية، ومع أننا نود أن نفوز بثبات الحال، لا نمس أمراً لا نعلم أسبابهُ فإن الجاهل يحكم على أعمال الآخرين بالاصابة أو بالخطأ، بدون أن يعرف أسبابها وعللها وغاياتها والظروف التي ساقت أصحابها إليها وما دام النظام متين الدعائم ومرعي الاجراء في كل حال، لا نبالي بالذين يسلم إليهم تنفيذهُ، ولذلك ترى أهالي الولايات يتمنون ثبات مأمور أولي أو ثانوي أو ثالثي، أو يتمنون انفصالهُ لمراعاتهِ للنظام، أو لنقضهِ إياهُ ومراعاتهِ لأميالهِ وأغراضهِ. وما دامت أكثر مجالسنا، ولا سيما في الأماكن القليلة التقدم إناء ينضح بما يملأه المأمور الأول المحلي بهِ، أو بما تصبهُ فيهِ وسائط المتحاكمين من الوسائط المعلومة بسبب انشقاقنا نحن الأهالي وغاياتنا، أو بسبب مناسبة ذلك للمأمور محافظة على انفاذ غاياتهِ، لا سبيل إلى عدم الاهتمام بصفات المأمورين الأولين، ولا إلى أن نكون بمعزل عنهم، مكتفين بالنظام الموضوع ومستندين إلى حب الحق المغروس في الذين يسلم الانصاف إلى أيديهم، لأن حالتنا لا تسمح لنا بأن نكون على تلك الحال بالنظر إلى بعض الذين قد سلم انفاذ النظام إلى أيديهم بتنحي الذين لا يحبون حمل أثقال خدمة عامة مدة

ولو كانت قصيرة، أو بخوفهم من أن تكون أعمالهم، بل ضمائرهم وذمتهم مقيدة بأغلال سلطان المأمور الأول وصعوبة الفوز بإجراء العدل. أما من جرى الافتقار إلى إجماع الرأي والاتحاد وإما إلى الإصغاء الكافي في الدوائر الاستئنافية، فإنهُ قد قيل إنهُ ربما كان متصرفاً يسد أذنيهِ عن استماع صوت مجلس أو مجلسين للإصغاء إلى ما يميل قلبهُ لغرضهِ إلى استماعهِ من مأمور كالقائمقام، أو المدير، فهذه الحقائق، وربما كانت أوهاماً والحكم العام لا يصح لاختلافها باختلاف الأماكن، هي موت حيوة روح العدل وخراب عمران النظام في بعض الأماكن. وقد اتسع الخرق على الراقع في بعض الظروف، فبات الأهالي في يأس من جهة الإصلاح، وأخذوا يقولون إنه لا أمل بهِ ولا سبيل إلى الوصول إليهِ. ومع أننا ننكر عليهم ذلك كل الإنكار، وعلى الخصوص بعد مقابلة الحال بما قد مضى، نسلم لهم بهِ لمجاراة أفكارهم واستخدام واسطة أخرى لإظهار الواقع. ولذلك نقول إنهُ لا بد من أحد أمرين وهما إما احتمال بنقائص السياسة لوجود نفس ذلك النقص في المسوس، وإما اصلاحها باصطلاح الأمة التي تؤخذ الحكام منها إن كانت الرعية والراعي من جنس واحد أو كانوا مختلفي الأجناس. وهذه قاعدة تاريخية صحيحة من شأنها أن تصبر على الزمان، غير أنهُ لا بد من نفوذها ولو طال اصطبارها، ولو لم تكن السياسة لطيفة البدن وضيقة الروح، وعلى الخصوص في هذا الزمان فلا تمس إلا بالمداراة وبالاعتناء لئلا يخدش القلم بدنها الناعم لبسطنا الكلام في سبل متعلقة بإظهار الطرق الموصلة إلى المرغوب. ولا بد من الابتعاد عن تجاوز حدود الاعتدال في الآراء والأفكار، فلا ينبغي أن نرى كل شيء عندنا قبيحاً، ولا أن نراهُ كلهُ مليحاً، فإننا كسائر الأمم حاصلون على قبيح وعلى مليح، والذين يفوقوننا قليلون بالنسبة إلى الذين هم مثلنا، والذين هم دوننا، فالعالم في مخاض في هذا العصر، وفيهِ قسم من مخاض فرنسا في أواخر القرن الماضي، ولا نعلم النهاية فأهل الدين يقولون ان نهاية الفوز لهم، والمضادون لهم يقولون لا بل إن الفوز لهم هم، ومع أن هذه الأمور بعيدة عنا لها علاقة عظيمة بنا،

وبالتالي لها تأثير ومن المستغرب أنها تؤثر فينا إذا قبلنا تأثيرها أو لم نقبلهُ، أي إذا ترحبنا به أو قاومناهُ. ولنا على ذلك براهين يراها كل ذي عينين، بل كل ذي عين. ولا يخفى أننا قد خضنا في موضوع واسع، ولذلك اكتفينا بوضع مباديه ومجانبة بعض تفاصيلهِ، ليس مراعاة للسياسة، ولكن مراعاة للمسوس، فإن نفس مولانا الأعظم قد قال منذ سنين بخصوص الحكومة كلاماً قد اكتفت الأمة بهِ وأصبحت تنتظر نفوذهُ بالفعل، فإن حضرته الشاهانية قد بينت لزوم الاصلاح وأمرت بهِ، فماذا ينتظر يا ترى بعد ذلك غير الاجراء، وهذا هو موضوع بحث الأمة وانتظاراتها إن طال زمانها أو قصر، والفوز بنا فإن المثل السائر عند الانكليز صوت الشعب صوت الله فما تلهج بهِ ألسنتنا الآن سيصير حقيقة، ولو كان في ابتدائهِ وهماً.

جملة سياسية(*)

من صغار الأمور تتولد كبارها وللصغائر تأثير عظيم في الأمم إذا كثـر وقوعها فينتج عن مجموعها أمر كبير وكما أن خزينة الدولة تملأ باجتماع دراهم كثيرة فتذمر الأهالي من حكومتهم إنما هو نتيجة تعديات ربما كانت الحكومة لا تكترث بها لقلة الأهمية فتجعل كل عنايتها مصروفة في الاعتناء بعظام الأمور، مع أن صغارها تأتي بعظامها وبإطالة زمان وقوع تلك التعديات تعظم جراحها، فيكثر التذمر منها ويغرس في قلوب الأهالي بغض حكومتهم، ولو عرفوا أن من مصلحتهم المحافظة عليها فيبيتون لا ينقادون إليها إلا على كره، ولا يرون في نظاماتها وإجراآتها غير دوس حقوقهم وسلب أموالهم والتضييق على حريتهم، ولا سيما إذا كانوا أمة لم يزل في ربوعها من آثار ظلم الحاكم ما تعن بها لهُ مخالب سياسة رعت الرعية لتذبحها وتغتذي بلحمها، وليس لتحافظ لها على حقوقها لتنتفع بها وتهبها ما يلزمها وهي تقوم بالرعاية، فحالة الشرق لا تبعد عن ذلك حتى في نفس هذه الأيام، فإن كثيرين من الأهالي لا يقدرون أن يصدقوا بأن حكومتنا

(*) افتتاحية ج ٩، مجلة الجنان، ١ أيار/مايو ١٨٧٤، ص ٢٨٩ ـ ٢٩١.

تقدر أن تفعل شيئاً مراعاة لمصلحة الرعية، وأن في كل ما نراهُ من اجرااتها مقاصد فيها ضرر للأمة وصالح للدولة، وإن تعسر عليهم أن. يروا تلك المقاصد يحكمون بأنها خفية، فإن حيل السياسة وخداعها سترتها بقناع سميك لا يزحزح عنها إلا بمرور الأزمان، ولو كانت هذه الأحوال لا تأتي بأضرار كثيرة مؤخرة لتقدم الأمة، ومضعفة لأركان الدولة، لصرفنا النظر عنها وتركناها تجري بدون أن ننبه الذين هم في وسط بحار السياسة بدون أن يعرفوا أين هم منها، ولا نسبتها إليهم ولا نسبتهم إليها، ظانين أن الدولة لتسود وتتعظم وتتمتع بالمجد، والرعية لتطيع وتتذمر، وهذا إفساد صحة السياسة، فإنها للمحافظة على الحقوق في أرض وللارتقاء بها في سلم التمدن والتقدم أدبياً ومادياً وما نسمعهُ من الكلام الإجمالي عن النوايا الخيرية وغير ذلك إنما يزيد تذمر المتذمرين، ولذلك من الواجب بسط الأمور فيحكم المطالع لنفسهِ بالعدل، هذا إذا أصبح قادراً أن يجرد نفسهُ عن الميل بالغرض والايتلاف إلى ما تقرر في عقلهِ منذ نعومة أظفاره، ولا سبيل إلى إقناع العاقل المنصف ما لم تسلم لهُ بما يجب أن تسلم لهُ به من النقص المتعلق بك، أو بالذين تدافع عنهم، فيسلم لك بما يتعلق بهِ، وبناءً على ذلك نقول إن المغايرات التي نراها في بعض الولايات وفي بعض المتصرفيات أو القائمقاميات، أو المديريات في بعض الأحيان بواسطة حدة الحاكم أو فساد العدل فيه، بالذهب أو تعصبه، أو بواسطة فساد المجالس وتغرضها، أو المأمورين والكتّاب، لا تدل على أن الدولة المركزية الكائنة في العاصمة لا تحب استتمام الراحة الحقوقية في البلاد المسلمة إليها بأمر صاحبها، مع أن تعدي ضابطي واحد حدود العدل في معاملة إنسان، بل إجراءهُ العدل بالصرامة والتجرد عن الملاطفة تغرس في قلب ذلك الإنسان غالباً بغض دولة برمتها في بلاد ظروفها كظروف بلادنا، وكذلك إذا تعدى والٍ أو حاكم آخر على النظام وقاصٍ من لم تظهر برارتهُ بدون نظام، يغرس كره الحكومة في قلوب أهل ولاية أو متصرفية أو قائمقامية، إذ يتقرر عندهم أن الدولة أخذت في أن تدوس النظام. ومن المعلوم أنهُ ما من أمنية على ناموس أو دم

أو مال إلا بقوة النظام والقوانين، فإنها حصون الحقوق، ولا يخفى أنهُ لا يسوغ أن نأخذ الكل بجريرة البعض. والاستدلال على ظلم الدولة بظلم بعض حكامها هو كالاستدلال على نفاق أمة بنفاق بعضها. وما من دولة أشد محبة لخير الرعية من الدولة الإيطاليانية، وعلى الخصوص حضرة ملكها الحالي، وكذلك حضرة إمبراطور النمسا، ومع ذلك قد حكمت طوارق الحدثان بأن لا تكون ماليتهما ومالية أكثر دول العالم في يسر، ولا يدل ذلك على أنهما لا يهتمان بمصلحة الرعية، وكذلك نحن فعسر ماليتنا هو نتيجة ستة أمور الأول إنشاء قوة بحرية مدرعة من الرتبة الثانية في أوربا. والثاني إنشاء حصون وتكثير الجيش وابتياع مدافع وبنادق وغيرها من الأسلحة من الاختراع الجديد. والثالث إنشاء طرق حديدية. والرابع القيام بإخماد ثورة جبل الأسود وإكريت وحملة اليمن. والخامس الاستقراض بدون إيجاد وسائط فعالة مالية لايفاء الفائض سنة فسنة فاجتمع الفائض على الأصل. والسادس الإسراف، وهذا هو قليل بالنظر إلى المصاريف السابقة وتكوير الفائض. فوقوعنا في هذه المصيبة المالية التي لا تعجز بلادنا عن حملها إذا كانت الحكمة مصدر إدارتها، كوقوع أكثر دول العالم فيها، لا يدل على أن الحكومة لا تعتني بمصلحة الأمة، ويا حبذا لو لم تتمنع عن زيادة الأموال المطلوبة منا منذ ست سنوات أو أكثر، لأن زيادة قليلة في ذلك الحين كانت كافية للقيام بمصاريف الدي، ولعل في ذلك خيراً فإنه كلما اشتدت المصيبة تتسع دائرة الاختبار، فلا يعود الإنسان إلى ما كان يكاد لا يؤمل بالخروج منهُ. ومن أعظم أسباب سريان الآراء الغير المصيبة في الأمة الشرقية دخول آراء أجنبية بدون دخول أساسها معها، فترى الإنسان يقول من الواجب أن يكون ذلك كذا وكذا، فإذا طلبت إليه إظهار العلل والأسباب تفحمهُ ومع ذلك لا نرفع اللوم الذي طالما وضعتهُ عمد الجنان على أكتاف أولئك المأمورين والمجالس، الذين يضرون بالدولة وهي ولية نعمتهم، وبالأمة وهي ينبوع خيراتهم، ببيع الحق بالرشوة المعيبة، أو بالغرض، فيجلبون عاراً على أنفسهم وعلى بلادهم، لانهم منها، وعلى دولتهم لأنهم مأموروها. فالحلم في

معاملة المأمورين كالصرامة في معاملة الرعايا، إذا كانوا شرقيين. وهذا الحلم هو آفة الحق، فإنهُ لا ينفذ العدل في مأمورظالم إلا بعد أن ينفذ الظلم في كثيرين، ولا يبدل مجلس قد تمرغ في وحول العار والدناءة بالرشوة إلا بعد أن يبدل الإنصاف بالظلم بدلاً يأتي بتذمرات لا تمحا بسنة وسنتين فهذه الأمور إنما تجري في بعض الأماكن إلى أن تبلغ مسامع أولياء الأمور، وبالتكرار تطرد الحلم وتأتي بالعدل. ولو كانت الأمة على غير ما هي عليهِ أكثر المجالس، لكان التذمر أوسع دائرة وأردأ نتيجة. ومع ذلك لا ينظر الإنسان عيب نفسهِ، مع أنهُ يرى أقل عيب في غيرهِ، وعلى الخصوص في حكومتهِ، فكيف لا نرى النقص في الأماكن التي نسمع كل يوم أولياء أمورنا يتذمرون منهُ ويتوعدونهُ، وكيف لا نشترك معهم في التذمر والتشكي. ومع أننا نعلم أن دواعي الإصلاح كثيرة قد رأينا من التقدم في أقل من أربعين سنة ما قد أدهشنا، وما نحتملهُ من فساد بعض المجالس وبعض المأمورين لا ينقطع كل الإنقطاع ما دام الإنسان إنساناً ولكنهُ لا بد من أن يقل بالاعتناء الواجب. ولا نتجنب إعادة ما طالما قلناهُ من أن في نظام المحاكمات عندنا نقصاً عظيماً ولا بد من سده، وقد طال الزمان عليه، وكذلك في معاملات الضابطة، فإن كثيرين لا يطيقون أن يسمعوا كلامهم. وبالحقيقة إن كلام بعضهم لا يطاق، ولذلك لا بد من حصر تبليغاتهم بأوراق مكتوبة، ووضع الجزاء النقدي على إهمال طاعتها، ومن الواجب أن يبتدأ بذلك الآن بالانقطاع عن طلب أهل الحيثية إلا بأوراق فيها تبيين أسباب الطلب. ومن المؤكد أن الحكومة ترغب في تقدم البلاد، فما نراهُ من مشروعاتها كالطرق والمدارس والمعامل وإلغاء الرسومات الداخلية وغير ذلك في ولاية أخرى برهان صحة كلامنا، على أن إقناع السوري الذي لا يرى طريقاً تستحق الذكر قائمة بعناية الحكومة في سورية، مع أنهُ قد صار الإبتداءُ بنحو مئة طريق، وتحميل الأهالي أثقال تمهيد بعضها ومصاريفها، ثم تركها، هو من أصعب الأمور. وعندنا أنهُ يحق للأهالي عند النظر إلى أمور كهذه الأمور أن يرتابوا في صحة المقاصد، نظراً إلى جهل العامة، وعدم

معرفتها أن أسباب ذلك إنما هي الحكام المحليون دون الدولة المركزية المسئولة، فتغيير الآراء والمعارف تجر الحكام إلى التغيير على غير رضاهم، فكيف لا يتغيرون هم والمجالس، إذا كانت سياسة الحكومة المركزية قائمة بالإصلاح بالتغيير.

جملة سياسية(*)

عندما تفتح الأمة أعينها في نور المساواة والحرية والحقوق، بعد أن تكون قد جهرت في ظلام طويل يبهر ذلك النور أعينها فتستصغر الكبير وتستكبر الصغير، وعلى الخصوص إذا انتقلت من حال إلى حال في زمان دولة واحدة، وكانت ظروف الأحوال تستدعيها إلى التظاهر بما ربما كان لا يناسب تلك الأنوار إرضاءً لآثار أزمنة هي بدلتها إن صواباً وإن خطأً، فإن المسوس لا يركن إلى سائسه الذي يلتزم أن ينفذ سياستهُ بدون أن يظهر مقاصدهُ وغاياتهِ، فإن رأى أقل شيء يتوهمهُ بلية منحدرة إلى الأمة لسلب راحتها وتضعيف قوتها بحيث تصير تساق إلى ما يوافقها أو ما لا يوافقها بدون أن تعارض ولو بالكلام، وعلى الخصوص متى رأت الرعية أن المطاليب المالية قد أخذت في الازدياد مع أن مراعاة الظروف الجارية تحملنا على أن ننصف في الحكم، لأنهُ لو كانت هذه الضيقات المالية محصورة فينا لما حاولنا الاعتذار عن حالتنا، وهذا لا يرفع اللوم عن الذين في أيديهم أزمة الأمور إذا لم يجدوا واسطة للخلاص من آفاتِه خلاصاً دائماً خالياً من الترقيع المؤقت الذي طالما أتى باتساع الخرق وطرحنا في ضيقنا الحالي، وجعل رجال دولتنا مشتغلين في حال العربسات وفك العرقلات التي لولا الاكتفاء بالترقيع لما وقعنا فيها، مع أنهُ لولا ذلك لفازت الإصلاحات التي لا بد منها في زمان قد وصلت إليه البلاد، ولا سيما في المدن إلى ما قد وصلت إليهِ، فإن ما أصبحنا نعرفهُ عن الحقوق والسياسة ونسبتنا إلى العالم، ونسبة العالم إلينا، وكيفية حفظ مركزنا، كان مكتوماً عنا بظلام الجهل والغباوة، فإن توهم الحاكم بأن التبعة

(*) افتتاحية ج ٨، مجلة الجنان ١٥ نيسان/ابريل ١٨٧٤، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥.

ترتضي منهُ الآن بما كانت ترتضي من سلفائهِ منذ ثلثين سنة، يرتكب غلطاً سياسياً ما في عواقبهِ غير السوء والخلل، وهذا مع مقتضيات العصر هو المحرك الذي حمل الدولة العلية على إنشاء ما أنشأت من النظامات والمجالس والدوائر، فكل مجلس أو محكمة إنما وضعت للعدل، فإن حادت عنهُ تفسد المقصود الأصلي من وضعها، وهذا هو عندنا كما هو عند غيرنا من أمم أوربا، فإن من المحاكم والمجالس في كل الدنيا من يعدل وينصف، ومنها من يظلم ويتعصب، ولذلك من واجبات كل دولة أن تجتهد في سبيل قطع الفساد بالوسائط الفعالة في بلادها وإهمال ذلك لا يستحق غض النظر، وإذا وقفنا على أفكار الوكلاء الفخام نرى أنهم لا يعذرون والياً ولا متصرفاً ولا قائمقاماً إذا كان من أهل الإستقامة، ورأى الفساد يجري حولهُ بدون أن يبادر إلى قطعهِ، ولو كانت المعارف عمومية هنا كما هي في بلدان أوربا الأولية بالنظر إلى التمدن، وليس إلى القوة، لكان الدواء الشافي إبطال المجالس الدائمة وإقامة قضاة للمحاكم، وجعل الحكم في يد قوم ينتخبون بموجب نظام مناسب للنظر في دعوى واحدة. وهكذا يقام لكل دعوى مجلس، والقاضي لملاحظة الأوراق وإبداء رأيه الموافق للقانون، والحكم لأولئك المنتخبين، غير أن هذا لا يناسبنا ولذلك لا بد من المحافظة على مجالسنا ومحاكمنا على ما هي عليهِ، وإصلاح نظامها إصلاحاً قد بلغنا أن الدولة العلية قد شرعت في البحث فيه، وصممت على إنفاذهِ. ولا يخفى أن من أهم الأمور ترتيب الأوراق في المجالس، ووضع جزاء نقدي على كل دعوى ترى بدون مراعاة العدد الترتيبي، وجعل كل الأعمال إن كانت مختصة بالمجلس أو بالمدعي أو بالحكومة الإجرائية مكتوبة، فلا بد من تبليغ عرض حال المدعي بواسطة المجلس، وتبليغ الجواب ثم طلب المدعي تعيين يوم للمحاكمة، ثم تبليغ ذلك مع تعيين زمان المحاكمة، وجميع ذلك بأوراق مرتبة ذات أعداد ووصولات من المتنازعين، وكل ورقة بدون وصل لا ينبغي أن تعتبر مبلغة ولا أحكامها نافذة، ومن أنهُ عند فتح المحاكمة يكون مسوغاً كل يوم للمتحاكمين أن يأخذا صورة مثبتة من تقريراتهما، وأن

يكونا غير ملزومين بأن يجيبا على شيء ما لم يكن مكتوباً في لائحة الدعوى المسماة بالجورنال، وكذلك من المناسب أن لا تجري الحكومة الإجرائية شيئاً إلا بالكتابة فطلب دفع مال أو غير ذلك يلزم أن يكون بالكتابة، وعند لزوم السجن أيضاً لا بد من إصدار أمر مكتوب إلى رئيس الضابطة، وهو يبلغهُ خطياً أيضاً للذي يلزم سجنهُ، بحيث إذا أراد الإنسان أن يرفع دعواهُ يكون حاصلاً على كل الأوراق اللازمة بدفع رسم الصور المثبتة. أما الآن فالمجالس لا تسلم أوراقاً، فترى الإنسان مطلوباً ألى المجلس بدون أن يعرف المقصود، ويبلغ شفاهاً أهم الأوامر، فهذا لا يوافق روح العصر، ولا تصان بهِ حقوق العباد، فإذا كان بإذن الوكلاء الفخام يكون ذلك الإذن مؤقتاً إلى أن يصير وضع قوانين جديدة مناسبة للظروف ومانعة لألوف من الإجراآت التي لا يمكن أن يسلم بها روح العدل الساري في صدر رجال دولتنا. وإذا قرأ الإنسان هذه الجملة يقول إنهُ لا بد لذلك من زيادة الكتاب مع أن دخل رسم أخذ الصور المثبتة يزيد عن المصاريف اللازمة لطبع أوراق الإحضار والتبليغ والإجراء وعلم السجن، وتبليغ السجن. فبعد طبعها يقدر الكاتب أن يملأ أماكن الأسماء والتواريخ، ووصف الدعاوي بأقل من دقيقة، ويصير وضع رسم لنسخ لوائح الدعاوي، وهي المسماة جرنالاتها ويعين لهما كاتب مخصوص في كل مجلس، فنصف ذلك الرسم كافٍ لهُ، ومن المؤكد أن هذه الترتيبات الضرورية تكفل إجراء العدل بواسطة خوف المجالس والحكام من ظهور أعمالهم المغايرة بسهولة، إذ يبيتون لا يقدرون أن يجروا أمراً أو يبرموا حكماً بدون أن يسلموا المحكوم عليهِ ورقة شاهدة بذلك الإجراء والحكم، فإن كانا مخالفين للأصول والعدل يسهل التشكي من ذلك، ويعين قصاص للمخالف. فطبع قانون يبين هذه الأمور مع صور الأوراق اللازمة يغيرالحال واي تغيير، ويمكن الأهالي من المحافظة على حقوقهم، فينقطع ما نسمعهُ في أماكن كثيرة من أن القانون في الكتب والحكم بين شفتي الحاكم أو المجلس، لأن أولياء الأمور لا يقدرون أن يناظروا على أعمال المرؤوسين، ولكن الأهالي هم الذين يناظرون عليها وهم

الذين يتشكون عند وقوع المغدورية، فهذه الترتيبات تقلل وقوع المغدورية، وتسهل وسائط الوصول إلى الحقيقة وتصير لوائح الدعاوي والاستنطاقات في يد أصحابها، ومن يدعي المغدورية يقدر أن ينشرها أو أن يحملها إلى مجلس أعلى، بدون أن يخاف من حدوث تغيير فيها. هذا وكل من اختبر بعض المجالس، وبعض إجـراآت بعض الحكام في بلادنا وغيرها من بلدان أوربـا يرى أن ذلك من ألزم الأمور وأنفعها، وقد قررنا هذه الجملة بعبارات واضحة جدّاً، ليتمكن صاحب المعارف وجاهلها من فهمها، ويا حبذا إذا وضع قانون بسيط لحفظ الأوراق التي تدخل إلى الحكومة، والصور التي تخرج بحيث يصير كلّ الكتاب والمجالس قادرين على وجود الورقة بسهولة وبسرعة، ولا ريب في أن حكومتنا مهتمة بخيرنا على الدوام، وتحب تقدمنا لأنهُ تقدمها، وهذه هي السياسة الصحيحة وقد عرفت أن المعارف في بلادها تصبح على ضعف ما هي عليهِ اليوم بعد خمس سنين، وأن ترتيبات كهذه هي الكافلة بإرضاء الأهالي الذين إذا طال عليهم زمان ورودها يبادرون إلى قرع أبواب مرحمتها، ولو كانت لنا ترتيبات مثلها في سورية لضبط ما يحتاج إلى الضبط في مجالسنا، لكنا في راحة لا مزيد عليها، فإن حضرة والينا قد تمم ما عليهِ تتميمهُ من المتعلقات الإدارية، فكادت التشكيات تنحصر في أعمال بعض المجالس التي شأنها الزيغ عن الصراط المستقيم.

جملة سياسية(*)

شتان بين الأرض المخصبة والأرض المقفرة، وكذلك الفرق بين الحاكم المستقيم الأحوال والحاكم المعوج السبل والأعمال فمحصول الأول عمران ورخاء، ومحصول الثاني خراب وضيق. وهذا هو الذي يحمل الأهالي على أن يتمنوا للأول التقدم والتوفيق، وأن يطلبوا للثاني التأخر والسقوط. وما يبديهِ المحكوم في بلاد تعودت الذلّ من المدح في الوجه والتمليق لا يدل على حبهِ للحاكم وخلوص صداقتهِ وصفاء

(*) افتتاحية ج ٥، مجلة الجنان ١ آذار/مارس ١٨٧٤، ص ١٤٥ ـ ١٤٧.

بواطنهِ. لأن مداهنة السائد الظالم حصن المسود وفي كل بلدان الدنيا حكام ديدنهم العدل والإنصاف وحكام شأنهم الظلم والاعتساف. ولوكنا في ما مضى من الأزمان مع ما نحن عليهِ من المعارف والآراء لضاقت بنا الدنيا للزوم الخضوع مع المحافظة على الصمت والانقياد لحكام ثبوت سلطانهم ونفوذ أحكامهم متوقف كل التوقف على إرادة الذين لا تدركهم سهام أعمالهم ولا يشعرون بأثقال أحكامهم، على أن حكمة الله تعالى قد جعلت الوسائط قدر الاحتياج والنادر كالعدم، فلما سارت مركبات البخار في البر ومراكب النار في البحر، نصب لنا البرق في الجو وتحت المياه لمناسبة تلك الحال، وكذلك لما كان المثل السائر عندنا حاكمك ربك كان لنا من الحكام من تقشعر أبداننا عند الوقوف على أخبار معاملتهم لأجدادنا، فعاشوا في دولهم كما نعيش نحن في دول حكامنا فتذمرهم من ذلك الظلم ليس بأكثر من تذمرنا عندما لا نشعر بظلم ولا نرى نفعاً. فإن شأننا غير شأنهم ومعارفنا الحقوقية غير معارفهم. فالقاعدة الأولى عندنا أن الراعي لنفع الرعية، وقاعدتهم أن الرعية لنفع الراعي. والذين يجتمعون حولهُ من ندمائهِ وأعوانهِ وأهل الإمتياز، فشتان بين القاعدتين. وبناء على ذلك لا ينبغي أن يتعجب الحكام الذين لم يقفوا على الأمور الحقوقية الجارية في هذا الزمان، إذا صادفوا موانع وتشكيات وتذمرات في أماكن كثيرة من بلادنا العثمانية، وإذا رأوا منا قوماً يخالفون سائر أبناء وطنهم، فإنهُ كما أن الإنسان الذي يخرج من الماء تبقى ثيابهُ مبلولة، كذلك لا بد من بقاء آثار في الأمة للأمور الماضية، فمنها من يخلع الثوب القديم ويلبس الثوب الجديد. ومنها من يخلع بعض ثيابهِ ويحافظ على البعض الآخر. ومنها من لا يخلع شيئاً، ولذلك ربما كان ما يراهُ زيد ظلماً لا يراهُ عمرو كذلك. وهذه الاختلافات في البلدان الآخذة في الانتقال من حال إلى حال هي من أسباب الضعف والتشويش. ومع أنها شر فلا سبيل إلى مجانبتها، على أنهُ من المفروض على ذمة العقلاء أن يبينوا للعامة وللخاصة إذا كانت من العامة في الأدبيات حقيقة الأحوال بحيث، يحملون القوم على التعاضد لنفع الحاكم العادل النافع ولإلحاق الضرر

بل لرفع ضرر الحاكم الظالم المضر، لا سيما في بلدان كبلادنا رجالها الأخيار أقل كثيراً من رجالها الأشرار، بالنظر إلى روح العدل الصافي، وروح العصر المؤسس على قواعد غير مفسودة، في تجاوز حدود الاعتدال في جهة الحربية ولا في الجهة المعاكسة لها. فالتحزبات الناشئة عن الحسد والمناظرة الغير المرتبة هي سم الأمة الشرقية العثمانية وهي التي تمكن بعض الحكام من إنفاذ ظلمهم في الرعية بدون أن يدركهم عقاب الذين يحيدون عن الصراط المستقيم، فترى بعضنا يكذب البعض الآخر فإن تشكى خمسة يقوم لهم من يضادهم من نفس أبناء وطنهم، ولو كانوا عالمين بأن مضادتهم إنما هي ضرر للنفع العام، فلو جعلنا أساس إجراآت كهذه حقائق الوقائع لأكسبنا أنفسنا اعتباراً عند أولياء الأمور العظام، وجعلنا العدل شأن حكامنا الصغار والكبار لأن الاتفاق على عضد الظالم ضرب من المحال، وكذلك التكاتف على الحاق الضرر بالعادل النافع. فهذه هي أسرار قوة الشعب يا أولي الألباب. وهذا هو منية حكومتنا المركزية والشاهد مبادرتها في هذا الزمان، إلى مراعاة ميل الأهالي فإنها إنما ترسل الحكام ليقوموا بالعدل وينفعوا الرعية في المواد العمومية والخصوصية. ومع أننا قد رأينا ما يبرهن ذلك مرات كثيرة، لا يزال بعضنا يرتاب في صفاء النية وخلوص البواطن، وهذا خطاءٌ مبين لأن شكوانا ليست من الاحتياج إلى نظامات عادلة منشطة فإن نظام المعارف والتآليف منشط جداً، ولكل من تعب في ذلك السبيل جزاءٌ إذا جعل موافقة بين عملهِ ومقتضيات حال البلاد من جهة الأديان والسياسة والمشارب والعادات القديمة والجديدة والمختلطة، وكذلك نظام الصنائع بعد الغاء الرسومات الداخلية. ولولا خلوص النية والرغبة في زيادة ثروة البلاد، لما صار الغاؤها. وكذلك نظام الزراعة فإن من جدد مقداراً معيناً يعفى من الرسم أو من الأعشار. وكذلك للذين يقومون بمشروعات واختراعات جديدة، حتى أن الذين يتقلدون الإفرنج في الصنائع بجلب آلاتهم يُسعَفون بالإفراج عن تلك الآلات أي بإدخالها بدون دفع الرسم. فهذه كلها نظامات مقررة في الأوراق، والتقصير فيها من بعض الحكام

والأهالي، ولها دواءٌ واحد قاطع وهو اتفاق الأهلين ومراعاتهم لحقوق الاستقامة والعدل، فينقطع ما نراهُ جارياً في بعض الأماكن من زيغ الحكّام عن سبل واجباتهم وحصولهم على شهادات حسنة وعضد أعيان ورؤساء وبإجماع الرأي ينقطع الخوف من ظلم الحاكم فإنهُ لا يقدر أن ينتقم من الجميع وخلاف ذلك إذا كان لهُ حزب منجذباً إليه بمراعاة الخاطر وإنفاذ الصالح وحزب مضاداً، فإنهُ يقدر أن ينكس الحزب المضاد تنكيساً مضراً بهِ. وأن ينتقم من رؤسائهِ، ولا ريب في أن أكثر الذين يطالعون هذا الكلام يقولون إن الوصول إلى هذه الدرجة في الشرق ضرب من المحال. وهذا صواب في الحال، لأن مباديء الشرقيين لا تراعي الصالح العام قبل الصالح الخاص، ولا لوم عليهم بعد أن عانوا ما عانوا من ظلم الزمان الماضي وتعودوا الاكتفاء بالتخلص من غضب الحاكم بالتمليق والمداهنة والمواربة والحيل والهبات، غير أن ضعف الأمل من الإصلاح لا يعذر الكتّاب إذا سكتوا عن لوم الظالمين وانقطعوا عن تحريض القوم على ما فيهِ صلاح وخير لهم فإنهُ لا بد من أن يكون لذلك تأثير قريب أو بعيد كثير أو قليل. فعند إظهار فساد المرتشين وأضرارهم ودناءتهم لا نجلس منتظرين قطع الرشوة واضرارهم ودناءتهم لا نجلس منتظرين قطع الرشوة من جملة مضادة لها ومظهرة لدناءةأهلها ووجوب احتقارهم والابتعاد عنهم حال كوننا نعلم أنها موجودة في كل الدنيا. ولولا التفاوت لكانت حالة كل الأمم واحدة بالنظر إليها، ولكننا نعلم أن مضادتها بالكتابات تشجـع الأهالي فيجاهرون بلوم أهلها وإذا قلنا أن المرتشي لص يصير الراشي الذي يرى أنهُ لا بد منها للحصول على حقهِ يقوم بها وهو يقول إن الذي ارشيهِ لص دني. ولا يستر المرتشي عيبهُ ودناءتهُ وسرقتهُ إذا قال إن هذا لفلان ولفلان، فإن الصحيح أن النصف لهُ إذا لم يكن الثلثة الأرباع أو الكل. فهذه الكتابات هي فرض على الكتاب العموميين وهي خدمة للحكومة التي تتمنى أن يكون العدل طريق عمّالها لتستريح من مراقبتهم وتريح الرعية من أثقالهم ومظالمهم، وهكذا نرى أن في أيدينا أكثر السلطان، ولا نضعفه إلا بالانشقاق وبعد أن كان الانشقاق مما

ينفع الحكام في الشرق صار مما يضر بهم، لأنهُ بالاتحاد يرضون الجميع إذا نهجوا مناهج العدل والنشاط وانفع، مع أن الحصول على رضى الحزبين صعب جداً. فيقوم لهم حزب مضاد لتعبهم وسلب راحتهم أما الدولة فربما كانت تلقي الشقاق قبل أن سهلت وسائط المواصلات جمع أطراف أزمة السلطان في يدها، وقبل أن صارتْ قوتها بالأسلحة الجديدة وانتظام حال العسكرية والبوارج قوة نافذة، ومع ذلك لا يزال كثيرون لا يحسنون الظن في سياستها والسبب سوء تصرف بعض الحكام المحليين ومراعاتهم تعصباتهم وأغراضهم الناتجة عن النفسانيات أو الماليات والافتقار إلى عدد كافٍ من الرجال مع أنهُ من الواجب أن نعلم أننا لا نزال في ابتداء سلم التقدم وأننا منذ ثلثين سنة كنا في ظلام نورنا الحاضر، ولئن كان ضعيفاً، هو ساطع بالنسبة إليهِ، وما نراهُ من افتقار الدولة إلى رجال، نراهُ في مكاتب التجارة والصناعة والزراعة. فلو وجدنا عدداً كافياً من الرجال للقيام بالأعمال التجارية لكانت تجارتنا على غير ما هي عليهِ، وكانت سلمت بعض السلامة من الآفات التي تكاد تخربها بمجانبة التقليد والانعكاف على أمور جديدة، البلاد في احتياج شديد إليها. أما رجال الزراعة فكلهم ولا نحاشي لا يصلحون لعملهم والفرق بينهم وبين رجال زراعة أوربا أكثر من الفرق بين رجال السياسة في الشرق والغرب. ومن المسلم أن هذه الحال هي بقضاء الله، وأن الواسطة للسقوط فيها الحروب الكثيرة الأهلية والخارجية التي داهمت الشرق والحكومة الماضية التي لم تنحصر سياستها السيئة في الوصول بالبلاد إلى الخراب، ولكنها كادت تقلب الدولة، ولم يرجع بها إلى ما هي عليهِ الآن إلا أعمالها على تغيير سياستها المفسودة المباني بالسياسة الحالية، فابتدأت الأمة بحيوة جديدة وحيوة الأمم غير حيوة الأفراد، فإن كان الدور في الأفراد عشرين سنة أو أقل، ففي الأمم الدور مائة سنة. فلا نزال في الطفولية، وإذا كان قد ابتدأ دور طفولية الأمة العثمانية منذ ثلثين سنة، نسأل الله أن يحيينا لنراها في دور البلوغ التام.

جملة سياسية(*)

إذا كانت السياسة بدون قواعد تكون مضطربة الأحوال وسيئة العواقب، ويمسي الذين يقومـون فيها يجهـرون في رفعها وخفضهاويابسها ومائها بدون أن يكونوا يعلمون البداية ولا يدركون أين تكون النهاية، فمبدأها اضطراب وارتباك، وعقباها خراب. فإن أصلحت الحال بالترقيع اليوم لا يصلح به في غدهِ. ولو كانت السياسة محصورة في السائس، لما كان لها من الأهمية ما لها الآن بعد أن أصبحت متعلقة بالمسوس قدر تعلقها بهِ. ولذلك للذين في أيديهم زمام الأمور سياسة، وكذلك للأمة التي قد أصبحت أزمّة أمورها في أيديهم فسياسة الأمة دفة ميلها إن كان موافقاً للدولة أو غير موافق، واحداً أو متعدداً، متعلقاً بأمور ثانوية كاختلاف الآراء من جهة بعض نظامات وقوانين أو بأمور أولية كقلب الدولة أو تغيير نظاماتها الأساسية، كتحويل الجمهورية إلى ملكية وبالعكس، أو كالتخلص من حكم دولة سائدة كسياسة أهالي بولونيا الذين يحبون أن يتخلصوا من روسيا والنمسا وبروسيا وأهالي إيرلاندا وأهالي الألزاس واللورين وغيرهم، وما من أمة ذات حذق ومعارف بدون سياسة، مهما كانت يد السلطان النافذة قوية ونشيطة وظالمة. ولنا نحن الشرقيين سياسة كما لسائر الأمم، على أنهُ ربما كان ذلك لم يخطر لأحد منا ببال. والنادر كالعدم. ولا نلام على ذلك، لأن وصولنا إلى درجة التفكر بهذه الأمور، لم يبتدىء إلا منذ زمان قصير، لأن ظلمة الأيام الماضية خسرت عقولنا نور الحقائق، وجعلنا اتفاقنا على الاختلاف ينبوع ميل صادر عن أدياننا حال كوننا في ظروف تستدعي معرفة حقائق مراكزنا لمجانبة ما لم يسمح لنا جهلنا أن نتجنبهُ. فالماضي قد مضى، فلا يعيينا إذا استيقظنا بأمل التقدم، أو بدون أمل. ولدولتنا سياسة. وطالما وصفناها بالدقة بالنظر ألى نتائجها، لأننا لم نكن نعرفها. وربما كنا لا نزال لا نعرفها، وما أدرانا إن كتمها ليس هو لنفعنا نحن ونفعها فإن كانت

(*) افتتاحية ج ٤، مجلة الجنان ١٥ شباط/فبراير ١٨٧٤، ص ١٠٩ ـ ١١١.

لدولتنا سياسة ذات قواعد تفوز بالحصول على المقصود بالنظر إلى الداخلية، إذا كانت تلك القواعد موافقة لظروف الأمة، فالقاعدة للسياسة هي من السياسة كالبناء من الأساس، فإنهُ على الأساس تشيد الأبنية بنقوشها ونوافذها وأخشابها وأثاثها، والذين فيها. وبدون ذلك الأساس الواحد لا يتيسر تشييد شيء ولا المحافظة على ما فيهِ. فمن سياسة البرنس بسمارك مثلاً التسلط على خدمة الدين، فهذه قاعدة. ومن سياسة روسيا أن ترفع شأن الأهالي، وهذه قاعدة فترى البرنس بسمارك لا يجري شيئاً مضاداً لقاعدة سياستهِ، فلا يفعل في مقاطعة ما يضاد ما يفعله في مقاطعة أخرى، فيقوي خدمة الدين ويضعفهم في وقت واحد، وكذلك روسيا لا تأخذ في فتح المدارس في مكان وفي وضع رسم على المدارس في مكان آخر، فإذا فرضنا أن دولتنا أمرت بوضع رسم على الشرانق بعد أن ألغت الرسومات الداخلية لنفع الصناعة نقول إنهُ لا قاعدة لسياستها وكذلك إذا رأينا والياً أو غيرهُ يفعل ما يضاد ما تدعيهِ الدولة من السياسة، نقول إن ادعاءها فارغ أو واليها لا يراعي مصلحة دولتهِ، فإن سياسة الدولة هي مصلحتها، كما أن دولاب الصناعة مصلحة الصانع، وهذا هو حكم السياسة في جميع الأمور وحكم الأمة حكم الدولة في ذلك، فما هي يا ترى قاعدة سياستنا نحن الأمة الشرقية أي الأمم الكثيرة الأجناس واللغات المجتمعة في الممالك المحروسة الشاهانية، هل هي الميل إلى مقاومة دولتها أو تغيير نظامها أو المحافظة عليها، وهل نحن على اتفاق من هذا القبيل أو على خلاف، ولا ريب في أن كثيرين من مطالعي الجنان، بل كلهم عندما يقرأون هذه العبارة، مع أنهُ ما من شيء معجب فيها، لأنهُ إذا سأل كل منا نفسهُ هل يميل إلى البقاء في حيز الطاعة والخضوع يجِيب نعم أولاً.وبما أنه ربما كان البعض يجيبون بالإيجاب بدون أن يكونوا عارفين الأمور السياسية معرفة تمكنهم من الحكم بالصواب، وكذلك البعض الآخر بالسلب، ومن واجبات الجرائد العارفة بحقائق السياسة أن تبين للأمة ما يوافقها بالأمانة والصدق، ولو كان تبيين الصالح مما لا يتيسر بسبب قوانين المملكة التي نقطنها أو غير

ذلك لما تصدينا إلى الكلام عنهُ، وبناء على ذلك تقول إن الشرقيين قد أضاعوا زماناً طويلاً بسبب خلو بلادهم من المعارف وحكامهم من الأنصاف وأعمالهم من الترتيب وأفكارهم من الإصابة وأميالهم من الانتظام الموافق لظروف حالهم، فنتج عن ذلك الإضطراب الجاري في الماديات والأدبيات. واللوم في ذلك على السياسة، وليس على الأمة. أما الآن فالدولة قد غيرت سياستها منذ زمان ليس بقصير، وأنفذت أموراً لم يحلم أجدادنا جميعاً بأنها ستصبح نافذة، حتى لم تخطر ببال الذين تجاوزوا الخمسين، بل الأربعين منا. فمن الواجب أن نبادر إلى أن نبدل سياستنا التي لا تستحق أن تدعى سياسة، فإنها خصام ونزاع ناتج عن تعصبات وغايات شخصية. فالاتحاد في الظروف الحالية مما ينبغي لكل عاقل أن يرقيه على أن هذا هو غير المقصود الأساسي. وإذا قلنا إن سياستنا هي الاتحاد، لا نكون قد اتينا بقاعدة سياسية عامة. فالقاعدة اللازمة لنا هي هذه. وهي القوة فتأملوا في هذه الكلمة التي قد جعلناها قاعدة السياسة للشرقيين، وهم العثمانيون. فكل ما يضعف الاتحاد مضر بالقوة ومخالف للقاعدة. فالتحزبات الطائفية تورث الإنشقاق، وهذا مخل بها أيضاً. وللتوضيح نقول إن البعض يظنونن أن كثيرين من أهالي البلاد العثمانية لا يحبون الخضوع لها، فهذا خطأ. وإذا كان شأن البعض فشأنهم غلط مبين، لأن أهالي الشرق الكثيرين الأجناس، مع قلة كل جنس منهم، لا بد لهم من أن يكونوا متحدين مع سياسة واحدة ليكونوا ذا مركز ذي اعتبار في العائلة البشرية، بعد أن أصبح العالم واحداً بأسباب قرب المواصلات البرقية والبخارية بحراً وبراً، والقوانين الدولية والصوالح التجارية والصناعية والتسهيلات المالية، فإن بات الأرمن وحدهم والروم والسريان وغيرهم، تصير ممالك بدون مركز، لا بل لا يمكنها أن تثبت، ولا أن تفوز في شيء سياسي، ويشتغل بعضهم في محاربة البعض الآخر. ومن أعظم الشواهد على صحة ذلك تلك الحروب المنتشبة على الدوام بين قبائل البلاد العربية مع أن الأهالي من جنس واحد وحسبنا برهاناً على رداءة اختلاف سياسة أهالي بلاد واحدة

الويلات التي احتملتها فرنسا والهوان الجاري في إسبانيا. وإذا نظرنا إلى أمور جارية في هذه الأيام نرى نفع الانضمام، فإنه عند وقوع مشكل بين تونس ودولة أخرى أجنبية استندت إلى الباب العالي وأحيل التشكي إليهِ، ولا ينفذ فيهِ من الغايات ما ينفذ في تونس وفي دول صغيرة ليست بذات مركز، لأنهُ مركز لبلاد عظيمة شهيرة لها حقوق أوربيــة أولية لا تمس إلا برضاها أو بجمعيات دولية. ولو كانت أتشين خاضعة كل الخضوع لدولتنا العلية لنجت من آفات حرب طالما اجتهدت في سبيل التخلص منها بواسطة الدولة العلية وهذا كافٍ ليبين لنا نحن العثمانيين نفع اتحادنا وقطع النظر عن جنسياتنا في الأمور السياسية ولنا مركز فاخر جداً وهو الآستانة وحدود طبيعية وحقوق عمومية وخصوصية. وبناء على ذلك نقول إنهُ من الواجب على كل شرقي أن يقول إنني أميل إلى المحافظة على الحالة الحاضرة، وأتجنب جميع أسباب الانشقاق لأبقى من أمة عظيمة اسمها الأمة العثمانية، ومع أنها كثيرة الأجناس هي واحدة في الصوالح. فالإفرنجي لا أقدر أن أرافقهُ لأنهُ أسبق مني. ومع أن حالتي قابلة الإصلاح من جميع الوجوه أرى نفسي مرتضية بالتقدم شيئاً فشيئاً، ولا يفرغ صبري من انتظار الإصلاح اللازم، لأن إصلاح الأمم لا يتم دفعة واحدة، ولا سيما إذا كانت تحب المحافظة على ما كان لها في الأزمان الماضية. وعندي أن انتقالي دفعة واحدة من حالة كنت فيها، إلى حالة أومل بالوصول إليها بعد زمان يضر بي كانتقال الإنسان دفعة واحدة من صبارة البرد إلى حمارَّة الحر، ولا بد من أن العناصر التي تشتغل لإصلاح حالتي تشتغل في إصلاح الذين يلزمهم ذلك مــن متوظفي دولتي ومن أعضـاء بعض مجالسها وغيرهم. فهذا هو الصواب، والإصابة في هذه السياسة، وهي عندنا فإننا إذا سمعنا رجلاً متذمراً من ظلم واقع عليهِ يتضجر من خضوعهِ لدولته لا نسمع العقلاء الذين يعرفون حقائق الأمور يفضلون دولة على دولتهم العثمانية، حتى لو صادفهم من ظلم حاكم أو مجلس ما يحملهم على أن يشكوا أمرهم، لا ينفكون عن أن يدعوا إلى الله بأن يثبت هيئتنا الحاضرة السياسية، ويصلحها فإنها

أوفق هيئة لأهل الشرق وضمانتها قوية ومركزها حسن. ومع احتياجها إلى امتداد روح العدل الصافي الخالي من كل كدر وتعصب وغرض في جميع الأماكن التي لم يمتد فيها، أي بين الذين في أيديهم أزمة الأمور فيها، وبين أعيان الأهالي الذين لآرائهم دخل في السياسة، هي كدول كثيرة في نفس أوربا، إذا لم نقل أنها أحسن منهم، وما أحسن الراحة، فإننا مرتاحون من الثورات وما كان يجري بيننا من النزاع هو مما لا بد من أن يرافق حالتنا الماضية، وبالحقيقة إننا نعلم سوء حالتنا الحاضرة، غير أننا لم نقطع أملنا من نوال الثروة بالزراعة، ولا من إصلاح حالة الصناعة بعد رفع أثقال الرسومات عنها، ولا من نفوذ المساواة في التقاضي والوظائف، بعد تأكيد خلوص النوايا وصحة الميل السياسي، ولا نظن أن مشقات خروجنا من تأخرنا هي أعظم من مشقات الثورة العمومية الجارية في أوربا، فإنها ستغير وجه الأرض وتجري أنهراً من الدماء، ما لم تتمكن من الحصول على زمان كافٍ لتقلب بدون دم ونار هذا، ولا نقول إن أمل الإنسان مقطوع من وصول أعمالِهِ إلى درجات قريبة من الكمال، لأن ذلك من الأمور المسلم بها، ولكننا نقول إن تنفيذ السياسة التي أشرنا إليها إنما هو من مصلحتنا، والمسير البطيء يوافق من تعود الكسل. ومن كان تنفسهُ صعباً لا تكون خطواتهُ في الصعود سريعة.

جملة سياسية(*)

لا نحتاج إلى شرائع ونظامات وقوانين كما اننا لا نحتاج إلى هواء طيب وأراضٍ مخصبة، ولكن افتقارنا في بعض الأماكن إنما هو إلى الإجـراآت المطابقة لذلك. فإنها روح الشرائع والنظامات والقوانين، وبها تستبد حال الأمم فتستأمن على ناموسها وأنفسها وأملاكها، فيعرف السائس حدودهُ والمسوس واجباتهِ والقيام بالإجراء أصعب من سن النظامات والقوانين، ولذلك نرى أمماً كثيرة ذات قوانين عادلة موافقة لمكانها وحالها على أنها تشكو ما يشكوهُ الذين بات

(*) افتتاحية ج ٣، مجلة الجنان ١ شباط/فبراير ١٨٧٤، ص ٧٣ ـ ٧٥.

قانونهم إرادة حاكمهم بل شكواها أشد من شكواهم، فإنها تدبر أعمالها الأدبية والمعاشية بالاستناد إليها. وفي أثناء العمل يعرض ما يخالفها بجهل حاكم أو تعصبهِ أو غرضهِ، أو طلبهِ للجائزة المعلومة، فيرجع بخفي حنين، وينال المكافأة خراب نظام معاشه مع أنهُ لولا الاستئناس بها لما خطا تلك الخطوة ولا حمل ذلك الحمل. وبناء على ذلك نقول إن حالة الأمة بدون نظام وقانون أحسن من حالتها بنظام وقانون مكتوبين، ولكنهما غير مرعيي الإجراء. ولا نقول إن حالتنا في جميع الأماكن والأزمان هي تلك الحال، على أننا نقول بشجاعة من يقرر الواقع أن بعض المحلات في احتياج إلى الالتفات من جرى ذلك. ولولا معرفتنا بأن الوزارة الحالية التي أقامتها العناية الشاهانية الدائمة الاهتمام بأحوال الرعية لا ترتضي بما ارتضت بهِ الوزارات التي سبقتها بسبب التهاون أو العجز، وبأننا لا نرى بعد الآن في صدر سياستنا غير وزارة شأنها شأنها لما أتعبنا أنفسنا في نشر أفكار تحزن قلوب الأهالي بانقطاع حبال أملهم من الإصلاح، ولاكتفينا بالمثل السائر وهو إقرأ تفرح جرب تحزن. وانتظار النتائج في وقت قصير خطأ مبين، كما أن فروغ الصبر بعد اعتصام أجدادنا واعتصامنا بهِ زماناً طويلاً، دليل فقدان الجَلَد وشدة الاحتياج، ولولا سرعة تقدمنا في معرفة بعض الأمور الحقوقية لما عذرنا أنفسنا، بل كنا رشقناها بسهام اللوم والتنديد، فإن موافقة حالة السياسة لحالة الأمة إصابة عظيمة. كما أننا لو رأينا أننا قد سبقنا سياستنا في سبل النجاح، لما عذرناها كما أنهُ ما من أحد يعذر الحكومة إذا لم تجعل مطابقة بين قوانينها وإجراآتها، فهذه المطابقة هي التي نسمع أهالي بعض الأنحاء يلتمسون الفوز بالحصول عليها بتذمر وبفروغ صبر، ولا ريب في أن الإلتفات إلى ذلك من أهم مقاصد وزرائنا الميمونة، على أنه لا بد لها قبل ذلك من إتمام إصلاحاتها المالية، وجعل مطابقة بين صوالح الخزينة والتوفير السياسي. ولا يخفى أن ما ظهر من إصلاحها المتعلق بإلغاء الرسومات الداخلية ومن وضع رسوم جديدة على ما لا يضر بالثروة العمومية، إنما هو بشير يفعم قلوبنا فرحاً ولو انتظرنا من زيادة

العشور الذي يحسبهُ أهل ذلك التوفير بلية الثروة ما يسعف بقية المداخيل على سد نقص الدخل عن المصروف، ويعوض الرسوم الملغاة التي كان يدفعها الفلاح عن نفسه، لأننا نعلم أن الحكومة التي شأنها اتباع سبل الإصابة في السياسة تستغنم سنوح الفرصة الأولى التي يمنحها إياها فرج الخزينة، لتجعل مال الأعشار مربوطاً، فتتخلص من حيل العشارين، وينجو الأهالي من ظلم أكثرهم وعدوانهم وشرور مطامعهم الغير المحدودة. وبما أن السياسة في هذه الأيام تغنينا عن القوة بعد الحصول على ما لنا منها في البحر والبر، لا ننتظر فتح أبواب جديدة لبذل دراهم الخزينة، ولذلك تلتزم وزارة الحربية بأن تكتفي بمعيناتها، ولو طالت حملة اليمن. ومن الإصابة أن تكون كافية للبرية والبحرية بحيث يكون التجديد القليل ممكناً بدون تجاوز الحدود المربوطة. وكما أن هذه الإصلاحات المالية هي مهمة للخزينة، وبالتالي لنا، فالإصلاحات في إجراء الشرائع والقوانين والنظامات لها المحل الأول عندنا. وتعود بالنفع على الدولة برفع شأن الأمة وتقرير الأمنية الأدبية فيها. فتكثر الأعمال، وتتسع دائرتها، وتزيد الثروة، وعلى الخصوص عندما يصل حسن الإجراء إلى الأملاك وصولاً يعود بالنفع العميم على الزراعة، وعندنا أنه لا بد لإتمام ذلك من ثلثة أمور الأول وضع المسئولية الثقيلة على من لا يجري ذلك النظام. الثاني تنفيذ تلك المسئولية بالصرامة، فإن الحلم للرعية والصرامة للمأمورين. وهذان عمودا استقامة السياسة في الشرق. الثالث تسهيل وسائط التشكي والاستئناف في جميع الأمور، والاكتفاء بالمدلولات عن الشواهد الصريحة. فإن رأينا مأموراً أو عضو مجلس معاشهُ خمسمائة أو ألف أو ألفين، وليس لهُ سبيل آخر للدخل، ومصروفهُ ضعف معاشهِ أو أكثر نحكم بأنهُ يسرق مال الناس بالرشوة ليسرق حقوقهم. وإذا رغبنا في إثبات الرشوة عليه نعجز، لأن الراشي لا يرتضي فضيحة نفسهِ، وعلى الخصوص إذا كان ينتظر القصاص هو ومن سعى. ومن المعلوم أن الأمور الجنائية لا تزال مفتقرة إلى تنظيم كثير في مجالسها، ولا سيما لأننا نعلم أن المأمور الأول في أكثر الأماكن هو المجلس، فإن إرادتهُ

نافذة فيه. وبناء علي ذلك يقدر أن يغدر لغرض مَن ربما كان أرفع منهُ درجة أدبياً ومادياً بواسطة مجلسهِ، بدون أن يكون قادراً على الاستئناف. ولا ريب في أن الدولة العلية مصممة على أن تغير هذه الحال بجعل المحاكمات في مجالس التميز والدعاوي في محاكم التجارة، أي أن يصير جريانها بتبليغ الأوراق المتعلقة بها، وبالسماح بالاستئناف في الأمور الجنائية كما في الحقوقية، ولا بد من أن يكون حق الاستئناف متصلاً إلى أقل دعوى إذا كانت تستوجب السجن أو إذا حكم بها بالسجن ولو أربعاً وعشرين ساعةً، فإن كسر الناموس بإثبات ذنب وإجراء القصاص لا يتوقفان على طول مدة السجن وقصرها، فأربع وعشرون ساعة بعد ثبوت الجريمة كأسبوع أو شهر أو أكثر. فتمكين الرعايا من صيانة أنفسهم من غدر مَن ربما كان يحب أن يغدر ببعضهم، أو واحداً منهم بكسر ناموسهِ وتثبيت جنحة عليهِ وسجنهِ مع تحميلهِ مصاريف المحكوم لهُ والدعوى، إذا حكم عليهِ بها بعد الاستئناف، من أعدل الأمور وأوجبها وتخلص الحكام الأولين من أثقال تشكيات أهل النفوذ في ظروف كتلك الظروف. هذا ومن الواجب أن لا نغفل عن واجباتنا نحن لانتظام أمورنا، فإننا كثيراً ما ننتخب باراينا[1] للمجالس أعضاء لا يليق بأن يكونوا حكماً علينا، مراعاة لخاطر ذي نفوذ يحب أن يضع في المجلس من يرقي أسباب صوالحهِ. مع أنهُ من واجبات أهل النفوذ أن يدخلوا المجالس بأنفسهم لخدمة بلادهم مدة، وعند ذلك يكون المجلس عصبة واحدة لا تنفذ فيهِ سطوة الحاكم، إذا كانت غير عادلة، فإن أعضاءهُ لم ينتظموا في سلكهِ لمعاشهم فيحافظون بالاتحاد على ناموسهم وذمتهم إجمالياً وإفرادياً، فتغل أيدي المأمورين الذين يطردون من مجالسهم من لا يوافقهم على ارايهم من أعضائها وقلوب باقي الأعضاء تخفق خوفاً على مراكزها. فأين ذلك المجلس من مجلس عند وقوع المغدورية على بعضهِ يتحد على تقرير مضبطة عادلة بالواقع، وإذا لم ينجح بذلك يستعفي كلهُ، ولاستعفائهِ جميعهِ أهمية وقوة لا يمكن أن تكون بلا تأثير مفيد. وعند

(١) المقصود بآرائنا.

ذلك يصير القانون نافذاً في كل حال، إن كان من غرض المأمور تنفيذهُ أو منع ذلك، فيسد احتياجنا بإجراء قوانيننا في كل حال وإخراجها من مخابيها في الكتب. وكم من شيء مضطرب ليس بالافتقار إلى النظام والقانون، ولكن إلى من ينفذ ذلك النظام. وسبب عـدم ذلك التنفيذ في الغالب إما الجهل وإما الكسل والتهاون، وإما الخيانة. فالضرر يعود على الدولة قبل الأهالي وختام كلامنا الثناءُ على وزارة دأبها الإهتمام بالأمور وتحريض القوم على الاعتصام بالصبر الجميل. وكما أن إدراك المعالي لا يكون في الغالب إلّا بالكد والجد، فإدراك المقصود من الإصلاح لا يكون إلا بعد مرور زمان كافٍ. فمن لا يصبر على النار لا يأكل طعاماً ناضجاً لذيذاً.

جملة سياسية(*)

إن للدول أزماناً يبتدىء فيها صعودها أو تكون ابتداء انحطاطها وضعفها. وللتقـدم أدلة يعرفها أرباب السياسة فيتفالون[1] بالخير فكيف لا نتفآل بهِ بعد أن حملت إلينا الأخبار بشائر إصلاحات مصدرها حب الوطن والاهتمام بصوالح عمومية طالما خاف العالم من سوء العواقب إذ رآها في زوايا النسيان بالانشغال بما هو دونها مما لا يعد صالحاً عمومياً، إذا لم نقل إنهُ خراب وأي خراب. فحلول زمان التقدم يحول الأبصار عن آفات الماضي وتأخراتهِ، ويوجهها إلى الاستقبال، فتشخص فيهِ بأمل دوام نجاحهِ والابتعاد عن أسباب كانت مصدراً لتكدير الماضي، وبالتالي لاضطراب الأحوال وارتباكها. ومن يا ترى يسر أكثر منا بعد أن جعلنا تلك الأسباب موضوعاً للبحث بالتوضيح أو الإشارة سنين كثيرة، ومنَّ الدهر علينا بما منَّ بعد الاعتصام بالصبر الجميل واحتمال ضبط النفس عن اظهار الواقع كل الإظهار، لمجانبة ما لا بد من تجنبهِ عندما تعول السياسة على أن تجعل إصابة أعمالها منع إشهار خطأها ونقصها، وكم من مرة تذمرنا من كثرة التغييرات التي

(*) افتتاحية ج ٢١، مجلة الجنان ١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٧٣، ص ٧٢١ ـ ٧٢٣.

(١) يقصد فيتفاءلون.

لحقت وفاة المرحوم عالي باشا، لأنها ألحقت الضرر العظيم بماليتنا وقوانيننا وجريان كل ما هو ركن لرفاهيتنا وسعادتنا. غير أن ما وصلنا إليهِ قد عوض ما فات، فإن ذلك إنما كان للحصول بالاختبار على وزارة قادرة على أن تقوم بمقتضيات الأحوال، لسد احتياجات الحال، وللابتداء بذلك الزمان الذي إن لم تكن بدايتهُ الآن فلا سبيل إلى الابتداء بهِ بعد هذا الزمان. فلولا التغيير لما رأينا في الصدارة حضرة صاحب الدولة محمد رشدي باشا شرواني زاده الأفخم. ولا في الخارجية حضرة صاحب الدولة راشد باشا، ولا خورشيد باشا المعظم في العدلية. فسبحان الذي يغير ولا يتغير، فإنهُ قد جعل أسباب شكوانا وأكدارنا أسباباً لنجاحنا وتقدمنا، فأي لسان يا ترى لا يوسع المدح والثناء لوزارة ساقها حب الوطن والصوالح العمومية إلى الابتداء بالتوفير بتنزيل معيناتها المالية حال كون أكثرها ليس من الذين جمعوا ألوفاً من الأكياس للاستناد إليها. ومن يا ترى لا يقول إنهُ صعب على الشرقيين أن يصدقوا أن ذلك مما تطيقهُ الفطرة البشرية، ولا سيما بعد أن تعودت جعل المصلحة الخصوصية في المحل الأول، وكل المصالح الأخرى في الثاني، فهذه مآثر وزارة في صدرها والينا الأسبق محمد رشدي باشا، ومن أهم أعضائها راشدنا. ومن المعلوم أن تعجب الغرب من جرى ذلك لا يكون أقل من تعجبنا، بل أكثر منهُ لأنهُ ربما كان يظن أن الوزارة الحالية إنما هي من أهل الشرق، فهي مثلهم ولا تقدر أن تقوم بمثل ذلك، ليس لأنهم خالون من الشهامة والمروة، ولكن لأن الذل الماضي وتقلبات الأحوال منذ قلبت عروس الشرق ومركز تجارة العالم فينيقية القديمة، قد سلبت منهم بعد جهاد طويل ما لم يثبت في غيرهم من الذين باتوا في ظروفهم وأحوالهم نصف زمان ثبوتهِ فيهم. ومن المعلوم أن الحضرة الشاهانية تبسم إذ ترى كرمها واهتمامها بحالة الرعية التي ودعتها يد الله أمانة عندها، ممتدين إلى رجال دولتها العظام، فلما تيقنت بأنهم عاملون على قطع النظر عن مصالحهم، وبأنهُ سيكون لنواياها الخيرية صدى في قلوبهم، بادرت إلى نجدة المالية المتضعضعة بهبة تليق بسلطان خلف مجدهُ مجد خلفاء العرب،

واستــوى في عاصمة هي مفتاح للعالم المتوسط وعروس أزهى من جميع عرايس الممالك، وأجمل منها. وما هي يا ترى هذه الهبة التي لم نسمع بمثلها أما هي سبعة ملايين من الليرات العثمانية، أي قدر دخل الدولة العلية نصف سنة. ولولا ضيقات الحال وعسر مالية أوربـا لبقيت في حوزة حضرة مولانا الأعظم إلى أن تصير ٣٦ مليون ليرا باجتماع فايضها وضم كل الأموال المخصوصة بتلك الذات البديعة الصفات إلى تلك الأوراق المالية التي اهتمت بجمعها منذ زمان طويل لإيفاء الدين العمومي. ولو التزمت أن تصرف كلما هو لها، فمن يفاخرنا من ملوك الشرق والغرب بعد ذلك، ومن يلقي علينا تهمة الاهتمام بأنفسنا فقط، فإذا كان ارتضاءُ عمر بن خطاب رضي الله عنهُ بالغث من العيش، وواشنطون بالتنحي عن الرياسة مما يكتب بالحروف الذهبية في بطون التاريخ، ألا يحق لنا أن نكتب ذلك الجميل السلطاني بنفس تلك الأحرف فهذه الاعانة مع التوفيرات المذكورة والانتفاع من الأوقاف تسد وحدها احتياجات الخزينة الجليلة التي نظن أنها تجعل التعيينات المربوطة عوضاً عن مداخيل الأوقاف، بحيث لا يتأخر شيء من المرتبات الوقفية، وهكذا يصير الجمع بين المصلحتين. ومن أعدل الأعمال وأنفعها وضع الرسومات العقارية على أملاك الآستانة العلية، فإن العواصم ولا سيما عاصمتنا مغناطيس لجذب أموال الولايات، فتراها غايصة في بحار التنعمات والثروة بجمع أهل الكد والجد بدون أن تشترك معهم بمصاريف المحافظة على الأمنية والراحة، وإنفاذ العدل، مع أنها أكثر الأماكن انتفاعاً بها، ويا حبذا إذا بشرتنا الأخبار بجمع العسكرية من أهلها، كما بشرتنا بوضع الرسم على أملاكها. ومن المعلوم أنهُ ربما كان مجموع هذا الرسم فيها وفي غيرها لا ينقص عن المليون ليرا، وهو مسند عظيم. ومن أنفع تلك الإصلاحات المقررة في الجنة، ما بلغنا من إبطال الرسم الداخلي، وقد طالما تشكى منهُ مكاتبنا في حلب وفي الشام فإنهُ مضر جداً بالصناعة، ومع أنه بالاسم ثمانية في المائة هو بالفعل أكثر من ٢٤، فإنك إذا اشتريت الحرير تدفعهُ ثم تدفعهُ إذا صبغتهُ وكذلك إذا نسجتهُ، وهكذا بقية الأشياء، مع أن

بضائع الإفرنج تدفع الرسم مرة واحدة فإبقاء الرسم الداخلي المذكور تعنيف للأهالي وتأخر للصناعة وبالتالي خسران على الحكومة. ولا نعجب باستماع تصميم وزارة عندها من الحكمة والدراية والمعارف ما عند وزارتنا المشار إليها على الغاء ذلك الرسم قدر ما نسر من ذلك. ومن المعلوم أننا نحمل بالشكر توسيع رسم الأوراق الصحيحة، وحصر التبغ بعد التخلص من الرسم المذكور، فإن التبغ من الملاهي المضرة فتقليلهُ نافع جداً. ومهما ارتفع لا يزيد عن السعر الذي كان لهُ قبل وضع الرسم المصري الجديد، وكذلك حصر المطلوبات الأميرية من الفلاح بالأعشار، ولو زادت قليلاً اربح لهُ من دفع رسومات كثيرة أخرى. وبالجملة نقول إن الدولة العليـة قد قررت ما يزيد دخلها ويعود بالنفع على الرعايا، والأمل وطيد بأن الإجراء يكون موافقاً للتقريرات المكتوبة، هذا ولا ريب في أن أركاننا نحن وأركان الأجانب سيزيد بواسطة حكمة الوزارة الحالية ودرايتها وبثباتها وحسن نواياها بالاستناد إلى اليد الشاهانية التي قد وقفت على حقيقة الأحوال، وكما أن من هبط درجة واحدة يهبط الثانية والثالثة بسهولة، بالاستمرار كذلك استمرار وزارتنا الكريمة، يسعفها في الصعود، فتتبع بتلك الإصلاحات إصلاح المحاكمات، وإفراز الدعاوي، وتسهيل أسباب الاستئناف وغيرها، ليكون مسير البلاد الأدبي موافقاً لمسيرها المادي عند فتح المعادن وإنشاء الطرق والمواني. وعندنا أن هذه الأمور ابتداء عصر جديد لدولتنا ولنا. وأن الإصلاح لا يتم دفعة واحدة، ولا سيما في بلاد ظروفها كظروفنا، غير أنهُ من الواجب أن لا يكون ذلك سبباً للتهاون لبعد الحصول على كل القصود، لأنهُ إذا لم نصبر على الزمان مجتهدين في سبيل الإصلاح لا ننال مآربنا إلى أن يشيب الغراب.

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب مجموعة من المقالات والدراسات لسليم البستاني (١٨٤٦ - ١٨٨٤)، أحد روّاد النهضة في لبنان والعالم العربيّ، الذي يدعو في افتتاحيات مجلته «الجِنان» (١٨٧٠ - ١٨٨٦) إلى الإصلاح والتحرر والوحدة والتآلف وترك التعصّب ونبذ التفرقة وإحياء اللغة العربيّة والحثّ على التعلّم وتحرير المرأة والتطور ومواكبة العصر...

«لقد كثر فينا الوعّاظ والمنذرون الذين ينبّهوننا إلى ما نحن فيه من الخطر وما قدامنا من الخراب والوبال ولكن ماذا ينفع الوعظ من دون عمل وماذا يفيد الإنذار إذا كنا كمن يضرب في حديد بارد أو لم يكن من يسمع فيبادر إلى معالجة ما بنا من الأدواء والأمراض المتنوعة التي كثير منها عضال واكثرها قد اختلفت عليه الاسباب».

كثير مما كان يطالب به، منذ حوالى قرن وربع القرن، لا نزال نطالب به اليوم. ما احوجنا إلى تحقيق ما يدعو إليه في هذا الكتاب. فهل نحن فاعلون؟